طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

سجلماسة وإقليمها

في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي

تأليف :

الأستاذ حسن حافظي علوي

1418 هـ - 1997م

سجلماسة وإقليمها

في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

سجلماسة وإقليمها

في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي

تأليف :

الأستاذ حسن حافظي علوي

1418 هـ - 1997م

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد المصطفى الأمين.

وبعد، فإن تاريخ منطقة إقليم سجلماسة يعتبر من أجل وأهم الموضوعات التاريخية الجديرة بالبحث والعناية، والإحاطة والتناول والدراسة، لاستجلاء العديد من الخصائص والمميزات الأساسية، والظواهر والمعطيات المحلية ذات الأبعاد المحورية في التوجيه والاستقطاب، بحكم ما كان لهذا الإقليم عبر تاريخه الإسلامي المشرق من إشعاع سياسي وازدهار اقتصادي، ودور طلائعي في ربط الاتصال والتواصل السياسي والفكري والتجاري والروحي بين بلاد المغرب الأقصى، وإفريقيا ما وراء الصحراء.

وإذا كانت الدراسات التاريخية التي أنجزت حول المنطقة السجلماسية القديمة قد ركزت اهتمامها على مراحل تأسيس وازدهار المدينة خلال المراحل الأولى للحكم الإسلامي بالمغرب، فإن مرحلة القرن ٨ هـ / ١٤ م لم تنل حظا وافرا من الاهتمام من قبل الدارسين والمهتمين.

وإبراز لأهمية هذا الموضوع الذي يعد بكرا في الدراسات التاريخية المنجزة حول الحاضرة السجلماسية القديمة، ولحاجته الملحة إلى الجمع والتقصي، والتوثيق والكشف عن جوانبه العلمية المتعددة. اهتدى الأستاذ الباحث حسن الحافظي العلوي إلى إعداد هذه الدراسة التاريخية الاجتماعية الجديدة في بابها، القيمة في موضوعها ومضامينها، والتي استوعبها في هذه الرسالة الجامعية، التي نال بها دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي، ووسمها بعنوان «سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي».

وانطلاقا من الرسالة الدينية والعلمية التي تضطلع بها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وفق التوجيهات الملكية السامية لأمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله.

يسعد هذه الوزارة أن تقوم بطبع هذا العمل العلمي الهام لتعميم الاستفادة من فوائده العلمية المتعددة، وجعله في متناول الدارسين والباحثين المتخصصين.

وتسأل الله عز وجل أن يجعله في سجل الأعمال الصالحة والمبرات الكريمة، والمآثر العلمية الخالدة لمولانا أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني دام له العز والتمكين، وأن يقر عين جلالته بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل سيدي محمد، وصنوه السعيد صاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي رشيد، ويحفظه في سائر أسرته الملكية الشريفة.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

الاختزالات Abréviations

م. س مصدر أو مرجع سابق.

خ. ع الخزانة العامة، الرباط.

A.E.S.C : Annales économies sociétés civilisations.

A.I.E.O : Annales de l'institut des études orientales.

A.M Archives marocaines.

B.E.M. Bulletin économique du Maroc.

B.S.G.A. : Bulletin de sociologie et de géographie d'Alger.

H. Hespéris.

H.T. : Hespéris-Tamuda.

N.M. : Notes marocaines.

R.A. Revue Africaine.

R.F. Revue fruit.

R.G.M. : Revue de géographie du Maroc.

R.H.E.S. : Revue de l'histoire économique et sociale.

R.H.T.E. : Revue homme terre eau.

R.O. : Revue de l'Orient.

توطئـــة

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين.

وبعد، فإن أحد أساتذتي أمد الله أيـامه على سعادة كاملة ونعمة شاملة إلتمس إلي طبع هـذا الكتاب، الـذي هو في الأصل رســالة جامعيـة نلت بها دبلوم الـدراسات العليـا في التاريخ من جـامعة سيـدي محمد بن عبـد الله بفاس سنة 1989، فلم أزل أتردد بين الإجابة والامتناع خوفا من الغوص في بحـر لا قعر لـه مع كثـرة الأشغال، ومـن قصوري عن إعـداده للنشر بما يتطلبـه ذلك من هـدم ما اعـوج من بنـائه وإعـادة ترتيب بعـض فصولـه ومباحثه والنظـر في استخلاصاته ونتـائجه. ثم أجبت إلى المطلوب وكلي أمل أن أوفق فيما عقـدت عليه العـزم من إعـادة النظر فيـه. لكنني استعجلتني أمـور ولم أتمكن من إعادة تصنيفـه على نحـو ما أردت، فلـو كان الـوقت يسمح لي بـذلك لأضفت إليه مـا اجتمع لي من المسائل المفيـدة بعد كتـابته ولضمنته من المعلومات ما يكون لفـائدته كالتكملة. غير أنني اقتصرت أمام ضيق الوقت على تهذيب لغته وتقويم وصقل أسلوبه وتصحيح ما لم يفتني من أخطائه، وإني لأعتذر لكل من قدر لهم أن يقرأوه على ما قد يجدون فيه من نقص أو خطأ فقد بذلت في مراجعته جهدي على قدر ما عندي، ولم أجد ما أختتم به هـذه التوطئة أحسن مما قـاله العماد الأصفهاني «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه، إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هـذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهـذا من أعظـم العبر، وهـو دليل على استيـلاء النقـص على جملـة البشر».

مراكش في 08 جمادى الثانية 1418 هـ / 10 نونبر 1997 م.

مقدمة

لعبت منطقة سجلماسة دورا متميزا في ربط الاتصال بين بلاد المغرب والسودان الغربي منذ فترة مبكرة من التاريخ. وعرف هذا الدور تزايدا مهما بعد تأسيس مدينة سجلماسة على يد قبيلة مكناسة في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي. ومنذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أولت الدولة المغربية الكبيرة اهتماما خاصا لمنطقة سجلماسة في مخططاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية. وهذا ما ساعد على استمرار إشعاع هذا الإقليم على المستوى الحضاري في كل فترات التاريخ الوسيط المغربي.

وإقليم سجلماسة بفعالية السياسية والاقتصادية والاجتماعية في تاريخ المغرب الوسيط تأثر إلى حد كبير بموقعه الجغرافي على باب الصحراء الكبرى، وهو ما أهله للإشراف على المبادلات التجارية مع السودان العربي طيلة فترة نشاط المسالك التجارية الغربية.

غير أن ذهب السودان وحده لا يكفي لتفسير الأسباب الكامنة وراء إزدهار مدينة سجلماسة في العصر الوسيط فإنتاج إقليمها من المواد الفلاحية يحظى في عملية المتاجرة بأولوية خاصة، لأن بعض المنتوجات التي اختصت هذه المنطقة بإنتاجها دون غيرها من المناطق المغربية، كالتمور والتَّاكَّوْتْ والحناء والنيلة، كانت تمثل سلعا رائجة بالداخل كما بالخارج، وساهمت في إنعاش قطاع التجارة بمدينة سجلماسة، ولم تجعل منها مجرد محطة على طريق تجار بلاد المغرب في رحلتهم نحو بلاد السودان.

وبناء على ذلك، فإن إشعاع سجلماسة وإزدهارها في العصر الوسيط كان نتيجة تفاعل عدة عوامل جغرافية واقتصادية وسياسية. وهو ما يؤكده الدور الطلائعي الذي لعبته المدينة وإقليمها في التجارة الصحراوية، والذي

استمر خلال ما يناهز ستة قرون فاصلة بين تاريخ تأسيسها وتاريخ انهيارها في مرحلة الضعف المريني.

ثم إن التراجع الذي شهدته هذه المنطقة لا يمكن أن يكون بدوره سوى نتيجة عوامل مركبة فعلت فعلها عبر الزمن واتضحت معالمها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حيث بدت سمات الضعف والتراجع واضحة في تاريخ الإقليم، ولم تعد فعاليته وإشعاعه على ما كانت عليه في السابق، فضلا عن خراب عاصمته سجلماسة خلال هذه الفترة في ظروف غامضة.

ولم يكن القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي سوى فترة تحولات جوهرية في تاريخ المغرب الأقصى. وسواء تعلق الأمر بأوضاع البلاد الداخلية أو علاقة المخزن المريني بالقوى المسيحية المهتمة بتطور الأوضاع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، أو بالقوى الإسلامية المجاورة بالمغربين الأوسط والأدنى، كانت مستجدات هذه المرحلة توحي بحدوث تغيرات مهمة ترتب عنها اختلال في ميزان القوى السياسية ببلاد المغرب، وتأرجح نفوذ دوله بين القوة والضعف تبعا لمراحل الإزدهار والتراجع لكل منها.

وقد تأثرت سجلماسة وإقليمها بتحولات هذه المرحلة، وظهرت بفعالية كبيرة على المستوى السياسي ولعبت دورا أساسيا في الصراع بين بني مرين بفاس وبني عبد الواد بتلمسان. كما أصبحت مقصد الخارجين عن نفوذ السلاطين من الأمراء المرنيين، كما هو الحال مع أبي علي عمر وخلفائه من بعده. فضلا عن المتاعب التي سببتها جموع عرب المعقل من ذوي منصور المستقرين بمجالاتها للسلاطين المرينيين نتيجة انتفاضاتهم المتكررة واعتراضهم للقوافل التجارية في رحلتها من السودان الغربي إلى العاصمة فاس.

إنه خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بالذات عرف إقليم سجلماسة أحداثا جساما على مستويات متعددة. وكان من نتائج ذلك خراب عاصمته وانتقال سكانها إلى القصور الكبرى المحصنة.

وارتبط ذلك على حسب ما نعتقد بمستجدات الظروف المحلية من جهة وأوضاع المغرب الأقصى الداخلية من جهة ثانية، دون أن ننسى العوامل الخارجية بما فيها انحراف طرق التجارة نحو مصر والمناطق الواقعة إلى الشرق من المغرب الأقصى، وظهور مراكز تجارية جديدة استفادت في حدود معينة من تخريب مدينة سجلماسة واضطلعت بالمهام التي كانت من اختصاصها في السابق. ويتعلق الأمر بمدن السوس التي استقطبت تجار المغرب الأقصى وجلبتهم إليها رغم ضعف فرص الرواج التجاري بين المغاربة والسودانيين عموما في أواخر العصر الوسيط.

في إطار هذا التركيب المتعدد الجوانب تظهر أهمية موضوع دراستنا ومبررات اختيارنا له، كما أن غياب دراسات متخصصة فيه شجعنا على المضي في استقصاء أخباره رغم قلة مادته المصدرية وغموض بعض جوانبه وقضاياه التاريخية، لدرجة يصعب معها أحيانا إصدار حكم معين حول الظاهرة التاريخية كما هو الحال في موضوع تخريب مدينة سجلماسة واختفائها كلية من الخريطة الحضرية للمغرب الأقصى.

فقد اهتمت الدراسات التي أنجزت في تاريخ سجلماسة بالمراحل السابقة للفترة الزمنية التي اخترناها لموضوعنا، ويأتي على رأسها تلك التي قام بها الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق حول تاريخ إمارة الخوارج الصفرية بسجلماسة وعلاقتها بالأمويين والأدارسة والرستميين. ودراسة الأستاذ محمد الملوكي التي غطت تاريخ سجلماسة إلى حدود نهاية فترة الحكم الموحدي، وحاولت جهد الإمكان إماطة اللثام عن التطورات التي عرفتها المنطقة، رغم الامتداد الزمني الطويل الذي اختاره صاحبها لموضوع دراسته.

وإذا كانت الأقلام العربية قد أغفلت تاريخ إقليم سجلماسة خلال المرحلة السابقة والمعنية بالدراسة، فإن اهتماما نوعيا بهذا الموضوع قد ظهر عند الأجانب منذ بداية هذا القرن، غير أنه لم يصل لدرجة تخصيص دراسة متسوفية له، فلم يتعد ذلك بدوره طرق بعض جوانبه في فصل من مؤلف أو مقال في المجلات والدوريات، وعلى رأسها مجلة Hesperis.

ولا يمكن فهم النقص الحاصل الذي تعرفه الخزانة في مجال الدراسات المتخصصة في تاريخ سجلماسة بمعزل عن النقص المقابل له في مجال المادة المصدرية. لأنه في بعض الأحيان تندر المادة التاريخية أو تنعدم تماما، كما هو الحال في الأخبار السياسية الخاصة بالمنطقة المعنية بالدراسة، أو المعلومات المتصلة بإنتاجها الفلاحي في مرحلة من المراحل الزمنية.

وكل ما وصلنا من إشارات عن تاريخ هذه المنطقة في العصر الوسيط متفرق ومنتثر وسط المصادر الأدبية على اختلافها، التي قد تخصص صفحة أو صفحتين لسجلماسة أو تكتفي بذكر اسمها فقط في معرض حديثها عن أوضاع المغرب الأقصى ككل. وإذا كان لذلك من سبب فإنما لكون إقليم سجلماسة ارتبط تاريخه بتاريخ الدولة المغربية الأم، فضلا عن غياب تواريخ محلية تهتم بأخباره، نتيجة عدم وجودها نهائيا أو نتيجة عبث الزمان بها.

تبقى إذن المصادر الأدبية هي مقصدنا الرئيسي في استيقاء معلوماتنا عن سجلماسة، وفي مقدمتها كتب الرحلات والمعاجم الجغرافية وكتب التاريخ العام وكتب التراجم وكتب النوازل إضافة إلى أعمال المتأخرين بما فيها المقالات والدراسات والمراجع. وكل ذلك وإن قلت مادته بإمكانه أن يفك غموض بعض جوانب هذا البحث ويساهم في بنائه العام.

وقد تم تقسيم موضوع الدراسة إلى خمسة فصول

– خصصت الفصل الأول منها للحديث عن الوسط الطبيعي لسجلماسة. وحددت مجال الموضوع في المكان قصد توضيح الحدود الطبيعية للإقليم والعلاقة التي كانت للمدينة بمجالها القروي. وركزت على وصف الوحدات التضاريسية في علاقتها مع مختلف الأنشطة الاقتصادية للمنطقة، بما في ذلك إتجاه المسالك التجارية والنشاط الرعوي والزراعي. كما رصدت المؤهلات التي ساعدت على ازدهار النشاط الزراعي بسجلماسة بما فيها مصادر المياه وتقنيات الري والتربة والغطاء النباتي، بهدف تفسير ما ذكرته المصادر القديمة عن ارتفاع مردود الإنتاج الزراعي بهذه المناطق في العصر الوسيط.

- وخصصت الفصل الثاني للسكن والسكان بسجلماسة وإقليمها وناقشت المعلومات المصدرية المتصلة بتأسيس المدينة وخططها. كما وصفت خصائص السكن القروي بالإقليم، ودور القصور في مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية. أما فيما يخص سكان سجلماسة فحاولت رصد التطور الذي لحق تعمير هذه المنطقة، وعلاقة مختلف القبائل التي احتكت بهذا المجال بمختلف التطورات الاجتماعية والسياسية.

- وخصصت الفصل الثالث للتطورات السياسية لسجلماسة وإقليمها في المرحلة المعنية بالدراسة وقسمته إلى مبحثين

* انصب الاهتمام في المبحث الأول على أوضاع سجلماسة السياسية في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، على اعتبار أن ما شهدته المنطقة خلال هذه الفترة هو الذي أثر على توجه تاريخها في المرحلة اللاحقة أي في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وتم التركيز على ما عرفته سجلماسة من محاولات استقلال في مرحلة الضعف الموحدي ودورها في الصراع المريني العبد الوادي.

* في حين خصص المبحث الثاني لاستقلال أبي علي عمر بسجلماسة وتوسعاته في المناطق الجنوبية التي جعلت من سجلماسة عاصمة لملكة مرينية بالجنوب المغربي. إضافة إلى محاولة أبنائه الاستقلال بها في مرحلة الضعف المريني مباشرة بعد موت أبي عنان فارس، حيث شهدت هذه المدينة قيام إمارات بزعامة أبناء أبي علي عمر كعبد الحليم وعبد المؤمن ومحمد بن عبد الحليم. وركزت على دور عرب المعقل في الحياة السياسية للمنطقة وانعكاس تحكمهم الفعلي في مجالاتها على تطور الأوضاع بها.

- وخصصت الفصل الرابع للنشاط الاقتصادي بسجلماسة وقسمته أيضا إلى مبحثين

* أولهما تناولت فيه بالدراسة النشاط الفلاحي بالمنطقة. وركزت على دور المنتوجات الفلاحية في إنعاش اقتصاد الإقليم، لأن أغلبها شكل سلعة رواج تجاري بالداخل، أي في أسواق المغرب الأقصى، كما بالخارج، أي في أسواق بلاد السودان وأوربا. كما تم الاهتمام في هذا المبحث بالنشاط

الرعوي ودوره في توفير حاجات سجلماسة من المنتوجات الحيوانية كاللحوم والأصواف، ودوره في توفير بعض لوازم العمل التجاري خاصة وسائل التنقل.

* وثانيهما خصصته للنشاط التجاري بسجلماسة وتتبعت فيه اتجاه الطرق والمسالك الرابطة بينها وبين بلاد السودان، وبينها وبين المدن المغربية. كما تم الاهتمام بدور المدينة في المبادلات التجارية وتنظيم حركة القوافل، وسلع التبادل التجاري، بما فيها سلع مدينة سجلماسة وسلع بلاد المغرب عامة التي تم نقلها إلى بلاد السودان، وسلع هذه الأخيرة التي تم جلبها إلى المغرب، فضلا عن سلع المبادلات بين المغرب وأوربا.

– وخصصت الفصل الخامس والأخير لتراجع دور سجلماسة وإقليمها في النشاط الاقتصادي للمغرب الأقصى. وحاولت تفسير أسباب ذلك بناء على الأوضاع المحلية والخارجية التي أتت على تخريب مدينة سجلماسة وأنهت فعاليتها في ربط الاتصال بين المغرب والسودان الغربي. وركزت على المراحل التطورية لاقتصاد المدينة بهدف فهم التراجع التدريجي الذي أدى إلى اختفائها في أواخر العصر الوسيط. كما حصرت العوامل الخارجية التي زكت مسلسل الضعف في انفتاح مملكة مالي على الشرق وانحراف الطرق التجارية نحو المغرب الأوسط والأدنى ومصر، وظهور مراكز جديدة بديلة بالمغرب الأقصى، وهي العوامل التي ساهمت في تحجيم دور سجلماسة وإقليمها وأبعدت القوافل التجارية عن اختراق مجالاتها. وأخيرا ناقشت الآراء الخاصة بموضوع تخريب مدينة سجلماسة. ثم اختتمت هذا البحث بالنتائج التي تم التوصل إليها.

وقد اعتمدت مجموعة من المصادر والدراسات والمراجع في إنجاز هذا البحث صنفتها حسب أولويتها على الشكل التالي

أ – كتب الرحلات والجغرافيا :

وهي أغنى ما يمكن الاعتماد عليه في جمع معلومات موضوع كهذا، لأن التاريخ المونوغرافي لا يجد مادته الغزيرة إلا في مثل هذا الصنف الأدبي،

خصوصا إذ تعلق الأمر بغياب كتابات وتواريخ محلية كما هو الحال في تاريخ سجلماسة. وقد مكنتنا هذه الكتب من معرفة خصائص المرحلة المعنية بالدراسة، وتقويمها تقويما معقولا انبنى على ما كان سائدا بالمنطقة في مراحل سابقة ولاحقة لها.

وقد أفادنا وصف الجغرافيين في فهم العلاقة التي جمعت بين مدينة سجلماسة ومجالها القروي من جهة، والمدن المغربية وبلاد السودان الغربي من جهة ثانية. وبما أن المسالك التجارية قد عرفت استقرارا في اتجاهها منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فإن ما تم استغلاله من المعلومات في هذا الموضوع تم جمعه من مختلف كتب الرحلات والجغرافيا التي عاش أصحابها قبل التاريخ المشار إليه أعلاه، كابن خردادبة والمقدسي واليعقوبي وابن حوقل والبكري دون إهمال ما جاء به من نقل عنهم كالإدريسي وصاحب الاستبصار وابن سعيد المغربي.

ولا تقدم أغلب كتب الجغرافيا التي تم تأليفها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي مادة مهمة عن سجلماسة وإقليمها، باستثناء ما جاء في كتاب رحلة ابن بطوطة والمعلومات القيمة التي جاء بها ابن فضل الله العمري. ودليل ما ذهبنا إليه أن ابن عبد المنعم الحميري اكتفى بنقل معلوماته عن كل من البكري وصاحب الاستبصار.

وقد تعاملنا بحذر مع المعلومات التي أعيد ذكرها من طرف كتاب القرن الثامن الهجري نقلا عن ابن حوقل والبكري في محاولة لاستغلالها في إطار سليم، لأن بعضها لا يتطابق مع ما كانت تعرفه مجالات سجلماسة في القرن الثامن الهجري، خاصة ما يتعلق بالمعطيات المناخية والإنتاج الفلاحي فضلا عن المعلومات الخاصة بالسكان.

وهناك بعض المصادر الجغرافية المتأخرة التي تكتسي أهمية خاصة بالنسبة لموضوع دراستنا. ويأتي على رأسها كتاب الحسن الوزان الذي بدونه تصعب معرفة ما حدث بإقليم سجلماسة في مرحلة الضعف المريني. وكتاب مارمول رغم تشابه ما جاء فيه مع ما جاء عند الوزان، وكذلك كتاب الترجمانة لأبي القاسم الزياني ورحلة أبي سالم العياشي.

ب - **كتب التاريخ العام :**

إن كتب التـاريخ العام هي الصنف الأدبي الثـاني الذي يحظى بأهميـة بالغة في مصادر هذا البحث. ويرجع السبب في ذلك إلى أن تاريخ سجلماسة مطمور في التأريخ للدولـة المغربية الأم، كما هو الشأن بـالنسبة لتاريخ كل أقـاليم البـلاد مع العلم أن هـذه المنطقة كـانت تستقطب اهتمام السـلاطين نتيجة أولويتها في التجارة الصحراوية.

ونعرف أن العصر المريني شهد وفرة في مجال التأليف التاريخي لدرجة يمكن القول معهـا أن أغلب ما وصلنا عن تاريخ المغـرب في العصر الوسيط إنما كان عبر تلك الحركة الواسعة من التأليف التي شهدتها تلك الفترة. ولا يعني ذلك أن أخبار العصر المريني قـد وصلتنا بشكل دقيق يسمح بكتـابة جميع قضايـاه التاريخية بنـوع من التفصيل بل يمكن الاكتفاء بـالقول أن هـذه المرحلـة أكثـر حظـا من المراحـل السـابقـة لها من حيث وفـرة المادة التاريخية.

يجد موضـوع دراستنا معلـومات لابأس بها في تـواريخ العصر المريني تكثر أو تقل تبعا لدور سجلماسة في تطور الأحداث السياسية ببلاد المغرب في القرنين السابع والثامن الهجريين. لأن مشـاركة المدينة في أحداث المرحلة كانت تلفت انتباه المؤرخين فيدونون أخبارها.

يمثل كتاب البيـان المغرب في أخبار الأنـدلس والمغرب حلقـة رئيسية في مجال التأليف التـاريخي المغربي. فهـو أول كتـاب في التاريخ العـام يغطي تاريخ بلاد المغرب في العصر الوسيط إلى نهاية حكم الموحدين. أورد فيه ابن عـذاري مادة بـالغـة القيمـة بالنسبـة لموضـوع دراستنـا، فجاءت أخبـار سجلماسة في هـذا المصدر متسلسلـة في مرحلـة الضعف الموحدي وبـداية العهد المرينين، لأن صاحبه عايش تلك الأحداث عن قرب.

وبعد نجاح القبائل المرينية في القضـاء على الموحدين ظهرت بوادر يقظة فكـرية عم إشعـاعهـا جميع المجـالات، ونال التأليـف التاريخي حصتـه في ازدهار الفنـون الأدبية. وألفت كتب في التاريخ واكبت تطـور النفوذ المريني، وارتبط أصحابها بسـلاطين المغرب الجدد بروابط الـولاء فسجلوا أمجادهم

وبطولاتهم، وأعرضوا أحيانا عن كل ما يسيء إلى سمعتهم وقوتهم كما هو الحال في إغفال ذكر تفاصيل ثورات الأقاليم أو ثورات أمراء البيت الحاكم.

ونموذج هذه الكتابات التي بالغت في تسجيل أمجاد بني مرين كتاب الذخيرة السنية لمؤلف مجهول وكتاب القرطاس لابن أبي زرع الذي لم يدون أخبار سجلماسة في عهد أبي علي عمر رغم معاصرته لها لأن ارتباطه بخدمة السلطان أبي سعيد عثمان منعه من تسجيل تفاصيل ثورة ابنه عليه.

ويمثل كتاب العبر مصدرا مهما في معرفة أوضاع بلاد المغرب في المرحلة المعنية بالدراسة. وقد أفادنا كثيرا في تتبع أخبار عرب المعقل ومشاركتهم في أحداث المغرب السياسية في مرحلة قوة بني مرين وفي مرحلة ضعفهم، وعلاقة كل ذلك بتطور أوضاع سجلماسة السياسية والاجتماعية في القرنين السابع والثامن الهجريين.

وقد استفدنا أيضا من كتابات المؤرخين الزيانيين خاصة كتاب بغية الرواد ليحيى بن خلدون وكتاب نظم الدر والعقيان للتنسي. وهذه المؤلفات تعكس وجهة نظر مخالفة لما هو متداول في المصادر المرينية حول الصراع المريني العبد الوادي من أجل السيادة ببلاد المغرب والسيطرة على المحاور التجارية والمحطات الرئيسية فيها خاصة سجلماسة.

ج - كتب السير والتراجم

إن لهذا النوع من الكتب قيمة فريدة في دراسة المجتمعات وحضارتها. فالدارس لا يمكنه الاستغناء عن المعلومات التي توفرها كتب السير والتراجم حول الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، فضلا عن دور التراجم في ضبط الإطار الزمني للأعلام. وهو ما يساعد على استغلال ما ورد في مؤلفاتهم استغلالا علميا يأخذ بعين الاعتبار المناخ العام الذي تحكم في أفكارهم ووجهها.

ومن كتب السير التي توفر معلومات قيمة عن سجلماسة في القرن الثامن الهجري كتاب المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق الخطيب الذي

يسلط الأضواء على كيفية تسيير المخزن المريني للأقاليم المغربية في عهد أبي الحسن المريني، ويفيد في معرفة مقادير الجباية وأنواع الضرائب كما هو الحال بالنسبة لسجلماسة.

ولكتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك لأبي حمو موسى الثاني أهمية خاصة في معرفة العلاقة بين الزيانيين والمرينيين في القرن الثامن الهجري، لأن صاحبه كان من سلاطين بني عبد الواد وسجل في كتابه الخطوط العريضة للسياسة التي كان على خلفائه اتباعها من أجل الحفاظ على ملك أسلافهم أمام الضغط المتوالي للجيوش المرينية على العاصمة الزيانية تلمسان. ويفيد هذا الكتاب أيضا في توفير معلومات قيمة عن أسباب خلاف مؤلفه مع بني مرين والمتمثل في استمالته لعرب ذوي منصور سكان سجلماسة وموقف سلاطين فاس من ذلك.

وإذا كان ابن الأحمر قد خصص كتابه روضة النسرين لتراجم ملوك وأمراء بني مرين وجاء كتابه خال من المعلومات الكثيرة عن أخبار سجلماسة، فإن التراجم التي خصصها لملوك تلمسان تفيد موضوع دراستنا في رصد بعض جوانب الصراع المريني العبد الوادي.

ومكننا كتاب الإحاطة لابن الخطيب من معلومات مهمة عن أوضاع سجلماسة في عهد أبي سعيد عثمان وحفيده أبي عنان فارس. كما احتفظ لنا هذا الكتاب بنص بالغ الأهمية عن النشاط التجاري بسجلماسة، في القرن 8 هـ / 14 م ويتعلق الأمر بشركة المقريين.

وتوفر كتب التراجم المتأخرة عن الفترة المعنية بالدراسة معلومات مهمة يكمل بعضها بعضا حول الشخصيات التي تعاقبت على تسيير الشؤون السياسية لسجلماسة أو التي اشتهرت بمشاركتها الفكرية في هذه المناطق. ومن هذه الكتب مؤلفات ابن القاضي المكناسي وكتاب نفح الطيب للمقري إضافة إلى الإعلام للعباس بن إبراهيم وكتاب الأعلام للزركلي.

د – **كتب الفلاحة :**

أفادتنـا كتب الفلاحة العـربية في معرفـة خصائص أنواع التربـة وكيفية العمل الزراعي فيها. خاصة وأن أراضي سجلماسـة كانت من نوع ما يعرف عند علماء الفلاحة العرب بالأرض السبخة. وقد استفدنا بخصوص ذلك من ابن العوام وابن حجاج الأندلسي وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأوسي.

كما تقدم هـذه الكتب معلومات جيـدة عن بعض النباتات والمغـروسات التي كان معمولا بزراعتها في منطقـة سجلماسة في العصر الوسيط، كما هو الحال بالنسبة لنبات الحناء والنيلة.

وقد أفادنا السجستـاني في كتابه النخلة بمعلومات حول طـريقة غراسة شجـرة النخيل ومـا تحتـاجـه من عمل إلى حين جني محصـولها. وتكتسي معلوماتـه أهمية خاصة بالنسبـة لموضوع دراستنا نظرا للـدور الذي كانت تلعبه هذه الشجرة في حياة سكان الواحات بما وفرته من غذاء وأرباح.

هـ – **كتب النوازل**

استفدنا من بعضها لما له من علاقة مباشرة بموضوع الدراسة، ويتعلق الأمر بنوازل ابن هلال السجلماسي مفتي تافيلالت في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميـلادي. وكتاب الدر النثير على أجـوبة أبي الحسن الصغير لنفس المؤلف، نظرا لما فيه من فتاوي أهالي المغرب الأقصى في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

و – **المراجع الحديثة**

إن المراجع والدراسات الحديثة التي اهتمـت بتاريخ سجلماسة في مراحل مختلفة لا تتعدى بعض الأعمال المعدودة، وهي على العمـوم مؤلفات تناولت بعض الجوانب المهمة من هذا التاريخ دون أن تخصص له عملا قائما بذاته باستثناء دراسة محمد الملوكي حول سجلماسـة.

وقـد تمت الاستفـادة من كل المراجع والـدراسـات التي اهتمت بتـاريخ المغرب المريني، لأن فيهـا نوع من الاهتمام بمنطقة سجلماسـة، سواء تعلق

الأمـر بـدورهـا في النشـاط الاقتصادي أو مشـاركتهـا في أحـداث المغـرب السياسية خلال هذه المرحلة. ومن الأعمال المهمة نذكر كتاب الأستاذ محمد القبلي Société pouvoir et religion... وكتاب محمـد الخنـبوبي Les premiers Sultans Merinides وكتـاب Le Maroc Saharie D.J. Meunié كما استفدنـا أيضا من عمل Les arabes en berbèrie G. Marçais وكتاب L'Espagne Catalane et le CH. E. Dufourcq Maghreb وكتابـات Gautier في مؤلفـاتـه Le Sahara و Le passé de l'Afrique وكتـاب Le Maroc dans les premières années du XVI siècle L. Massignon وهذه المؤلفات تفيد في معرفة مختلف الآراء المتصلة بالتاريخ المريني ومن خلالها الآراء المتصلة بتاريخ سجلماسة، بـاعتبارها أحد المناطق الـرئيسية التي اهتم بها المخزن المريني في إطار اهتمامه بالمحاور التجارية.

كما استفـدنـا من أعمال Latria Mas و R. Mauny خير مـا استفـادة فكتاباتهما تكتسي أهمية خاصة في فهم عـلاقة المغرب المريني بأوربا وبلاد السـودان، وتوفـر مـادة مهمة عن المعـاهـدات التجـارية وسلع المبـادلات والمسالك الصحراوية التي تم عبرها ربط الاتصال مع المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

غير أن أهم ما كتب حول تاريخ سجلماسة من قبل الدارسين كان عبارة عن مقـالات عديدة تـم نشرها في المجلات والـدوريات. وهـي مقـالات تهتم بجـوانب متعـددة من تـاريخ المنطقـة المعنيـة بالـدراسـة نسـوقهـا حسب موضوعاتها على الشكل التالي

- مقالات اهتمت بالنشاط الاقتصادي لمدينة سجلماسة وعلاقتها بالمدن المغربيـة وبلاد السـودان وأهمها مـا كتبه J.M. Lessard و Govin. G. و L'Abrés و Bargés و Henri Pérés و Jacques Heers و Claudette Vanacker و Jean Devisse.

- مقــالات في موضــوع مشكــل الميـاه بمناطــق تافيلالـت وتقنيـات الـري والتربـة والإمكانيـــات المتصلـة بالنشـــاط الفـلاحي ونذكـر منهـا أعمـال Mohamed Elfaiz و Bassac و J. C. Fortin و Louis Clariand و C. P. Jouannet وJ. Margat و G.S Colin.

- مقـالات اهتمت بـالسكن القـروي بمناطق سـجلماسـة وعلى رأسـهـا كتابات D.J. Meunié و J. Margat.

- مقـالات حـول موضوعـات مختلفـة في تـاريخ المناطق الصـحـراوية عامة بما فيها سجلماسة ونذكر منها كتابات D.J. Meunié و Delachapelle و P.F. Gendre و Bassac.

- مقالات حول جيـولوجية موضع مدينة سجلماسـة وبقايا الهدم بها، والمواقـع القديمـة بمجالاتـها ونذكر من بينـها أعمال J. Margat و Henre Terrasse و Jacques Meunié et Charles Allain.

الفصل الأول :

الوسط الطبيعي لسجلماسة وإقليمها

1 – سجلماسة في المجال :

تطلق كلمة سجلماسة على مجال جغرافي واسع وهي كنفيس ودرعة تحمل معنا مزدوجا لأنها إسم لمدينة ولمحيطها القروي. وهذا ما سبب في اختلاط وتداخل أخبار هذه المناطق في روايات المؤرخين والجغرافيين العرب.

ومدلول كلمة سجلماسة في المجال غير ثابت لأنه كان يتسع ليشمل مناطق بعيدة عن المدينة التي تحمل نفس الاسم، ثم يتقلص ليقتصر على مساحات غير بعيدة عنها تبعا للتطورات السياسية التي شهدتها المنطقة في مختلف مراحل تاريخها. فسجلماسة في فترة حكم المدراريين تدل على إمارة واسعة امتد نفوذها غربا حتى مناطق درعة، ثم عرفت هذه الإمارة اتساعا كبيرا في عهد المغراويين الذين بسطوا نفوذهم على مناطق قريبة من فاس، ثم أصبحت فيما بعد ولاية تابعة لمختلف الدول المغربية الكبيرة كالمرابطين والموحدين والمرينيين.

وقد أصبحت سجلماسة في العهد المريني قاعدة لإمارة شمل نفوذها كل المناطق الجنوبية للمغرب الأقصى بعد أن استقل بها أبو علي عمر وكون جيشا من عرب المعقل افتتح به معاقل الصحراء والسوس ومراكش. وإن هذا التغيير الذي عرفه مدلول الكلمة في المجال هو الذي يستدعي ضرورة التمييز بين سجلماسة «الإقليم» الخاضع لنفوذ السلطة المركزية لمختلف الدول المغربية بفاس أو مراكش، وسجلماسة في فترة استقلالها عن هذه العواصم.

تندرج سجلماسة فيما تسميه المصادر بـ«بلاد القبلة»، وهو اصطلاح عام يشمل منطقتي درعة وسجلماسة وبلاد الصحراء. غير أن تشابه

التطورات التاريخية على أكثر من مستوى بهذه المناطق جعل أخبارها مبهمة ومتداخلة لدرجة يصعب معها التمييز أحيانا بين الخاص بسجلماسة والخاص بدرعة والخاص بما يقع إلى الجنوب منهما. ومثال ذلك أخبار أولاد حسين من عرب المعقل الذين كانت لهم الغلبة والنفوذ بالمنطقتين معا، فضلا عن أن بلاد القبلة كانت تمثل منطقة جبائية واحدة في العهد المريني. لكن كل هذا لا يعني أن هذه المناطق كانت تمثل إقليما واحدا في كل الفترات التاريخية.

ويطلق لفظ إقليم على سجلماسة في بعض مصادر التاريخ المغربي(1) كما يطلق عليه لفظ ولاية. قال ابن سعيد المغربي «وفي شرقي درعة مدينة سجلماسة وهي قاعدة ولاية مشهورة حيث الطول ثلاث عشرة درجة وإثنان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة».(2) ومعروف أن مفهوم الولاية أوسع وأشمل من مفهوم الإقليم. فهل يتعلق الأمر هنا باتساع مجالات نفوذ سجلماسة على حساب المناطق المجاورة زمان ابن سعيد ؟ على المستوى السياسي كانت سجلماسة في المرحلة التي عاش فيها هذا المؤلف مستقلة عن مراكش عاصمة الموحدين. ولم تنجح جهود المرينيين في الاستيلاء عليها إلا في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، بعد أن كانت تابعة للزيانيين بتلمسان نتيجة تحالفهم مع عرب المنبات المستقرين بها، وعلى هذا يمكن أن يكون لفظ الولاية الذي أطلقه ابن سعيد على سجلماسة مرتبط بهذه التطورات السياسية.

إن سجلماسة حسب الجغرافيين العرب تضم الواحات الممتدة على طول وادي زيز. قال ابن سعيد «وإليها خمسة أيام في العمائر والخيرات ثم ينصب نهر زيز في نهر ملوية الذي ينصب في بحر الرومان»(3) وقد جعل

1) المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1909، ص 215 والحسن الوزان وصف افريقيا، الرباط، 1980. جـ 2. ص 120.

2) ابن سعيد المغربي كتاب الجغرافيا، بيروت. 1970 / ص 124.

3) نفسه : ص 124.

المؤلف هنا مصب وادي زيز في بحر الروم إلى جانب مصب وادي ملوية في حين أن هذا الوادي يضيع في الصحراء. ولا يتنافى كلام ابن سعيد مع ما جاء عند ياقوت الحموي الذي جعل المسافة بين فاس وسجلماسة عشرة أيام تلقاء الجنوب.(4) فتكون المسافة التي ذكرها ابن سعيد تنطبق على المساحة التي يمتد عليها إقليم سجلماسة من حدوده الشمالية عند خط تقسيم المياه بين وادي زيز ووادي ملوية إلى تخوم الصحراء الواقعة إلى الجنوب من مدينة سجلماسة، دون ذكر للمسافة الفاصلة بين حدود الإقليم الشمالية ومدينة فاس.

وذكر الحسن الوزان أن «سجلماسة إقليم يستمد إسمه من المدينة الرئيسية فيه ويمتد على طول وادي زيز يبتدىء من الخنك من المضيق القريب من مدينة غارسلوان ونزولا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا».(5) وعليه، فإن امتداد إقليم سجلماسة من الشمال إلى الجنوب يناهز مائتي كلم، غير أن الدراسات الحديثة لا تتفق على هذا الرقم. فقد حدد أحدهم مساحة الإقليم في مائة وخمسين كلم من الشرق إلى الغرب ومائة كلم من الشمال إلى الجنوب.(6) أما جان دفيس J. Devisse فاعتمد رواية ابن حوقل التي تقول أن إقليم سجلماسة يمتد على مسيرة خمسة أيام على ثلاثة. فاستنتج أن طوله يبلغ مائة وخمسين كلم من الشمال إلى الجنوب وأن عرضه مائة كلم من الغرب إلى الشرق.(7)

ولا يمكن تحديد المسافة التي كان يمتد عليها إقليم سجلماسة في العصر الوسيط اعتمادا على رواية الوزان والذين سبقوه من الجغرافيين العرب، لأن اهتمام هؤلاء اقتصر فقط على المناطق الشمالية لمدينة سجلماسة دون المناطق الواقعة إلى الجنوب أو الشرق والغرب منها على اعتبار أنها من

---

4) ياقوت الحموي معجم البلدان، المجلد 3، بيروت، 1975، ص 192.

5) الحسن الوزان، م. س. جـ 2، ص 120.

6) B. Rosemberger, les veilles exploitations minières et les centres métallurgiques du Maroc essai de carte historique, 1 ere partie. R.G.M N° 17, 1970 p. 87.

7) J. Devisse, Sijilmassa Les sources écrites l'archeologie, les controles des éspaces, cologue d'Erfoud, Italie, 1986, p : 22.

مجالات الصحـراء. فقد ذكـر البكـري أن سجلماسة ليس في قبليهـا ولا في غربيها عمران،(8) وذكـر محمـد بن إبـراهيـم بن يحيى الأنصــاري الكتبي المعروف بـ«وطواط» والمتوفى سنة 718هـ / 1318م أنه خارج سجلماسة في اتجاه الجنوب لا وجود لأي مكان مسكون.(9)

وإذا كـانت حدود إقليم سجلماســة من جهـة الجنوب غير واضحـة ولا محددة فإن حدوده الشمالية تبتـدىء بمنابع وادي زيز أي من خط تقسيم المياه بين حوض هذا الوادي وحوض وادي ملوية عند ممر تيزي ن تالغمت الذي يعني ممر الناقة. وتفيد تسمية هذا المكان في فهم الارتباط الوثيق لهذه المناطق بـأشكال الحياة في البيئـة الصحراويـة. لأنه يحتمل أن تكـون هذه التسمية قـد أطلقت عليه من طرف قبائل الـرحل التي كانت تمر به ذهـابا وإيابا في رحلـة انتجاعها من الجنوب إلى الشمال كما هـو الشأن مع قبائل صنهاجـة. كما يمكن أن تكون قد ارتبطت بـالوظيفة التي كان يلعبهـا هذا الممر في تسهيل عبور القـوافل التجارية المتجهة من سجلماســة نحو مناطق الشمال،(10) خاصة وأن الجمل كان الـوسيلة الأكثر استعمالا في عملية نقل البضائع من مناطق الواحات إلى غيرها من المناطق.

وحسب روايـة الوزان المشــار إليهـا أعلاه فإن الحدود الشماليــة لإقليم سجلماســة تبتدىء من مـدينـة غـارسلوان أو كَــرسلوين.(11) التي هــي «أقرسلوين» عند ابن الخطيب الـذي قال «قلت فما تقول في أقرسلوين؟ قــال واد عجيب، وبلد لـداعي الإيناع مجيب، مخضر الـوهاد، كثير شجـر الجوز والزيتون، كنفته الجبال الشم، وحنا عليه الطود كما تحنو على ولدها الأم، فهوائها ملائم، والعنب على الفصول دائم... فجـوه عديم الطلاوة وعنبه للبرد قليـل الحلاوة...».(12) وقـد ذكـر محقق كتاب «معيـار الاختيـار» أن

8) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس، 1965. ص 148.

9) E. Fagnan : extraitsinedits relatifs au Maghreb, géographie et histoire, Alger, 1924 p 54.

10) انظر الخريطة رقم 1. الخاصة بالوحدات التضاريسية لإقليم سجلماسة.

11) أورد الحســن الوزان اسم هذه المدينـة مرة بغارسلوان. ج 2. ص 122. وأخرى بغرسلوين. جـ 1. ص 254.

12) ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، فضالة، 1976 ص 179.

أقرسلوين يحتمل أن يكون المراد بها قصبة سلوان حيث تقطن قبائل «بني يطفتي» بالريف شمال المغرب.(13)

غير أن وصف ابن الخطيب لأقرسلوين يوحي بأن المقصود بها مدينة «كَرسلوين» التي ذكرها الوزان بأعلى وادي زيز. فقول ابن الخطيب في وصفها «واد عجيب» يدل على أنها كانت قائمة على ضفاف نهر محاط بجبال عالية هي جبال درن، كما أن القول بوجود شجر الجوز والزيتون والعنب بهذه المدينة في العصر الوسيط تؤكده كثرة هذا النوع من الأشجار بالمنطقة التي تحمل اليوم اسم «الكَرس». وهي قصور كثيرة جنوب مدينة الريش الحالية كما هو مثبت في الخريطة الخاصة بالوحدات التضاريسية لإقليم سجلماسة.(14)

ولا نعلم مكان مدينة كَرسلوين اليوم، غير أن وصف الوزان يشير إلى أنها كانت قائمة بالقرب من منابع وادي زيز شمال مضيق الخنك، وهذه المنطقة مؤهلة لأن تبنى بها مدينة تكون بمثابة محطة استراحة للقوافل التجارية الذاهبة من سجلماسة في اتجاه فاس أو البحر الأبيض المتوسط، خاصة وأن الأجزاء الشمالية لمنطقة الكَرس لا يفصلها عن ممر تيزي ن تالغمت سوى مرحلة واحدة.

إن بناء مدينة كَرسلوين كان الهدف منه على ما يظهر هو مراقبة الطرق التجارية الرابطة بين سجلماسة ومناطق شمال المغرب. فالقوافل التجارية كانت تتبع مجرى وادي زيز على امتداده في إقليم سجلماسة من الشمال إلى الجنوب، غير أنها بعد خروجها من منطقة مدغرة تضطر إلى اختراق مضيق ضيق وسط جبال مرتفعة هو مضيق الخنك، ولا يوجد لمكان ملائم للاستراحة بعده إلا في منطقة الكَرس التي تم فيها بناء مدينة كَرسلوين على مشارف الحدود الشمالية لإقليم سجلماسة، بهدف توفير لوازم السفر للقوافل قبل عبورها مضايق جبال درن الموصلة إلى مجال مملكة فاس الذي حدده الوزان بقوله «تبتدىء مملكة فاس من نهر أم

13) نفسه هامش. ص 179.

14) انظر الخريطة رقم I.

الربيع غربا لتنتهي إلى نهر ملوية شرقا، وفي الشمال نجد قسم منها بالبحر المحيط وسائرها البحر المتوسط».(15) ويهمنا من كلام هـذا المؤلف هنا أنه جعل وادي ملـوية حـدا لمملكة فـاس من جهة الشرق، ومعنى ذلك أن هـذا الوادي كان يمثل الحد بينها وبين نوميديا التي يندرج فيها إقليم سجلماسة حسب توطين الوزان.

يستنتج من أغلب الروايات الواردة أعلاه أن إقليم سجلماسة ينحصر في المناطق المحيطة بمجرى وادي زيز، لكن روايـة البكري حول تأسيس مدينة سجلماسة توحي بأن مجالاتها امتدت على مساحة أوسع من ذلك. قال هذا المؤلف «ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة وبعمارتها خلت مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا».(16)

وإذا كان مـوقع مدينـة زيز غير معـروف لحد الآن، فإن موقع مـدينة ترغة أصبح معروفـا بفضل جهود بعض الدارسين في تفسير نص البكري. ذهب مترجم كتاب «الـروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسـة وغانة» إلى القول بأن مدينـة ترغة هي الأصل فيما ما يـزال يعرف حتى الآن بـ«قصر ترغة» قرب قصر السوق.(17) ولا تسعفنا المسافة الفـاصلة بين سجلماسة ومدينة ترغة كما ذكرها البكري على مسايرة هذا الرأي، لأن قصر «تاركَـة» الموجود اليوم بمنطقة مـدغرة لا يبعد عن مدينة سجلماسـة بمسافة يومين من المشي. ويظهـر من تسميـة هـذا القصر أنـه كـان مكـانـا لسكنى بعض الجماعات من قبيلة تاركَـة، التي هي من قبـائل صنهاجة ينسب إليها بلفظ تاركَـي والجمع تواركَـ حرف على لسـان المشارقة إلى طـوارق. وتاركَـة في الاصطلاح اللغـوي كلمة بـربريـة معناهـا القناة.(18) وليس قصر تاركَـة الموجود بمـدغرة هو المكان الـوحيد الذي ارتبطت تسميته بقبيلـة تاركَـة في

---

15) الحسن الوزان، م. س. جـ 1. ص 153.

16) البكري، م. س. ص 148.

17) ماك كوك الرواية التاريخية عن تاسيس سجلماسة وغانة، الدار البيضاء 1319هـ، هامش 3، ص 12. انظر موقع قصر تاركة بالخريطة رقم 2. الخاصة بمنطقة مدغرة.

18) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. هامش 70. ص 150. وهامش 73. ص 152.

كل مجالات سجلماسة بل هناك قصر «توروكَـ» الذي تـذكر الرواية المحلية أنه كان مقر سكنى جماعة من التواركَـ قبل أن ترغمهم قبائل أيت عطا على إخلائه في القـرن التاسـع عشر، ومكان هذا القصر على الضفـة اليمنى لوادي غريس في المكان الذي يلتقي فيه بفرعه الأساسي وادي فركلة.

ذهب بعضهم إلى القول بـأن كلمة ترغـة هي تحريف لكلمة تـدغة التي تطلق الآن على أحـد روافد وادي غـريس.(19) وبذلك يكـون استبدال حرف الدال بحـرف الراء في نص البكري من خطأ النـاسخين، أو يكون من صنع المؤلف نفسه، لأن البكري لم يزر منطقة سجلماسة وإنما جمع أخباره عنها عن طريـق الرواية الشفـوية. وقـال أحد الـدارسين في نفس الموضوع إن مدينـة تدغة التي اندثـرت في تاريخ غير معروف لابـد من البحث عنها على طول المجرى المائي الـذي يحمل إلى اليوم نفس الاسم، خاصة وأننـا نتوفر على عملات فضية ضربت بها. وبما أن منجم الفضــة لايميضركان مستغلا منذ القرن الثامن الميلادي، فمن غير المستبعد أن يكون هو منجم تدغة الذي تحدثت عنه المصادر.(20)

وتتفق دوزي جاك مونيي D.J. Meunié مع هذا الـرأي حيث جعلت مكان تدغة بـالقرب من المنجم الذي تم اكتشـافه مؤخرا في جبل صـاغرو جنوب المجـرى الأعلى لـوادي ايميضر على بعـد ثلاثين كلـم جنوب غـرب مـدينـة تنغير.(21)

إن أقدم عملـة معروفة ضربت بتدغـة تعود إلى العهد العباسي، أمـا آخر قطعة نقديـة فتعود إلى الفترة الموحدية وهـي عبـارة عن درهـم ضرب باسم المهدي بن تومرت.(22) وقد اشتـهرت مدينة تـدغة بصناعات أدوات مختلفة من المعادن كان يتم نقلها إلى تافيلالت.(23) وإلى عهد قريب استمرت المنطقة في إنتاج مصنـوعات حـديدية لها شهـرة كبيرة بين سكان إقليم تـافيلالت،

---

19) D.J. Meunié : Le Maroc saharien des origines à 1670, Paris 1982, p : 220.
20) B. Rosemberger, op. cit, p : 85.
21) D. J. Meunié, op. cit, p. 220.
22) Ibid p. 220.
23) B. Rosemberger, op. cit p. 76.

ويتعلق الأمر بالفؤوس التي تتـم بها عملية شق الأرض أثناء الحرث، وهذه الأداة الفلاحيـة معروفة عند المحليين بـاسـم «الفأس التدغي» نسبة لتـدغة رغم أن صناعتها تتم اليوم بمدينـة تنغير، وربما كانت نسبتها لوادي تدغة لا لمدينة تدغة المندرسة.

لقد جعل أحد البـاحثين المجال الواقع بين منطقة تدغـة ومنطقة تازارين حلقـــة وصـل بين منطقتين مختلفتين في الجنـــوب المغـــربي مـن حيث الخصوصية اللغوية والتوجـه الحضاري منطقة غربية تضم وادي دادس ووادي درعة، توجهت في تـاريخها سياسيا واقتصاديا ولغـويا نحو منطقة سوس ومراكش واللغة المستعملـة بها هي تاشلحيت. ومنطقة شرقية تضم وادي فركلة وغريس وزيز وكَـير، وتوجهها كان أكثر نحو الشمال والشرق أي في اتجاه فـاس والمغرب الأوسط واللهجـة المستعملـة بها هي تمازيغت، وبينهما تدغة وتازارين اللتان شاركتا مع المنطقتين معا وتأثرتا بدرعة، كما تأثرتا بزيز وكَـير.(24)

وقد امتد إقليم سجلماسة ليشمل بعض مناطق وادي كَـير شرقا حسب رواية الوزان، ويظهر ذلك من خلال حديثه عن قرى بني بصري بوادي أيت عيسى ببوعنـان الذي كان يضـم في القرن العاشر الهجـري السادس عشر الميلادي «ثلاثـة قصور في سفح الأطلس، وتكثر فيه الفـواكه، لكن لا ينبت فيه نخيل ولا حبـوب وهناك منجم حديد يـزود جميع إقليم سجلماسة.(25) وقـرى بني بصري التي تـوجد على وادي أيـت عيسى الذي هـو رافـد من روافـد وادي بوعنـان تضم اليوم خمســة قصور، لكن بقـايا الهدم تظهـر بـالقرب من ثـلاثـة منهـا وهي أيت يحيى أو عيسى وأيت عيسى أو علي وتـاخوالت. ويحمل واحـد من القصـور الخمسة اسم مـدرار نسبة لـلأمير الرابع في إمارة الخوارج الصفرية بسجلماسة، وتوجد بضواحي هذه المنطقة أربعة مناجم لمعدن الحديد تم التخلي عن استغلالها منذ مدة.(26)

---

24) D. J. Meunié, hiérachie sociale au Maroc présaharien, H. 1958, 1er 2em trim. p. 256.

25) الحسن الوزان، م. س، جـ 2. ص 132.

26) B. Rosemberger, op. cit p. 93.

ويضم إقليم سجلماسة منطقة المعيدر أيضا، لأن معادن النحاس الموجدة بها جعلت عاصمته تباشر مراقبتها على تلك المناطق على رأي برنار روزانبيرجي.(27) وتشكل منطقة المعيدر قسما مهما من مناطق الصحراء الواقعة إلى الجنوب من سجلماسة، كما تمثل مجال تنقل الرحل على نطاق واسع، خاصة في الأجزاء الشمالية منها المجاورة لواحات منطقة فزو وتاغبالت إلى الشرق من تازارين.

إن رغبة سجلماسة في مراقبة المناطق المجاورة لها بهدف الحفاظ على مركزها المتميز في تجارة الصحراء هي التي جعلت مساحة إقليمها تتسع في المجال حسب رأي ج. دفيس. فالمجال الاقتصادي الذي كان على سجلماسة أن تراقبه باستمرار كان يتشكل من مرتفعات الأطلس الكبير الشرقي في الشمال، حيث تتوفر المنتوجات الحيوانية من لحوم وجلود وأصواف فضلا عن المعادن، وكذلك منطقة وادي تدغة ووادي دادس وبعض مناطق درعة الغنية كزاكَورة وأكَدز، وأخيرا المناطق الصحراوية في الجنوب والشرق التي تعبرها المسالك التجارية.(28)

وقد نجد ما يبرر هذا الرأي في المصادر التاريخية والجغرافية القديمة، حيث يظهر مجال إقليم سجلماسة مرتبط إلى أبعد الحدود بالحاجات الاقتصادية لعاصمته، وبالنفوذ السياسي لحكامها، سواء في عهد المدراريين أو أمراء مغراوة من بعدهم أو زمان استقلال بعض الأمراء المرينيين بها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

أكد البكري أثناء حديثه عن أمراء بني مدرار أن سجلماسة كانت تراقب بعض مناطق درعة بهدف الاستفادة من المعادن المتواجدة بها،(29) وهذا ما يعزز استمرار ما كان عليه الوضع في عهد اليعقوبي الذي عاش قبل زمان البكري بحوالي قرنين من الزمن – وذكر أن سجلماسة تضم «قرى تعرف ببني درعة».(30) وكذلك الشأن بالنسبة لابن خردادبة الذي قال «وفي يدي

27) Ibid p. 86.
28) J. Devisse, Sijilmassa, op. cit p. 22.

29) البكري، م. س، ص 150.
30) اليعقوبي، البلدان، الطبعة الحيدرية، مصر، 1957، ص 110.

الخارجي الصفري درعة وهي مدينة كثيرة الأهل وفيها معدن فضة وهي مما يلي الجنوب إلى بلاد الحبشة».(31) ولا نعرف بالتحديد المقصود بكلمة درعة في نص ابن خرداذبة، فإذا كان الأمر يتعلق بوادي درعة، فمن المحتمل أن سجلماسة بسطت نفوذها على القسم الأعلى منه لقربه من مجالاتها، أما إذا تعلق الأمر بمدينة درعة كما في النص أعلاه، فإن المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا اليوم لا تسعفنا على معرفة موقعها بالضبط.

يتضح من كل هذه الروايات أن المجال الاقتصادي الذي كان على سجلماسة أن تراقبه للحفاظ على دورها المتميز في التجارة الصحراوية، هو الذي تحكم في امتداد مجال إقليمها على مساحة شاسعة من مناطق الجنوب المغربي. وقد ارتبط ذلك بالاشعاع السياسي للمدينة كما هو الحال مع أمراء الخوارج الذين سيطروا على مناطق استخراج المعادن بدرعة. ويمكن قياس نفس الملاحظة على مرحلة حكم بني خزرون المغراويين للمدينة، لأنهم اعتمدوا على معادن الفضة الموجودة بالمناطق الجنوبية في سك النقود قبل أن يشرعوا في ضرب العملة الذهبية اعتمادا على التبر القادم من السودان الغربي.(32)

اتسع مجال الإقليم في اتجاه الجنوب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد أن استقل أبو علي عمر بسجلماسة واتخذها قاعدة لإمارته، فقد ذكر ابن خلدون أن هذا الأمير «افتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت».(33) فكان فتح هذه المناطق سببا في ظهورها على مسرح الأحداث التاريخية لأول مرة كما هو الشأن بالنسبة لتوات التي لم تكن معروفة قبل هذا التاريخ.

أورد المقدسي قائمة بأسماء المناطق التابعة لسجلماسة تعتبر في غاية الأهمية رغم المشاكل التي تطرحها على مستوى تحديد مواقعها وعلاقتها بالمدينة الأم. وهذا نص كلامه «وأما سجلماسة فهي اسم القصبة أيضا

31) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مصر، 1889، ص 88.

32) B. Rosemberger, les vielles exploitations minières... 2em partie R.G.M. n° 18. 1970 p. 72.

33) عبد الرحمان بن خلدون، العبر، ج 7، بيروت 1981، ص 323.

ولها من المدن درعة، تادنقوست، إثرايلا، يلميس، حصن ابن صالح، النحاسين، حصن السودان، هلال، امصلى، دار الأمير، برارة، الخيامات، تازروت».(34) وبناء على هذا فإن إقليم سجلماسة كان يضم ثلاث عشرة مدينة على حد تعبير هذا المؤلف في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي. غير أنه لا يجب أن نفهم من ذلك أن هذه المواقع ينطبق عليها اصطلاح مدينة بما يحمله من معنى بل ربما كان الفهم السليم لكلام المقدسي اعتبارها تجمعات سكنية قروية مما يعرف في مناطق سجلماسة إلى اليوم باسم القصر.

إن موقع أغلب هذه الأماكن التي ذكرها المقدسي يظل مجهولا وغامضا في ضوء معلوماتنا الحالية، ولا نتوفر على ما يقابل أسمائها بالمناطق المختلفة لإقليم سجلماسة اليوم. وهذا ما يؤكد التغيرات الكبيرة التي لحقت أسماء الأماكن نتيجة التحولات الاجتماعية المهمة التي عرفتها هذه المناطق من القرن العاشر الميلادي إلى الفترة المعاصرة، أي إلى تاريخ مجيء قبائل أيت عطا لتافيلالت في بداية القرن التاسع عشر.

لقد اقتصر فهمنا لكلام المقدسي على تحديد موقع ستة أماكن فقط من مجموع ثلاثة عشر. فقوله بأن سجلماسة كانت تضم مدينة درعة لا يخرج عن ما ورد في نصوص الجغرافيين العرب المشار إليها أعلاه من أن هذه المنطقة كانت تابعة لأمراء الخوارج الصفرية.

وكلمة تادنقوست لا يوجد ما يشبهها لفظا بهذه المجالات سوى كلمة تادغوست. وهي منطقة في القسم الأعلى لوادي غريس على الطريق الرابط بين هذا الوادي والقسم الأعلى لوادي زيز، كما هو واضح في الخريطة المخصصة للوحدات التضاريسية.(35)

ولا يوجد لفظ يلميس في أسماء الأماكن بإقليم سجلماسة، غير أنه اسم يطلق على منطقة تقع على الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وفاس في

34) المقدسي، م. س. ص 219.

35) الخريطة رقم (1).

مجالات قبائل أيت يوسي، على بعد مرحلة من صفرو ومركزها الإداري اليوم يحمل اسم ألميس كَيكَو.

أما كلمة هلال التي ذكرها المقدسي في النص أعلاه فقد وردت عند الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي كاسم لأحد القصور الكبرى بمنطقة مدغرة، على بعد مرحلتين أو ثلاث من مدينة سجلماسة في اتجاه الشمال. وهذا نص كلامه «مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة - يعني دائرة الخنك - في اتجاه الجنوب خارج المضيق. وتحتوي على قصور عديدة تقع كذلك على وادي زيز وأهمها القصر المسمى هلال وفيه يقيم أمير الدائرة وهو عربي وله فخد من قبيلته تعيش في البادية تحت الخيام وأخرى كذلك بالقصر مع بعض الجنود».(36)

ويحتمل أن يكون المقصود بكلمة برارة قصر يرارة الموجود جنوب سجلماسة في مقاطعة السفالات. ويمثل هذا القصر آخر تجمع سكني بمناطق الواحات الغنية بغابات النخيل في اتجاه الجنوب، إذا ما استثنينا قصري تينغراس وكَاوز اللذان يوجدان إلى الجنوب الغربي منه.(37)

وأما كلمة تازروت فقد أكد أحد الباحثين أنها اسم لمنطقة تضم مناجم فضة مستغلة منذ وقت مبكر في جبل أوكَنات. ويعرف أهم منجم منها اليوم باسم «بومعدن» ويقع على بعد خمسين أو خمسة وخمسين كلم غرب شمال عرب مدينة سجلماسة في منطقة تحمل اليوم اسم تازرارت.(38)

2 - الوحدات التضاريسية بإقليم سجلماسة

يقع إقليم سجلماسة في المناطق الجنوبية للمغرب الأقصى على مشارف الصحراء الكبرى، ويشمل مساحات شاسعة بين خطي عرض 31° و20' و31°

---

36) الحسن الوزان. م.س. جـ 2. ص 123. انظر موقع قصر هلال بالخريطة رقم (2).

37) انظر موقع قصر يرارة بالخريطة رقم (3).

38) D. J. Meunié le Maroc saharien, op. cit, p 220.

شمال خط الاستيواء.(39) ويحد شمالا بـالأطلس الكبير الشرقي وجنـو بـا بحمادة كَـم كَـم وغربا بالأطلس الصغير وشرقا بحمادة كَـير.(40)

تشكلت أغلب أراضي هـذه المنـاطق عبر تـوضعات الـزمن الجيـولـوجي الرابع،(41) وفي العهــد التــانسيفتي عـــرفت أقصى انخفـاض في مستـــوى ارتفـاعهـا، ثم تعـرضت للغمر السلطـاني فـارتفع مستـوى سطح الأرض مجددا بمعدل خمسة إلى عشرة أمتار. غير أن التعـرية المتأخرة لهذه الحقبة أعادت مستـوى ارتفاع سطح الأرض إلى وضعيتـه الحالية، فتحدد الـوجه الطبيعي للإقليم وأصبح على ما هو عليه الآن باستثناء مناطق الواحات التي تعرف ارتفاعـا متزايدا مع الزمن بفعل تراكم الطمي المنقـول عبر فيضانات نهري زيز وغريس.(42)

يرى ماركَـا أن موضع سجلماسة المدينة يمثل نموذجا لترتيب الطبقات الجيولوجيـة بإقليمها. فتوضعات الزمــن الرابع ترسو فوق طبقـة صخرية يمكن تسميتهـا بـــ«رصيص سجلماســة» Cenglomerat ويعـود تاريخ هــذه الأخيرة إلى الـزمن الجيـولـوجي الثالـث، وإلى الأسفل منها تـوجـد طبقـة صخـريـة أخـرى تعود للـزمن الثــاني. وهــذا الترتيب الخاص بـالطبقـات الجيولوجيـة الموجودة بموضع المدينة هو الغــالب على تكوين أغلب المناطق المجاورة لها.(43)

ويمكـــن التمييـــز بين ثـلاث وحـــدات تضــاريسيـة كبرى بمجــالات سجلماسة

أولا : الأطلس الكبير الشرقي ويضم المناطق الواقعة إلى الشمال من هذا الإقليم وهو عبارة عن مرتفعـات ذات صخور كلسية يصل ارتفاع أعلى قمة بها 3700 م بجبل العياشي.(44) ويمثل الأطلس الكبير الشرقي مجالا حيـويا

---

39) R. Fauré Le Tafilalet étude d'un secteur traditionel d'irigation, Paris, 1968 p. 5.
40) G. Toutain, F. Deve : hydrolique agricole au Sahara, Rabat, 1979, p : 1.
41) F. Joly étude sur le relief de Sud-Est Marocain, Rabat, 1962, p. 12.
42) Ibid; p. 249.
43) J. margat appoud R. Fauré, op. cit, p : 7.
44) Iarbi Mezzine, le Tafilalet comtribution à l'histoire du Maroc au 17 et 18em siecle Rabat, 1987 p 264.

بالغ الأهميـة بالنسبـة لإقليم سجلماسة، لأن كل الأنهار التي تنحـدر نحو مناطق الـواحات تتخد منابعها منـه. ولا تسمح هذه الجبال بـوجود ممرات طبيعية كثيرة، وهو ما جعل إقليم سجلماسة مطوقا ومحصورا بها من جهة الشمال بحيث لا تسمح إلا بوجـود ممرين أساسيين هما تيـزي ن تالغمت وتيزي مقورن.

ثانيا الأطلس الصغير الشرقي ويضم مرتفعـات أوكَـنات وصـاغرو التي تحد مجالات سجلماسـة من جهـة الجنـوب الغـربي. وتنبع من هـذه الجبال بعض أودية الجنوب الصحراوي كوادي ركَـ الذي يتجه نحو منطقة المعيدر. وتعرف مـرتفعات صاغرو إنحـدارا تدريجيا في اتجاه الشرق حيث تصل أعلى نقطـة ارتفاع بها 2500 م، في حين لا يتعـدى علو جبل أوكَـنات 1700 م.(45)

ثالثا الحمادات وتشغل مجالا واسعـا في الجهـة الشرقية والجنـوبيـة لإقليم سجلماسة، وهي هضـاب قاحلة تخترقها أوديـة ذات مجاري عميقة وتصريف مـائي ضعيف. وتبتدىء الحمادات بـالمنـاطق المجاورة لبـودنيب وتنتهي جنوبا في الصحراء،(46) وهي ثـلاثة حمادة مسكي وتبتـدىء من قدم جبـال الأطلس الكبير الشرقي شمال مدينـة الرشيـدية وتنتهي جنـوبا بمنطقة الرتب الأسفل على مساحة 60 كلم طولا و40 كلم عرضا. وحمادة كَـير التي تسمى أيضـا بحمادة بودنيب وتمتد على مسـاحة 100 كلم طولا وحوالي 30 كلم عـرضا شرق مناطـق سجلماسة،(47) أمـا حمادة كَـم كَـم فتشمل القسم الجنـوبي لـلإقليم وتمتـد جنوبـا حتى مشـارف الصحـراء الكبرى.

وهـذه الحمادات عبـارة عن منـاطق منبسطـة غير أنها ليست صـالحة للزراعة بسبب قلة الماء وصعوبة الحصول عليه عن طريق حفر الآبار. لكنها شكلت عبر التاريخ مجالا لتنقـل قبائل الرحل. فقـد ذكر البكـري في القرن

---

45) Larbi Mezzine : Le Tafilalet Op. cit p. 264.
46) F. Joly, Op. cit p. 14 - 15.
47) Ibid p. 126.

الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أن موضع مدينة سجلماسة كان سوقا للبربر الذين كانوا ينتجعون بماشيتهم تلك المناطق قبل قدوم قبائل مكناسة وتأسيس إمارة المداريين بها.(48)

ورغم أن الحمادات تتسم بانبساط تضاريسها، فإن القوافل التجارية لم تسلكها إلا نادرا. وكانت الطرق الرابطة بين سجلماسة ومناطق شمال المغرب أو تلمسان في الشرق تتبع مجاري الأنهار نتيجة سهولة الرحلة عبرها، لأنها عبارة عن أشرطة متسلسلة من الواحات توفر ما تحتاج إليه القوافل من لوازم السفر خاصة الماء.

وتشكل الحمادات في المناطق المجاورة لسجلماسة المظهر التضاريسي الأكثر انتشارا، ولا توجد المناطق الخضراء بها إلا في الواحات الممتدة على ضفاف الأودية وهي عبارة عن أشرطة ضيقة تستغل بأكملها لممارسة النشاط الزراعي. غير أن اقتراب مجرى وادي زيز من مجرى وادي غريس في الجزء الجنوبي من هذا الإقليم سمح بتكون سهل رسوبي فسيح يشمل منطقتي تيزيمي وتافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة. وهو ما كانت تعتمد عليه مدينة سجلماسة في نشاطها الزراعي.(49)

إن التكوين الجيولوجي المعقد لإقليم سجلماسة أعطى لهذه المناطق مرفولوجية خاصة تضم وحدات تضاريسية مختلفة على رأي فرنان جولي F. Joly.(50) غير أن ما يثير الانتباه في تضاريس الجنوب المغربي بما فيه إقليم سجلماسة هو ارتفاع السلاسل الجبلية وامتدادها بشكل مستمر من المحيط الأطلسي في الجنوب الغربي إلى ما وراء حمادة كَير شرقا. وهذا ما جعل هذه المناطق تظهر شبه معزولة عن مناطق الشمال المغربي بفعل هذه العوامل الطبيعية. لكن هذه المرتفعات لم تشكل عرقلة في وجه عملية التنقل في اتجاه مختلف المناطق المغربية، لأن وجود الممرات الطبيعية بها سهل

48) البكري، م. س. ص 148.

49) مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، البيضاء 1985. ص 20. وابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، 1984، ص 305.

50) F. Joly, Op. cit p 13.

عبورها وجعل الاتصال بين الجهات الواقعة إلى الجنوب والشمال منها ممكنا ومستمرا خلال كل الفترات التاريخية.

والرحلة من سجلماسة في اتجاه الشمال والشرق سهلة بالمقارنة مع مثيلتها في اتجاه الجهات الجنوبية الغربية، لأن مجرى وادي زيز يوفر وسط حمادة مسكي والأطلس الكبير الشرقي ممرا طبيعيا سهل الاجتياز. كما أن سهولة تضاريس حمادة كَير يمكن من ربط الاتصال بين سجلماسة وتلمسان في المغرب الأوسط ومن هناك إلى باقي مدن بلاد المغرب.

يتبع الطريق المتجه من سجلماسة نحو شمال المغرب مجرى وادي زيز في أغلب مسافته، ثم يغادره شمال منطقة الريش ليتوغل في جبال الأطلس الكبير الشرقي عبر وادي ترحانمين ومنه إلى وادي النزالة،(51) ثم ممر تيزي ن تالغمت الذي يربط بين منطقتي قصابي الشرفاء بحوض ملوية شمالا وتعلالين جنوبا.(52)

ويعتبر ممر تيزي ن تالغمت أهم منفذ يربط الاتصال بين إقليم سجلماسة ومناطق الشمال، ويقع في منطقة يتقلص فيها اتساع جبال الأطلس، ومنه يتم المرور إلى حوض ملوية حيث واحات قصابي الشرفاء التي كانت تنطلق منها الطرق نحو فاس والبحر الأبيض المتوسط. وقد اشتهرت هذه المنطقة نتيجة انطلاق طريقين تجاريين منها أولهما يتجه نحو البحر المتوسط، يمر بميسور ووطاط الحاج ودبدو وتاوريرت وقصبة العيون ثم وجدة. وثانيهما يتجه نحو فاس عبر أيت يوسي وصفرو،(53) والطريق الثاني أكثر صعوبة من الأول لأن سالكه كان عليه اختراق قسم كبير من الأطلس المتوسط، غير أن استعماله كان شائعا بكثرة نتيجة العلاقات الواسعة التي كانت تربط سجلماسة بفاس.

وإذا كان ممر تيزي ن تالغمت يكتسي أهمية كبيرة في ربط إقليم سجلماسة بحوض ملوية ومنه إلى باقي المناطق الشمالية، فإن الطبيعة

51) انظر الخريطة رقم 1.

52) Larbi Mezzine, le Tafilalet, Op. cit, p : 265.

53) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 129.

وفرت مسلكا آخر كان له دوره الفعال في ربط الاتصال بين سلجماسة وحوض أم الربيع. ويتعلق الأمر بممر تيزي مقورن الذي يمكن من الوصول إلى باقي أجزاء المغرب الشمالي من جهة وسهل تادلة من جهة ثانية.(54)

ونظرا للأهمية التي كانت لسهل تادلة في الطريق التجاري الرابط بين فاس ومراكش في القرن 6 هـ / 12 م فإن ممر تيزي مقورن كان بدون شك طريقا مستعملا في الرحلات بين سجلماسة ومراكش أو بينها وبين فاس مرورا بتادلة.

وتكثر المصاعب في وجه المتنقلين من سجلماسة إلى المناطق الجنوبية الغربية منها بسبب وجود تضاريس عالية. فجبل صاغرو وأوكَنات يشكلان حاجزا يصعب اختراقه، لأن هذه المرتفعات لا تسمح بوجود ممرات سهلة، باستثناء وادي ركَ الذي يربط بين منطقة المعيدر ومنطقة تدغة، وتيزي ن بجو التي تمكن من الوصول إلى منطقة دادس.(55) وبعيدا عن هذه الممرات في إتجاه الجنوب هناك ممر تيزي ن تلكَان الذي يؤدي إلى درعة الأوسط،(56) غير أن الوصول إليه يتطلب اختراق مجال صحراوي جاف تصعب الرحلة فيه نتيجة قلة الماء.

ويعتبر ممر تيزي ن تافيلالت الذي يوجد بجبال باني في الأطلس الصغير الشرقي أهم منفذ يربط واحات سجلماسة بواحات درعة، لأن الطريق التجاري الرابط بين المنطقتين كان يمر عبره منذ القديم.(57) كما أن هناك إمكانية للوصول إلى أعلى وادي درعة عبر واحات الأودية التي تخترق مجالات إقليم سجلماسة كغريس، فركلة وتدغة. وهذا الطريق بعيد المسافة يتجه في البداية نحو الشمال عبر مجرى وادي غريس قبل أن ينحدر نحو الجنوب بموازات جبال الأطلس الكبير الشرقي، غير أنه يضم بالمقابل أجمل واحات الجنوب الصحراوي كالجرف الكَفيفات توروكَ بوادي غريس

54) Ibid, p 129.
55) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 120.
56) F. Joly, Op. cit, p : 58.
57) D. J. Meunié, Op. cit, p. 124.

وأسرير بوادي فركلة وتينغير بوادي تدغة وبومالن بوادي دادس.(58) وربما كـان لذلك أثـره في أن أصبحت هذه الـواحات محطـات رئيسية لاستراحـة القوافل التجـارية التي كانت تفضل المرور عبر هـذا الطريق البعيد المســافة بـدل السير في المناطق القـاحلة التي يصعب فيهـا التنقل نتيجة قلـة الماء أو انعدامه.

ولا تخرج الطرق التجارية الـداخلية بإقليم سجلماسة عن واحات وادي زيز وغريس مادامت هـذه المجاري المائية هي التي تمكن من ربط الاتصال بين مختلف مناطق الإقليم وبينها وبين منـاطق شمال المغرب كما مر معنا. ذكرت دوزي جاك موني D.J. Meunié أن التجار الواردين مـن بلاد السودان يواصلون رحلتهم نحو الشمال بعد الاستراحة في سجلماسة مارين بأرفود والمعاضيد والديورة وقصر الجديد بالرتب وسيدي بو عبد الله بمدغرة، ومن هناك إلى قصور الخنكَـ وتعلالين ثم الحوض الأعلى لملوية.(59)

وكـان الطريق الـرابط بين سجلماسة والمنـاطق الجنوبيـة للمغرب يمـر بدوره عبر مجاري الأوديـة، لأنه كـان يميل نحو الغـرب بعد خـروجه من مدينة سجلماسة، ويتبع مجرى وادي غريس إلى منطقة توروكَـ حيث يلتقي هذا الوادي برافديه الأسـاسـين فركلـة وتدغة اللذان يمكنان من الوصول إلى وادي دادس.(60) كما يمكن وادي غريس من الوصـول إلى المناطق الشمالية لبـلاد المغرب، لأن مجراه يـوفر مسلكـا سهلا وسط جبـال الأطلس الكبير الشرقي، مرورا بتادغـوست وأملاكَـو ومنطقة مزيـزل جنوب جبل العياشي حيث يلتقي بالطريق الآتي من سجلماسة عبر وادي زيز.(61)

ويتصل وادي غريس بوادي زيـز عبر طريق داخلي بمجالات سجلماسة يمر بالقسم الغربي لحمادة مسكي، وقـد سلكه دوفوكو Defaucaud في القرن التاسع عشر في طريقه من كَـلميمة إلى مدغرة.(62) وهذا الطريق يتبع مجرى

---

58) Ibid, p : 124.

59) D. J. Meunié , Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 128.

60) انظر الخريط الطبوغرافية لتنجداد 1/100.000 والخريطة رقم (1) المرفوقة بهذا العمل.

61) D. J. Meunié, Op. cit, p : 136.

62) De Faucauld : Reconnaissance au Maroc 1883 - 1884, Paris, 1888, p : 234.

وادي زيز في اتجاهه نحو الشمال عبر المحطات المشار إليها أعلاه. وتجب الإشارة إلى أن القوافل التجارية القادمة من سجلماسة أو تدغة والمتجهة إلى الشمال تخترق عند وصولها إلى مدغرة الأطلس الكبير الشرقي عبر طريقين واحد يتبع مجرى وادي زيز، وآخر يترك الوادي جانبا ليتسلق سفوح مرتفعات الأطلس ولا يتم استعماله إلا في حالة فيضان وادي زيز.

3 – المناخ والغطاء النباتي :

أ – المناخ

لا نعلم الشيء الكثير عن الوضعية التي كان عليها المناخ بإقليم سجلماسة في الفترة المحددة للدراسة. ويرجع السبب في ذلك إلى اقتصار المصادر الإخبارية والجغرافية على وصف التطورات السياسية والنشاط التجاري للمنطقة، باعتبارها حلقة وصل أساسية في ربط الاتصال بين بلاد المغرب والسودان الغربي.

إن موقع سجلماسة على باب الصحراء الكبرى جعل المناخ بمجالاتها جافا وقاريا. لأنها لا تتعرض للتأثيرات البحرية بسبب ارتفاع جبال الأطلس الكبير والصغير على امتداد الحدود الشمالية والجنوبية الغربية منها. ويمتاز هذا المناخ بارتفاع درجة الحرارة في كل فصول السنة، وقلة التساقطات فضلا عن هبوب الرياح الحارة.

وقد ميز أحد الباحثين بين ثلاث نطاقات مناخية في جنوب المغرب أولها يعرف تساقطات ضعيفة ويشمل واحات سوس والمناطق الواقعة شمال غرب الأطلس الصغير وجبل سيروى. وثانيها يمتاز بارتفاع درجة الحرارة وقلة التساقطات أيضا، ويشمل المناطق الواقعة إلى الجنوب من الأطلس الصغير والأطلس الكبير الشرقي ما بين ساحل المحيط غربا والجزائر شرقا مرورا بتافيلالت. وأخيرا نطاق صحراوي شاسع يمتاز بمناخ قاري جاف.(63)

---

63) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 87.

إن مناخ المنـاطق الصحـراوية الـذي تحددت سماته العـامة منـذ عهود ضـاربة في القـدم عرف تحولات غير ذات أهميـة كبيرة في مراحل مختلفـة يصعب تحديد تاريخها. فقـد جعل رايمون موني R. Mauny الفترة الواقعة ما بين 3000 و1500 ق.م مـرحلة التحـول السريع الذي عـرفـه مناخ المنـاطق الصحراوية، وذكر بأن خصائصـه تحددت بكيفية شبيهة لما هي عليه اليوم خلال هذه الحقبة التاريخية.(64)

ولا يعني هذا أن مناخ هذه المنـاطق ثابت لا يتغير، ففيضانات نهر النيل في العهود التاريخيـة الغابرة تشبه فيضـاناته اليوم، لكن وجـود تشابه بين مناخ الأمس واليوم لا يعتبر حجة تنفي التقلبات الدورية التي يعرفها المناخ، رغم استقرار خصوصياته العامة حسب رأي فرنان برودل F. Braudel.(65)

لقد كـانت الصحراء الإفريقيـة مأهولة في العهـود القديمة، لكنهـا تظهر اليـوم خاليـة بفعل زحف الـرمال على منـاطق شـاسعـة منها. ففي العهـد النيـوليتي كـانت منـاطق الاستقـرار تصل عـروض خط 20° شمال خـط الاستيواء، غير أن حدود المناطق الآهلة اليوم لا تتعدى خط عرض 17° غرب مدينة كَـاوو Gao و15° شرقها.(66) وذكر دولاشـابيل Delachapelle أنـه في الوقت الـذي كانت فيه صحـراء إيكَـيدي عبـارة عن واحات مأهولـة، كانت الساقية الحمراء تسمى بالساقيـة الخضراء حسب ما تذكره بعض الروايات الشفوية في الجنوب المغربي.(67) وهذا مـا يؤكـد التغيرات التي حدثت على مناخ الصحراء في مراحل تاريخية بعيدة عن فترات العصر الوسيط.

ينتمي مناخ إقليـم سجلماسة – حسب وصف الجغـرافيين العرب – إلى المناخ الصحراوي الجاف. فقد ذكر المقـدسي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أن سجلماسة شديدة الحر والبرد جميعا صحيحة الهواء،(68) وهذه

---

64) R. Mauny, Tableau géographique de l'ouest Africain d'après les sources écrites la tradition et l'archiologie, Dakar, 1961, p : 202.

65) F. Braudel La Méditérranée et le monde méditeranéen à l'époque de Philippe II Paris 1966 p. 246.

66) R. Mauny, Op. cit, p : 202.

67) De Lacha pelle : ésquise d'une histoire du Sahara Occidental H. T.x 1 1930 p. 38.

68) المقدسي، م. س، ص 231.

هي خصائص المنـاخ القاري. وتتفق مصادر القـرن الثامن الهجـري الرابع عشر الميلادي مع وصف هذا المؤلف، مما يـؤكد أن المناخ لم يعرف تغيرات كبيرة خلال هـذه الفترة الزمنية. ووصف ابن الخطيب سجلماسة بقـوله «أم البلدان المجـاورة لحدود السودان... والجفاف بها شـامل، والجو يسفر عن الوجه القطوب، والمطر معدود من الخطوب، لبناء جدرانها بالطوب».(69) وأشار ابن فضل الله العمري إلى أن مجاورة هذه المدينة للصحراء هو الذي جعل الهواء بها جافا.(70) كما جاء في كتاب الروض المعطـار نقلا عن كتاب الاستبصار أن سجلماسة بلـد مفرط الحر شديد القيـظ، وأن ماء المطر بها قليل.(71)

ولا يختلف وصف الجغـرافيين لمناخ إقليم سجلماسـة في القرن الثـامن الهجري عن وصف الذين أتوا بعدهم وعلى رأسهم الحسن الوزان الذي أقام بقصر المامون بعد خراب مدينة سجلماسة مـدة تزيد عن سبعة أشـهر. فقد ذكر هذا المؤلف أن الحرارة تشتد في فصل الصيف وكثيرا ما يجف النهر في هـذا الفصل من السنـة ويقل الماء جـدا بحيث لا يجد النـاس غير الماء الملح المستخرج من الآبار.(72)

وتـؤكد الأرقـام الحديثة الخاصـة بمعدل التسـاقطات ودرجـة الحرارة بإقليم تافيـلالت في المرحلة المتأخرة صحـة ما ورد في المصادر القـديمة عن مميزات المنـاخ بهذا الإقليم. فالمعـدل السنوي لدرجـة الحرارة هو 21° كحد أدنى وأكثـر من 40° كحـد أقصى في شهر يـوليـوز. أمـا المعدل السنـوي للتساقطات الـذي تم تسجيله على امتداد ربع قرن من الـزمن فهو 60 ملم بالريصاني و70 ملم بأرفود.(73)

وإذا كـانت المناطق الجافـة، في نظر البعض، هي المنـاطق التي تستحيل فيهـا الزراعـة دون سقي ولا تعرف التسـاقطات إلا نـادرا،(74) فإن إقليـم

---

69) ابن الخطيب، معيار الاختيار. م. س، ص 181.

70) Ibn Fadl allah Alomari, Masalik el absar fi mam alik el Amsar, Paris 1927 p : 202.

71) ابن عبد المنعم الحميري، م. س، ص 306.

72) الحسن الوزان. م. س، جـ 2. ص 126.

73) J. C. Fortin : La nappe phréatique salée du Tafilalet, R.H.T.E. n° 7 Rabat 1973, p : 91 - 92.

74) Ibid, p : 93.

سجلماسة عاش هـذه الوضعية في العصر الوسيط بناء على مـا ذكرته كتب الرحلات والجغرافيا.

أشار ابن حـوقل الذي زار سجلماسـة في القرن الرابع الهجـري العاشر الميلادي إلى أن هذه المدينة «على نهر يـزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة».(75) ويفهم من كـلامـه أن نهر زيـز كـان يعـرف ارتفـاعـا في منسوب مياهه خلال فصل الصيف، وهي ظاهـرة غريبة بالنظر لخصائص المناخ في هذه المناطق التي تتسم بـالجفاف وكثرة الحرارة في هذا الفصل من السنة بـالذات. غير أن ما أورده هـذا المؤلف يمكن تفسيره بذوبـان الثلوج المتراكمة في المنـاطق المرتفعة الـواقعة إلى الشمال من إقليم سجلماسـة حيث منـابـع وادي زيـز، لأن جل جبـال الأطلـس الكبير الشرقي التي يتراوح ارتفاعها ما بين 2000 و3000 م تستقبل كميـات كبيرة من الثلـوج في فصل الشتاء ولا يتم ذوبانها إلا في مدة تتراوح ما بين ستة وسبعة أشـهر.(76) كما قد يفسر بالتساقطات الناتجة عن العـواصف التي تعرفها مرتفعات الأطلس في فصل الصيف.

وأشار البكري في القـرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى أن الزراعة بسجلماسة تعتمد مياه النهر الذي يخترق مجالاتها، ويظهر ذلك من قوله «وشرب زروعهم من النهـر في حياض كحياض البساتين».(77) وهذا مـا يؤكـد أن الزراعـة البـورية لم تكن معتمـدة في النشاط الفـلاحي بهذه المناطق نتيجـة قلة التسـاقطات. وهـو ما أشار إليـه القلقشندي بقـوله أن سجلماسـة «كثيرة العمارة... على نهر كثير الماء... ويـزرع على مـائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة، والمطر عندهم قليل فإذا كانت السنة كثيرة الأمطار نبت لهم ما حصدوه في العام القادم من غير بذر».(78)

---

75) ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، بدون تاريخ، ص 90.

76) R. Faure, Op. cit, p : 8.

77) البكري، م. س، ص 148.

78) القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، المطبعة الاميرية، القاهرة 1915، جـ : 5. ص 164.

ويبتدىء تهاطل الأمطار بإقليم سجلماسة مع نهاية فصل الصيف حين تنخفض درجة الحرارة. لكن الأودية لا تعرف جريانها العادي إلا بعد هذه الفترة بمدة طويلة،(79) وكمية التساقطات المحلية لا تكفي لتغذيتها بالماء اللازم لرفع قوة صبيبها وازدياد منسوب المياه بها. لأن فيضانات وادي زيز تعتمد أساسا على المياه التي توفرها مناطق الأطلس الكبير الشرقي، ولا تؤثر مياه التساقطات المحلية على قوة صبيب هذا الوادي إلا نادرا. ويظهر ذلك من خلال ما كتبه ابن أبي زرع عن وادي سجلماسة حين قال «وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة كان قحط شديد ببلاد المغرب والأندلس وإفريقية جفت من أجله المياه جفوفا كثيرا وجاء بهذه السنة بوادي سجلماسة سيل عظيم لم يعهد مثله ولم ير بتلك الأرض كلها من السنة مطر فعجب الناس من ذلك». (80)

حدد مارمول كاربخال خصائص فصل الشتاء بكل بلاد نوميديا حين قال «يبتدىء البرد القارس في منتصف شتنبر ويستمر إلى آخر يناير، وإذا نزل المطر في أكتوبر وأبريل كان محصول القمح كثيرا». (81) وهذا ما استنتجه أيضا لوي ماسينيون L. Massignon من دراسته لفصول السنة ببلاد نوميديا اعتمادا على كتاب وصف افريقيا للحسن الوزان، حين ذكر أن فصل الشتاء يبتدىء بشهر شتنبر وينتهي في فبراير، ثم تبتدىء درجة الحرارة في الارتفاع لتصل أقصى حد لها في شهر يوليوز وغشت. (82)

إن ارتفاع درجة الحرارة في أغلب فصول السنة هي السمة العامة لمناخ إقليم سجلماسة. وتجمع الدراسات الحديثة على أن هذه المناطق تعتبر نموذجا للمناخ القاري بجميع مواصفاته. فمدينة الريصاني التي تجاور خراب مدينة سجلماسة تمثل أحر منطقة بالمغرب الأقصى في وقتنا الحالي، لأن معدل الحرارة السنوي لشهر يناير يصل بها 27° كحد أقصى وأقل

---

79) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 92.

80) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط 1970، ص 114.

81) مارمول كربخال، افريقيا، مكتبة المعارف، الرباط، 1984. ص 45.

82) L. Massignon, Le Maroc dans les premières années de 16em siècle, Alger, 1906, p : 77.

من 4° كحد أدنى، في حين يتراوح المعدل السنوي لشهر يوليوز ما بين 47° كحد أقصى و33° كحد أدنى.(83) ولا يقتصر الاختلاف الواضح في درجة الحرارة على فصلي الشتاء والصيف حيث يتراوح الفارق بين الشهر البارد والشهر الحار ما بين 20° و25° بل يظهر ذلك أيضا في الاختلاف في درجة الحرارة بين الليل والنهار الذي يتراوح غالبا ما بين 15° و20°. وهو ما يؤكد انتماء مناخ هذه المناطق للمناخ القاري الجاف حسب رأي أحد الباحثين.(84)

وترتفع نسبة التبخر بإقليم سجلماسة نتيجة ارتفاع درجة الحرارة وضعف الغطاء النباتي. فقد ذكر كَوتيه Gautier أن جفاف المناطق الصحراوية ناتج عن انعدام التوازن بين كمية مياه التساقطات والكمية التي تفقدها هذه المناطق عن طريق التبخر.(85) ونسبة التبخر بمجالات سجلماسة اليوم تعرف ارتفاعا كبيرا خارج المناطق المغطاة بغابات النخيل، وتقل نسبيا داخلها. ومثال ذلك الأرقام التي سجلت بضواحي مدينة الرشيدية، حيث نسبة التبخر في الواحات 1,280 ملم في الغابات و2,500 ملم خارجها.(86)

وتعتبر الرياح التي تهب على الإقليم من الجهات الصحراوية من أهم العوامل التي تضاعف من حدة الجفاف به. ذكر الإدريسي أثناء حديثه عن الصحراء المجاورة لبلاد المغرب أنه «ليس بها ساكن لأن بها رمالا سائلة تنقلها الرياح من مكان إلى مكان، وليس لأحد بها مستقر لاعتداء الرمال عليها، وكثرة جري الرياح بها، وكذلك تتصل هذا الرمل بأعلى أرض الواحات الخارجة فيعدو عليها ويغير ما فيها من الآثار، وتتصل هذه الرمال بالغرب إلى أرض سجلماسة إلى البحر».(87)

والرياح التي تهب على إقليم سجلماسة نوعان رياح ساخنة ورياح الزوابع الرملية.(88) ويهب النوع الأول على هذه المناطق طيلة فصول السنة،

83) R. Faure : Le Tafilalet, Op. cit, p : 8.
84) Gautier, Le Sahara, Paris, 1904, p 11. et F. Joly, Op. cit, p 10.
85) Ibid, p : 11.
86) G. C. Fortin, La nappe phréatique, Op. cit, p 112.
87) الإدريسي، وصف افريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر، 1957، ص 28.
88) Agronomie Saharien, hydrologie agricole du Sahara, p : 2.

ويكون قويا في فصلي الربيع والصيف في حين يكثر النوع الثاني في فصل الخريف.(89)

وللرياح آثار سلبية على أشكال الحياة بمجالات سجلماسة لأنها تسبب أضرارا كبيرة للمنتوجات الفلاحية كما تؤدي إلى زحف كثبان الرمال على مناطق الواحات، وهذا ما عبر عنه الإدريسي بقوله «وكذلك تتصل هذا الرمل بأعلى أرض الواحات فيعدو عليها ويغير ما فيها من الآثار».(90) كما تعتبر رياح الزوابع الرملية مسؤولة عن ظهور بعض الأمراض بين سكان مدينة سجلماسة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي على وجه الخصوص.

أشار ابن الخطيب إلى أن سجلماسة «معركة غبار.... والقرع برؤوس أهلها عابث والعمش في جفونهم لابث».(91) وقد لاحظ الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري السادش عشر الميلادي شيوع هذه الأمراض بين سكان قصور سجلماسة، وحاول إيجاد تفسيرا لها حين قال «تشتد الحرارة في الصيف وكذلك الغبار إلى حد أنه فيما أظن يسبب التهاب أعين الناس».(92) وذكر في مقام آخر أن سجلماسة كانت مدينة متحضرة «وكان هواؤها طيبا، إلا أن فصل الشتاء بها كان شديد الرطوبة كثيرا ما يسبب النزلة للناس وتمرض عيونهم في الصيف، لكنهم سرعان ما يشفون».(93) وهذا ما أكده القلقشندي بقوله «وقلما يوجد فيها صحيح العينين».(94)

ولا تتحدث المصادر الجغرافية التي عاش أصحابها قبل القرن الثامن الهجري عن وجود الأمراض التي ذكرت في النصوص أعلاه، وهذا ما يؤكد أنها كانت وليدة تغيرات مناخية في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، لأن الإشارات الأولى عن آثار الرياح الغبارية بسجلماسة وصلتنا

---

89) F. Joly, Op. cit, p : 336.

90) الإدريسي، م. س ص 28.

91) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م. س، ص 181.

92) الحسن الوزان، م. س، جـ 2، ص 126.

93) نفسه ص 127 – 128.

94) القلقشندي، صبح الأعشى، م. س، جـ 5. ص 164.

من خلال وصف الإدريسي. فابن حوقل الذي زار سجلماسة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لم يشر إلى وجود أمراض العيون بها بل أكد صحة هوائها الذي يشبه هواء مدينة القيروان.(95) وكذلك الشأن بالنسبة للبكري الذي ذكر بعده بحوالي قرن من الزمن أنه «لا يتجذم من أهلها أحد وإذا دخلها بجذم توقفت عنه علته».(96)

ب – التربة والغطاء النباتي :

* التربة :

تتفق كتب الجغرافيا القديمة على أن أرض سجلماسة سبخة. ونعلم أن هذا الاصطلاح يطلق على التربة التي تكثر فيها نسبة الملوحة. قال البكري «ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة».(97) وهذا ما أكده محمد بن إبراهيم الأنصاري الكتبي حين قال «توجد سجلماسة في المناطق الصحراوية على منطقة مستوية وأرضها سبخة».(98) وقد اكتفى ابن فضل الله العمري بذكر ملوحة التربة بسجلماسة دون إشارة إلى أنواع التضاريس بها.(99) أما القلقشندي فذكر أن أرضها مشققة.(100) وانفرد القزويني بذكر أن سجلماسة في مقطع جبل درن في وسط رمل».(101)

يتضح من هذه الإشارات أن أراضي سجلماسة تنتمي لما يسمى في كتب الفلاحة بالأرض السبخة. غير أن ما أورده القزويني يوضح أنها كانت تضم عنصر الرمل بفعل وقوعها في وسط صحراوي. فقد تمت الإشارة إلى أن الزوابع الرملية تجتاح مجال إقليم سجلماسة وتسبب في تراكم ذرات

---

95) ابن حوقل، م. س، ص 96.

96) البكري، م. س، ص 148.

97) نفسه 148.

98) محمد بن إبراهيم الانصاري الكتبي من خلال Fagnan, Op. cit, p : 54

99) Ibn Fadl Allah Alomari, Op. cit, p : 200.

100) القلقشندي م. ص، جـ 5. ص 164.

101) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، 1969، ص 42.

الرمل بمناطق الواحات، وهذا ما جعل نسيج التربة بهذه المناطق يضم كميات كبيرة من الرمل.

وقد حددت كتب الفلاحة خصائص التربة الرملية وما تتطلبه من أنواع العمل فضلا عن نسبة الحرارة والبرودة فيها. قال ابن حجاج الأندلسي «فأما الأرض الرملة فالغالب على طبعها الحرارة مع برودة، يدل على ذلك أن ما زرع فيها من النبات يكبر دون أن يكون فيها زبل... وبردها يتقوى ببرد الهواء ويضعف الحر الذي فيها، فإذا كان في فصل الخريف تقوت حرارتها بحرارة الهواء وتضعف تلك البرودة التي فيها، لابد لها من الزبل ويكون زبلا مخدوما متمكنا من الحرارة والرطوبة».(102) ويتضح من كلام هذا المؤلف أن التربة المكونة من الرمل كما هو الحال في سجلماسة كانت في حاجة إلى أن تطعم بالزبل حتى تكثر بها المواد العضوية مجددا كلما فقدت حرارتها. وهذا العمل كان معروفا بدون شك لدى الفلاحين في العصر الوسيط، لأن استخدام روث الحيوانات في الزراعة كان شائعا منذ أقدم العصور.

ويرى ابن العوام أن ارتفاع نسبة الملح في التربة يعتبر مؤشرا على عقمها.(103) كما وصف ابن حجاج الأندلسي الأرض المالحة قائلا «وهي قليلة التأتي في المعالجة مع إفراط الحرارة التي فيها مع الملوحة، وذلك أن مزاجها استحال لكثرة تقادمه فيها فتغيرت لذلك واحترقت وذهبت رطوبتها وتولدت فيها ملوحة، وهي هذه الملوحة التي تفسد النبات وتحصده في أصله».(104) ويتضح من هذا كله أن ارتفاع نسبة الملوحة في التربة لا يساعد على نمو جميع أنواع النباتات بها، ويعتبر عائقا في وجه النشاط الزراعي. فكيف يمكن أن نفسر إذن المردودية الكبيرة التي تحدثت عنها المصادر في وصفها لإنتاج سجلماسة من الحبوب في العصر الوسيط ؟

أكدت الدراسات البيدولوجية الحديثة أن نسيج التربة بإقليم سجلماسة مكون من الطمي والرمل باستثناء حافات الأودية حيث تكون التربة رملية

---

102) ابن حجاج الأندلسي، الفلاحة، مخطوط، خ. ع، رقم د 1410، ص 5.

103) Ibn Al Awam, KITAB AL FILAHA, Tom 1 er, Tunis, 1977, p 57.

104) ابن حجاج الأندلسي، مصدر سابق، ص 6.

تماما، والتربة في غالب الحالات ذات لون رمادي مفتوح، لكن كلما كثر فيها الصلصال تميل نحو الحمرة.(105) ويرجع تكوين التربة بهذه المناطق إلى تراكم الطمي المنقول عبر فيضانات وادي زيز وغريس، وتساهم هذه التوضعات في ازدياد سمك التربة لأن سطح الأرض بمجالات سجلماسة يرتفع بنسبة 0,8 و1,2 سنتيمتر في السنة أي ما يقرب من متر خلال القرن الواحد.(106)

وتتكون توضعات وادي زيز من الطمي الرمادي الممتزج بقليل من الصلصال، أما توضعات وادي غريس فتتكون من الطمي الأحمر الذي تغلب عليه مادتي الصلصال والرمل.(107)

ومياه الفيضانات التي تغمر مناطق سجلماسة تضم نسبة قليلة من مادة الملح،(108) وهذا ما يساهم في ارتفاع نسبة الملوحة في التربة والمياه الجوفية. فقد وصفت أراضي سجلماسة في المصادر القديمة على أنها سبخة، ورغم المشاكل التي يطرحها هذا النوع من التربة في وجه الفلاحة، فإن المواد العضوية الآتية عبر مياه الفيضانات تشكل على الدوام عامل تخصيب يساعد على تجاوز عقم التربة المالحة.

حدد علماء الفلاحة في العراق القديم العوامل المسببة في ملوحة التربة في عاملين هما التشمس والتبخر.(109) وهي مواصفات تنطبق على مناخ إقليم سجلماسة. وهذا ما أكده أحد الباحثين حين قال «بأن المناخ هو الذي سبب في ملوحة التربة بهذه المناطق لما يمتاز به من جفاف وارتفاع في درجة الحرارة زيادة على ارتفاع نسبة التبخر. كما أن المياه المستعملة للري التي يتم استخراجها من الفرشة الجوفية تزيد من استفحال ذلك لأنها مياه مالحة في أغلبها.(110)

---

105) O. Agricol du Tafilalet, étude de la salure des sols, Juin, 1980, p 19.
106) Fortin, la nappe phréatique, Op. cit, p : 112.
107) O. Agricol de Tafilalet, Op. cit, p : 3.
108) M. Elfaiz Le problème de la salinité de terre les traites-Arabe. d'agriculture H. 1985, p 11.
109) Ibid, p : 6.
110) Fortin : La nappe phréatique, Op. cit, p 120.

تزداد ملوحة التربة في إقليم سجلماسة كلما اتجهنا من الشمال نحو الجنوب، وقد توصلت الدراسات الحديثة التي أنجزت على التربة سنة 1973، والتي عمت مساحة 114 23 هكتار، إلى نتائج مكنت من وضع تصنيف لها حسب جودتها على الشكل التالي تربة تكثر بها مواد الخصوبة غير أن ضعف سمكها يؤثر في محدودية جودتها وتشمل 18877 هكتار وتمثل 82٪ من مجموع مساحة الإقليم. تربة أقل جودة من سابقتها وتنتشر على مساحة 3256 هكتار أي بمعدل 14 ٪ من المساحة الإجمالية. وأخيرا تربة مالحة تغطي 909 هكتار أي بنسبة 4 ٪ من مجموع أراضي الإقليم.(111)

لقد توصل ابن العوام إلى اقتراح حلول لتجاوز المشاكل التي تطرحها ملوحة التربة في وجه الزراعة حين قال «لابد من قلب الأرض في بداية شهر أكتوبر حتى تتمكن مياه الأمطار من غسل عنصر الملوحة من التربة».(112) وأكد العلم الحديث صحة ما جاء عند هذا المؤلف في هذا الشأن، لأن محاربة ارتفاع نسبة الملوحة في التربة تتم عبر غسلها بالمياه للتقليل من تجمع الملح بها، واختيار نباتات قابلة لتحمل هذه المادة.(113) وتجب الإشارة إلى أن مياه الأمطار وحدها قادرة على غسل التربة من ملوحتها لأن لها قدرة كبيرة على الغوص في أعماقها.(114)

إن الفلاح الذي كان يشتغل بالزراعة في مناطق سجلماسة في العصر الوسيط لم يكن على بينة من طرق محاربة الملوحة في التربة، غير أن تجاوزه لهذا المشكل يمكن أن نجد له تفسيرا بناء على العلاقة القائمة بين الدورة الزراعية والظروف المناخية بالمنطقة. فموسم الأمطار بسجلماسة يبتدىء بشهر شتنبر، وغالبا ما يكون الفلاح قد قام بقلب أرضه قبل حلول هذا الموسم، وهذا ما يجعل التربة عرضة للغسل بمياه التساقطات. ولا يمكن القول بأن هذه العملية تمكن من غسل كلي للتربة من ملوحتها، لأن استعمال المحراث الخشبي والفأس الحديدية التي تستعمل لشق الأرض

111) Ibid, p : 112.
112) Ibn Alawam, Op. cit, p : 57.
113) M. Elfaiz, Op. cit, p : 20.
114) Ibid, p 22.

اعتمادا على العمل اليدوي لا يمكنان من قلب الأرض على عمق كبير. خاصة وأن الأداة الأولى لا تتجـــاوز في شــق الأرض عمق عشر سنتيمترات وتصل الثانية عمق أربعين سنتيمتر، وهي نسب ضعيفة بـالمقارنة مع سمك التربة في مجالات سجلماسة الـذي حدده أحدهم ما بين متر وثمانيــة أمتار حسب المناطق.(115)

إن أغلب النباتـات التي اشتهرت منطقــة سجلماسة بإنتـاجها كـالحناء مثلا، قـابلة للنمـو في وسط تكثر فيه الملـوحة لأن لها قـدرة على تقبل هذه المادة. ونفس الشيء يمكن قياسه على شجرة النخيل التي تنمو بشكل عادي في التربــة المالحة، وهـذا مـا يبرر مـا ذكر حـول ازدهـار القطـاع الـزراعي بسجلماسة في العصر الوسيط، رغم أن التربة بها سبخة وكذلك ماؤها الذي وصفه البكري بأنه زعاق.(116)

تتعـرض التربــة بإقليم سجلماســة للمـواد المخصبــة على الـدوام بفعل فيضـانات الأنـهار، وهـي من النوع الجيد عامة.(117) ولا تغطي التربة المالحة التي لا تصلح للزراعة بتاتا سوى 4 ٪ من المساحة الإجمالية لهذه المناطق، وما عداها قابل لأن يستغل في الزراعة وبإمكانه أن يعطي مردودية مرتفعة إذا ما توفرت الكميات اللازمة من الماء لنمو النباتات.(118) وبما أن الزراعة كانت تقوم بسجلماسة اعتمادا على وادي زيز الذي كان دائم الجريان، فإن المردودية التي سجلتهـا المصادر حول إنتـاج هذه المنـاطق من الحبوب على وجه الخصوص تبدو معقولة ومنطقية.

*** الغطاء النباتي**

تفتقر منطقة سجلماسة إلى الغطاء النباتي وتزداد حدة ذلك كلما توغلنا من الشمال في إتجاه الجنـوب. فمنـاخ هـذا الإقليم الـذي يتسم بـالجفـاف وارتفاع درجــة الحرارة لا يساعد على وجـود غطاء نباتي كثيف، بـاستثناء

115) Fortin : La nappe phréatique, Op. cit, p : 112.

116) البكري، م. س، ص 148.

117) Fortin, La nappe phéatique, Op. cit, p : 112.

118) Ibid, p : 120.

ضفاف الأودية التي تمثل مجالا رطبا نسبيـا تتجمع فيه الأشجار الشوكية وبعض النباتات الأخرى.(119)

إن جفاف المنـاخ وارتفاع درجة الحرارة وانعـدام الرطوبـة في التربة هي العوامل التي تؤثر في نمو النباتات بالبيئة الصحراوية. وهذا ما جعل فصول السنة تعرف اختلافا واضحا في توفر الأعشاب أو انعدامها، ويظهر ذلك من خلال الفـارق بين فصلي الصيف والشتاء حيث تنعـدم النباتـات تماما بكل مجال الإقليم خارج المناطق المسقية في فصل الصيف، وتكثر بالمقابل نتيجة رطوبة الهواء وارتفاع كمية الأمطار في فصل الشتاء.(120)

والنباتات التي تظهر خارج مناطق الواحات في فصل الشتاء وأول فصل الربيـع لها قدرة كبيرة على تحمل جفـاف المناخ الصحراوي. ويطلـق عليها لفظ العشب الذي لا يعني نبـاتا بعينـه بقدرما هـو اسم لأنواع عـديدة من النبـاتـات تنمـو لمدة قصيرة ثـم تختفي لتظهـر من جـديـد في مـوسم التساقطات.(121)

يتكون أهم غطـاء نباتي بالمنـاطق الجافة من أشجار لا تنمـو إلا في هذا الوسـط الطبيعي. فقد ذكـر العربي مزيـن أن شجرتين فقط استطـاعتا أن تتأقلما مع البيئة شبـه الصحراويـة بالجنـوب الشرقي وهما شجرة الأثل التي لا تحتـاج إلا لقليل من الماء ويستغل منتـوجها في الـدبـاغة، وشجـرة النخيل التي لها قدرة على البحث عن الماء في الطبقات الجوفية، لأن جذورها تتوغل في أعماق التربة ويمثل منتوجها القاعدة الأسـاس لغذاء السكان بهذه المناطق.(122) ويمتد المجال الذي تنتشر فيه شجرة الأثل من المغرب إلى الهند بكل منـاطق الصحـراء، وهي كثيرة في منـاطق جنـوب الأطلس بـالمغـرب الأقصى كدرعـة، دادس، تدغة، فـركلة، غـريس، مدغرة والـرتب في حوض زيز.(123)

119) F. JOLY, Op. cit, p : 341.
120) Ibid, p : 10.
121) Gautier, Le Sahara, Op. cit, p : 136.
122) Larbi Mezzin, Le Tafilalet, Op. cit, p : 266.
123) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 100.

ويمتد مجال انتشار شجرة النخيل على مساحات واسعة من المناطق الجافة، ولم يعرف هذا المجال تغييرا منذ عهود ضاربة في التاريخ، غير أنه يقتصر بالمغرب الأقصى على مناطق الحوز والسوس ودرعة وزيز وكَير.(124) وتعتبر النخلة الشجرة الأكثر حيوية في أغلب مناطق هذا المجال الواسع بالنظر لما توفره للسكان من غذاء وخشب. وهذا ما دفع البعض إلى اعتبار الحياة في هذه المناطق شبه مستحيلة بدون هذه الشجرة.(125) ولا نعلم تاريخ ظهور شجرة النخيل بإقليم سجلماسة. ذكر أحد الباحثين أنها كانت معروفة في مصر القديمة ومنها انتقلت إلى ليبيا ثم بلدان المغرب الأخرى.(126) وأكد بيير مونيي P. Meunier أنها ظهرت بالمناطق الصحراوية قبل تغير مناخها أي قبل أن تصبح قاحلة. لأن أقدم المعلومات الخاصة بمنتوج التمر تعود لتاريخ 4500 ق. م، حيث تم العثور على بقايا من نوى هذا المنتوج أثناء التنقيبات الأثرية التي تم إنجازها بمنطقة طوخ Toukh في مصر. أما أقدم المعلومات الخاصة بهذا المنتوج في بلاد العراق القديم فتعود إلى تاريخ 2500 قبل الميلاد.(127)

ويرى كَوتييه Gautier أن كل أشكال الحياة بالمناطق الصحراوية الإفريقية بما فيها حياة الترحال وواحات النخيل والطرق التقليدية للري وليدة العصور الوسطى والحديثة، وأنها كانت نتجية للدور الكبير الذي لعبه الجمل بعد دخوله لإفريقيا في مرحلة الحكم الروماني، لأن هذا الحيوان هو الذي جعل هذه المناطق قابلة للاستقرار.(128) ورأي هذا المؤلف لا يستند إلى أي دليل علمي، لأنه يريد فقط أن يعود بتاريخ تعمير هذه المناطق إلى المرحلة الرومانية قصد إبراز فضل الرومان على الشعوب التي خضعت لنفوذهم في المجال الحضاري.

أكد دوفيردان G. Deverdun أن شجرة النخيل كانت معروفة بالمغرب وإسبانيا منذ عهود قديمة، بدليل أنها ضربت على نقود بطلموس بن الملك

124) L. Massingnon, Op. cit, p 88.
125) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p : 100.
126) M. Saaidi : Contribution à l'étude contre le Bayoud, Dijon, 1979, p : 11.
127) P. Meunier : Le problème de l'origine du palmier dattier, R. Fruit, vol. 29 n° 3, 1974, p : 235.
128) Gautier, Le Sahara, Op. cit, p : 137.

يوبا الثاني.(129) وهذا مـا يعطي الدليل على أنها كانـت موجودة بـالمناطق المغربية منذ تاريخ يتجاوز ألف سنة على الأقل.(130)

وورد بمخطوطة محليـة تعود لبداية القرن الحالي نشرهـا باساك Bassac أن عيسى بن يزيد الأسـود لما بايعه الصفريـة بسجلماسة «شرع في غرس النخيل وحـرص على أن يكون عـدده كثيرا، لكن الصفريـة قتلوه عـام مائة وستة وستين. أما النخيل الذي يوجـد داخل مدينة سجلماسة فيعود لفترة حكم أبي القاسم سمكوبن واسول».(131) ويفهم من هذه الرواية أن تاريخ شجرة النخيل بسجلماسة مرتبط بقيام إمارة الخوارج الصفرية بها. ويجوز أن تكون المنـاطق الواقعة بـالقرب من المدينـة خالية من هـذه الشجرة قبل مجيء مكنـاسـة لكن ذلك لا ينطبق على كل مجالات الإقليم مـادامت أغلب مناطقـه كانت مأهولـة قبل قدوم هـذه القبائل إليها بل تـواجدت بها بعض الحواضر الـواحية كترغـة وزيـز على رواية البكـري.(132) وبما أن شجـرة النخيل ضربت على النقـود ببلاد المغـرب في مرحلـة الحكم الرومـاني، فإن تواجـدها كـان بهذه المنطقة والمناطق المجـاورة لها ككَـير ودرعـة منذ فترة مبكرة. كما أن اهتمام عيسى بن يـزيد بغـراستها يعتبر دليلا على معـرفته الدقيقة بأهميتها في حياة سكان الواحات.

وأول من أشار إلى وجـود شجر النخيل بسجلماسـة هو أبو عبيـد الله البكري الذي قال «وهي كثيرة النخل».(133) أما السجستاني الذي عاش في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي فاستثنى المغرب الأقصى من مناطق تواجد النخيل، ويظهر ذلك من قوله «فليس في بلاد السودان كلها ولا بلاد البيضان المشركين شيء من النخل... وإنما النخل قدره اللـه جل وعز للعرب في جزيرة العـرب وفي المشرق ومنه شيء في المغرب وأكثره في العـراق، فالذي بالمغرب بأفريقية على خمس ليال منهـا بموضع يقال له قصطيلية ثم حتى

129) G. Deverdun, Marrakech des origines à 1912, T. I, Rabat, 1959, p : 89.
130) P. Leroy, Le palmier dattier au Maroc, Rabat, 1958, p : 8.
131) Bassac, Sijilmassa traduction d'une manuscrit arabe, B.C.G. Alger, 1930 p. 224.
132) البكري م. س، ص 148.
133) نفسه، نفس الصفحة.

بلغ وادي طبيب بقــرب مصرواد فيه مسيرة أيام كثيرة نخــل ويقال مسيرة شهر».(134) ويتضح من هــذا النــص أن صــاحبــه اقتصر على حصر بــلاد النخيل ببلاد المغــرب في المناطق الــواقعة إلى الجنــوب من المغرب الأدنى على الطريق التجاري الرابط بين السودان الغربي وبلاد مصر.

وجدت شجرة النخيــل بإقليم سجلماسة وسطا طبيعيا مــلائما لنموها، لأن المناخ الصالح لها هــو المناخ الجاف الذي تتراوح درجة حــرارته ما بين 32° و38°، كما يمكن لها أن تنمــو في وسط تصل درجــة حرارتــه 50° وهو الحد الأقصى لتحملها، أما أدنى درجــة حرارة تتقبلها فهي 20°.(135) كما لا تنتشر غابات شجر النخيل إلا على تربة غرينية ناتجة عن فيضانات الأنهار غالبا ما يكون لونها بني فاتح.(136)

ومعلوم أن التربة بسجلماسة تكونت بفعل توضعات الأنهار التي تخترق مجال هــذا الإقليم وهي مكــونة من الــرمل والصلصــال، وهــذا ما جعلهــا صــالحة لنمــو شجر النخيل رغم أن صــلابتهــا النــاتجة عن تماسك ذرات الصلصال يعتبر عائقا أمام نمو بعض أنواع النباتات، غير أن هذا لا يؤثر في شجرة النخيل عــامة لأن جذورهــا تندفع نحو أعماق التربــة بحثا عن الماء، وهذا ما يظهر من قول السجستــاني «وأفضل النخل أرقها عروقا... وإذا كان في أرض جيدة السر جــاء أبيض رقيقا تراه كأن طرفــه طرف مدري لا يعوجــه شيء حتى يدرك الماء بعــد أو قرب... وإذا انحــدر من أرض خبيثة الطين ليس لها سر انخــرط حتى يتثنى في الماء عنفــا لأنه إنما ســاقــه طلب الماء».(137)

أكــدت الدراســات الحديثــة على أن شجرة النخيل يمكن أن تعيش عــدة أعــوام طويلـــة دون سقــي، لكن يقل إنتــاجها ويضعف نمــوها. أمــا كمية المياه التي تحتــاج إليها فتتراوح مــا بين خمسة عشر ألف وعشرين ألف م3.

134) السجستاني النخلة، مخطوط، خ. ع، رقم د 1221. ص 4.

135) M. Saaidi, Op. cit, p : 14.

136) P. Leroy, Op. cit, p : 11.

137) السجستاني، م. س. ص 12.

كما تتحمل هذه الأشجار المياه المالحة حتـى مستوى تسع غرامات في اللتر زيادة على أنها تتأقلم مع جميع أنواع التربة التي يتعدى سمكها 1,20 م.(138)

يتضح ممـا سبق أن الـوسط الطبيعي لإقليم سجلماسـة هيأ جميع العـوامل الملائمة لنمـو أشجار النخيل. وهـذا مـا جعل هذه المنـاطق مجالا لانتشار هذه المغـروسات على نطاق واسع في العصر الوسيـط. فقد أشارت المصادر الجغـرافية إلى جودة تمور سجلماسـة وأهميتها في حيـاة السكان، علاوة على الدور الذي لعبته في تجارة الصحـراء كسلعة للتبادل في الأسواق السودانية أو كغذاء رئيسي لعمال مناجم تغازى.

وتوجد بمنـاطق سجلماسة نباتات أخـرى كان لها دور كبير في إنعاش الرواج التجاري في العصر الوسيط، لأنها كانت تستعمل في بعض الصناعات التقليدية كالحناء والنيلة التي تـم استعمالهما في صباغة المنسوجات، فضلا عن النباتـات الأخرى التي تمت زراعتهـا بغرض توفير العشب للحيـوانات، وهو ما سنعود إليه في حينه.

4 - مصادر المياه بسجلماسة

أ - الأنهار

اعتمدت سجلماسة في نشـاطها الفلاحي في الفترة المحـددة للدراسة على مياه الأنهار التـي تخترق مجالاتها. ولا تذكـر المصادر الجغـرافية القـديمة أسمـاء هـذه الأوديـة بـاستثناء اليعقوبي وابن سعيـد المغربي اللـذان ذكرا اسـم وادي زيـز. وتطـرح أوصاف الجغـرافيين عـدة مشاكل بخصـوص تحديـد منابـع ومصبـات أنهـار هـذه المنـاطق، الأمـر الـذي يستـدعي الاستعانة بالمعلومات الحديثة قصد فهم هذه النصوص واستغلالها في إطار سليم.

138) M. Saaidi, Op. cit, p. 14 - 15.

ذكر اليعقوبي أن سجلماسة على نهر يقال له زيز،(139) وكتب ابن حوقل في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي أنها على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد.(140) وقد سبقت الإشارة إلى أن كلام ابن حوقل لا يفهم إلا بناء على ذوبان الثلوج وتهاطل الأمطار بمرتفعات الأطلس الكبير الشرقي في فصل الصيف، وجريان مياهها نحو مجرى وادي زيز فيرتفع صبيبه بالنتيجة.

ويمكن اعتبار المرحلة التي عاش فيها هذا المؤلف فترة الأوج في كمية المياه بوادي زيز بدليل أنه أشار إلى وجود إنتاج القطن بسجلماسة.(141) ونعلم أن هذا المنتوج يحتاج إلى درجة حرارة مرتفعة وكميات كبيرة من الماء. وهذا ما لا تستطيع سجلماسة توفيره بمناخها الجاف، فيكون إنتاج القطن على ذلك نتيجة لما امتاز به وادي زيز من تصريف مائي دائم وصبيب قوي نتيجة سقوط الأمطار أو ذوبان الثلوج في مناطق منابعه.

وجاء عند ابن سعيد «ونهرها يأتي من الجنوب والشرق ومنبعه من جبل أزرو الكثير الحيات ومن عيونه وينقسم منها إلى قسمين ثم يجتمع القسمان ويتصلان على غربيها وشرقيها... وينصب هذا النهر في نهر زيز الذي يمشي معه ومع نهر سجلماسة، وإليها خمسة أيام في العمائر والخيرات ثم ينصب نهر زيز في نهر ملوية الذي ينصب في بحر الرومان».(142) يطرح وصف ابن سعيد للمجاري المائية بسجلماسة مشاكل عديدة إذا ما قارناه بالمعطيات الحالية. ويظهر أن هذا المؤلف اشتبهت عليه أمور كثيرة في هذا الباب، لأنه يتحدث عن نهر واحد أحيانا وعن نهرين أحيانا أخرى الأول يحمل اسم زيز والثاني وادي سجلماسة. وجعل منابع وادي زيز في الجنوب والشرق وهو تحديد غامض لا يفهم إلا إذا اعتبرنا أنه كان يحدد منابع هذا النهر انطلاقا من مواقعها بالنسبة إلى المناطق الشمالية

---

139) اليعقوبي، م. س، ص 110.

140) ابن حوقل، م. س، ص 90.

141) نفسه، نفس الصفحة.

142) ابن سعيد، م. س. ص 124.

للمغرب الأقصى. ويرجح أن يكون المقصود بوادي سجلماسة عند ابن سعيد هو وادي غريس الذي يشكل أحد الأنهار الرئيسية في حوض زيز. لكن وصف كل من هذين الوادين في النص أعلاه يوضح أنهما يتصلان على غربي المدينة وشرقها. والحقيقة أن مدينة سجلماسة لا تقع وسط وادين مستقلين وإنما وسط رافدين من روافد وادي زيز. فيكون المقصود بوادي سجلماسة على ذلك هو وادي الشرفاء الذي استحدثه سكان سجلماسة لتحويل مياه وادي زيز إلى السهل الفسيح الواقع إلى الشرق من هذه المدينة، أما وادي غريس فيمر بعيدا عن سجلماسة في جهة الغرب ولا يلتقي بوادي زيز إلا في الجنوب منها. وقد جعل ابن سعيد مصب وادي سجلماسة في البحر الأبيض المتوسط رغم أن هذا الوادي يضيع في الصحراء إلى الجنوب من مدينة سجلماسة كما هو معلوم.

ولا يختلف وصف الجغرافيين القدماء للمجاري المائية بسجلماسة عن وصف الذين أتوا بعدهم وعلى رأسهم الحسن الوزان الذي زار المنطقة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وأكد على وفرة المياه بنهرها حين قال «ينبع زيز من الأطلس في جبال تقطنها صنهاجة ويسيل نحو الجنوب بين عدة جبال مارا بالقرب من مدينة تدعى غرسلوين ويستمر فيما وراء ذلك مخترقا أقاليم الخنك ومضغرة والرتب، فيدخل في بلاد مدينة سجلماسة مارا بين أراضيها الزراعية ويخرج إلى القفر حيث يسيل قرب قصر سغيلة ثم يكون بحيرة وسط الرمال، حيث لا يوجد أي سكن، غير أن الصيادين من الأعراب يختلفون إلى ضواحيها لأنهم يجدون فيها صيدا حسنا جدا».(143) ولا نعلم مكان قصر سغيلة الذي ذكر الوزان أن وادي زيز يكون بحيرة إلى الجنوب منه، كما أن البحيرة لا أثر لها اليوم في المناطق الواقعة جنوب سجلماسة، غير أن وجودها في الفترة التي عاش فيها هذا المؤلف يؤكد أنه كان هناك فائض غير مستعمل من مياه زيز.

وانفرد البكري بذكر معلومات حول منابع وادي زيز تكرر ذكرها في بعض المصادر الجغرافية، وهذا نص كلامه «وسجلماسة على نهرين

143) الحسن الوزان، م. س. جـ : 2. ص 254.

عنصرهما من موضع يقال له أكَلف تمده عيون كثيرة فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها»،(144) وهذا ما نقله صاحب كتاب الاستبصار،(145) وابن عبد المنعم الحميري في كتابه الروض المعطار.(146) ويتضح من رواية البكري أن نهر سجلماسة يأخذ منابعه من مكان يسمى أكَلف، وينقسم قسمين قرب مدينة سجلماسة كما في رواية ابن سعيد المشار إليها أعلاه.

ذكر ماركَا J. Margat أن النهرين اللذان تحدث عنهما البكري هما وادي زيز والساقية المسماة اليوم بواد الشرفاء.(147) ويفهم من ذلك أن الإنسان تدخل منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي لتغيير مجرى وادي زيز بالقرب من سجلماسة عبر ساقية كبيرة أصبحت مع الزمن تحمل اسم «وادي». لكن نسبة تسميتها إلى الشرفاء يوحي بأنها وليدة فترة متأخرة عن التاريخ المذكور أعلاه، لأن الشرفاء العلويين دخلوا سجلماسة في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

ويمكن أن نجد في طبيعة التضاريس بالمنطقة القريبة من موضع مدينة سجلماسة تفسيرا لأسباب انقسام النهر إلى فرعين. فنسجل أولا أن تغيير المجرى الأصلي للوادي تم في وسط سهلي لا يوجد به أي مكان مرتفع سوى موضع مدينة سجلماسة الذي هو عبارة عن هضبة مرتفعة عن مستوى غمر مياه الفيضانات. كما أن المجرى الطبيعي لوادي زيز يشرع في التوجه نحو الغرب في أعلى القسم الشمالي لموضع مدينة سجلماسة مبتعدا عن المناطق الشرقية لها حيث وفرة الأراضي الزراعية. وهذا ما فرض على الإنسان التدخل لتحويل مياه النهر إلى المناطق الصالحة للزراعة، معتمدا في ذلك السدود الحجرية كما هو الشأن في سد ونكَاك الذي أقيم لهذا الغرض، وساقية الشرفاء التي تحول مياه وادي زيز من مجراها الطبيعي إلى سهل تافيلالت.

---

144) البكري، م. س. ص 148.

145) مجهول، الاستبصار. م. س. ص 201.

146) ابن عبد المنعم الحميري م. س. ص 306.

147) J. Margat : Note sur la morphologie, Op. cit. p. 257.

إن تغيير الإنسان لمجرى وادي زيز يعبر عن رغبة ملحة في الاستفادة من مياه هذا النهر، لأن مشكل المياه يفرض نفسه في مجتمع الواحات بحدة. وقد خضع المجرى الطبيعي للوادي لفعل تدخل الإنسان بهذا الإقليم غير ما مرة. ففي جنوب مدينة أرفود ينقسم وادي زيز إلى فرعين هما وادي أمربوح في الشرق وزيز الفيلالي في الغرب. ويمثل الأول المجرى الطبيعي لوادي زيز، أما الثاني فهو من صنع الإنسان الذي حاول أن يقرب مجرى زيز من مجرى غريس عبر وادي إصطناعي وسط السهل.(148)

ويتضح من هذه المعلومات أن الزراعة التي قامت على مياه وادي زيز بسجلماسة قد خضعت لتوجيه معين من طرف سكان هذه المناطق الذين تدخلوا لتغيير اتجاه المياه من مجراها الطبيعي عبر سواقي كبيرة كما هو الشأن في الساقية المسماة واد الشرفاء بالقرب من مدينة سجلماسة، وواد زيز الفيلالي إلى الجنوب من مدينة أرفود.

ولا توجد كلمة أكَلف التي ورد ذكرها عند البكري في أسماء الأماكن بمجالات سجلماسة اليوم. ويفهم من إشارة هذا المؤلف أنها اسم لمكان تتجمع فيه المياه قبل سيلها في نهري سجلماسة، لأن هذا الموضع على حد تعبيره تمده عيون كثيرة. ولا نعلم ما إذا كان هذا المؤلف يتحدث هنا عن منابع هذه الأنهار في الأطلس الكبير الشرقي أو يتحدث عن مكان قريب من مدينة سجلماسة.

حاول روجي فور R. Faure إيجاد تفسير لكلام البكري وذكر أن المناطق الشمالية الغربية من سجلماسة كانت تتوفر على عدد كبير من العيون ذات صبيب قوي ما بين قصر الجبيل وقصر الدار البيضاء. وقد جفت هذه العيون بسبب تراكم الطمي المنقول عبر فيضانات الأودية، ومن غير المستبعد أنها المقصودة بكلمة أكَلف عند البكري .(149) وأكد ماركَا J. Margat هذا الرأي بنوع من التفصيل حين ذكر أن فرشة المياه الجوفية في المنطقة الواقعة على بعد ثلاث كلومترات شمال موقع مدينة سجلماسة

148) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. cit, p 147.
149) R. Faure, Le Tafilalet, Op. cit, p : 12.

عميقة نسبيا بالمقارنــة مع باقي مناطق الإقليم. كما أنها تتوفر على مخزون مهم من كميــة المياه لأن وجود ســد حجري طبيعي بها يمنــع تسرب المياه الجوفية نحـو الجنوب. وهـذا ما أهلها لأن تكـون منطقة غنيــة بمنابع الماء وأهلهـا كذلك لأن تكـون المقصودة في كـلام البكري بمـوضـع أكَـلف. أمـا جفاف هـذه العيون المائية فيجد تفسيره في ارتفــاع سطح الأرض في منطقة سجلماسة بنسبة تسعة أمتار عما كان عليه زمان البكري.(150)

إن منــابع وادي زيز التي تقع في الأطلس الكبير الشرقي جنـوب مدينــة ميدلت بعيـدة نسبيا عن مجالات سجلماســة، وبالقرب منهـا توجـد أيضا منابع وادي غريس وكَـير. وكل هذه الأودية تتغدى اليوم بالمياه التي تتجمع في السفوح الشرقيــة لجبال الأطلس الكبير، أمــا مياه السفوح الغــربية لهذه المرتفعات فتنحدر نحو حوض ملوية.(151)

وتنتمي أوديــة سجلماســة إلى حـــوضين رئيسيين هما زيـز وغـريس. وتجب الإشارة إلى أن وادي غريس لم يـذكر في المصادر الجغرافيــة القديمة رغم أنه يتغـدى بمياه ثـلاثة أنهار هي تـدغة وفركلـة وغريس. وقـد تنبه دوفوكو De Faucauld إلى ارتباط وادي غريس وروافده بحوض وادي زيز من حيث التصريف المائي فأشار إلى أن وادي تدغة وفركلة يندرجان في حوض وادي زيز عبر المجرى الرئيسي لهما الذي هـو وادي غريس، لأن تدغة يلقي بمياهه في وادي فـركلة جنوب قصر أيت يحيى ويلتقي وادي فـركلة بوادي غريس بالقرب من قصر أيت امحمد جنوب توروكَ.(152)

ويخترق وادي غريــس من منابعــه إلى مكان التقــائه بوادي زيــز جنوب سهل سجلماســة منــاطق عـديـدة منهــا أمدغـوس، أســول وأملاكَــو في مرتفعـات الأطلس الكبير الشرقي ليدخل مجال منطقة تــادغوست التي تقع على السفـوح الجنـوبية لهذه المرتفعـات. فيكـون قـد قطع مسافــة ثـلاثين كيلومتر مـن منابعه إلى هـذه المناطق، ثـم يدخل واحـات كَـلميمة والجرف

150) J. Margat, Note sur la morphologie, Op. cit, p 257.
151) F. Joly Op. cit p : 13.
152) De Faucauld, Reconnaissance, Op. cit, p 358.

والكَــفيفات ليصب في مجرى وادي زيــز فيشكل معه وادي الــدورة الــذي يضيع في الصحراء.(153)

تبلغ مساحة حــوض غريس 9.918 كلم^{2}، أما مســاحة حوض زيــز فلا تتعدى 7.835 كلم^{2}. ونظــام التصريف السنوي للــوادين يتميــز بفصلين من الجريان القوي الــدائم هما فصلي الخريف والربيع. وتقل مياههما في فصلي الشتاء والصيف. وتبلــغ كمية المياه خــلال السنة الــواحدة بــوادي زيز 150 مليون م^{3}، ولا تصل بوادي غريس سوى 100 مليون م^{3} مع اختلاف نسبي لهذه الكميات من سنة إلى أخرى.(154)

وتصل فيضانات النهرين إلى منطقــة الرملية جنوب سجلماسة، غير أن أكثر كميــات الماء تأتي عبر مجرى وادي زيز. وربما كــان لأهمية التصريف المائي لهذا الــوادي أثره في اقتصــار اهتمام المصــادر الجغــرافية عليــه دون الاهتمام بوادي غريس. خاصة وأن هــذا الأخير لا يعرف جريانه العادي إلا في السنوات المطيرة وغالبا ما تقل به المياه في السنوات الجافة حيث لا تتعدى مدة جريانه بضـع شـهور من السنة.(155)

ويقترب مجرى وادي زيــز من مجرى وادي غــريــس في سهل تيــزيمي شمال منطقة سجلماســة، وبأرفود على سبيل المثال لا تتعدى المســافة بين الوادين سبعة كلومترات، غير أن وادي غــريس يجري في منطقة منحدرة عن مستوى جريــان زيز بحوالي إثنى عشر مترا، كما أنــه يخترق المجال الغربي لسهل سجلماســة إلى أن يصل المناطق الــواقعة إلى الجنــوب منه.(156) وإذا كانت سجلماسة قد اعتمدت في زراعتها على مياه الأنهار كما جاء في المصادر الجغـرافية، فإنها عــولت في ذلك على ميــاه وادي زيز بــالدرجــة الأولى لأن مجرى هذا الوادي يسـير في وسـط السـهل. أما مياه وادي غريس فكان أغلبها بعد وصوله إلى المناطق القريبة من سجلماسة يتجه إلى الغرب منها بانحدار يصل اثنى عشر متراعن مستوى ارتفاع السـهل.

153) D. J. Meunié, Le Maroc saharien, op. cit, p 149.
154) Fartin, La nappe phréatique, Op. cit, p 112.
155) J. Margat, Note sur les cours d'eau perennes dans les bassins du Ziz et Ghris, N. M., n° 6, 1955, p : 22.
156) F. Joly, Reliéf du Sud-Est, Op. cit, p : 291.

ولا يستبعد أن يكـون تدخل الإنســان قد شمل أيضــا وادي غريس لأن الهدف من شق وادي زيز الفيلالي هو تقليـص المسافة بين مجرى الوادين. كما أن وجود ساقية الغريسية – نسبة لوادي غريس – في الجهة الجنوبية لمدينة أرفود يعطي الدليل على أن المزارع بسجلماســة فكر في فترة تاريخية غير معروفة – ربما تعود للمرحلة التي نحن بصددها – في ربط وادي زيز بغريس قصد استفادة الأراضي السهلية القريبة من سجلماسة من مياه هذا الأخير.

ب – **العيون :**

يعتبر البكري أول مـن أشار إلى وجود العيـون بإقليم سجلماســة، فقد ذكر أن مـدينة سجلماســة على نهرين عنصرهما من موضع يقـال أكَـلف تمده عيون كثيرة.(157) ونقل صاحب الاستبصــار هذه المعلومــات في القرن السادس الهجري الثــاني عشر الميلادي،(158) وابن عبــد المنعم الحميري في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي،(159) دون إضافة. وهذا ما يدفع بنــا إلى التســاؤل حـول مــا إذا كــانت المنابــع لم تعرف تغيرا طيلـة المدة الزمنية الفاصلة بين الفترة التي عــاش فيها البكري والفترة التي عاش فيها الحميري ؟

أكـد محمــد بن إبراهيم بن يحيـى الأنصاري الكتبي الملقب بـوطـواط والمتوفى عام 718هـ / 1318م أن نهر سجلماسة يتغدى بميـاه عدد كبير من المنابع،(160) ونعلم أن هـذا الجغرافي لم يزر منطقــة سجلماسة حتــى تكون شهادتـه حجة في هــذا الباب. لأنــه لا وجود لإشــارات حول منــابع الماء في المصــادر الجغـرافية التي زامنت الفترة التــي عاش فيهــا هــذا المؤلف وعلى رأسها كتــاب «مسالك الأبصار» الــذي اكتفى صاحبه بـذكر نشاط مـدينة

157) البكري، م. س. ص 148.

158) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 201.

159) ابن عبد المنعم الحميري. م. س. ص 306.

160) وطواط من خلال Fagnan, Op. cit, p : 54.

سجلماسة في التجارة الصحراوية ببلاد المغرب.(161) وكتاب «تحفة النظار» الذي زار مؤلفه مدينة سجلماسة سنة 753هـ / 1353م.(162)

وإذا كانت أغلب العيون النشيطة التي نجدها اليوم في حوض زيز وغريس – وهي عيون فم غيور إلى الأعلى من مدينة الرشيدية، وعين مسكي بالرتب، وعين المشارفة في قدم جبل أرفود وعين تيفوناسين شمال كَلميمة – لم يرد ذكرها في مصادر العصر الوسيط، فإن هذا يعتبر دليلا على عدم وجودها خلال تلك الفترة، مما يدل على أن منابع الماء تجف وتنبط تبعا لارتفاع مستوى سطح الأرض الذي ينتج عن تراكم توضعات فيضانات الأنهار. وقد سبقت الإشارة إلى أن المنطقة الواقعة بين قصر الجبيل وقصر الدار البيضاء بالقرب من موقع سجلماسة كانت بها منابع كثيرة اعتبرها ماركَا وروجي فور أكَلف الذي تحدث عنه البكري في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. لكن هذه المنطقة تعاني اليوم من نقص كبير في المياه الجارية على السطح، وتقتصر تلبية حاجات السكان بها على المياه الجوفية المستخرجة عن طريق حفر الآبار.

وتذكر الروايات المحلية أن مدينة سجلماسة كانت تعتمد في زراعتها على مياه عين تمدرين التي كانت تنبع في المكان المسمى اليوم بـ«زرزف» شمال مدينة أرفود، وأن مياه هذه العين كانت تكفي لسقي أراضي تافيلالت بأكملها. ولا توجد كلمة تيمدرين اليوم في أسماء الأماكن المجاورة لمنطقة زرزف، لأن هذا المكان يحد في الشمال والغرب بالكثبان الرملية لإردي وجنوبا بغابات نخيل قصور المعاضيد وشرقا بقصر البروج،(163) لكن هناك كلمة تشبهها لفظا وهي تيدرين التي هي اسم لقصر يشكل إلى جانب قصر أقربوص وأولاد شاكر مجموعة سكنية تعرف باسم القصر الأخير منها، وتقع إلى الشمال من موضع سجلماسة على مسافة ستة وستين كلومتر ولا

161) Ibn Fdl Allah Alomari, Op. cit, p : 200.

162) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت 1975 جـ 2. ص 772.

163) انظر الخريطة الطبغرافية لقصر السوق 1/100.000.

يوجد بهذه المنطقة آثار لوجود عيون أو منابع للماء لأنها تعتمد في زراعتها على مياه عين مسكي ومياه وادي زيز.

في حين أشار جـوانيط C.P. Jouannet إلى أن الأبحـاث التي انجـزت شمال منطقـة تافيـلالت بالمعنـى المحلي للكلمة بهدف إحيـاء عين تيمدرين أكـدت وجود احتيـاطي مهم من الماء يمكن أن يغطي كل حاجـات الإقليم، ويتعلق الأمر بفرشة مائية جوفيـة متجددة على الدوام ماؤها معدني بسبب مروره بطبقات جيولوجية تكثر فيها مادة الملح.(164)

وحسب الـروايـة المحليـة بإقليم سجلماسـة فإن ميـاه عين تمدرين تم تغويرهـا من طرف السلطان الأكحل. ونعرف أن هـذه التسمية كانت تطلق على أبي الحسن المريني كما يتضح من كـلام النـاصري الـذي قال «هـو أفخم ملـوك بني مـرين دولـة وأضخمهم ملكـا... ويعـرف عنـد العـامـة بالسلطان الأكحل لأن أمـه كانت حبشية فكان أسمر اللـون والعامة تسمى الأسمر والأسـود أكحل، وإنما الأكحل في لسان العـرب أكحل العينين فقط، وكان أخوه أبو علي لمملوكة من سبي النصارى، فكان أبيض وإنضـاف لذلك أن كان أبـو الحسن ملكا على الحضرة – يعنـي فاس – وأبـو على ملكا على بلاد القبلة – يعني سجلماسة – فكانـا أخوين ملكين في عصر واحد أحدهما أسمر والآخر أبيض فعرف هذا بالأكحل والآخر بالأبيض للمقابلة».(165)

وتطابق الأحـداث السياسية التـي عرفتها منطقـة سجلماسة في النصف الأول من القـرن الثامن الهجـري الـرابع عشر الميلادي مـا ورد في الروايـة المحلية التي نسبت تغـوير مياه عين تيمـدرين إلى السلطان الأكحل. ذلك أن أبا علي عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان استقل بسجلماسة ما بين 714هـ / 1315م و733هـ / 1333م وجعل منهـا قاعـدة لإمارة ضمت كل منـاطق الجنوب المغـربي كما سنرى. وبعـد وفاة أبي سعيـد عثمان سنة 731هـ /

164) C.P. Jouannet Note sur les conditions actuelles de la vie au Tafilalet B.E.M., vol. 6; N° 17; 1937; p : 8.

165) الناصـري، الاستقصـاء لأخبـار دول المغرب الأقصى، دار الكتـاب، البيضاء 1954، جـ 3 ص 118.

1331م وبيــــعة ابنـــه أبي الحسن علي، رفض أمير سجلماســـة الاعتراف بسلطتـه على دار الملك بفــاس، فجهز أبــو الحسن حملــة ضــد أخيه قصــد إرغامـه على الطاعـــة، لكن أبـا علي بـادر إلى مهادنـــته ومصانعتـه. وأثناء حملـة أبي الحســن علي على تلمســان قام أبو علي عمر بتوسعـات عسكرية في منـاطق الجنـوب أرغمت أبا الحســن على العودة إلى سجلماســة، فأقـام حصاره عليهـا سنة كاملة إلى أن سقطت في يــده سنة 733هـ / 1333م. ولا يستبعد أن يكون هذا السلطان قد عمل على تغوير مياه عين تمدرين أو على الأقل تغيير اتجاه مياهها نحو مناطق بعيدة عن مدينة سجلماسة حتى تقع المدينة تحت رحمة جيـوشه المحاصرة لها. ومهما كـان من أمر في ذلك فإن المصــادر لا تشير إلى سقوط سجلماســة في يــد أبي الحسن نتيجـة حاجـة سكانها إلى الماء، وإنما نتيجــة آلات الحصار التي جلبها هــذا السلطان لهذا الغرض.

إن إشــارات المصادر الجغـرافية إلى أهميــة المنابع في تغـدية وادي زيـز بـالميـاه، واحتفاظ ذاكـرة المحليين في إقليم سجلماســة بـاسم عين تمدرين، يستـدعى الحديث عن الميـاه الجوفيـة والاحتيـاطي الكلي منهـا بهدف فهم قدرتها على استيعاب جميع حاجات السكان من المياه.

والفرشة المائية الجوفية بإقليم سجلماسة عبارة عن بحيرة مغلقة تتجمع فوق سطح غير راشح، وتعرف انحدارا ضعيفا من الشمال إلى الجنوب.(166) وقد ميز كلريان L. Clariond في دراسته الجيدة للطبقات الجيولوجية للمنطقة المحددة للدراســة بين فرشتين مائيتين الفرشة المائيــة «أ» وهـي قريبة من سطح الأرض، ومن خصــائصهــا أنها لا تتغـدى بـالميـاه على الـدوام لأنها تقتصر على رشحان مياه الفيضــانات. والفرشة المائيــة «ب» وبها احتياطي مهم من الماء، لأنها تتغـــدى عبر مجاري جـــوفيـــة تــأتيهـــا من منـــاطق الحمادات.(167)

166) O. Agricole du Tafilalet étude de la salure, Op. cit, p : 12.

167) L. Clariand Les problèmes de l'eau au Tizimi et au Tafilalet B.E.M Vol. 6; N° 17; 1937; p : 238.

ومياه الفرشة المائية «أ» قريبة من السطح لأنها تقع على عمق يتراوح ما بين أربعة وثمانية أمتار.(168) وهذا ما يجعل استغلال مياهها سهلا عن طريق حفر الآبار، لكن كمية الماء التي توفرها تبقى هزيلة بالمقارنة مع حاجات التربة بهذه المناطق لكميات كبيرة من المياه لمواجهة قسوة الظروف المناخية، بما فيها ارتفاع درجة الحرارة والتبخر. أما الفرشة المائية «ب» فتضم احتياطي مهم من الماء، غير أنها تقع على عمق كبير جدا يتطلب الوصول إلى استغلاله تنقيبات كبيرة ووسائل متطورة، وهذا ما جعل التقنيات التقليدية للعصر الوسيط عاجزة عن استغلال هذا الاحتياطي المهم من الماء.

ومعلوم أن الموقع الجغرافي لسهل سجلماسة في الأجزاء الجنوبية للإقليم جعل استفادته من المياه الجارية بالأودية أقل من استفادة المناطق الواقعة في أعلى مجرى الماء. فالعادات والأعراف الخاصة بالاستفادة من المياه تعطي الأسبقية للأراضي الواقعة في العالية، وهذا ما جعل هذه المناطق تعتمد على المياه الجوفية أكثر من غيرها. لكن احتياطي هذه المياه في هذه المناطق ضعيف نسبيا بالمقارنة مع مناطق شمال الإقليم، بسبب وجود حواجز صخرية باطنية في القسم الأعلى من سهل تافيلالت، تمنع جريان المياه الجوفية نحو المناطق الجنوبية.(169)

اقتصرت المياه الجوفية التي كان بإمكان الفلاحين بسجلماسة استغلالها على ما أسماه كلريان L. Clariond بالفرشة المائية «أ» القريبة من السطح التي تعتمد في تغذيتها على المياه الجارية بالأودية، حيث أن 80 ٪ من كمية الماء بها يأتيها عن طريق الماء المستعمل للري.(170) ويخف عمق هذه الفرشة كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق بسبب الارتفاع المتزايد لمستوى سطح الأرض في مجالات سجلماسة نتيجة توضعات حمولة وادي زيز.(171)

168) Hydrologie agricole au Sahara; Op. cit, p : 2.
169) O. Agricole du Tafilalet, étude de la salure, Op. cit, p : 12.
170) Fortin, La nappe phréatique, Op. cit, p : 117.
171) Ibid, p : 122.

والمنابع المائية بسهل تافيلالت تنقسم إلى صنفين صنف يستمد ماؤه من الفرشة المائية «أ» وتتركز هذه المنابع شمال شرق تيزيمي، وصنف ثاني يستمد ماؤه من الفرشة المائية «ب» ويشمل كل منطقة تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة، ويتركز معظمه في مجاري الأودية ويمتاز بصبيب قوي.(172)

تظهر مياه الفرشة الجوفية العميقة بإقليم سجلماسة – أي الفرشة «ب» – في شكل منابع في المناطق المنخفضة على حافة الأماكن التي شقت الأودية فيها مجراها بعمق.(173) ولا يستبعد أن تكون عين تمدرين من هذا النوع نظرا للكمية الهائلة من الماء التي كانت توفرها حسب الروايات المحلية.

وتكثر نسبة ملوحه المياه الجوفية في كل مناطق سجلماسة، وهذا ما يبرر قول البكري «وماؤها زعاق وكذلك جميع ما ينبط بسجلماسة»،(174) وقد أكدت الدراسات الحديثة أن نسبة الملوحة في مياه الفرشة الجوفية بهذه المناطق تتراوح ما بين 0,8 و70 غرام من الملح في اللتر الواحد. وهي موزعة على الشكل التالي 50 ٪ من مجموع هذه المياه الجوفية تحتوي على 5 غرام من الملح في اللتر، و75 ٪ منها تحتوي على 3 غرام في الليتر، و4 ٪ منها تحتوي على 2 غرام في الليتر، وتقع المنطقة التي تتوفر على أكبر قدر من الملوحة جنوب سهل تافيلالت وشمال غرب منطقة تيزيمي.(175)

قدر فور R. Faure كمية الملح التي تحتوي عليها المياه الجوفية بإقليم سجلماسة بـ 30.000 طن.(176) ونعرف أن نسبة الملوحة في المياه تزداد كلما انخفض مستوى وحجم الماء في الفرشة الجوفية. وغالبا ما تطفو الملح على سطح التربة في مناطق تافيلالت مشكلة فرشة بيضاء هي الأصل لتسميتها في كتب الفلاحة العربية بالسبخة وهو ما يطلق عليه في لسان المحليين اليوم اسم «البَخْبَاخْ».

---

172) R. Faure, Le Tafilalet, Op. cit, p 12.
173) L. Clariond, Eau au Tizimi, Op. cit, p : 239.
174) البكري، م. س. ص 148.
175) Fortin, La nappe phréatique, Op. cit, p : 119.
176) R. Faure, Le Tafilalét, Op. cit, p : 29.

تظل جـودة المياه نسبيـة بكل مجال إقليم سجلماسـة نتيجـة المواد الكيماويـة التي تحتوي عليهـا، غير أن هـذه الجودة تقل كلما اتجهنا نحـو المناطق الجنوبيـة، أي نحو تيزيمي وتافيلالت بالمعنى المحلي للكلمـة. فالمياه العذبة أو المتوسطـة العذوبة تنتشر فوق أقل من 5 ٪ من مجموع المساحة الإجماليـة للإقليم، في حين تغطي الميـاه غير العذبـة أي التي تتجاوز نسبـة الملوحة فيها 4 غرام في الليتر ما يزيد على ثلثي مساحة هذا المجال.(177)

ويـرجع السبب في ملـوحـة الماء بهذه المنـاطق إلى ملـوحـة الطبقـات الجيولوجية التي تمر بها المياه الجوفية.(178) غير أن نسبة الملوحة تنخفض كلما ارتفع حجم ميـاه الفرشـة المائية وتـزداد كلما تعرضت هـذه الأخيرة للاستغـلال دون أن تتغذى بـالمطر أو بميـاه الفيضـانات. وهكـذا نجد أن نسبـة ملوحـة الماء تكـون مـرتفعة في المنـاطق التي لا تسقى إلا في حـدود ضيقة.(179)

وليست الملوحة وحـدها هي مميزات المياه بإقليم سجلماسـة، فقد أكدت التحليلات الكيماويـة التي أجريت عليها أنها مشبعة بمـواد أخرى يأتي على رأسها الكلور، وهو عنصر كيماوي غازي سـام والصوديوم. أما المياه التي تحتوي على حامض الكبريت فهي قليلة جدا.(180)

يتضح ذلك من خلال الإحصـاء الدقيق الذي أورده أحد البـاحثين حول نسبـة هذه العنـاصر الكيماوية في ميـاه مختلف المناطق بإقليم سجلماسـة، حيث تـوصل إلى أن ميـاه الآبـار في وسط سهـل تـافيـلالت وكـذلك ميـاه الخطارات في منطقة حنابو التي تعتبر مياهها من النوع الجيد بالإقليم تضم ما بين 275 و400 مليغرام من الكلـور ونسبة قليلة من الملح. أمـا مياه عين المشـارفة بأرفـود وخطارات الضفـة اليمنى لوادي غـريس فهي متسوطـة الجـودة وتضم ما بين 400 و700 مليغرام في الليتر من الكلـور وما بين 1,5

177) J. Margat, L'alimentation en eau potable des populations de la plaine du Tafilalét, N.M. N° 13, 1960, p : 107.

178) G. Gaucher, Les conditions du développement économique du Tafilalét B.E.M. n° 31, 1946, p : 444.

179) Fortin; La nappe phréatique, Op. cit, p : 120.

180) Ibid, p : 119.

و2 غـرام في الليتر من الملح. أما ميـاه آبـار منطقة تيـزيمي فهي من النـوع الرديء لأنها تضـم ما بين 700 و900 مليغرام في الليتر من الكلور وما بين 2 و2,5 غرام في الليتر من الملح.(181)

وتزيد مياه الفيضانات من ملـوحة المياه الجوفية بإقليم سجلماسـة، لأن ميـاه وادي غـريس تضم مـا بين 310 و4720 مليغــرام مـن الملح في اللتر الواحد.(182) غير أن أكبر نسبة من الملح تأتي لمنـاطق تافيـلالت عبر حمولة وادي زيز، لأن هـذا الأخير يفوق وادي غريس من حيث كمية الفيضـانات. ويقـدر مجمـوع كميـة الملح التـي تستقبلهـا المنطقـة عبر حمولـة الـوادين بـ96.500 ألف طن، 95 ألف منها تأتي عبر ميـاه وادي زيز و1500 طن عبر مياه وادي غريس.

5 - مشكل الماء وتدخل الإنسان : تقنيات الري

يلعب الماء دورا أساسيا في حياة السكان بالمناطق التي يغلب على مناخها طابع الجفـاف، وتعاني من قلـة التساقطات في فصـول عديـدة من السنة. وسجلماسة التي ارتبط تأسيسها بوجـود المياه في موضعها، واعتمدت على نهرها في النشاط الزراعي في العصر الوسيط، لابد أنها عرفت مشاكل كثيرة ناتجة عـن قلة الميـاه، لأن نـهر زيز الذي يـزداد منسوب الماء بـه في فصل الصيف على رواية ابـن حوقل،(183) لا يضمن للمـزارع وفرة في كميـة الماء خـلال كل فصول السنـة، وهـذا ما لا يمكنـه من استغـلال كامل للـدورة الزراعية بمختلف منتوجاتها.

وقد عرفـت تقنيات الري تطورا كبيرا في مجتمع الـواحات، لأن قلة الماء بهذه المناطق كـانت بمثابة الحافـز الذي يدفع بـالفلاح إلى البحث عن سبل تضمن له ممارســة نشاطه الزراعي بطريقة مستمـرة. فكان من نتائج ذلك أن تعددت طرق رفـع الماء من باطن الأرض اعتمادا على الطـاقة الحيوانية أو البشرية.

181) J. Margat, Alimentation en eau, Op. cit, p 107.
182) R. Faure, Le tafilalét, Op. cit, p : 21.

183) ابن حوقل. م. س. ص 90.

ولا تشير المصـادر إلى وجود تقنيـات لـرفع الماء بمنطقة سجلماسـة في العصر الـوسيط. ويرجع السبب في ذلك إلى أن مـؤلفيها اقتصرت معـارفهم على المدينة ونشاطها التجاري دون المناطق التي شكلت مجالها القروي، كما أن معلوماتهم عن مصادر الميـاه المتوفرة بهذا الإقليم انحصرت في الاهتمام بوادي زيز والدور الكبير الـذي كانت تلعبه مياهه الجارية في تغـدية مدينة سجلماسة بـالماء الشروب. كتب اليعقوبي في القرن الثالث الهجـري التاسع الميلادي ما يلي «وسجلماسة مدينة على نهر يقال له زيز وليس بها عين ولا بئر».(184) وكلام هـذا المؤلف لا يمكن أن ينطبق على مدينـة قائمـة في بيئة صحـراوية لأن اقتصـار الإنسـان على استغـلال المياه الجاريـة على سطح الأرض لا يتم إلا في المناطق التي تستقبل كميات هائلة من المطر وتتوفر على أودية ذات تصريف مائي دائم.

وانفرد الحسن الوزان بـذكر تقنية وحيدة لـرفع الماء كانت مستعملة في مدينة سجلماسة حين قال «كانت سجلماسة مدينة متحضرة جدا، دورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان وكان فيها مساجد جميلـة، ومدارس ذات سقـايـات عديـدة يجلب مـاؤهـا من النهر، تأخـذه ناعـورات من وادي زيــز وتقـذف بـه في قنـوات تحملـه إلى المدينة».(185) وهذا المؤلـف لم يحدد تاريخا معينا لكـلامه هـذا حتى تسهل علينـا عملية تأطير معلومـاته في مرحلة زمنيـة من مراحل تعمير مدينـة سجلماسة قبل اندراسها.

وتقنية الناعـورة تعرف في بعض الأماكن باسم السانيـة وهـي مصنوعة من الخشب وتـدار بواسطة الحصـان أو الجمل أو الطاقـة المائية في حـالة بنائها على مجرى الوادي. شاع استعمالها في المناطق الواقعة شمال الصحراء الكبرى كتـافيـلالت وواد ريغ وطـرابلس وكـذلك مـدينة فـاس. أمـا البئـر المخصصة للناعورة فشكلها مستطيل يبلغ طولها أربعة أمتار وعرضها متر واحـد. وتكون النـاعورة غـالبـا مرتفعـة بحوالي متر ونصف على مستـوى

---

184) اليعقوبي. م. س. ص 110.

185) الحسن الوزان. م. س جـ : 2. ص 127.

الأرض المرغـوب سقيها، وتـرتفع بجنبـاتها الأشـجـار لحمايتها من أشعـة الشمس.(186)

ويرجع تـاريخ الناعـورة التي تحدث عنها الوزان بسجلماســة إلى العهد المريني، لأن هـذه التقنيـة دخلت المغرب الأقصـى في عهد يعقـوب بن عبـد الحق، وتم بنـاء أول نـاعـــورة على وادي فـاس سنــة 1286 بإشراف أحـد المهندسين الأندلسين.(187)

ولم تقتصر تقنيات رفع الماء بإقليم سجلماسة على الناعورة وحدها، لأن هذه الأخيرة كـانت مستعملة على مـا يظهر على وادي زيـز بغرض تـزويد مدينة سجلماســة بمياه الشرب. ذكر محمد الملـوكي أن سجلماسة استغلت المياه الجوفية عبر تقنية الخطارة، لأن ليس هنـاك ما ينفي وجودها بشمال افريقيا منذ القرون الأولى للفتح الإسلامي».(188)

والخطارة التي تعرف في بعض مناطق بلاد المغرب بالفوكَـارة عبارة عن آبار عديدة تتصل فيما بينها بنفق يحمل المياه عبر مسافة طويلة من منابعه إلى مقـاصده. ولا يمكن استغـلال الماء بهذه الطريقـة إلا إذا توفـرت بعض الشروط حصرها بعض البـاحثين في ثلاثة أولها وجود الميـاه الجوفية على عمق غير بعيـد عن سطح الأرض، وثانيهـا وجـود انحدار في التضـاريس، وأخيرا أن تكون التربة صلبة نسبيا وغير قـابلة للرشحان حتى لا تتعرض آبار الخطارة للهدم.(189) إن هذه المواصفات متوفرة بمجالات سجلماسة لأن المياه الجوفية بها نوعان مياه قريبة من سطح الأرض وأخرى عميقة جدا وهو ما سماه كلريان L. Clariond بالفرشـة المائية «أ» والفرشـة المائية «ب» كما سبقت الإشـارة إلى ذلك. كما أن التربـة بهذه المنـاطق صلبـة نسبيـا بفعل العناصر المكـونة لها، وغير قابلة للـرشحان أيضا إلا في حـدود ضيقة، لأن

186) Colin La noria Marocaine et les machines hydroliques dans le monde Arabe, H. T. 21, 1 er trim. 1932, p : 24.

187) M. Fatha, Contribution à l'histoire de la ville marocaine des Merinides aux wattassides, Bordeaux, 1982, p : 163.

188) El Mallouki, Sijilmassa des origines à 668 H. 1269 (J.C), Aix en provance, 1958, p : 260.

189) G. Deverdun, Marrakech, Op. cit, p : 15.

الصلصال الذي يغلب على نسيجها يصبح مع المدة صلبا ولا يسمح بتسرب الماء إلى الأجزاء الواقعة إلى الأسفل منه.

وتقنية الخطارة تنتشر بمجال يمتد من سفوح الأطلس الصحراوي لمنطقة فيكَيك حتى منطقة تدكلت.(190) ومعنى ذلك أن امتدادها يعم كل المناطق الجافة بشمال افريقيا. وقد ساعد التكوين الجيولوجي لمناطق سجلماسة على استعمال هذه التقنية، لأن التضاريس التي تعود إلى العصر الجيولوجي الأول تتوضع أسفل فرشة غرينية على شكل رصيف منعزل يسمى ريش Ri^s. غالبا ما يكون نقطة انطلاق الخطارات.(191)

وتنتشر الخطارات اليوم بإقليم تافيلالت على الضفة اليمنى لوادي غريس، كما تنتشر بالمنطقة الواقعة بين وادي إيميضر وفركلة.(5) ويتراوح طولها بين مئات الأمتار وعشرين كيلومتر، أما عمق الآبار المكونة لها فما بين ستة وثمانية عشر مترا، وتتسع الساقية التي تربط الآبار فيما بينها لوقوف رجل تحسبا لإصلاحها، كما أن المسافة الفاصلة بين الآبار تتراوح ما بين 5 و30 متر، أما إتجاه هذه الخطارات فهو موازي لاتجاه جريان المياه الجوفية.(192)

وتختلف الخطارات في سجلماسة عن مثيلتها في مراكش في عمق الآبار والمسافة الفاصلة بينها. لأن دوفردان أشار إلى أن خطارات مراكش يصل عمق آبارها إلى أربعين مترا في بعض الأحيان، ولا تتعدى المسافة الفاصلة بينها عشرين مترا.(193) وهذا ما أكده أيضا بول باسكون Paul Pascon.(194)

ويكتنف تاريخ ظهور الخطارات بالمناطق الجنوبية للمغرب الأقصى غموض كبير. وأول إشارة حول هذه التقنية وردت عند الإدريسي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي في معرض حديثه عن مدن فزان بما فيها جرمة وتساوة حين ذكر أن هاتين المدينتين «يقرب بعضهما من بعض،

---

190) Lewicki, Sur le titre libyco - Bèrbère, Varsevie, 1983, p : 75.

191) Larbi Mezzine, Le Tafilalet, Op. cit, p : 264.

192) R. Faure, Le Tafilalet, Op. cit, p 153.

193) G. Deverdun, Op. cit, p 16.

194) Paul Pascon, Le Haouz de Marrakech, Tome 1, Rabat, 1977, p : 106.

وبينهما نحو مـرحلة أو دونـها في العظم وكثرة العـامر سـواء، ومياههم من الآبار وعندهم نخيلات ويزرعون الذرة والشعير ويسقونها بالماء نطلا بآلات يسمونها أنجفة وتسمى ببلاد المغرب هذه الآلة بالخطارة».(195)

وأورد نفس المؤلف في مكان آخر كـلاما يؤكد أن تقنيـة الخطارة ظهرت بالمغـرب الأقصى في القرن الخامس / الحادي عشر الميـلادي في عهد الأمير المرابطي علي بن يوسف. فقد جاء في وصفه لمدينة مراكش ما يلي «وماؤها الذي يسقى بـه البساتين مستخرج بصنعـة هندسية حسنـة استخرج ذلك عبيـد اللـه بن يونـس المهندس، وسبب ذلك أن مـاءهم ليس ببعيـد الغـور موجودا إذا احتفر قريبا من وجه الأرض. وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبيد اللـه بن يونس جاء إلى مـراكش في صدر بنائهـا وليس بها إلا بستان واحد... فقصـد إلى أعلى الأرض مما يلي البستـان فاحتفر فيـه بئرا مـربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منهـا ساقيـة متصلة الحفر على وجـه الأرض ومر بحفر بتـدريج من أرفع إلى أخفض متـدرجا إلى أسفله بميـزان حتى وصل الماء إلى البستـان وهو منسكب مع وجـه الأرض يصب فيـه فهو جـار مع الأيـام لا يفتر وإذا نظر النـاظـر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفـاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها.(196)

اعتمد مولان Molin على نص الإدريسي ليؤكد أن ظهـور الخطارة بالمغرب يعود الفضل فيـه إلى العنصر اليهودي. ذلك أن عبيد اللـه بن يونس – على رأي هـذا المؤلف – أتى إلى مـراكش من الأندلس بـدليل أن عـددا كبيرا من علمائهـا هاجـروا إلى العـاصمـة المرابطية. كما أن اسم يـونس اختص بـه المسيحيون واليهود دون المسلمين، غير أن هذه التقنيـة يقول مولان لم تكن مستعملة بالأندلس على نطاق واسع، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد في أن يونس كان يهوديا وليس نصرانيا، وأنه جلب هذه التقنية من مناطق الصحراء، لأن قبائل التوارگ يستعملـون كلمة إيفلي كمقابل لكلمة الخطارة، ويـوجد بتوات

195) الإدريسي. م. س، ص 22.

196) نفسه ص 43 و44.

وكَــورارة عدد كبير منهــا. وهذا ما يؤكد أنها دخلت مــراكش وتافيلالت عن طريق يهود هذه المناطق.(197)

ويرى لويكي Lewicki أن هذه التقنية دخلت مناطق الشمال الإفريقي عن طريق قبائل زناتة التي اكتسبت تجربة كبيرة في حفر الآبار بفعل احتكاكها بمجالات الصحراء منذ عهود قديمة، وقــد أخذت هذه القبائل تقنية الخطارة من السكان الليبيين القــدماء الذين استعملــوها في الصحراء الواقعــة جنوب طرابلس والــواحات الواقعــة إلى الشرق منها.(198) وهكــذا يتفق لــويكي مع مولان في الأصل الصحــراوي لهذه التقنية، بصرف النظــر عن العنصر الذي أدخلها إلى بلاد المغرب.

واستبعد دوفردان G. Deverdun صحة هذه الآراء جميعهــا، وقال بأنه من غير المقبول أن تكون الخطارة قد أتت المغرب الأقصى من الأندلس، ولو كان الأمر كذلك لحملت اسم القناة الذي يطلق عليها هناك. كما أن القول بأصلها الصحــراوي في العهــد المرابطي يفتقــر إلى الأدلـــة المقنعــة، مــادامت قبــائل صنهاجة التي قدمت من مناطق الجنــوب لم تفكر في إنشاء هذه التقنية قبل عهد علي بن يوسف. ويحتمل أن تكون الخطــارة قد دخلت بلاد المغرب مع الفتح الإســلامي بواسطــة أهل فارس، لأن هــذه التقنية كانــت سائدة بهذه المناطق وبلاد ما بين النهرين منذ عهود قديمة.(199) وقد أكد أحد الباحثين أن هذه التقنية كانت معروفة بقرطاجة في العهد الروماني، بدليل عثور أحد الجيــولوجيين على بقــايــاها أثنــاء التنقيبــات التي أجــريت بضواحي هــذه المدينة.(200)

ومهما كان من أمــر في أصل الخطارة وتاريخ دخولها إلى بــلاد المغرب، فإن أقدم خطــارة بإقليم سجلماسة اليــوم تعود إلى القرن العــاشر الهجري السادس عشر الميلادي. أما خطارات حنابو فتعود إلى القرن العاشر الهجري الســابع عشر الميــلادي، وخطــارات السيفــة تعــود إلى القــرن الثــاني عشر

197) Molin, Op. cit, p : 39.
198) Lewicki, Op. cit, p : 44.
199) G. Deverdun, Op. cit, p : 87-88.
200) Brunchvig, La bérbérie orientale sous les Hafsides, Paris, 1940, T. 1, p 213.

الهجري الثامن عشر الميلادي.(201) وأما آخر خطارة تم بناؤها بالإقليم فتعود إلى فترة حكم مولاي الحسن الأول.(202)

وليس معنى هذا أن هذه التقنية وليدة العصور الحديثة والمعاصرة، فبقدر ما لا نستطيع تحديد تاريخ دقيق لوجود هذه التقنية بكل بلاد المغرب الأقصى بقدر ما لا نستطيع تحديد تاريخها بسجلماسة وكل مناطق بلاد القبلة، لأن حاجة هذه المناطق إلى الماء كانت تشكل على الدوام الحافز وراء البحث عن سبل تعويض النقص في كمية المياه الجارية على السطح.

لقد ساعد قرب المياه الجوفية من سطح الأرض بإقليم سجلماسة على استغلال مكثف لها عن طريق الخطارات أو عن طريق تقنية أخرى تسمى «أغرور» لا نعلم تاريخ ظهورها بهذه المناطق. لكن بساطة الأدوات المستعملة فيها يؤكد أنها تعود إلى مراحل ضاربة في القدم. وهذه التقنية تعتمد الطاقة الحيوانية في رفع الماء من الآبار، وهي تشبه إلى حد بعيد تقنية الدواليب التي ذكرها البكري في معرض حديثه عن المهدية عاصمة الفاطميين حين قال «والماء الجاري بالمهدية جلبه عبيد الله – يعني عبيد الله المهدي – من منانش وهي على مقربة من المهدية في أقداس، ويصب في صهريج داخل المهدية عند جامعها، ويرفع من الصهريج بالدواليب. وكذلك يستقى أيضا بقرب منانش من الآبار بالدواليب ويصب في محبس يجري منه في تلك القناة.(203)

والدواليب مفردها دولاب وهي تقنية غير معروفة اليوم في مناطق المغرب الأدنى حسب ما توصل إليه برانشفيك Brunchvig. غير أن افريقية الحفصية عرفت في القرن الخامس عشر الميلادي ظهور تقنية في رفع الماء تحمل اسم الدلو، توضع على البئر أو على الوادي ويتم الاعتماد فيها على الطاقة الحيوانية.(204)

---

201) R. Faure; Le Tafilalet; Op. cit p : 53.

202) De Chappedelaine; Irrigation par Ghattara dans le Sud marocain, R. G .M, N°1 Mars, 1930, p : 136.

203) البكري، م. س. ص 29 – 30.

204) Brunchvig; Op. cit; T. 2; p 212.

وإذا كان ظهور تقنية الدلو بالمغرب الأدنى قد تم في المرحلة التاريخية المذكورة أعلاه، فإن المصادر القديمة لا تسعفنا على تحديد تاريخ ظهورها بالمغرب الأقصى عموما وسجلماسة على وجه الخصوص. فالدلو هو أغرور بالأمازيغية، وهو تقنية تختلف عن التقنيات الأخرى المستعملة قديما في رفع الماء كالناعورة والخطارة مثلا، غير أن ما يحاكيه هو ما أسماه البكري بالدولاب. كما أن عدم وجود هذا الأخير اليوم ضمن التقنيات التقليدية المعروفة، يعطي الدليل على أنه اتخذ تسمية أخرى مع الزمن هي تسمية الدلو الذي يعرف في البربرية بأغرور.

وأغرور يعني البئر والدلو والأدوات الأخرى المستعملة فيه لرفع الماء. وهو بذلك اسم لتقنية بجميع العناصر المكونة لها. فالبئر المخصصة لأغرور يتراوح عمقها في سجلماسة ما بين عشرة وعشرين متر حسب المناطق، أما عرضها فما بين متر ونصف ومترين.(205) وشكل بئر تقنية أغرور دائري في أغلب الحالات، وقد ذكر ابن العوام أن الآبار التي تتخذ شكلا دائريا هي آبار عربية.(206) فهل يتعلق الأمر في تقنية أغرور بأثر العنصر العربي في منطقة سجلماسة زمان الفتوحات ؟ أشار البكري إلى أن عبد الرحمان بن حبيب – والي افريقية عام 143هـ / 745م – أنبط آبارا على الطريق التجاري الرابط بين تامدلت وأودغست.(207) وإذا سلمنا بهذه الرواية فإنه ليس هناك ما ينفي جلب هذه التقنية في حفر الآبار الدائرية من طرف الفاتحين إلى كل مناطق الجنوب الصحراوي، خاصة وأن أغلب الأبار بمنطقة سجلماسة تتخذ شكلا دائريا.

ذكر ابن خلدون أن مناطق الصحراء الواقعة إلى الجنوب من سجلماسة – التي يسكنها عرب المعقل خاصة أولاد أبي الحسين من ذوي منصور – كانت تعرف طريقة لاستنباط الماء مختلفة تماما عما كان سائدا في مناطق بلاد المغرب، وهذا نص كلامه «وفي هذه البلاد الصحراوية غريبة في

205) R. Faure; Le Tafilalet; Op. cit; p : 45.
206) Ibn Al Awam; Op. cit, p : 121.

207) البكري، م. س. ص 156.

استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتنحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء فينبعث صاعدا فيعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا، ويزعمون أن الماء ربما أعجل سرعته من كل شيء، وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكَرارين ووارگَلان وريغ.(208)

إن هذه الطريقة المعمول بها في استخراج الماء بهذه المناطق الصحراوية تعبر عن خبرة وطول باع سكانها في استغلال المياه الجوفية، وهي طريقة شبيهة بتقنية الخطارة بفارق أن هذه الأخيرة تضم عددا كبيرا من الآبار وليس بئرا واحدة كما في الأولى. غير أن ما ذكره ابن خلدون من أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى يتناقض مع ما ذكره حول الماء الذي يصعد فيعم البئر ثم يجري على وجه الأرض، لأن عمق البئر من شأنه أن يحول دون ذلك. ولا يمكن أن تكون هذه العملية صائبة إلا إذا كانت مناطق الواحات الصحراوية التي تعتمد هذه الطريقة في استخراج الماء تتوفر على احتياطي جد مهم في كميات المياه الجوفية، أسفل طبقات الصخور الصلدة التي ذكر ابن خلدون أن الفعلة يكفون عن الحفر بعد الوصول إليها.

إن وجود هذه الطريقة الغريبة في استخراج المياه الجوفية بهذه المناطق بالذات يوحي بأن الفضل في ظهورها يرجع إلى قبائل زناتة التي اختطت هذه القصور قبل هجرتها نحو المناطق الشمالية لبلاد المغرب. وهو ما سمح لعرب المعقل بتملك كل قصور زناتة بالقفر «مثل قصور السوس غربا وجودة وتامنطيت ثم واركَلان وتابيست ثم تيكَورارين شرقا».(209) فيكون عرب المعقل على هذا الرأي قد عوضوا زناتة بمناطق استقرارها الأولى، وأخذوا عنها بدون شك طرق حفر الآبار واستخراج المياه الجوفية. ثم اسهموا في انتشار استعمالها بعد احتكاكهم بمناطق الوحات المجاورة لجبال

---

208) ابن خلدون، العبر. جـ 7 / ص 77 – 78.

209) نفسه، جـ 6 / ص 77.

درن. وإذا سلمنا بأن الخطارات من صنع قبـائل زناتة على رأي لويكي كما سبقت الإشـارة، فمن غير المستبعـد أن يكـون أغـرور كـذلك من صنعهـا، فيكـون استعماله بمنـاطق سجلماســة قد بـدأ احتمالا مع قبـائل مكناســة الزنـاتية، ثم تطـور مع عرب المعقـل الذين شغلـوا هذه المجـالات وأثروا في أحـداثها ابتـداء من القـرن الســابع الهجري الثـالث عشر الميـلادي وحتى مشارف العصور الحديثة.

إن سكان منـاطق الواحات الـذين كانوا في أمس الحاجـة إلى المياه في كل فصول السنة نتيجة قسوة الظروف الطبيعة بهذه المناطق كانوا مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيـات استنباط الماء من الطبقات الجوفية، نظـرا لتوفر الحافز المتمثل في قلة الماء وكثرة الحاجة إليـه. وتقنية أغرور كما هو الشأن في تقنية الخطـارة كانت وليدة حـاجة السكان إلى المياه الجاريـة على الدوام لمارسة النشــاط الزراعي بطريقـة مستمرة، دون التـوقف في ذلك على مياه الفيضانـات التي يغلب عليها طابع عـدم الانتظام. وإذا كان تحديـد تاريخ ظهـور هـذه التقنيات أمـرا صعبـا في ضـوء معلـومتنا الحاليـة فإن قـدم استغلالها في المناطق المعنية بالدراسة لا يحمل أدنى شك أو ريب.

فحفر الآبـار يتم بالطـرق التقليدية إلى اليـوم بإقليم تافيـلالت، والفعلة المتخصصون في هــذا العمل لهم دراية كبيرة بمعـرفة الأمـاكن التي تحتوي على الميـاه بنـاء على دلالات معينــة يستعينـون بها قبل الشروع في الحفـر. ودليلهم في ذلك ظهـور الرطـوبة على سطح الترْبـة في الصباح والمســاء، أو وجود بعض الأنواع من الأعشاب والنباتات كالكرويا أوالقطف أو إكليل الملك الذي يعـرف محليا باسم «وُدِيــنَـة النَّــعْـجَـة» أي أذن الشــاة. وكل هذه النباتات تعني وجود المياه الجوفية بكثرة في أماكن ظهورها. وهذا يطابق ما ذكره ابن العـوام حول حفر الآبار حين قــال «لما نريد حفـر بئر يمكن أن نستعين ببعض النبـاتات المتنـوعة، أو بلون التربـة في السطح. وقـد جاء في كتـاب الفلاحــة النبطيـة أن الجبال حينما تكـون تحتـوي على المياه تظهـر الرطـوبة على سطح التربة في الســاعات الأولى من اليوم والســاعات الأخيرة

منه، وإذا كانت نسبة المياه قليلة في أعماق الأرض، فإن نسبة الرطوبة تقل على السطح بالمقابل، كما أنه إذا كان لون التربة أصفر يميل إلى البياض يستنتج من كلتا الحالتين انعدام المياه في الأعماق.(210)

ويعبر عن البئر بلهجة المحليين في إقليم تافيلالت بلفظ «الحاسي» دون تمييز بين البئر التي تحفر داخل القصر بغرض توفير الماء الشروب أو التي تحفر بالحقل بغرض استعمالها للري عبر تقنية أغرور. والفرق بينهما أن الأولى تكون مبنية في جنباتها بالحجارة من أسفلها إلى أعلاها، وهي عميقة نسبيا بالمقارنة مع البئر المخصصة لا غرور بسبب وقوعها في مناطق عالية، لأن بناء القصور كان يتم في مواقع مرتفعة قصد فسح المجال لمارسة الزراعة. أما النوع الثاني فيكون عبارة عن حفرة يتراوح عمقها ما بين 10 و20 متر حسب المناطق، ولا يتم طيها إلا في القليل النادر.

توجد تقنية أغرور في كل المناطق الصحراوية بشمال غرب إفريقيا،(211) وهذا ما يؤكد أنها انتشرت بهذا المجال الواسع نتيجة لتحرك بعض القبائل عبره خلال فترة تاريخية معينة. وبما أن هذه المناطق كانت مجالا لتنقل زناتة وصنهاجة وعرب المعقل، فإن شيوع هذه التقنية يدل على أنها وليدة احتكاك إحدى هذه الجماعات بها، وأن استمرارها إلى اليوم يعنى احتفاظ هذا المجال بما يتلائم مع الظروف البيئية له رغم الاختلاف الذي شهدته المنطقة خلال مراحل تاريخية مختلفة.

ويتم استغلال أدوات عديدة في تقنية أغرور، فإلى جانب البئر هناك الحفرة المخصصة لحركة الدابة أثناء قيامها بجر الدلو، وتعرف في تافيلالت اليوم باسم «الصنيفة»، ويكون انحدارها خفيفا ومتدرجا في اتجاه نهايتها، وهي ذات شكل مستطيل يبلغ طولها أكثر من عمق البئر بشيء قليل أما عرضها فلا يتجاوز المترين.

---

210) Ibn Alawam; Op. cit; p : 121.
211) R. Faure; Le Tafilalet; Op. cit; p : 45.

ويصنع الدلو غالبا من جلد الجمال وأحيـانا من جلد المعز، ويبلغ طوله متر واحد أما حجمه فيتسع لما بين عشرين وثلاثين م^3 من الماء.(212) ويربط الـدلو بحبلــين يشــد الأول منهمـا إلى فتحتـه العليـا والثاني إلى الفتحـة السفــلى، والغرض من وجـود الحبلين تسهيل عملية مـلأ الدلـو، وتسهيل عملية صعوده إلى أعلى البئر، لأنهما يساعدان على انطواء الجزء الأسفل منه أثنــاء صعــوده بفعــل ابتعـاد الـدابـة عن البئـر، كما أن هـذين الحبلين يسهلان عمليـة إفراغ الماء في الصهـريج عن طريق سحب الـواقع إلى الأعلى منهما.(213)

وتتخـذ «الجرارة» مـوضعا وسطـا في أعلى البئـر بين قطعتين خشبيتين تسمى «الحناك» تتكيء كل منهما على قطعة خشبية أخـرى توضع بطريقة عمـودية على ســاريتين من الطين تنتصب كل واحدة منهما على جـانب من جوانب البئـر. وفي الجزء الأعلى من «الحناك» عمود خشبي يوضع بطـريقة أفقية يسمى «الساري»، والغرض من وجـوده ضمان ثبات «الحناك» اللذان تتوسطهما «الجرارة».(214) ويمـر الحبل المشـدود إلى الفتحـة العليا للـدلـو بـالجرارة قبل أن يصــل إلى دولبين يتم إثبـاتهما بـالقـرب مـن الصهـريج المخصص لإفراغ الماء، أحدهما كبير ويسمى «المغزل الكبير» وآخر صغير إلى الأسفل منه يسمى «المغزل الصغير».

تسمى هذه الأدوات المختلفة المصنـوعة من الخشب التي يتم استعمالها في تقنيـة أغرور بـــ«التركيب»، وهـي في الغـالب من خشب النخيل كما هـو الحال في «الحناك» و«الساري»، أو من خشــب الصفصاف كما هو الحال في الدولبين، وهذه الأنواع الخشبية موجودة بكثرة في مناطق الواحات، وهذا ما من شأنه أن يجعل هذه التقنية وليدة هذا المجال الجاف، يضاف إلى ذلك أن الدلـــو الذي أصبح اسمــه يدل على التقنيـة بأكملهـا كان يصنع من جلـد الجمال والمعز وهي حيـوانات تمثل أغلب قطعـان الماشية عنـد الرحل بهذه المناطق.

---

212) Ibid; p : 45.
213) Hydrologie agricole de Sahara; Op. cit; p 3.
214) R. faure; Op. cit; p : 46.

وإلى جانب النـاعورة والخطارة وأغرور اعتمد سكـان سجلماسة بعض الطرق الأخرى لخزن مياه الفيضانات واستعمالها عنـد الحاجة، وأبرزها ما يسمى عند المحليين بـ «الْـحْـفَـارِي» جمع حفـرة وهـي الأحواض التي يتم حفرهـا بجـانب القصـور خصيصـا لهذا الغـرض، أو التي تكـونت بفعل استعمال التراب في عمليـة البنـاء بـاللـوح أو في صنـاعـة الطـوب، وتكثـر «الْحْـفَـاري» في الجنوب الشرقي للإقليم.

وإلى جانب الْـحْـفَـارِي هناك «الْـكَـلْـتَـاتْ» مفردهـا كَـلتة وهـي بقايا مياه الفيضانات في مجرى الوادي، ويقع أغلبها على السدود الحجرية المقامة لتحويـل ميـاه النهـر نحـو المناطـق الـزراعيـة وأهمهـا كَـلتة ونكَـاكَ وسلاوة وبوعمار ويغـزر ويرارة،(215) وكلها تـوجد في تـافيلالت بـالمعنى المحلي للكلمة.

215) J. Margat; Alimentation en eau; Op. cit; p 105.

الفصل الثاني :

السكن والسكان بسجلماسة وإقليمها

1 – سجلماسة حاضرة الإقليم :

أ – الموقع والتسمية

اهتمت المصادر الجغرافية القديمة بمدينة سجلماسة تبعا للدور الذي لعبته في التجارة الصحراوية، وتم تحديد موقعها بناء على المسافات الفاصلة بينها وبين المدن الكبرى بالمغرب الأقصى كأودغست وغانا «كومبي صالح»، أو المدن المغاربية كتاهرت والقيروان، أو مدن بلاد السودان المصدرة للتبر وهو ما سنعود إليه في حينه.

حدد ابن سعيد المغربي موقع مدينة سجلماسة حسب خطوط الطول والعرض وقال «وفي غرب درعة مدينة سجلماسة وهي قاعدة ولاية مشهورة حيث الطول ثلاث عشرة درجة وإثنتان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة».(1) وهذا التحديد لا يتناسب مع ما توصلت إليه الدراسات الحديثة، لأن موقع خراب سجلماسة يقع ما بين خط طول 31° و7' غربا وخط عرض 34° و80' شمالا.(2)

بنيت هذه المدينة على موقع طبيعي ممتاز وهو عبارة عن هضبة مرتفعة عن مستوى غمر مياه فيضانات وادي زيز.(3) واختيار هذا المكان لبناء سجلماسة تبرره حاجة سكانها إلى الحماية اللازمة لتفادي غمر فيضانات هذا الوادي، وفسح المجال لممارسة النشاط الزراعي في الأراضي السهلية المجاورة.

---

1) ابن سعيد، م. س. ص 124.

2) كولين، مادة سجلماسة، دائرة المعارف الإسلامية، العدد / 11. ص 298.

3) J. Margat, note sur la morphologie; op. cit; p : 256.

وكلمة سجلماسة كما أشار القلقشندي «بكسر السين المهملة وكسر الجيم والسكون وفتح الميم ثم ألف وسين مهملة مفتوحة وهاء في الأخر.(4) وذكر الحسن الوزان في نفس الموضوع «أن مؤسس هذه المدينة حسب بعض مؤلفينا قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة فبنى المدينة وسماها سجلوم ميسي لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة.(5) وقد كانت رواية الوزان هاته مصدر آراء عدد كبير من المؤرخين في موضوع تسمية هذه المدينة وتاريخ تأسيسها.

يرى كولين Colin أن كلمة سجلماسة مشتقة من سجلوم Sigillum وهي كلمة لاتينية مأخوذة من الكلمة اليونانية سيجيليوم σιγλλιον واستعملت في اللغة العربية للدلالة على صكوك المبايعات وعلى كتاب يكتب به القاضي صورة الدعاوي والحكم فيها، كما استعملت للدلالة على الكتابة. وقد سلم فقهاء اللغة ومفسروا القرآن بأن الكلمة من الدخيل على اللغة العربية ونسبها بعضهم إلى الحبشية والبعض الآخر إلى الفارسية، والسجل بمعنى الوثيقة المكتوبة شائع معروف في اللغة العربية.(6)

وذكر ماك كوك أن الكلمة مركبة من شقين سجل وماسة وقال أن لفظ سجل جاء في القرآن بدون ياء وجاء بالياء أيضا «سجيل» وقد اختلف أهل التفسير في معنى اللفظين وفي أصالتهما أو تعريبهما فقالوا في الأول «سجل» أن من معانيه الصك وكتاب العهد والكتاب والرجل بلغة الحبشة... وقالوا في الثاني «سجيل» أن من معانيه الصلب الشديد وحجارة كالمدر، وحجارة من طين وعلى هذا المعنى يكون عربيا أصيلا.(7)

إن هذا التعليل القائل بأصالة كلمة سجيل في اللغة العربية يدفع إلى الاعتقاد في أن الشق الأول من كلمة سجلماسة عربيا فيكون بذلك وليد فترة

---

4) القلقشندي، م. س. ج 5 / ص 163.
5) الحسن الوزان. م. س. ج 2 / ص 127.
6) كولين، م. س. ص 297.
7) ماك كوك. م. س. ص 41.

الفتوحات الإسلامية لشمال افريقيـا. أما الشق الثاني منها فهو اسم لمدينة بالمنـاطق الجنوبية للمغـرب الأقصى هي مدينة مـاسة، وعليه، تكـون هذه الكلمة مركبة من سجيل وماسة، حسب أصحاب هذا الرأي.

ولا يمكن مجارات مـا جـاء بـه الحسـن الـوزان بخصـوص تسميـة سجلماسـة لأن هذا المؤلف لم يحدد مصـدر معلـوماتـه في هذا الموضـوع، واكتفى بذكر أنه اعتمد على بعض المؤلفات القـديمة. وهذا ما لم نجد له أي أثر فيما هو معروف ومتداول من المصادر الجغرافية والتاريخية.

أورد ماك كوك مـلاحظات في غاية الأهمية حـول رواية الوزان عن اسم سجلماسة، وأشـار إلى أن المعنى الشـائع لكلمة سـجلا sigilla هو مجموعة من الرسوم أو الصـور، ولكن مفـردها الذي هو سـجلوم sigillum يمكن أن يعني أثر أو سمـة أو علامـة، لكن السؤال الـذي يفرض نفسه هـو هل سبق أن استعملت الكلمة بهذه الطريقة في تسمية بعض الأماكن الرومانية ؟

تواجدت في بريطانيا الرومانية مدينة أطلق عليها اسم سجلكوم sigilocom، وكلمة locom التي تعني المكـان مقصودة في هـذا الإسم. وأضـاف مـاك كوك قـائلا والحقيقة أن كـون لفظ سجيل دخيل على العربيـة لا يسـاعـد حتما التعليل الذي أتى بـه ليون الإفريقي. ذلك أنه بالـرغم من عدم اعتراف كثير من المعلقين، فإن الاسـم يمكن أن يكـون بكل سـهولة مـن أصل عربي. وإذا كانت الكلمة عندها في اللغة العربية معنى دفتر، تدوين أو وثيقة من أي نوع كانت فهل يمكن أنها تشير إلى بعض التقـارير أو البيانـات عن التجارة عبر الصحراء ؟ يبقى الجزء الأخير من الاسـم غير واضح ويظهر أنه ليس لاتينيا ولا عربيا وربما ليس بربريا.(8)

استنتج الأستاذ العـربي مزين في تحليلـه لكلمة سجلماسة أن تـركيبها غـريب عن اللغة الـلاتينيـة والعربيـة، وأكد بأن اشتقـاقهـا جاء من اللغـة البربرية ويظهر ذلك من قوله «إذا نحن أخـذنا المجموعة الصوتية س. ج. ل. م. س التي يتكون منها اسم سجلماسة واستبـدلنا حرف الجيم بحرف

---

8) ماك كوك م. س. ص 42.

الكاف، كطريقة للاستقراء، سنلاحظ بأن اللغة البربرية تحتوى على ألفاظ كثيرة نجد فيها كلا أو بعضا مسلسلة هذه الحروف كأكَلموس، إكَلماس، إسكَلمس، أكَلمام، أكَلمان أوكَماس. أو نجد أيضا أمِيس، تالمست، أولماس، ماست. وبصفة عامة فإننا نشاهد في المسلسلة الأولى المقطع المكون من الأصوات أ + ك وفي المسلسلة الثانية، ليس لنا على العكس من ذلك سوى هذا الصوت الأخير م + أ + س. وجميع أسماء الأماكن التي يتكون منها هذا الصوت في المسلسلتين الأولى والثانية تعني أماكن ثرية بالماء الشيء الذي يجعلنا نفكر أن التركيبة الصوتية م + أ + س كانت تعني الماء في اللغة البربرية قبل أن تتأثر هذه اللغة بالعربية.(9)

إن لفظ سجلماسة على الذي سبق له علاقة بالماء لأن الكلمات التي تشبهه في التركيب اللغوي لها علاقة بهذا الأخير. فأكَلموس وأوكَماس وكَماسة تعني الأماكن المشرفة على المستوى العادي لجريان المياه، وأولماس وإلماس وماسة تعني الأماكن التي يوجد بها الماء أو التي انقطع تواجده بها. وإذا اعتبرنا أن كلمة سجلماسة مركبة من سيج + إلماس يكون معناها المكان المشرف على الماء أو المكان الذي يتواجد به الماء.(10) وهذه المواصفات تنطبق على موضع سجلماسة لأن هذه المدينة بنيت على هضبة مرتفعة عن مستوى غمر مياه وادي زيز كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فضلا عن أن هذا النهر كان يحيط بها من جميع جهاتها، وكان المصدر الأساسي في شرب أهلها.

إن أقرب صورة للفظ سجلماسة في اللغة البربرية المعروفة حاليا – كما أشار الأستاذ العربي مزين – هو لفظ «إسيكَلماس» وهي صورة ناتجة عن التحول التركيبي من أ + كك إلى إيسيك التي تدل على التعدية. ولهذا يمكن أن نقول بأننا أمام تركيب لفظي يفيد التعدية بخصوص اسم

---

9) العربي مزين، سجلماسة، مذكرات من التراث المغربي، الرباط 1984. المجلد الثاني. ص 25.

10) Larbi Mezzine; sur letimologie du toponymesigilmassa; H. 1984. p : 22-24.

سجلماسة، معنـاه المكان المشرف على الماء وقد عرب على الصـورة التي هو عليها.(11)

فالكلمة المركبة من سيج + إلماس أدخلت عليها بعض الإضافات بغرض تعريبها «ذلك أن تاء الآخر في الكلمة العربية هي التي تعوض نون الآخر في الكلمة البربـرية ومثال ذلك كلمة كَـلميمة التي تسمى بالبربريـة إكَـلميمن وكَدميوة إكَـدميون وولاتة إيولاتن، وهكـذا فإن حرف التاء يعـوض نون الآخر المرفقة بالياء في صيغة الجمع في البربرية.(12) وهو ما يمكن أن نقيسه على سيج + الماس التي أعطت صيغة سجلماسة في اللغة العربية.

وتستعمل كلمـة تـافيـلالت للـدلالـة على مجالات سجلماسـة في بعض المصادر. ويـرى البعض أن هذه الكلمـة وليدة العصور الحديثـة، بحجة أن الحسن الوزان الذي ألف كتابه «وصف افريقيا» في النصف الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي لم يستعمل قط لفظ تافيلالت وإنما ذكر تلك المناطق بـاسم عاصمتها القديمة مدينـة سجلماسة. فيكون التغيير الذي لحق التسمية قـد ظهر بعد الفترة التي عاش فيهـا هذا المؤلف حسب هذا الرأي.(13)

والحقيقة أن لفظ تافيلالت كان يطلـق على مناطق سجلماسة منذ تاريخ سـابق للفترة المشار إليهـا أعلاه بـدليل أن ابن خلـدون استعمله في القـرن الثامن الهجـري الرابع عشر الميلادي أثنـاء حديثـه عن مواطن أولاد حسين وأولاد أبي الحسـين من عرب المعقل.(14) لكن استعماله لم يتـداول بكثرة في مصادر تاريخ المغرب إلا في العهد السعدي.

تذكر الرواية المحلية بإقليم سجلماسة أن تاريخ ظهور تسمية تافيلالت يعـود إلى العصر الوسيط وبـالضبط إلى الفترة التي شـهـدت قدوم الشرفـاء العلـويين إلى هذه المنـاطق أي أواخـر القـرن السابع الهجـري الثـالث عشر

---

11) العربي مزين، م. س. ص 28.

12) Larbi Mezzine; sur l'etimologie; op. cit; p : 20.

13) D. J. Meunie; Abbar cité royale du tafilalet; H. 1959; p : 10.

14) ابن خلدون. م. س. ج 6 / ص 77 – 87 – 89.

الميلادي. ولفظ تافيلالت حسب هذه الـرواية تم اشتقاقه من كلمة «أوفيوا» من فعل وفى يفي، و«أوفيوا» معناها أوفوا بصيغة أنتم في الأمر. وهذه الكلمة هي التي كـان يقـولها الشريف مـولاي الحسـن بن القـاسم – القـادم من الحجاز إلى سجلماسة – بعد استقراره بين ظهـران سكانها. وكان قد علمهم طرق ري جـديدة وتعهـد هؤلاء بالمقـابل بتأدية ربع الغلـة في حالـة نجاح فلاحتهم. لكنهم رفضوا بعد أن تحقق لهم ذلك إعطاء الشريف ما وعدوه به، فكان يقـول لهم «أوفيوا» أي أعطـوني ما وعـدتموني به فيجيبـونه «لا لا» فسموا بـ«فيلالا» من كلمتي أوفيوا + لالا. فتكون تسمية تافيلالت على هذا مشتقة من «فيلالا» خاصـة وأن إضافة تاء البداية وتـاء النهاية إنما تكون لإعطاء اسم المكان العربي صيغة بربرية.

وإذا كان سكـان سجلماسة يتداولـون هذه الروايـة لتفسير أصل كلمة تافيلالت فإن المهم فيها أنها قسمت الكلمة شقين، وهذا يذكرنا بتركيب كلمة سجلماسة في محاولات تفسر معنـاها من قبل القائلين بـالأصل اللاتيني أو العربي أو البربري لها. وتجب الإشارة إلى أن تـاء الأول والآخر التي نجدها في كلمة تـافيلالت شـائع استعمالها في أسماء الأماكن بهذه المنـاطق، ومثال ذلك أسماء بعض القصـور كـ تـاخنـوست التي هي الاسـم البربـري لأخنوس وتوجـديت وتامسكانت وتابعصامت وتازكـزاوت، وهذه القصور جميعها موزعـة على وادي إفلي وبني محمد والسفالات في منطقة تـافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة.

ذهب جاندر F. Gendre إلى القول بأن كلمة تافيلالت هي الصيغة البربرية لكلمة «فيلال» التـي هي اسم منطقة بالجزيرة العـربية. وأن استعمال هذه الكلمـة قد شـاع في مـرحلة قـدوم الهلاليين إلى بـلاد المغرب بفضل عـرب الصباح الذين استقروا في منطقة تيزيمي والجرف بإقليم سجلماسة بعد أن رافقوا الهلاليين في طريقهم نحو الغرب.(15)

وذكرت د. ج. مـوني أن كلمة تـافيلالت هي تصغير لكلمـة «أفيلال» أو «أوفيلال» التي تطلق على سلسلـة جبلية صغيرة بمنـاطق سجلماسة يصل

15) F. Gendre; le tafilalet; op. cit; p : 52.

علو أعلى قمة بها 785م، وتوجد على بعد 50 كلم جنوب جنوب شرق مدينة الريصاني و4 كلم شمال شمال غرب مدينة الطاوز.(16) ويعتبر جبل أفيلال من المواقع المأهولة قديما بمناطق سجلماسة لأن به بعض الآثار التي تشهد على استقرار الإنسان منذ فترة غابرة. وهي عبارة عن رسوم للعربات التي تجرها الخيول وبعض الكتابات من تيفناغ لغة التوارگ.

لقد اختفى لفظ سجلماسة اليوم ولم يعد مستعملا في رواية المحليين إلا نادرا، وحتى المدينة التي كانت تحمل نفس الاسم لم يبق من إشعاعها الحضاري في ذاكرة سكان هذه المناطق شيأ، كما أن خرابها الذي يمتد على مساحة شاسعة غرب مدينة الريصاني أصبح يعرف باسم «المدينة العامرة». وإذا كانت كلمة سجلماسة تعني المناطق الواقعة على ضفاف مجرى وادي زيز وغريس وتدغة وجزء من مناطق وادي گير عند الجغرافيين العرب، فإن لفظ تافيلالت في الوقت الحالي لا يدل على كل هذا المجال الواسع بل يقتصر فقط على المناطق الواقعة جنوب تيزيمي والممتدة حتى قصر تنغراس، وهو المجال الذي يتوسطه خراب مدينة سجلماسة.

ب – مشكل التأسيس :

تنقسم الروايات الخاصة بتأسيس مدينة سجلماسة في مختلف الكتب الجغرافية القديمة إلى قسمين روايات تقول بأن بنائها تم في الفترة الإسلامية، وأخرى تعود بتأسيسها إلى مرحلة حكم الرومان لبلاد المغرب. ورغم تعدد هذه الروايات فإن تضارب أخبارها يجعل تاريخ تأسيس هذه المدينة غير معروف بشكل دقيق خاصة وأن أقدم الروايات الإسلامية التي هي رواية البكري تؤرخ لبناء سجلماسة بتاريخين مختلفين.

ويرى أحد الباحثين أنه لا يمكن الاطمئنان لهذه الروايات على قدمها، لأنها لم تكن تاريخا بالمعنى الحقيقي للتاريخ وإنما هي روايات شفوية

---

16) D. J. Meunie; Abbar; op. cit; p 10.

مضى عليها زمن طويل قبل تدوينها، لـذلك ينبغي أن تؤخذ بنفس الطريقة التي تأخذ بها الروايات الشفوية في أيامنا هذه.(17)

ويعتبر البكـري أول من أورد روايـات مختلفـة حـول تأسيس مـدينـة سجلماسة وعـددها ثلاثـة مرتبطة بـأسماء أمراء بني مدرار. غير أنـه ذكر تاريخين مختلفين في هذا الموضـوع وهذا نص كلامه «ومـدينة سجلماسة بنيت سنـة أربعين ومـائة وبعمارتها خلت مدينـة تـرغـة وبينهما يومـان وبعمارتها خلت زيـز أيضا».(18) وقد اكتفى هـذا المؤلف هنا بذكـر تاريخ تأسيس سجلماسة ومـا سببه من خراب لمراكـز حضرية كانت قـائمة بتلك المناطـق قبل هذا التاريـخ ويتعلق الأمر بمـدينتي ترغة وزيـز اللتين سبقت الإشارة إليهما.

وفي مقام آخـر أورد نفس المؤلف رواية حـول تأسيس هـذه المدينة لها علاقة مع أمراء الخوارج الصفرية وقال «وملك بنو مدرار سجلماسة مائة وستين سنة وكان فيهم أبو القاسم سمجـوا بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار، لقي بأفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه، وكان صاحب ماشيـة وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة، فـاجتمع إليه قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن زيد الأسود وولوه أمـرهم، فشرعوا في بنيان سجلماســة وذلك سنة أربع ومـائة. وذكر آخرون أن مدرارا كان حدادا من ربضية الأنـدلس فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقـرب سجلماسة، وموضـع سجلماسة إنذاك بـراح يجتمع فيه البربر وقتامـا من السنة يتسوقون... فكان مـدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها ثم تمدنت والأول أصح في عمارتها».(19)

أشار البكـري هنا إلى تـاريخين بخصوص تأسيـس سجلماسة أو لهما سنة 104 هـ / 723م ويظهر أنه من خطأ الناسخين لقربه من التاريخ الوارد

---

17) ماك كوك، م. س. ص 7 – 8.

18) البكري، م. س. ص 148.

19) نفسه، ص 149.

في الرواية الأولى الـذي هو 140هـ / 757م. أما التاريخ الثـاني فهو تاريخ ثورة الربض التي ذكـر أن مدرارا خرج أثناءهـا من الأندلس إلى سجلماسة بصفته حدادا. وثـورة الربض كما هو معروف تمت على مـرحلتين بقرطبة عاصمـة الأمويـيـن زمان خلافة الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الأولى في سنة 189هـ / 806م، وقد استطاع الخليفة إخمادها بسهولة. والثانية في سنة 202هـ / 818م وكانت أعنف من سابقتها وهي التي أسفرت عن تشريد أهل الربض في جميع أقطـار الأندلس ومنهم من جاز البحر إلى العـدوة بالأهل والولد فاحتلـوا بعدوة فاس، فهم عدوة الأندلس منهـا، فصيروها مدينة.(20) فيكون مدرار قـد قدم من الأندلس إلى سجلماسة في أحـد التاريـخين المشار إليهما أعلاه، غير أن البكـري نفسه أبطـل صحة هـذه الروايـة حين قال أن سـابقتها أصح في عمارة المدينـة، يعني الـرواية عـن عيسى بن يزيـد وأبي القاسم سمكو بن واسول.

إن البكري لم يزر منطقة سجلماسة وإنما كان في وضـع مكنه من جمع بعض أخبـارها اعتمادا على سجـلات الأمـويين في القرن الخامس الهجـري الحادي عشر الميلادي. وهذا ما يستوجب التعـامل بحذر مع المعلومات التي أوردها في هذا المضمار، خـاصة وأن هذا المؤلف قد ذكـر أكثر من رواية في موضوع التأسيس نتيجة اختلاف المصادر الشفوية لمعلوماته.

وحول روايـة البكري عن تأسيـس الأمير مدرار لمدينة سجلماســة كتب ماك كوك مـا يلي «كيف يعقل أن يبني مدرار هذه المدينة إذا كـان جده قد بناها من قبل ؟ أو كـان عيسى هو الذي قد بناها أيام جـده ؟ وإنه لغريب حقا أن ينسب بنـاء المدينة إلى الثـالث من رجال دولتهـا الأولى، وقد وضح البكري سلسلة نسب هـذه الدولة حين قال أبو القـاسم سمجو بن واسول المكنـاسي أبو اليسع المذكـور وجد مـدرار».(21) إن نسبـة تأسيس مدينـة سجلماســة وكذلك نسبـة تسميـة إمـارة الخوارج بها إلى مدرار يـرجع إلى

---

20) ابن عذاري المراكشي، البيان، المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983. ج 2. ص 77.

21) ماك كوك، م. س. ص 27.

الشهرة التي كانت لهذا الأمير في فترة حكمه ما بين 823م و867م. فقد ذكر محمود إسماعيل أن إمارة الخوارج الصفرية شهدت في عهد مدرار خلافات مذهبية كبيرة بين الإباضية والصفرية.(22) كما أن مدرارا تزوج من إحدى أميرات بني رستم بناء على رواية البكري التي تقول أنه كان لمدرار ولدين يدعى كل منهما ميمونا، أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى بقية.(23)

وربما كان لكل هذه الأحداث أثرها في أن يكون لاسم مدرار صدى واسعا في تاريخ المنطقة، فأصبح إسمه مرتبط بتأسيس المدينة وتسمية الإمارة. ثم إن مدرارا في نص البكري كان حدادا بربضية قرطبة في الأندلس، وحرفة الحدادة مشهورة بقوة وشدة بأس ممارسيها لقدرتهم على تطويع الحديد رغم صلابته.

وإذا ما عدنا لرواية البكري الأولى حول تأسيس سجلماسة نجد أن هذا المؤلف ينسب ذلك لأميرين هما عيسى بن يزيد الأسود وأبي القاسم سمكو بن واسول. والظاهر من هذه الرواية أن المؤلف أرخ لعيسى وأبي القاسم في فترة واحدة، والحديث عن الأول – الذي هو أول أمير خارجي لإمارة المدراريين – مطمور في الحديث عن الثاني الذي هو فقيه المذهب وصاحب الفضل في نشر تعاليمه بتلك المناطق. وبما أن أبا القاسم سمكو بن واسول هو الذي خلف عيسى في تسيير شؤون الإمارة بعد تأسيس المدينة بخمس عشرة سنة، فإن دوره في مباشرة النفوذ كان أمرا مؤكدا في مرحلة حكم عيسى الذي «أنكر أصحابه عليه أشياء... فأخذوه وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض فسمي ذلك الجبل جبل عيسى إلى اليوم».(24)

---

22) محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة 1976. ص 123.

23) البكري، م. س. ص 150.

24) ابن عذاري المراكشي، م. س. ج 2. ص 77.

اتفق صاحب كتاب الاستبصار مع رواية البكري القائلة بتأسيس سجلماسة سنة 140هـ / 757م، وذكر أن الذي أسسها هو «مدرار بن عبد الله وكان رجلا من أهل الحديث يقال أنه لقي بأفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكان كثيرا ما ينتجع سجلماسة... فاجتمع إلى مدرار قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم مدرار وشرعوا في بناء سجلماسة... وذكر آخرون أن رجلا حدادا اسمه مدرار وكان من ربضية قرطبة خرج من الأندلس عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة وموضع سجلماسة إذذاك سوق البربر بتلك النواحي فأنشأ بها مدرار خيمة وسكنها فبنى الناس حوله فكان ذلك أصل عمارتها وكان رجلا أسودا وأولاده قد هجوا بذلك».(25)

إن الذي بنى سجلماسة في رواية صاحب الاستبصار هو مدرار بن عبد الله، وقد اتفقت أغلب المصادر التاريخية على أن مدرار هو حفيد أبي القاسم سمكو بن واسول وأن أباه هو اليسع وليس عبد الله. ورغم أن النص أعلاه يظهر مطابقا لنص البكري في أغلب تفاصيله فإن الاختلاف واضح في بعض القضايا التي تجعلهما متناقضين. ذلك أن مدرارا هو الذي يعود إليه الفضل في نشر تعاليم المذهب الصفري بمناطق سجلماسة، وهذا لا يتناسب مع الحقيقة التاريخية، لأن أبا القاسم سمكو بن واسول هو الذي تلقى تعاليم المذهب عن عكرمة مولى ابن عباس بالقيروان إلى جانب ميسرة المطغري وطريف بن شمعون البرغواطي. كما أن ما ذكره صاحب الاستبصار عن لون مدرار لم يرد في باقي المصادر الأخرى وربما كان قصده الحديث عن عيسى بن يزيد الأسود، لأن مدرارا لم يهج أبناؤه لكونه كان أسود اللون وإنما هجوا لكونه احترف مهنة الحدادة.

نقل عدد كبير من الجغرافيين العرب روايتهم عن تأسيس سجلماسة عن صاحب الاستبصار، خاصة الحميري الذي جمع بين ما ذكره هذا المؤلف وما ذكره البكري.(26) فأتت هذه الروايات الخاصة بتأسيس هذه المدينة

25) مجهول، م. س. ص 101.

26) الحميري، م. س. ص 305 – 306. والقلقشندي، م. س. ج 5. ص 163.

مليئة بالخلط والتضارب الذي مرده إلى تضارب روايات المصادر التي نقلوا عنها.

كما كانت روايـة الوزان حول تأسيس مدينـة سجلماسة الأصل في رأي من قال ببناء هذه المدينة في مرحلة الحكم الروماني لبلاد المغرب. فقد انفرد هـذا المؤلف بقول أن مـؤسس هـذه المدينـة «حسب بعض مـؤلفينا قـائد روماني ذهب من موريطـانيا فاحتل نوميديا بأسرهـا وزحف شطر الغرب حتى ماسة فبنى المدينة»،(27) وذكر في مقام آخر و«حسب رواية أخرى هي في الـواقع روايـة الشعب وروايـة جغـرافينـا البكـري فإن المدينـة أسسهـا الاسكندر الكبير لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده».(28)

ولا وجود لرواية الاسكندر حول تأسيس سجلماسة فيما كتبه البكري. وعلى ذلك فإن مصدر رواية الوزان في هـذا الشأن هم سكان القصور التي أقـام فيها بضـواحي سجلماسـة في القرن العـاشر الهجري السـادس عشر الميلادي. وتجب الإشارة هنا إلى أن الوزان لم ينفرد بذكر تأسيس الاسكندر الكبير لمدينة سجلماسة بل شاركه القول بذلك ابن سعيد الغرناطي.(29)

وأشار أبو القاسم الزياني إلى أن تأسيس هذه المدينة كان على يد قبائل مكناسة وقال «وأسس فزواطة وزناتة وقبائلهم قصور درعة وأسس بنو مـدرار مكناسـة وسجلماسـة قبل الإسلام ولما أسلمـوا كـانوا على مـذهب الإباضية».(30) إن المؤلف لم يحدد هنا تـاريخ بناء مدينـة مكناسة ومـدينة سجلماسة، لكنـه أشار إلى أن ذلك تم في مرحلـة ما قبل الإسلام. أما قـوله بانتماء قبـائل مكناسة إلى المذهب الإبـاضي فيتنافى والحقيقة التـاريخية لأن هذه القبيلة كانت على مذهب الخوارج الصفرية.

تـدفع رواية الـزياني حـول تأسيس سجلماسـة إلى الاعتقاد في أن أبـا القاسم سمكو بن واسول اختار هـذه المناطق لنشر تعاليم المذهب الصفري،

---

27) الحسن الوزان. م. س. ج 2. ص 127.

28) نفسه. نفس الصفحة.

29) ابن سعيد الغرناطي. أخذا عن Fagnan op. cit; p 19

30) أبو القـاسم الزياني، الترجمانـة الكبرى في أخبار المعمـور برا وبحرا، مطبعـة فضالة، المحمـدية 1967. ص 79.

خاصة وأن أعـدادا كبيرة من عصبيته كانت متواجـدة بها. وقد ذهبت د.ج. موني إلى القول بأن موقع سجلماسة كان مأهولا قبل مجيء بربر مكناسة إليها.(31) ومن ثم، فإن السؤال الـذي يجب أن يطرح ليس فقط في أي وقت بنيت سجلماسة ؟ ولكن كذلك في كم مرة أعيد بناؤها ؟.(32)

تشير هـذه الروايـات المذكورة أعـلاه إلى أن مـدينة سجلماسـة بنيت في الفترة السابقـة للفتح الإسلامي لبـلاد المغرب وقـد أثارت الـرواية القـائلة بالأصل الروماني اهتمام الـدارسين الأوربيين على وجه الخصوص، فحاول باساك Bassac إيجاد مبررات لها، وقال بأن معالم الحضارة الرومانية ظاهرة إلى اليوم بإقليـم سجلماسة بدليل اكتشـاف بعض بقايـاها في هـذه المناطق منهـا البئر الموجـودة في مجرى وادي زيز المبنيـة بـالحجارة المنجـورة.(33) والآثار المبنية بالحجارة المنجورة أيضا بالقرب من قصر السيفة التي تحمل اسم «المدود» وكذلك آثـار منطقة الجرف التي تحمل اسم كديـة النصارى، والآثـار التي توجـد بـالقـرب من زاوية أملكيس بـالـرتب التي تحمل اسم «كَصيرة النصارى». (34)

وسيرا في نفس الاتجاه قال ماك كـوك «وقد أخبرني طبيب في مستشفى أرفود بأنه تم العثور بالقرب مـن هذه الناحية على بعض الأطلال تأكد أنها من بقايا الرومان كما أن النـاشرين للترجمة الفرنسية الجديدة لمؤلف ليون الافريقـي قد أخبرونـا بـأن بعـض الآثـار قد وجـدت في هـذه الناحيـة واعتبرت وكأنها آثار رومـانية، غير أن نسبتها إلى الرومـان لازالت لم تتأكد بعد».(35)

إن قول الوزان بأن سجلماسة بنيت من طرف قائد روماني جعل بعض الباحثـين الأروبيين يـولون أهمية كبيرة لحملة ستنيـوس بلينوس Seutonuis polinus التي اتجهت نحو المناطق الواقعة جنوب جبال الأطلس سنة 41م. وقد

31) D. J. Meunie; Le Maroc saharien; op. cit; p 195.

32) ماك كوك، م. س. ص 60.

33) المقصود به حاسي عقي الموجود في مجرى وادي زيز بتافيلالت.

34) Bassac; note sur le Tafilalet et sur le ziz; R. S. C. Alger; 3 trim; 1929; p : 409.

35) ماك كوك، م. س. ص 39.

أكد دولا شـــابيل Delachapelle أن هــذا القائد الــروماني هــو أول من تجاوز بجيوشـــه جبال الأطلس وســـار حتى وصل وادي كَــير. غير أننـــا لا نعرف الطــريق التي سلكها للــوصول إلى هنــاك، ويحتمل أن يكون قــد انطلق من منطقـــة سبــو واخترق الأطلس المتـــوسط والكبير ومن هنــاك إلى كَـــير عبر كَـرامة. وقد كان الغرض من هذه الحملة هو تأديب قبائل الرحل التي كانت تشن غاراتها على مناطق استقــرار الرومان بشمال المغرب،(36) واعتبر ماك كوك هــذه الحملة فرصـــة مواتية لأن يــؤسس هذا القــائد قاعدة عسكــرية أمامية بالمناطق الصحراوية، لأن العثور على قطعتين من النقود الرومانية في طريق معبد بالصحراء جنوب سجلماسة جعل النشاط الروماني في الجنوب المغربي أمرا قابلا للتصديق.(37)

تحاول كل هذه الآراء العودة بتأسيس سجلماسة إلى المرحلــة الرومانية لكنها لا تستند إلى أدلة علمية مقنعة خاصة وأن حملة ستنيوس بلينوس لم تتجاوز مـدتها الزمنيـــة عشرة أيام،(38) وهـي مـــدة لا تسمح لهذا القـــائد بتأسيس مدينة في مجالات أعدائه الرحل، فضلا عن أن الحملة وجهت نحو منــاطق الجنوب ووصلت وادي كَــيرفي حين لم يرد ذكـر وادي زيز فيهــا. وهذا مــا يستبعد أمــر تأسيس سجلماسة في التــاريخ الذي تمت فيــه هذه الحملة. كما أن روايـــة الوزان لا يمكن أن تكــون حجة قــاطعة في مــوضوع التأسيـــس، لأن هذا المؤلف، وعلى رأي بعضهــم، يمكن أن يكون قــد أورد هــذه الروايــة إدراكـــا منــه لأهميتهــا لدى الجمهــور الأوربي.(39) ويبقى التنقيب الأثــري وحـده هو الــوسيلــة التي تمكننــا من معرفــة الحقيقــة في موضوع كهذا.

وتبعث الروايــات الواردة في أغلب كتب الجغـرافيا العربيـــة - التي تقول بتأسيس سجلماسة في مـرحلة التــاريخ الإسلامي - على الاطمئنــان نسبيا

36) Delachapelle; Lexpedition de suotonius paulinuis dans le sud-est du Maroc; H. Tome XIX; 1934. p : 107.

37) ماك كوك. م. س. ص

38) Delacha pelle; op. cit; p : 108.

39) ماك كوك، م. س. ص 49.

لأن نصوصها رغم التضارب الذي يظهر من خلال مقابلتها تتفق على أن المدينة بنيت عام 140هـ / 757م، استثناء لرواية الزياني التي جعلت بناء المدينة في مرحلة ما قبل الإسلام على يد قبائل مكناسة، كما هو الحال مع بناء مدينة مكناسة أيضا. ولا يعني هذا بتاتا أن مدينة سجلماسة هي أول مركز حضري بالمنطقة لأن بناءها أتى على خراب مدينتين كانتا قائمتين قبلها واحدة تحمل اسم زيز نجهل مكانها إلى اليوم ويجب البحث عنها على طول امتداد الوادي الذي يحمل نفس الاسم من الشمال إلى الجنوب على مسافة 220 كلم. والثانية تسمى ترغة التي هي ربما تدغة «بالدال» والتي ضربت بها عملات فضية إدريسية وموحدية كما أسلفنا. زيادة على أن موضع سجلماسة كان سوقا مهما للبربر الرحل المستقرين بتلك المجالات قبل بناء المدينة كما أكد ذلك كل من البكري،(40) وصاحب الاستبصار.(41)

إن التنقيب الأثري وحده هو القادر على حسم الخلاف في موضوع تأسيس سجلماسة وتحديد تاريخ دقيق له، خاصة وأن الدراسة الأركيولوجية لموقع هذه المدينة لا تعني البحث في تاريخ هذه المنطقة فقط بل يمكن لنتائجها أن تساعد على فهم قضايا تاريخة تشمل مناطق أوسع من ذلك، وتفيد في معرفة نوع العلاقات الموجودة بين مختلف الجماعات البشرية وبين المناطق الجغرافية المختلفة لأن الأمر يتعلق بمدينة كانت لها أهمية خاصة في التبادل التجاري مع أغلب مدن بلاد المغرب بما فيها الموانىء المتوسطية التي ربطتها بأوربا، وهذا ما رافقته بدون شك عدة تفاعلات في مختلف المجالات.(42)

ولا يكتنف الغموض تاريخ تأسيس مدينة سجلماسة بل يتعداه إلى تاريخ انهيارها لأننا نجهل تفاصيل الأحداث التي أتت على نهايتها. كما لا تسعفنا العملات التي ضربت بها وبإقليمها على تحديد تاريخ بنائها لأن

40) البكري، م. س. ص 149.

41) مجهول، الاستبصار. م. س. ص 201.

42) J. Devisse; sigilmassa; op. cit; p 20.

أقدم ما هو متوفر منها يعـود لأواخر القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بالنسبـة لدار سكـة تدغة، وأواخـر القرن الـرابع الهجري العـاشر الميلادي بالنسبة لدار سكة سجلماسة.

غير أن وجـود دار السكـة بسجلماســـة - كما تشير إلى ذلك المصــادر القديمة - يحتم ضرورة إقامة تنقيبات أثرية بموقعها لأن ذلك سيمكننا من العثور على قطع نقـدية وعلى ما يفيد في معـرفة الأوزان كما هو الحال فيما تم العثور عليه بتاكَـوست.(43)

لقد ضربت بدار تدغة عملة فضية إدريسية تعود إلى أواخر القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، أي في الفترة التي كان فيهـا أبو القاسـم سمكو بن واسول حـاكما على سجلماسة. ونعلم أن تـوسـع إمـارة سجلماسة في فترة الحكم المدراري في اتجاه مناطق درعة مرورا بتدغة قد تم في عهد اليسـع بن أبي القاسـم الأمير الثالث في إمارة الخوارج، ومـن المؤكد أيضا أن بني مدرار ضربوا عملات عديدة بعاصمة إمارتهم منذ تأسيسـها، غير أن ما هو متوفر منها يعود فقط لفترة حكم محمد بن الفتح المعـروف بالشاكر لله (933م - 958م). وهي دنانير ذهبيـة كتب عليها في الـوسط «ضرب بسجلماسة» وفي أعلاها «محمد» وأسفلها «ابن الفتح» وكتب في وسط الوجه الآخر لها «لا إله إلا الله وحـده لا شريك له».(44) ويبلغ عدد الـدنانير المعـروفة التي ضربت باسم الشاكر لله عشرة دنانير.(45)

وفي فترة حكم مغـراوة لهذه المدينـة ضربت بدار السكـة في سجلماســة دنانير لا تحمل تاريخا، لكنها تحمل اسم الأمير المغراوي مسعود بن واندين وفي الـوجـه الآخـر منهـا كتب في الدائرة «لا إلالـه إلا اللـه محمـد رســول الله».(46) وعدد ما نتوفر عليه اليوم منها ستة دنانير.(47)

43) J. Devisse; sigilmassa; op. cit; p 20.

44) Brethes; contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numisnatique Casablanca, 1939, p : 96-97.

45) أنظروزن وقطر الدنانير في الجدول المخصص للعملة ضمن الملاحق.

46) Brethes; op. cit; p 104.

47) أنظروزن وقطر هذه الدنانير في الجدول الخاص بالعملة ضمن الملاحق.

كانت مدينة سجلماسة من بين المراكز النشيطة في ضرب العملات المرابطية. فقد ذكر بريث J. D. Brethes أن المدن التي ضربت بها العملة الذهبية في هذه المرحلة هي سجلماسة سبتة أغمات مراكش فاس نول لمطة سلا تلمسان في بلاد المغرب. وفي الأندلس قرطبة، الجزيرة الخضراء، إشبيلية المرية غرناطة مالقة بلنسيا مرسيا وجيان. أما المدن التي ضربت العملة الفضية فهي مكناسة سبتة طنجة سلا سجلماسة فاس في المغرب وفي الأندلس جيان قرطبة مالقة وإشبيلية.(48)

وتفيدنا العملات المرينية التي ضربت بسجلماسة في معرفة استمرار نشاط هذه المدينة الاقتصادي حتى نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، خاصة وأن خراب سجلماسة حسب رواية الوزان قد تم في نهاية فترة حكم أبي العباس أحمد أي في سنة 796هـ / 1393م. غير أن أبا فارس عبد العزيز ضرب بها ثلاث عملات ذهبية بعد هذا التاريخ الأمر الذي يؤكد أن ما ذكره الوزان حول خراب هذه المدينة،(49) إنما يتعلق بالأضرار التي لحقت بعض معالمها العمرانية إثر ثورة الأهالي على عامل أبي العباس أحمد بها.

إن نشاط دار سكة سجلماسة في ضرب العملة الذهبية للدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب يؤكد النشاط الواسع الذي كان لهذه المدينة في التجارة مع بلاد السودان الغربي. وهذا ما دفع بالبعض إلى القول بأن تأسيس مدينة سجلماسة كان نتيجة لرغبة سكان المناطق الواقعة على باب الصحراء الكبرى في مباشرة مراقبتهم على الطرق المؤدية إلى المناطق المنتجة للتبر. وهكذا فإن تأسيسها حسب هذا الرأي له علاقة مع النشاط التجاري لمدينة غانة لأن موقعهما ووظائفهما التجارية وعلاقتهما التاريخية الطويلة تؤكد رغبة كل منهما في إنجاح تجارة الذهب.(50)

ولا يمكن أن نربط بين تأسيس مدينة سجلماسة وتجارة الذهب عبر الطرق الصحراوية مادام التبادل التجاري بين شمال إفريقيا وبلاد الساحل

48) Brethes; op. cit; p : 124.

49) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 126.

50) ماك كوك، م. س. ص 60 – 61.

الإفريقي قد تم منذ عصور غابرة عبر ما يسمى بالتجارة الصامتة. وإذا اعتبرنا أن هذا العامل هو الكامن وراء بناء مدينة سجلماسة، فإن تأسيسها - بالنتيجة - سيكون في تاريخ بداية هذا النوع من التعامل التجاري أي في المرحلة الفينيقية، وهو ما لا تتوفر الأدلة لإثباته حتى الآن.

وقد فند أحد الباحثين هذا الرأي وقال بأنه من غير الصحيح أن نربط بين تأسيس مدينة سجلماسة وحاجة بلاد المغرب والعالم الإسلامي للتبر، لأن هذا العامل غير كاف لتفسير أسباب بنائها، رغم أنه لعب بدون شك دورا كبيرا في ازدهارها وساهم في تنمية ثروتها.(51)

ج - مورفولوجية المدينة

لم يبق من مدينة سجلماسة اليوم سوى بقايا سور ضخم يشهد على مجدها الحضاري الذي تحدثت عنه المصادر الإخبارية والجغرافية القديمة. ويمتد خرابها على مساحة واسعة تدل على طول المدة الزمنية التي استمرت فيها هذه المدينة تلعب دورا نشيطا في مختلف المجالات منذ تأسيسها على يد قبيلة مكناسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي وإلى حدود اختفائها في فترة الحكم المريني.

إن موضع سجلماسة الذي تظهر فيه بقايا الهدم اليوم، عبارة عن مجموعة من التلال وسط أراضي سهلية. يحد شمالا بالساقية المسماة «واد الشرفاء» وفي الغرب بوادي زيز وفي الشرق بالريصاني، وقصر أبو عام، وقصيبة الحدب وفي الجنوب بقصر كَرينفود».(52)

والتربة بهذا الموضع مكونة من عدد كبير من العناصر خلافا للمناطق المجاورة، وتتكون من الرمل المختلط بالحصى والحجارة الصغيرة وقطع الفخار والعظام. كما تظهر بقايا بعض الجدران في القسم الشمالي الغربي للمدينة على الطريق المؤدي إلى الريصاني.

51) J. M. Lessar; Sigilmassa la ville et ses relations commerciales d'après El bakri; H. T. vol. X. Fax 1-2; 1967; p : 8.
52) Bassac; note sur le tafilalet; op. cit; p : 407.

أشار ماركَا J. Margat إلى أن الدراسة الجيولوجية لموضع خراب مدينة سجلماسة ساعدت كثيرا على فهم سبب اختيار هذا المكان لبنائها، لأنه عبارة عن هضبة ذات حافة منحدرة مكونة من طبقة صخرية صلبة ومستوية نسبيا يتراوح عرضها ما بين 300 و600م وطولها حوالي 2 كلم في شكل طاولة طبيعية مرتفعة عن مستوى غمر الفيضانات.(53)

وإذا كانت هذه المدينة قد بنيت في وسط طبيعي مرتفع عن السهل المجاور ومحميا من غمر مياه وادي زيز، فإن تطورها المعماري تجاوز المساحة المشار إليها أعلاه. فقد ذكر تيراس H. Terrasse – اعتمادا على المعلومات المتوصل إليها من دراسة الصور الجوية – التي أخذت لموقع مدينة سجلماسة على علو خفيف أن خرابها يمتد على مساحة 3 كلم طولا وما بين 500 و1000 م عرضا.(54) في القسم الشمالي الغربي من واحة تافيلالت.

غير أن المساحة التي يمتد عليها عرض المدينة – حسب نفس الرأي – يمكن أن يصل اتساعها أكثر من ذلك، لأن الصور الجوية وكذلك الأبحاث الميدانية أكدت بأنه لا وجود لآثار الهدم والخراب في القسم الشرقي للمدينة، ومعنى ذلك أن النشاط الزراعي أتى على محو جزء كبير منه خاصة وأن الحقول تلتصق مباشرة مع أجزاء هذا القسم.(55)

أشارت المصادر الجغرافية والتاريخية إلى أن مدينة سجلماسة كانت كبيرة ومتحضرة تضم مباني جميلة وبساتين مخضرة. وأكدت أغلب النصوص القديمة على جمالية معالمها المعمارية غير أنها لا توفر المادة الكافية لمعرفة خططها وطبيعة مورفولوجية أحيائها. كما لا توجد كتابات محلية تمكننا من رسم صورة تقريبية لها، إضافة لكون الدراسات الأثرية مازالت لم تعط حتى الآن كل ما هو منتظر منها لتغطية موضع المدينة بمسح شمال يسمح باستكمال النقص الواضح في معلوماتنا حول كل ما يتعلق بتاريخ سجلماسة ومختلف قضاياه في أكثر من مجال.

53) J. Margat; note sur le Tafilalet; op. cit; p : 256.
54) H. Terrasse; note sur les ruines de Sigilmassa; R. A. 3-4 trim; Alger 1936 p : 581.
55) Ibid, p : 583.

ويمكن القـول أن شكل مدينـة سجلماسـة كان مستطيـلا بناء على ما استنتجه تيراس H. Terrasse من خلال دراسـة الصور الجويـة، لأن خرابها يمتد على مساحة 3 كلم طولا وما بين 500 و1000م عرضا. ويرجع السبب في ذلك إلى الـوسط الطبيعي لموضع هذه المدينـة الـذي يتخذ شكـلا طوليا وسط المجرى الـرئيسي لوادي زيز غـربا ورافـده الاصطناعي المسمى «واد الشرفاء» شرقا كما يظهر ذلك في الخريطة.(56)

ويعتبر الإدريسي الجغـرافي الـوحيـد الـذي ذكـر أن سجلماسـة لم تكن محاطة بسور.(57) في حين تجمع المصادر الجغرافيـة الأخرى على أن المدينة كانت محصنة. ذكر المقـدسي أن سورها من طين،(58) وأورد البكري تاريخ تأسيسه حين قال «وسـورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بـالطوب بناه اليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله ولم يشركه في الانفاق عليه أحد أنفق فيه ألف مـد طعام وله إثنـا عشر بابا الثمانية منهـا حديد وكـان بناء اليسع له سنـة تسع وتسعين ومائة».(59) وكتب صاحب الاستبصـار حول نفس الموضوع ما يلي «ثم سورها أبو منصور ابن أبي القاسم بن مدرار، ولم يشركه في الانفاق في بنائه أحد أنفق فيه مدى ألف مد طعاما.(60)

ولا يوجد خـلاف بين كلام البكري وكلام صـاحب الاستبصار اللهم ما ورد عنـد هذا الأخير في شأن جـد اليسع الذي سماه مـدرار والصواب أنـه واسول. ويستنتج من الروايتين أن مدينـة سجلماسة سورت في عهد أميرها الثالث الذي هو أبو منصور اليسـع بن أبي القاسم سنة 199هـ / 815م.

إن بقايا السور التي تظهر الآن بموضـع سجلماسة تعود حسب ماركَا إلى عهد متأخر، لكن شكلها لا يختلف كثيرا عن شكل السور القديم للمدينة. خـاصة وأن هـذا الأخير كان يتبع حـافة الهضبـة التي بنيت عليها المدينـة

56) انظر الخريطة رقم (3) الخاصة بالقصور القديمة في ضواحي سجلماسة.

57) الإدريسي، م. س. ص 37.

58) المقدسي، م. س. ص 231.

59) البكري، م. س. ص 148.

60) مجهول، الاستبصار، م. س. ص: 201.

لاستغلال الحصن الطبيعي الذي توفره حافتها.(61) ويرى تيراس على العكس من ذلك أن هذه البقايا التي تظهر إلى اليوم في شمال غرب خراب مدينة سجلماسة ليست من السور الذي بناه اليسع عام 815م لأنه كان مشيدا من الطوب على أساس حجري كما ورد عند البكري. أما البقايا التي ما تزال قائمة إلى اليوم فهي من التراب المبني بطريقة ما يسمى بـ«اللوح» وتعود للقرن الثاني عشر الميلادي ومنها ما يعود للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.(62) وأكد ليسار J.M. Lessard أن بقايا سور سجلماسة مازالت موجودة على مسافة 3 كلم اتجاه الجنوب، وإلى جانبها آثار البساتين التي يرجح أنها كانت موجودة داخل سور المدينة.(63)

كان سور المدينة مشكلا من جدارين ويظهر ذلك بوضوح في الواجهة الغربية لخرابها. والسور الأول الخارجي لا يحمل الأبراج والصوامع، ويوجد على بعد ما بين سبعة وثمانية أمتار من السور الثاني الذي يبلغ سمكه مترين، وهو مزين بالأبراج التي لم يبق منها سوى برجا واحدا يتراوح ارتفاعه ما بين ستة وسبعة أمتار وتظهر على هذا السور آثار الفن الإسباني الموريسكي.(64)

وأورد ابن الخطيب إشارتين عن سور سجلماسة الأولى توضح ضخامته والثانية تشير إلى وجود جسر بجانب إحدى أجزائه يستغل في عبور الوادي إلى المدينة. ونعلم أن هذا المؤلف لم يزر سجلماسة لكنه أقام بالمغرب في عهد أبي سالم إبراهيم المريني وكانت له علاقة ودية مع أخذ موظفي المخزن المريني بها وهو أبو عبد الله محمد الكناني،(65) وهو ما يدعو إلى الاطمئنان إلى معلوماته في هذا الموضوع، وقد ذكر عن سجلماسة ما يلي «قد استدار بها الأمر العجاب، والقطر الذي تحار في ساحته النجاب

61) J. Margat, note sur la morphologie; op. cit; p : 256.

62) H. Terrassa; note sur les ruines; op. cit; p 584.

63) J. M. Lessard; sigilmassa; op. cit; p : 9.

64) Ibid; p : 9.

65) انظر رسالة ابن الخطيب إلى الفقيه أبي عبد الله محمد الكناني الذي أرسله أبو سالم المريني إلى سجلماسة للاشتغال بأحد الوظائف بها والرسالة موجودة في «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» الدار البيضاء 1985. ص 141 – 142.

فضرب منه على عذارها الحجاب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب يحيط بها مرحلة». (66)

ويفهم من كلام ابن الخطيب أن سور مدينة سجلماسة كانت له وظيفة مزدوجة تحصين المدينة وحمايتها في وجه الأعداء ثم حمايتها من آثار الظروف الطبيعية القاسية، لأنه يفصل بين عالمين مختلفين عالم الحاضرة المريح وضاحيتها الشديدة الحر الكثيرة القيظ القاحلة. أما قوله بأن هذا السور يحيط بها مرحلة ففيه مبالغة ويشبه ما ذكره ابن سعيد الغرناطي حين قال بأن الفارسين إذا خرجا من الباب من أبوابها في الصباح وانطلقا في اتجاه معاكس لا يلتقيان إلا بعد غروب الشمس. (67)

وذكر ابن الخطيب في مقام آخر أن «سورها حصين مشيد وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد»، (68) ومعروف أن المعتصم والرشيد من أشهر خلفاء بني العباس وقد ذكرهما المؤلف هنا لتأكيد عظم الجسر المؤدي إلى المدينة.

ولم نتوصل خلال زيارتنا للميدان إلى اكتشاف المكان الذي بني فيه الجسر، كما لم نستطع التوصل إلى تحديد الجهة التي يمكن أن تكون صالحة لإقامته. وقد ركزنا أساسا في بحثنا عن آثار الجسر على الحدود الغربية للمدينة اعتبارا لوجود المجرى الرئيسي لوادي زيز بها، وتتبعنا هذا المجرى على طول امتداد خراب المدينة من واد الشرفاء شمالا حتى قصر كَرينفود جنوبا، واتضح لنا أن القسم الشمالي للمدينة يحتمل أن يكون هو المكان المؤهل لوجود الجسر على الوادي نظرا لعمق مجرى وادي زيز هناك وارتفاع ركام الهدم بكل هذا القسم مقارنة مع ما يقع إلى الجنوب منه. وإذا كان ابن الخطيب قد انفرد بذكر وجود جسر بمدينة سجلماسة فإن بناء الجسور بهذه المدينة كان أمرا ضروريا بحكم موقعها وسط نهرين. قال

---

66) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م. س. ص 180.

67) ابن سعيد الغرناطي من خلال Fagnan; op. cit; p : 9

68) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م. س. ص 181.

القلقشندي «من أي باب منها خرجت ترى النهر والنخيل وغير ذلك من الشجر».(69)

كان لسور سجلماسة عدد كبير من الأبواب اختلفت المصادر في تحديد عددها، كما لم يرد ذكر أسماء أغلبها مما يجعل الحديث عنها صعبا للغاية. مع العلم بأن النصوص لم تخصص وصفا لها حتى نتمكن من معرفة ما إذا كانت هذه الأبواب كبيرة ومزخرفة كما هو الحال في العواصم الكبرى المغربية كمراكش وفاس أم لا. ويرجح أن تكون أبواب هذه المدينة موزعة على كل الجهات كما هو الحال في غيرها من مدن المغرب حتى تسهل مأمورية خروج القوافل نحو مقاصدها، ويظهر ذلك من أسماء بعض الأبواب التي أوردها المقدسي حين قال «أن بسجلماسة باب القبلي، باب الغربي، باب غدير الجزارين، باب موقف زناتة وغيرها.(70)

والباب القبلي حسب رواية المقدسي كان يقع في الجهة الجنوبية للمدينة كما يظهر من تسميته، وبناء على ذلك فإنه الباب الذي تخرج منه القوافل في اتجاه بلاد السودان مرورا ببعض مناطق درعة الأسفل. أما الباب الغربي فهو مخرج القوافل المتجهة نحو المناطق الجنوبية الغربية للمغرب بما فيها درعة الأوسط وأغمات ومراكش. وأما الباب الثالث فيرجح أنه اتخذ تسميته من وجود مجزرة لأن تسمية غدير الجزارين توحي بذلك. أما الباب الرابع والأخير الذي يحمل اسم باب موقف زناتة فيحتمل أنه كان أهم الأبواب كما يفترض أن يكون أجملها لأنه يحمل اسم القبيلة الأم التي تنتمي إليها مكناسة مؤسسة المدينة وهي قبيلة زناتة.

إن هذه الأبواب التي ذكرها المقدسي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لم تكن وحدها الموجودة في المدينة في المرحلة التي عاش فيها هذا المؤلف كما يظهر من النص أعلاه. غير أن ذكر أسمائها يعبر عن أهميتها خلال هذه الفترة الزمنية وقد أورد البكري عدد أبواب سجلماسة حين قال

---

69) القلقشندي، م. س. ج 5. ص 164.

70) المقدسي، م. س. ص 131.

«وله – يعني السور – إثنا عشر بابا الثمانية منها حديد،(71) ونقل عنه هذه المعلومات صاحب الاستبصار،(72) وابن عبد المنعم الحميري.(73)

جاء في كتاب «المحاضرات» لليوسي أثناء حديث صاحبه عن شجرة فريدة النوع في المدينة العامرة اكتسبت شهرة بذلك، وكان العامة يترددون عليها للتبرك بها. أن هذه الشجرة كانت تقع خارج سور سجلماسة بينها وبين النهر قبالة الرصيف الذي يعبر عليه لناحية الزلاميط ويقال أن ذلك باب من أبواب تلك المدينة.(74) ولا وجود لمكان يحمل هذا الاسم اليوم فيما يجاور خراب سجلماسة، غير أن إشارة اليوسي إليه تؤكد أن كلمة الزلاميط التي يحتمل أنها كانت اسما لأحد أبواب المدينة استمرت في ذاكرة المحليين إلى حدود القرن السابع عشر الميلادي أي إلى الفترة التي عاش فيها اليوسي.

كما أشار ابن أبي زرع والناصري إلى اسم أحد أبواب سجلماسة في معرض حديثهما عن الصراع الذي دار بين الأمير أبي بكر بن عبد الحق المريني ويغمراسن بن زيان من أجل التحكم في هذه المدينة – بعد معركة أبي سليط التي دارت بين الطرفين في أحواز وجدة سنة 655هـ / 1258م – وقد انهزم يغمراسن بسجلماسة وعاد الأمير المريني إلى مدينة فاس بعد أن التقى الطرفان على باب تاخنست،(75) وهو باب تاحسنت عند الناصري.(76)

إن أسماء الأبواب التي ورد ذكرها في المصادر لا يتعدى عددها الستة في حين أن العدد الذي أورده البكري وتناقلته المصادر بعده يصل اثنى عشر بابا، وهو رقم يعبر بوضوح عن الاتساع العمراني الذي عرفته مدينة سجلماسة.

---

71) البكري، م. س. ص 148.
72) مجهول، الاستبصار. م. س. ص 201.
73) ابن عبد المنعم الحميري، م. س. ص 306.
74) اليوسي، المحاضرات، الرباط 1976، ص 43.
75) ابن أبي زرع، م. س. ص 296.
76) الناصري، الاستقصا، م. س. ج: 3. ص 18.

وأهم ما يثير الانتباه هو أن النصوص التي أشارت إلى سور سجلماسة وأبوابه تـرتبط بـالفترة الـزمنية الـواقعـة ما بين القـرن الـرابع والخامس الهجريين خـاصة كتابات كل مـن المقدسي والبكري. وما عـداها اقتصر على جمع تلك المعلومـات وإعادة تـدوينها. وهكـذا فإن المصادر الـرئيسية لهذا الموضوع كـانت تخص بكلامهـا فترة حكم الخوارج لسجلماسة. فهل يعني هذا أن هذه المدينة لم تعرف توسعا عمـرانيا بعد هذه الفترة ؟ وأن تطورها العمراني توقف مع انتهاء مرحلة حكم مؤسسيها ؟

إن النصوص المتـوفرة لـدينا اليـوم لا تدفع إلا في اتجاه الاقتنـاع بذلك، وكل محاولة تفسير للأسباب الكامنة وراء هذا التوقف لا يمكن أن تكون إلا ناقصـة وغير مكتملة تبعـا للنقص الواضح في المادة المصـدرية. وللـدراسة الأثرية وحدها إمكانية فك غمـوض هذا الموضوع في تاريخ المدينة إلى جانب الموضوعات الأخرى - كالتأسيس والانهيار - التي لا يمكن أن يقع الحسم فيها إلا بناء على نتائج البحث الأثري.

كانت سجلماسـة مقسمة إلى أحياء تسكنها قبيلة أو قبـائل مختلفة ككل المدن الإسلامية. ويرجع تاريخ تقسيمها حسب البكري إلى عهد أبي منصور اليسع بن أبي القاسـم الذي بنى سور المدينـة «وارتحل إليها سنـة مائتين وقسمهـا على القبائل على مـا هي عليه اليـوم».(77) وقـد ورد في مخطوطـة محلية نشرها باساك Bassac - وهي لصاحبها مـولاي أحمد البلغيثي المتوفى بقصبة سيدي ملوك بوادي إيفلي عام 1900م - أن الذي قسم أحياء المدينة بين القبائل هـو عيسى بن يزيـد أول أمراء الخوارج الصفريـة بسجلماسة وهذا نص ما ورد بالمخطوطة «وعيسى كان صاحب ماشية يرعاها في شرق سجلماسـة وغالبـا ما يتردد على مكـان المدينـة ثم استقر بـه عام ثمانيـة وثلاثـين ومائـة بخيامـه وأهلـه. ووجـد هنـاك أربعمائـة قبيلة فـاتخذته هـذه القبائـل زعيما لها فأسـس نواة المدينـة عام أربعين ومـائة، وقسم أحيـاءها بين القبـائل كما قسم الماء في المكـان المسمى خلجان ووجهـه لكل

---

77) البكري، م. س. ص 148.

المناطق حسب التساوي، ثم شرع في غرس النخيل وحرص على أن يكون عدده كثيرا». (78)

إن ما ذكر في هذا النص عن عيسى بن يزيد يرتبط أساسا بالحديث عن أبي القاسم سمكو ابن واسول لأنه هو الذي قدم إلى منطقة سجلماسة سنة 138هـ / 755م بغرض نشر تعاليم مذهب الخوارج الصفرية. غير أنه رغم هذا الخلط يمكن أن نرجح صحة ما جاء في النص حول تقسيم أحياء المدينة لسببين أولهما أن تأسيس مدينة سجلماسة كان في أغلب الروايات سنة 140هـ / 757م، ولا يعقل أن يشرع في بناء مختلف المرافق المعمارية للمدينة في العام المذكور ولا ينتفع بها إلا بعد مرور أكثر من نصف قرن حتى نسلم بما قاله البكري حول تعمير مدينة سجلماسة في فترة حكم اليسع، أي في سنة 200هـ / 816م، خاصة وأنه الأمير الرابع في إمارة الخوارج الصفرية والثالث في سلالة أبي القاسم. وثانيهما أن الحديث عن عيسى بن يزيد يرتبط في المصادر عامة بالحديث عن أبي القاسم. ومهما كان من أمر في ذلك فإن تأسيس المدينة وتوزيع الأحياء بها قد تم في فترة ظهور الإمارة ومعها المدينة في ذات الآن.

كانت مدينة سجلماسة تضم مباني جميلة قارنها ابن حوقل – الذي زارها في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي – بمباني مدينة الكوفة وقال: «وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية».(79) أما المرافق العمومية للمدينة فقد ذكر البكري عن حمامات سجلماسة أنها «رديئة البناء غير محكمة العمل».(80) وأورد ابن الخطيب حول نفس الموضوع ما يلي «والرفاهية بها فاشية والنشأ في الحيلة ناشئة».(81) وقد ذكر محقق كتاب معيار الاختيار أن المقصود «بالنشأ في الحلية» هي الأحجار ذات النخاريب التي تستعملها النساء في الحمامات،

78) Bassac; Sigilmassa traduction d'une manuscrit arabe; B.S.G. Alger 1930; p : 224.

79) ابن حوقل، م. س. ص 90.

80) البكري، م. س. ص 148.

81) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م. س. ص 181.

والغـرض من ذكـرهـا هنـا هـو الإشـارة إلى طيب رائحـة هـذه الأحجـار بسجلماسة.

أشار بـاساك إلى أنه بالقـرب من «واد الشرفاء» – شمال خراب مـدينة سجلماسة – توجد آثار بـرجين ترتفع بقاياهما على مستوى سطح الأرض بحوالي مترين ونصف، وبالقـرب منهما آثار نافورة كـانت تأتيها المياه عبر قادوس من الـوادي، وبالقرب من النـافورة توجد آثـار حمام مستعمل منذ القديم عثر على بقايا الرماد بمكانه.(82)

ولا نملك معلومات كثيرة عن عدد المساجد التـي كانت موجودة بالمدينة كما لا نعرف الشيء الكثير عن مسجـدها الجامع. ذكر البكري أن «جـامعها متقن البناء بنـاه اليسع فأجاد».(83) وذكر ابـن عذاري أن المغـراويين ثاروا على المرابطين – بعد دخولهم سجلماسة سنة 448هـ 1057م – وقتلوا من وجدوا من الملثمين في المسجد الجامع للمدينة،(84) كما أشار الفضيلي إلى أن مـولاي الحسن بـن القـاسم الشريف القـادم من الحجـاز إلى سجلماسـة والمتوفى بها سنة 676هـ / 1278م كان يدرس العلوم بمسجدها الأعظم.(85) وهذه الإشـارات لا تساعد على وصف شامل للمسجـد الجامع بسجلماسة ولا للمعالم المعمارية الأخرى التي تواجدت بها.

كما كان بالمدينة بساتين يتم اللجوء إليها بغرض الاستجمام وقد انفرد ياقـوت الحموي بذكـر اسم واحد من هذه البسـاتين، الأمر الذي يـؤكد أن سكـان سجلماسة كانوا يلتجئون إليهـا بغرض الفسحة والنزهة وهذا نص كـلامه «وعلى أربعـة فراسخ منهـا رستـاق يقال لـه تيومتين على نهرهـا الجاري فيه من الأعناب الشديـدة الحلاوة ما لا يحد وستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقل.(86) إن كلمة تيومتين التي ذكر البكري أنها كانت

---

82) Bassac; note sur le tafilalet et op. cit; p : 409.

83) البكري، م. س. ص 148.

84) ابن عذاري، م. س. ج 4. ص 9.

85) الفضيلي، الدرر البهية، ط فاس، 1314هـ ج 1. ص 63.

86) ياقوت الحموي، م. س. ص 192.

حاضرة منطقة درعة لم تعد مستعملة اليوم فيما يحيط بسجلماسة من مناطق، غير أن قول ياقوت بأنها من منتزهات سجلماسة يؤكد جمالية المناطق المجاورة لهذه المدينة، ومستوى الرفاهية التي كان عليه أهلها.

إن أغلب الزخرفة الموجودة في بعض القصور - التي مازالت قائمة اليوم بمناطق تافيلالت - تعطي الدليل على أن سجلماسة شهدت ازدهارا كبيرا في العهد المريني أي في المرحلة التي سبقت خرابها. أشار أحد الدارسين إلى أن قصر الريصاني «أبو عام» الذي يعود إلى نهاية القرن الثالث عشر والسنوات الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي يضم بعض الأقواس التي تحمل زخرفة تذكرنا بالفن الرفيع الذي ساد بالمغرب الأقصى في القرن الثاني عشر الميلادي، كما تذكرنا بالأسلوب المتقن والجيد الذي نجده في المساجد الكبرى بفاس الجديد وتازة وضريح سيدي بن لحسن بتلمسان.(87)

ويظهر من بقايا الهدم بموضع مدينة سجلماسة أن المواد المستعملة في البناء هي الآجر والطوب والحجر والخشب. وقد أشار أحد الباحثين إلى أن الوسط الطبيعي للمناطق المجاورة لموضع المدينة لا يساعد على توفر الحجارة بكثرة، وكان لابد من البحث عنها وجلبها من مناطق أخرى كما هو الحال في الخشب الذي كان يجلب من مناطق الغابات بجبال الأطلس.(88) وإذا كانت الحاجة إلى بعض المواد الأساسية في البناء قد دفعت بسكان سجلماسة إلى جلبها من مناطق بعيدة كما هو الشأن في الحجارة التي يمكن أنها كانت تجلب من منطقة أرفود الواقعة إلى الشمال من سجلماسة على مسافة أربعة وعشرين كلم، وبعض أنواع الأخشاب التي كانت تجلب من مناطق بعيدة عن مجالات سجلماسة، فإننا لا نستبعد استعمال خشب شجر النخيل على نطاق واسع في عملية البناء بمدينة سجلماسة كما ظل معمولا به إلى فترة متأخرة في بناء القصور وهو ما يسمى عند المحليين باسم «الصَّلِيبْ».

87) H. Terrasse; note sur les ruines; op. cit; p : 588.

88) M. El Mellouki; Sigilmassa; op. cit; p 99-101.

2 - بادية سجلماسة :

أ - السكن القروي بسجلماسة :

كانت مدينة سجلماسة الحاضرة الوحيدة في مجال قروي واسع. وهذا ما جعل علاقاتها بهذا المجال تعرف تطورا كبيرا نتيجة حاجتها المستمرة لمواد التموين. وسجلماسة بإمكاناتها المحدودة لم تكن قادرة على توفير اللوازم التي تحتاج إليها ساكنتها والقوافل التجارية المتنقلة عبر الصحراء الكبرى في اتجاه بلاد السودان، فضلا عن حاجتها من المنتوجات الفلاحية القابلة للتصنيع كالأصواف والجلود.

وإذا كانت العلاقة بين المدينة وباديتها عموما هي علاقة تكامل اقتصادي، فإن المدينة المغربية في العصر الوسيط مارست نشاطها التجاري على نطاق واسع مع المناطق المجاورة لها، وأخضعتها لنفوذها وباشرت مراقبتها عليها حتى تضمن لنفسها جلب ما تحتاج إليه من مواد التموين.(89)

سبقت الإشارة إلى أن مدينة سجلماسة تأثرت في بنائها بالفن الموريسكي بدليل وجود آثار هذا الفن في بقايا سورها. غير أن التأثيرات الكبيرة التي استلهمها فنها المعماري تعود بأصولها إلى الطابع المحلي في أشكال البناء. ومن ثم، جاز لنا أن نميز بين الهندسة المعمارية للمدينة التي تأثرت بالفن المشرقي أو الموريسكي، وهندسة مجالها القروي التي تعود بجميع مقوماتها إلى فن المعمار الصحراوي، الذي يعتمد الطوب واللبن كمواد أساسية في عملية البناء.

إن المؤثرات الموريسكية لم تصل إلى المناطق الصحراوية إلا في فترة متأخرة، كما أن آثارها في الفن المعماري لم يكن قويا في هذه المناطق كما هو الحال في مناطق شمال المغرب حسب رأي أحد الباحثين.(90) لكن سجلماسة التي شهدت استقرار عدد كبير من السكان يختلفون في الأصل والانتماء الجغرافي، تنوع الفن المعماري بها بتنوع ساكنتها، لأن العناصر التي قدمت

---

89) M. Fatha; contribution à l'histoire de la ville; op. cit; 153.

90) D. J. Meunie; le Maroc saharien; op. cit; p 231.

إليها بهدف المتاجرة أو لأغراض أخرى نقلت معها بدون شك أسلوبها في البناء من مناطق استقرارها الأولى، فامتزج هذا الأسلوب الفني الذي رافق الهجرات مع نظيره المحلي فأكسبه لونا وطابعا خاصا.

أشار البكري إلى أن سور سجلماسة كان مبنيا بالطوب على أساس حجري،(91) وهذا ما يغلب اليوم على شكل البناء بالمجال القروي في تافيلالت حيث يعتمد السكان نفس المقومات في بناء المنازل وجدران أسوار القصور.

وذكر أبو حامد الأندلسي أن سجلماسة محاطة بمساكن محصنة.(92) وقال الحميري «وهي قصور وديار وعمارات متصلة».(93) ويستنتج من هذه النصوص أن المجال القروي للمدينة كان عبارة عن سلسلة من القصور المتصلة على حافة الأودية. وقد كان عدد القصور زمان الوزان في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي «يقرب من ثلاثمائة قصر كبير فضلا عن المداشر».(94)

إن كلمة القصر التي تقابلها كلمة الدوار والدشر في باقي مناطق المغرب الأقصى، تستعمل للدلالة على السكن القروي في واحات وادي زيز ووادي غريس وكذلك وادي دادس ودرعة. كما تستعمل بعض الكلمات الأخرى كمرادف لها كالقصبة وكذلك كلمة كَصيبة وكَصيرة التي هي تصغير للقصبة والقصر.

وتسمى القصور بالبربرية «إغرمان» ومفردها «إغرم»، غير أنها تختلف بحوض وادي درعة عنها بسجلماسة لأنها في الأولى تكون محاطة بسورين يتراوح علو الداخلي منها ما بين 1,40 و1,80م، أما الخارجي فيكون أعلى من سابقه ويبنى بمواد صلبة، كما توجد بزواياه الأربع أبراج عالية. أما القصور بسجلماسة فلها سور واحد وغالبا ما تلتصق به جدران

---

91) البكري، م. س. ص 148.

92) أبو حامد الأندلسي، من خلال Fagnan; op. cit; p 28

93) الحميري، م. س. ص 305.

94) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 125.

المنازل،(95) وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن الهندسة المعمارية للقصور بسجلماسة أقدم من مثيلاتها بدرعة.(96)

إن الضرورات الأمنية هي التي فرضت وضع سور على جنبات القصر، وغالبا ما تكون قاعدته مبنية بالحجارة تحسبا لغمر فيضانات الأنهار. والقصور بسجلماسة تتخذ في أغلبها شكلا مستطيلا وترتفع في جنباتها أربعة أبراج، وتكون جدرانها الخارجية سميكة يتراوح عرضها ما بين متر ومترين أما علوها فما بين خمسة وعشرة أمتار، ولا يوجد بالقصر غير مدخل رئيسي واحد غالبا ما يكون مزخرفا.(97)

يرى كَوتييه Gautier أن هذا النمط السكني يعود بأصوله إلى القبائل الزناتية، وميز بين فن معمار البتر الذي هو فن قبائل زناتة، وفن معمار البرانس أي الفن الصنهاجي الخاص «بالقبايل» التي تسكن جبال الأوراس بالمغرب الأوسط. وذكر أن المنزل الزناتي يتكون من عدة طوابق في حين أن المنزل القبايلي يتكون من سكن أرضي فقط، والاختلاف بينهما يعبر عن الاختلاف بين نوعين من المجتمعات مجتمع يقدس المرأة ولا يسمح لها بالانفتاح على الخارج وعادته الاحتجاب بالنقاب، ومجتمع تخرج فيه المرأة سافرة. فكان السكن في المجتمع الأول يفرض وجود السطح - لأنه يمثل المجال الوحيد الذي تستطيع المرأة من خلاله رؤية زرقة السماء ونو الشمس - في حين أن عدم احتجابها في المجتمع الثاني لم يفرض ضرورة وجود ذلك.(98)

ومهما انطوى عليه كلام هذا المؤلف من تأويل في هذا الباب فإن وجود علاقة بين عادة المجتمعات وطباعها والنمط السكني لها أمر مؤكد لا جدال فيه. خاصة وأن السكن القروي بسجلماسة اليوم يخضع لمقاييس تهدف إلى أن يكون مكان سكنى الحريم بعيدا عن محل إقامة الضيوف الغرباء. والسكن في الغالب الأعم لا ينفتح على الزقاق إلا بطاقة صغيرة لا تتسع

95) Abdelaziz Touri; collogues d'Erfoud; Italie; 1986; p : 33.
96) D. J. Meunie; Abbar; op. cit; p : 51.
97) R. Faure; op. cit; p 140.
98) E. F. Gautier; le passé de l'Afrique du nord; Payot; 1964; p : 228-229.

لانـدفـاع الشخص نحـو الخارج، والهدف مـن وجـودهـا إنـارة السـلاليم «والسَّـــكِـيــفَـة» أي السقيفـة، في حين يظل السطح هـو المتنفس بالنسبـة للمرأة لأنـه يمكنها من الاتصـال بجارتها خـاصة وأن المنـازل في القصور يلتصق بعضها ببعض.

وربما وجـدنا في نص للبكـري مبررا لهذا التطـابق بين عادات السكـان ونمط سكنهم، فقـد وصف هذا المؤلف سكـان سجلماسة بأنهم «يلتـزمون النقاب فإذا حسر أحـدهم عن وجهه لم يميزه أحـد من أهله»،(99) كما ذكر ابن حوقل أن أهل هـذه المدينة «قـوم سراة مياسير يباينـون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانـة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة».(100)

إن القصور بإقليم سجلماسة سابقة لفترة تأسيس المدينة رغم أن أقدم ما هو معروف منها يعود إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حسب ما نتـوفر عليـه من معلومـات. ويرجع الفضل في ظهـور هذا النمط السكني بالمناطق الصحراوية إلى قبـائل زناتة لأنها - حسب رأي لويكي - هي التي أنشأت أغلب واحـات المناطق الصحراويـة كواحـات سوف ووادي ريغ وورگـلة وتيدكلت وتوات.(101)

وهذا لا يتنـاقى مع ما ورد عند ابن خلدون حـول نفس الموضـوع، حين ذكر أن هذه القبائل تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل بعد أن تكـونـت لها دول ببـلاد المغـرب ممثلـــة في المرينيين بفـاس والـــزيـانيين بتلمسان.(102)

ونعـرف أن عـرب المعقل الـذين شغلـوا مجالات سجلماســة في القــرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي قد وجدوا القصور قائمة بتلك المناطق بدون شك. فقبيلة مكنـاسة التي أسست مدينة سجلماســة في القرن الثاني

---

99) البكري، م. س. ص 148.

100) ابن حوقل، م. س. ص 90.

101) LE WICKI; titre libyco-Berber; op. cit; p : 44.

102) ابن خلدون، العبر، م. س. ج 7. ص 77.

الهجري الثامن الميلادي تنتمي للجماعة الزناتية، وكانت لها دراية بالهندسة المعمارية للقصور وظفتها في بناء المدينة اعتمادا على النمط السكني السائد بمجالاتها. وقد عرف بناء القصور اتساعا وتطورا ملحوظا مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة، لأن هؤلاء أنفسهم نقلوا معهم مقومات هذا النمط السكني من مناطق استقرارهم الأولى التي كانت مجالا لسكنى قبائل زناتة فيما سبق.

يضم السكن النموذجي بإقليم تافيلالت اليوم عدة طوابق تصل أحيانا إلى ثلاثة. وباب المنزل يفضي إلى ساحة صغيرة مسقفة تسمى «السَّكِيفَة» أي «السقيفة»، وبها الدرج الذي يؤدي إلى الطابق العلوي. ومن السكَيفة يتم المرور إلى ساحة مغلقة تصل إليها أشعة الشمس عبر فتحة في السقف، وتضم حجرتين واحدة للمواشي وأخرى للأدوات الفلاحية. أما الطابق العلوي فيخصص غالبا لسكن الأسرة وتتوزع على جنباته الغرف، وعلى إحدى زواياه الأربع يبنى الدرج الثاني الذي يؤدي إلى طابق يضم غرفة أو غرفتين ويسمى هذا الطابق بـ«العْلاَلِي».

وتبنى المساكن في مجالات سجلماَسة بـ«اللوح»، وهو عبارة عن لوحتين من خشب الصفصاف طول الواحدة منها متر ونصف وعرضها متر واحد، ولا تستعمل هذه الأداة في عملية البناء إلا بعد وضع الأساس الذي يبنى بالحجارة والطين. ويملأ اللوح بخليط التربة والحجارة الصغيرة، ولا يبلل هذا الخليط بالماء كثيرا حتى تسهل عملية ركزه بالمراكز. والجدار المبني بهذه الطريقة يكون عرضه 50 سم. غير أنه حين يصل ارتفاعه إلى مستوى ثلاثة أو أربعة أمتار يشرع العمل في السقف اعتمادا على أعمدة خشبية من الصفصاف أو خشب النخيل، ويوضع القصب أو جريد النخيل بعد تجريده من سعفه فوق هذه الأعمدة، ثم يغطى الكل بالتراب المبلل ويسمى «اللساق» ثم يطمر بالتراب حتى يصل سمكه حوالي 20 سم، وتوضع فوقه طبقة غير سميكة من الطين.

والغرف التي تقع في الطابق العلوي الثاني أي «العلالي» تبنى غالبا بالطوب الذي تتم صناعته بأداة تسمى «القالب». وهي عبارة عن ألواح

خشبية صغيرة ذات شكل مستطيل طولها 25 سم وعرضها ما بين 15 و30 سم وعلو أضلاعها 10 سم. ويتم ملأ «القالب» بالطين ثم يسحب الإطار وتترك الطوبة عرضة لأشعة الشمس حتى تجف فتصبح حينئذ قابلة للاستعمال.

كان القصر يمثل وحدة التجمع البشري الأكثر أهمية في مناطق سجلماسة، وقد لعب بدون شك دورا مهما في التكامل الاقتصادي بين مدينة سجلماسة ومجالها القروي، كما كانت له وظائف عديدة سياسية واجتماعية ودينية. غير أن الإشعاع الحضاري لمدينة سجلماسة منع هذه التجمعات السكنية من الظهور بفعالية كبيرة على الأقل في مرحلة ازدهار المدينة الأم، لكن بعد مرحلة التراجع التي شهدتها هاته الأخيرة اضطلعت بعض القصور بمهام كانت من اختصاص الحاضرة فيما مضى.

وخير مثال على ذلك الازدهار الذي عرفه قصر أولاد غانم في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد أن اتخذه يوسف ابن علي بن غانم شيخ عرب أولاد حسين قاعدة لنفوذه بتيزيمي. ونعرف أن هذا الزعيم شارك في أحداث المغرب السياسية خلال المرحلة المذكورة وراسل سلاطين غرناطة في شأن استقدام أبي العباس أحمد إلى المغرب قصد توليته سلطانا بفاس.(103) وخاض صراعات عسكرية مع الوزراء المتغلبين على السلاطين بعاصمة المرينيين خاصة الوزير محمد بن عثمان الذي جهز الجيوش بفاس وبعث بها إلى سجلماسة «فخرب ما كان ليوسف ابن علي بن غانم بها من العقار والأملاك». وهذا ما يؤكد الأهمية الكبيرة التي كانت لهذا القصر في القرن 8 هـ / 14 م.(104)

تظافرت عدة عوامل لتجعل من هذه التجمعات القروية مراكز فاعلة في إنعاش اقتصاد إقليم سجلماسة بعد خراب عاصمته. وأصبحت القصور تمارس ما كان من اختصاص مدينة سجلماسة في السابق بشهادة الوزان

---

103) ابن خلدون، العبر، م. س. ج 7. ص 472.

104) ابن خلدون، العبر، م. س. ج 7 / ص 462.

الذي قال «ويدير شؤون كل قصر من هذه القصور أمير خاص هو رئيس فريقه... وتضرب في هذه القصور سكة فضة وذهب... ويوجد بعض النبلاء الأغنياء يذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلونها بالذهب والعبيد».(105)

يذكرنا ما ذكره الوزان هنا عما كان يجري بقصور إقليم سجلماسة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي بالدور الذي كانت تلعبه المدن في العصر الوسيط، فالقصر أصبح مركزا للقرار بعدما كان تابعا للمدينة في المراحل السابقة، له أمير يدير شؤونه وبه دار سكة تضرب العملة الذهبية والفضية. كما تواجد به من مارس التجارة مع بلاد السودان.

ب - القصور القديمة

إن ما يثير الانتباه في السكن القروي بإقليم سجلماسة اليوم هو كثرة البنايات المهجورة خارج القصور وداخلها، ويرجع السبب في ذلك حسب أحد الباحثين - إلى أن الناس إذا مالحق سكنهم ضرر ما يقومون ببناء سكن آخر بجواره طالما أن عملية البناء لا تكلف الشيء الكثير بالاعتماد على مواد البناء المحلية وهي الطين والحجر وخشب النخيل وجريده.(106) ومثال ذلك أن واحة تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة تضم عددا كبيرا من القصور المهجورة يفوق عددها العشرين وهي موزعة على المقاطعات الست التي توجد بها وهي السيفة، بني محمد، تانيجوت، واد إيفلي، الغرفة والسفالات».(107) وهذه الوضعية لا تساعد على معرفة تاريخ بناء القصور كما لا تساعد على رصد التطور الذي لحقها عبر التاريخ.

سبقت الإشارة إلى أن القصور بإقليم سجلماسة تعود لتاريخ سابق لتاريخ بناء المدينة، لأن المنطقة كانت مأهولة منذ عصور غابرة. وتوجد اليوم بتافيلالت بعض المواقع القديمة التي تؤكد قدم استقرار الإنسان بها.

---

105) الحسن الوزان، م. س. ج 2 / ص 126.

106) R. Faure; op. cit; p : 138.

107) F. Gendre; Tafilalet; op. cit; p : 52.

فقد تم العثـور في بداية خمسينيات هـذا القرن على نقوش لعربـات تجرها الخيـول وخطوط من تيفنـاغ بالقـرب من الطـاوز جنوب سجلماسـة، كما اكتشفت بهذا المكان بقايـا ثلاث قرى تعود للفترة الليبيـة البربرية - Libyco Berber.(108) كما توجـد بجبل أفيلال أطلال محصنـة بأسوار حجـرية وهي على مـا يظهـر الحد الأقصى للسكن في حـوض زيـز في اتجاه الجنـوب، والغرض من وجـود هذا البناء الـذي يعود إلى فترة جد مبكـرة من التاريخ الوسيط هو مراقبة القوافل المتجهة إلى بلاد السودان،(109) خاصة وأن جبل أفيلال يقع على الطريق الرابط بين سجلماسة وتمبكتو.

يعود أقدم مـا هو معروف من القصور بسجلماسـة إلى القرن الخامس الهجـري الحادي عشر الميـلادي، ويتعلق الأمـر بقصر «الجبيل» الـذي يقع شمال غـرب جماعة بني محمـد بين منطقتين مرتفعتين. وتتكـون ساكنتـه اليوم من العنـاصر العربيـة والأحرار وبعض الأسر من أيت إزدك.(110) كما ذكـرت د.ج. موني أن قصر أبـار المخـزن يعود إلى نفس المرحلـة، رغم أن مـوقعـه المتميـز والمشجع على الاستقـرار يـؤهلـه لأن يكـون أقـدم من سابقه.(111)

ولا نعلم شيئـا عـن السكن القـروي بسجلماسـة في القـرن السـادس الهجـري الثاني عشر الميـلادي، لأن المصادر القـديمة لا تشير إلى القصـور النشيطة في مختلف المجالات خلال هذه الفترة. ولا يعني ذلك عدم وجودها بقدر مـا يعكس النقص الواضح في مجال المعلومات المتعلقـة بها في المصادر المكتوبة.

ذكـر ابن الـزيات اسم أحـد القصـور التي كـان لها إشعاعـا دينيـا في ضواحـي سجلماسة في القرن السـابع الهجـري الثالث عشر الميـلادي أثناء حـديثـه عن أبي العباس التـوزري - أحـد رجـالات التصوف الـذي أقـام

108) J. Meunie; Charles Allain; quelques gravures et monuments funeraires de l'esctreme sud-est marocain; H. L. III. 1-2 trim; 1956; p : 67.

109) D. J. Meunie; Abbar; op. cit; p : 63.

110) R. Faure; op. cit; p : 167.

111) D. J. Meunie; Abbar. op. cit; p : 63.

بسجلماسة مدة ثم توجه إلى المشرق فمات هناك في حدود سنة 610هـ / 1214م – وقال «سمعت أبا عبد الله محمد بن أبي القاسم يقول حدثني أبو زكرياء يحيى بن ميمون قال اعتكف عندي أبو العباس التوزري برابطة أنبدور خارج مدينة سجلماسة فدخلت عليه بين العشائين فدفع لي جاما فيه خبز ولحم وما رأيت أطيب منهما».(112) وكلمة أنبدور تعني العتبة كما تعني الحكاية أو الملحمة.(113)

وقد وقفنا أثناء زيارتنا للميدان على الآثار المتبقية من رابطة أنبدور التي تحمل عند المحليين اسم قصر انبدور، وتوجد على بعد خمس كلمترات شمال شرق خراب مدينة سجلماسة على الطريق الحالي الرابط بين الريصاني وأرفود. ورابطة أنبدور تحد بقصر البطرني في الجنوب الشرقي والساقية المسماة المنصورية شرقا ومولاي محمد الشيخ غربا والجبيل وتاحسنونت شمالا. وتوجد إلى اليوم بتافيلالت ساقية تحمل اسم الساقية النبدورية تنطلق من قصر أولاد ليمان وتمر محادية للحدود الشمالية لخراب مدينة سجلماسة لتنتهي بقصيبة الحدب.

وقد أشار نفس المؤلف إلى أحد أقطاب التصوف بالمناطق المجاورة لسجلماسة دون أن يشير إلى اسم المكان الذي عاش فيه، وهذا الرجل هو أبو سعيد عثمان بن منغفاد الوريوي الذي قال عنه ابن الزيات أنه «من بادية سجلماسة وبها مات في شهر رجب عام 615هـ / 1219م تلميذ أبي عبد الله الهواري الذي كان بتونس وصحب أبا زيد بن هبة الله المزياتي وكان من الأفراد قيل له لم بقيت منفردا ولم تتزوج، فقال شغلني عن الزواج ما هو أهم منه، وكان يواصل خمسة عشرة يوما حتى انحلته العبادة. حدثني من صحبه قال لما احتلم هام على وجهه ودخل الصحراء بالتسبيح والتقديس»،(114) وهذا يؤكد أن القصور بسجلماسة لعبت دورا

---

112) ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1984. ص: 412.

113) نفسه، هامش رقم 282، ص 412.

114) نفسه ص 440 – 441.

دينيا كبيرا إلى جـانب نشاطها الاقتصادي والسيـاسي والاجتماعي في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

وتمثل المرحلة المرينيـة فترة ازدهار في تكـاثر المعمار ببادية سجلماسة لأنها شهدت بنـاء قصور عديدة ورد ذكـرها في بعض المصادر. فـالقصبة السجلماسية التي شهدت نشاطـا فكريا كبيرا في العهد السعدي،(115) وأعيد بنـاؤهـا في القـرن الحادي عشر الهجـري السـابع عشر الميـلادي على يـد السلطـان مولاي إسماعيـل تحمل إلى الآن بقايـا زخـرفـة رائعة تعـود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين،(116) وبالنظر لقربها من موضع مدينة سجلماسة فإنها كانت بـدون شك تتوفر على مباني ومنشآت لا تقل جودة وروعة عن مثيلاتها الموجودة داخل أسوار المدينة.

ولما استقل أبناء أبي علي عمر المريني بسجلماسـة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي إنعكس ذلك على تطور فن معمار القصـــور بهذه المنـاطق. فقـــد بنى عبـــد الحليم بن أبي علي الـــذي حكم سجلماسة ما بين 762هـ - 763هـ / 1361م - 1362م قصبة ما تزال تحمل اسمـه إلى اليوم، وهي قصبـة أولاد عبـد الحليم.(117) وقـد احتفظ المدخل الرئيسي لهذه القصبة بزخرفة تعبر عن الفن الرائع الذي ساد بالمغرب خلال الفترة المرينية. كما تضم خلف أسـوارها العـالية سـاحـة داخلية ذات شكل مستطيل، ويوجـد بداخلهـا بستان كان بـدون شك منتزهـا للأمير المريني المؤسس لها.(118) وقد تم شراء هذه القصبـة في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي من طـرف السلطان سيـدي محمد بن عبد اللـه، وفي بدايـة القرن العشرين أصبحت مقـر سكنى مـولاي رشيـد عامل العلـويين على منـاطق تافيلالت.(119)

---

115) محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد السعديين، فضالة، 1978، ج 2. ص 528.

116) R. Faure; op. cit; p : 171.

117) انظر موقع قصر اولاد عبد الحليم في الخريطة رقم (3).

118) F. Gendre; tafilalet; op. cit; p : 55.

119) D. J. Meunie, Le Maroc saharien; op. cit; p 295.

إن التطور الملحوظ الذي شهده فن معمار القصور بسلجماسة في مرحلة الحكم المريني كان نتيجة للنشاط الواسع الذي شهدته عملية البناء منذ أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، أي منذ الفترة التي تم فيها دخول الشرفاء العلويين إلى مناطق سجلماسة واستقرارهم بوادي إيفلي.

وموقع وادي إيفلي الذي سكنه الشرفاء أخذ تسميته حسب الرواية المحلية من نبات يسمى «فْـلِـيُّـوا» كان يوجد بكميات كبيرة في هذا المكان، أما مدلول هذه الكلمة عند قبائل التوارگ فيعني الخطارة. ويحتل وادي إيفلي موقعا ممتازا وسط سهل تافيلالت بالقرب من مجرى وادي زيز في الجهة الشرقية لموضع سجلماسة المدينة ويضم اليوم أربعة وأربعين قصرا يسكنها الشرفاء غير أن أقدمها وأهمها قصر أبار المخزن وقصبة أولاد عبد الحليم وقصر صوصو وأخنوس.

وقد وردت إشارات حول أسماء بعض قصور وادي إيفلي وأسماء قصور أخرى كانت موجودة بسجلماسة في العهد المريني في كتاب «مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود أنكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين وغيرهم» منها قصر «تابعصامت» الذي ورد محرفا في رسالة وجهها السلطان أبو عنان فارس إلى شرفاء سبتة يأمرهم بأن يلقوا القبض على أحد مخالفيه وقد أراد الجواز إلى الجزيرة الخضراء، ويأمرهم فيها بأن يحتفظوا بهذا الشخص إلى أن يأتي به مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد الحسني إلى فاس. ويظهر من هذه الرسالة أن الشريف السجلماسي مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد الحسني كان على خلاف مع أهل تابعصامت وأن السلطان يعده بأن يعاقب هؤلاء وهذا نص الرسالة «الحمد لله وبما في براءة السلطان أبي عنان المريني رحمه الله ما نصه أنه يأمر فيه الشرفاء الأخيار أهل سبتة سيدي أحمد بن طاهر الشريف الحسني الصقلي وسيدي أبا زرهون عبد العزيز بن عبد الرحمان الشريف المومناني الحسني وابن أخيه السيد أبا علي حسون بن محمد بن عبد الرحمان الحسني المومناني أن تقبضوا أخاهم ليلا يقطع إلى الجزيرة الخضراء إلى أن

يأتي صاحبنا به إلى فاس وهو سيدي مولاي علي الشريف بن لحسن (كذا) ابن محمد الحسني وهو مغير مع أهل سجلماسة أيت بوعصامت وأن بوصوله يأخذ أثره إن شاء الله فلا يكفي ما لهم عن رقابهم وكتب في أول شوال (كذا).(120) دون إشارة إلى تاريخ كتابة هذه الرسالة.

إن قصر تابعصامت الذي ورد ذكره في هذه الرسالة هو أكبر قصور السفالات ويعود تاريخ بنائه إلى ما قبل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حسب رأي أحد الباحثين.(121) وقد ذكر الحسن الوزان هذا القصر ضمن القصور الثلاثة التي نزح إليها سكان مدينة سجلماسة بعد أن ثاروا على عامل المرينيين بها في عهد السلطان أبي العباس أحمد.(122)

ويقع قصر تابعصامت حسب وصف الوزان على بعد ثمانية أميال جنوب قصر تانجيوت وهو أكبر منه وأكثر منه حضارة وفيه عدد كبير من التجار الأجانب ومن اليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من كل بقية الإقليم.(123)

وجاء في كتاب «مجموع مؤلف من ظهائر شريفة» ظهيرا وجهه السلطان أبو العباس أحمد المريني إلى شرفاء سجلماسة عام 763هـ / 1363م يطالبهم فيه بأن يحضروا إلى المدينة البيضاء «فاس الجديد» ليأخذوا عطاياهم وهباتهم التي ألفوا أخذها من السلاطين المرينيين، وهذه الدعوة موجهة إلى شرفاء صوصو وهو قصر يوجد إلى اليوم بوادي إيفلي وشرفاء خنوس والمقصود به قصر أخنوس الموجود بنفس المنطقة أيضا، وشرفاء السيفة وهذه الكلمة تطلق اليوم على مقاطعة من المقاطعات الست التي تضمها تافيلالت كما تطلق على قصر من قصورها. وهذا نص رسالة أبي العباس أحمد المريني كما دونها صاحب المجموع «الحمد لله تقييد من كتاب بعض

---

120) مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود أنكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين وغيرهم، مخطوطة خ. ع، رقم د 723، ص 115 – 116.

121) D. J. Meunie; Abbar; op. cit; p : 63.

122) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 121.

123) نفسه، صفحة : 126.

من ملـوك بني مرين وهـو أبو العباس أحمد المريني رحمه اللـه على سبيل الاختصار وهو يخاطب فيه أولا الشيخ الولي الصالح السيد أبا علي حسون الحسني وأولاد مولاي عبد الله بن أبي البركات الحسني أهل السيفة وأولاد السيد أحمد بن محمـد بن علي الشريف الحسني أهل صـوص (كذا) وأولاد مـولاي محمـد بن علي بن يـوسـف الشريف الحسني أهل خنـوس (كـذا) بالقدوم إلى حضرته من المدينة البيضاء. لما جاء من الغنائم وهي ستون ألفا من النصري وعشرون ألف قنطار من الريال الرومي وغنائم كثيرة ليأخذوا ما هي عادتهم من الخراج وأن من لم يحضر لالوم علي من جانبه.(124)

يتضح من نص الرسالـة أن السلطان - بعد حصوله على غنـائم قدرها ستون ألفـا من العملة النصريـة بغرناطـة وعشرون ألف قنطار من الـريال الرومي وغنـائم أخرى - أراد أن يؤدي للشرفاء ما اعتـادوا أن يأخذوه من السـلاطين المرينيين، فدعـا لـذلك من شرفـاء سجلماسة أهل السيفـة وأهل صوصو وأخنوس. وهذا ما يؤكد أن هذه القصـور كانت خلال هذه المرحلة تلعب دورا كبيرا في أحداث منطقـة سجلماسة بدليل وجود زعـامة الشرفاء الحسنيين بها.

ويعود تـأسيس قصـور الغرفة إلى مـرحلة مبكرة من التـاريخ الوسيط، غير أن أول إشارة وصلتنـا عنها تـرجع إلى القرن السـابع الهجري الثـالث عشر الميـلادي اعتمادا على مـا ذكره ابـن السكاك في كتـابـه «نصح ملـوك الإسلام». والغرفـة التي تطلق اليوم على مقاطعة بتـافيلالت تقع في الجنوب الشرقي للواحة وتستمد اسمها - حسب أحد الباحثين - من فعل غرف أي أخـذ الماء بيـده، كما يمكن أن تعنـي الملعقـة لأن المحليين يسمـونها «الـمْـغُـرْفَة»، أو تعني البيت أيضـا الذي يقع في الطـابق العلوي للمسكن بتـافيـلالت. غير أن التفسير الأول يبقى أقرب إلى الصـواب لأن الماء يتخـذ أهمية كبيرة في حياة السكان بمجتمع الواحات، وبما أنه كان متوفرا في وادي سجلماسة قديما فإن اشتقاق الكلمة من فعل غـرف يصبح مفهوما بالنظر

---

124) مجموع مؤلف من ظهائر شريفة، م. س. ص 116.

لتوفر هذا المكان على عدد كبير من «الكَلتات» أي بقايا مياه الفيضانات.(125)

ذكر ابن السكاك أن أحد أبناء سيدي أبي علي حسون الشريف الذي ضريحه بالغرفة من القصر الجديد وهو حفيد الولي الصالح سيدي أحمد الشريف الحسني المومناني دفين غرناطة انتقل من الأندلس إلى سبتة أيام حكم العزفي ففرح به وزوجه ابنته. وهذا القادم هو أبو زيد سيدي عبد الرحمان بن عبد الحق بن معنصر بن الشيخ سيدي أحمد الشريف المذكور، وخلف مع ابنة العزفي أبازرهون عبد العزيز والسيد محمد، ثم ولد سيدي محمد المذكور السيد أبا علي حسون الذي توفي بفاس وانتقل به ميتا إلى الغرفة بالقصر الجديد وتوارثه أعقابه، إلى أن قامت دولة الوطاسي فانتقل أحفاده من سجلماسة إلى فاس الجديد.(126) إن القصر الجديد الذي ذكره ابن السكاك يوجد إلى اليوم بتافيلالت بالغرفة التي تضم أربعة عشر قصرا أهمها أسرغين القصر الجديد وأولاد عبد الرحمان.(127)

وذكر نفس المؤلف أسماء قصور أخرى بسجلماسة في معرض حديثه عن هبة من أحد الشرفاء المستقرين بفاس لإخوانه وأبناء عمومته القادمين من سجلماسة وقال «وهب الشيخ الولي الصالح العابد الزاهد القطب الواضح ولي الله أبو العباس السيد أحمد الشريف بن السيد عبد الرحمان بن مولاي علي الشريف الحسني المومناني الغرفي على إخوانهم (كذا) وابن (كذا) أعمامه الشرفاء القادمين من سجلماسة من الغرفة ومن أخنوس ومطغرة والرتب وأهل صوص يتولون في دار الحبس في حومة جرنيز تقابل السيد القيم نفعنا الله به أهابها عليهم إهابة تامة وذلك في أول رمضان المعظم عام اثنين وسبعين وتسعمائة.(128)

---

125) R. Faure; op. cit; p : 131.

126) ابن السكاك، نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، مخطوطة، خ. ع رقم د 383، ص 59 – 60.

127) انظر مواقع هذه القصور بالخريطة رقم (3).

128) ابن السكاك، م. س. ص 121.

إن قصور الغرفة وأخنوس وصــوصو ذكرت في نصوص تعود إلى فترة سابقـة للفترة التي عاش فيهـا ابن السكاك، غير أن قصــور مطغرة – التي هي مدغـرة حاليـا – وكذلك قصور الـرتب ورد ذكرهـا لأول مرة في النص أعـلاه. ولا يعني ذلك أنها وليـدة القـرن العـاشر الهجـري الســادس عشر الميلادي لأن الـرتب ومدغـرة يمثلان المنـاطق الواقعـة إلى الشمال من واحة تافيلالت وتيـزيمي، وتحتل قصورهما موقعا ممتـازا على ضفاف نهر زيز يؤهلها لأن تكون منطقة استقرار منذ زمن سابق للفترة المذكورة.

غير أن تفاصيل أخبار هذه المناطق أتتنا في وقت متأخر عن المرحلة التي تهمنا، ويتعلق الأمر بوصف الوزان لها حين ذكر «أن مضغرة تتاخم دائرة الخنك في اتجاه الجنـوب وتحتوي على قصــور عـديدة تقع على وادي زيـز وأهمها القصر المسمــى هلال وفيه يقيـم أمير الدائرة.(129) أما دائرة الرتب فهي تتاخم مضـغـرة وتمتد على طول زيـز شطر الجنوب على مسافـة نحو خمسين ميلا إلى إقليم سجلماسة وبها عدد لا يحصى من القصور وبساتين النخيل.(130)

ذكر الحسن الـوزان أن قصر تانجيـوت يعود تأسيســه إلى فترة خراب مدينة سجلماسة، واسم تانجيوت لا يوجد اليوم في أسماء قصور تافيلالت بل يطلق على مقـاطعـة بها تقع في القسم الشمالي الشرقي للـواحـة، وتضم قصورا عديدة أهمها أولاد يوسف ومزكَـيدة والقصر الفوكَـاني. وأهم تجمع سكني بها هو القصر الفوكَـــاني، وهو محاط بسور ضخم بـه أربعة عشر بـرجا. وقـد أشــار أحـد الباحثين إلى أنــه كـان قاعـدة للتسيير في ســالف االأزمان.(131) ويغلب على الظن أنــه شكل قسما من تانجيـوت التي اعتبرها الوزان أقـرب القصور إلى سجلماسة، غير أن تسميتـه بالقصر الفُـــوكَانِــي توحي بـوجود «القصر التَّـحْــتَـانيِ» أي القصر الـذي يقع إلى الأسفل منه ويرجح أن يكـون هو ما يسمى اليوم بقصر مزكَـيدة. وقـد أصبحت دلالة

129) الوزان، م. س. ج 2. ص 125.

130) نفسه، صفحة : 123.

131) D. J. Meunie; Abbar; op. cit; p 50.

كلمة تانجيوت اليوم تشمل جزءا كبيرا من تافيلالت يضم عددا كبيرا من القصور وليس قصرا واحدا. وهذا يذكرنا بالتطور الذي لحق كلمة سجلماسة على مستوى الدلالة لأنها كانت في البداية إسما للمدينة ثم أصبحت تطلق على مجال أوسع.

أشار الوزان إلى قصر المامون وقال بأنه «كبير حصين كثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود والمسلمين».(132) وورد في تعليقات محقق هذا الكتاب أن هذا القصر خرب حوالي سنة 1830م وكان موقعه على بعد كيلومتر واحد جنوب غرب تابعصامت على الصفة اليسرى لوادي زيز.(133)

ويوجد إلى الغرب من خراب مدينة سجلماسة قصر يحمل اسم «أبو عام» ويظهر من تسميته أنه كان يقام به سوق في وقت معلوم من كل سنة. ولا يستبعد أن يكون هذا القصر قد اتخذ تسميته مما أصبح يعرف في المغرب الأقصى بالقافلة السنوية، التي كانت تتجه إلى بلاد السودان مرة كل عام بعد تراجع دور الطريق الغربي في التجارة الصحراوية. وهذا ما جاء عند الوزان أثناء حديثه عن تكَاوست بسوس حين قال «يباع الصوف فيها بأحسن الأثمان، ويصنع منه الكثير من قطع الثياب الصغيرة التي يحملها تجار المدينة مرة في السنة إلى تنبكتو وولاته من بلاد السودان.(134)

ونعلم أن القوافل التجارية لم تنس منطقة سجلماسة بعد خراب عاصمتها، وظلت القصور الكبرى تزاول نشاطات كثيرة في مجال التجارة الصحراوية كما لو كانت سجلماسة ماتزال قائمة. ومن ثم، فإن قصر «أبو عام» الملتصق بخراب مدينة سجلماسة على واجهته الشرقية اضطلع بمهمة تجهيز القوافل قبل انطلاقها في رحلتها عبر الصحراء الكبرى.

أجمعت الكتابات الأوربية التي تعود إلى النصف الأول والثاني من القرن التاسع عشر على أن هذا القصر كان يشهد رواجا كبيرا لسلع بلاد السودان.

---

132) الوزان، م. س. ج 2. ص 126.

133) الحسن الوزان، م. س. ج 2. هامش رقم 22. ص 126. انظر أيضا موقع قصر المامون بالخريطة رقم (3).

134) نفسه، ج 1. ص 95 – 96.

فقد أكد رولف G. Rohlfs – الذي زار قصر أبو عام مرتين أولى في سنة 1862م والثانية في سنة 1864م – أن القوافل المكونة من تجار فاس وتافيلالت كانت تحط الرحال بقصر أبو عام قبل مواصلة الرحلة نحو شمال المغرب. كما أشار كايي R. Caille الذي زار هذا القصر سنة 1830م – إلى النشاط الكبير الذي كانت تعرفه تجارة العبيد بسوقه، وهذا ما أكده هاريس Harris الذي أقام في أبو عام بعد سبعين سنة من تاريخ زيارة كايي له.(135)

وشهدت منطقة الخنك التي تحتل موقعا ممتازا على الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وفاس بناء القصور منذ فترة مبكرة من التاريخ، غير أن معلوماتنا عنها ظلت محدودة إلى حين تأليف الوزان لكتابه وصف إفريقيا وذكره لأسماء ثلاثة قصور رئيسية بها هي قصر زعبل الذي لم يعد موجودا اليوم وقصر كستربر وقصر تمراكشت.(136)

3 – سكان سجلماسة وإقليمها

إذا كانت التطورات السياسية لمنطقة سجلماسة معروفة نسبيا نتيجة اهتمام الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب بهذه المنطقة، وصراعها من أجل التحكم فيها، فإن المعلومات الخاصة بتاريخها الاجتماعي تحتاج إلى الكثير من التوضيح، خاصة وأن المصادر على اختلاف أنواعها لم تهتم بهذا الجانب إلا نادرا. وهذا ما جعل ساكنة هذا الإقليم غير معروفة بكيفية جلية قبل قدوم عرب المعقل في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

ارتبط تعمير المدن المغربية في العصر الوسيط بالفعل السياسي وتطور عبر علاقة وطيدة به، فالإمارات أو الدول عند تأسيسها لمدينة ما تعتمد توزيع أحيائها على القبائل الحليفة، فتكون المدن في بداية تاريخها عبارة عن تجمع سكني لعصبيات تربطها علاقة الدم أو الحلف بالحاكمين، ثم تختلط هذه الساكنة مع عناصر جديدة تأتي عبر هجرات من مناطق بعيدة للمشاركة في الحياة العامة للمدينة، مدفوعة بالرغبة في الكسب والعيش الرغيد.

135) F. Gendre; Tafilalet; op. cit; p 53-54.

136) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 122.

وهكذا فإن التطور الذي تعرفه المدينة على مستوى التعمير يرتبط بالتطور الذي يشهده تاريخها في أكثر من مجال. وهذا ما يظهر بوضوح في أطوار تعمير مدينة سجلماسة التي اختطتها قبائل مكناسة وأصبحت فيما بعد تضم عناصر مختلفة من باقي سكان المناطق المغربية والأندلس والمشرق. لأن ساكنة المدينة المغربية - كما أشار محمد فتحى - تزداد عددا بفعل استدعاء عناصر مختلفة لملأ الفراغ داخل الأسوار ويتم ذلك عبر هجرات متوالية.(137)

وكان من المفروض بالنسبة لسجلماسة - التي مثلت المنطقة الأكثر حيوية في التجارة الصحراوية في العصر الوسيط ببلاد المغرب - أن تعرف تعددا واختلافا في العناصر المشكلة لساكنتها. وهذا ما يستدعي ضرورة العودة إلى الفترة السابقة للمرحلة المعنية بالدراسة قصد فهم التسلسل العام لأطوار تعمير مجالاتها، لأن ذلك سيفيدنا في رسم صورة تقريبية لطبيعة هذا التطور قبل استقرار عرب المعقل بهذه المناطق أي قبل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

ذكر البكري أن أبا منصور اليسع - الأمير المدراري الثالث في سلالة أبي القاسم سمكو بن واسول - قسم أحياء سجلماسة بين القبائل.(138) ولم يشر هذا المؤلف إلى أسماء هذه القبائل ولا إلى مناطق استقرارها قبل حلولها بالمدينة. غير أنه من الواضح أن أغلب العناصر التي شكلت ساكنة المدينة في الفترة المبكرة من تاريخها لم تكن غريبة عن هذه المجالات، وأن غالبيتها كانت مشكلة من العناصر السوداء وصنهاجة وزناتة.

وإذا اعتبرنا أن مناطق سجلماسة كانت مأهولة منذ عصور غابرة فمن غير المستبعد أن يكون التركيب الاجتماعي لإقليمها مشكل من جماعات مختلفة غير التي ذكرناها أعلاه، خاصة وأن هذه المناطق عرفت الاستقرار البشري منذ فترة جد مبكرة من التاريخ.(139) وقد استمر التركيب السكاني

---

137) M. Fatha; op. cit; p : 119.

138) البكري، م. س. ص 148.

139) D. J. Meunie; Le Maroc saharien; op. cit; p 52.

لإقليم سجلماسة على هذه الحال من التنوع والتعدد، وهذا ما عبر عنه اليعقوبي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي تعبيرا صريحا حين قال «وأهل سجلماسة أخلاط والغالبون عليها البربر وأكثرهم من صنهاجة».(140) يضاف إلى ذلك أن سكان القصور بهذه المناطق يعطون الدليل على استمرار هذه الوضعية، لأنهم ينتظمون في هذه التجمعات السكنية عبر ترتيب معقد. بحيث نجد في أسفل الهرم الحراطين وهم السكان السود ثم هناك العوام من البربر والعرب ثم هناك الشرفاء.(141)

إن التباين والاختلاف في الأصل والانتماء الذي عرفته ساكنة إقليم سجلماسة جاء نتيجة توالي هجرات مختلفة نحو هذه المنطقة، فالموقع المتميز الذي تحتله واحات سجلماسة على باب الصحراء الكبرى شكل عامل جذب لهذه العناصر على الدوام. كما أن هذه المناطق خضعت عبر التاريخ لقوى سياسية مختلفة، وكان لذلك أثر كبير في تطور ساكنتها. خاصة وأن تأسيس مدينة سجلماسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي تبعته مرحلة طويلة من الازدهار دامت ستة قرون، شهدت المدينة خلالها توالي نفوذ إمارات ودول عديدة، بدأ بقبائل مكناسة ومغراوة الزناتيين ومرورا بالمرابطين من صنهاجة والموحدين من مصمودة وانتهاء بالمرينيين من زناتة.

لقد كان للهدوء الذي عرفته هذه المدينة بعد تأسيسها أثره في مجيىء عناصر غريبة عن مجالاتها للاستقرار بها، ويتعلق الأمر بسكان بلاد المغرب كأهل القيروان والأندلسيين. وكل هؤلاء ساهموا في تعمير المدينة كما ساهموا في إنعاش اقتصادها بأن أتوا إليها بتقنيات جديدة في الصناعات والحرف.(142) وعرفت المنطقة استقرار العنصر اليهودي بجماعات كبيرة لأنها كانت باب المغرب على الصحراء الكبرى المؤدية إلى مناطق استخراج التبر.

---

140) اليعقوبي، م. س. ص 110.

141) Larbi Mezzine; Tafilalet; op. cit; p : 269.

142) J. M. Lessard; Sigilmassa; op. cit; p : 12.

وتجب الإشارة إلى أن الجالية الأوربية لم تعرف طريقها نحو سجلماسة نتيجة فارق المسافة بينها وبين سواحل بلاد المغرب. فقد ذكر ماسلاتري Mas Latrie المدن التي كانت بها جاليات أوربية بشمال افريقيا وحصرها في طنجة، سبتة، بادس، الكدية، فاس، هنين وهران، بونة، بجاية، تونس، سفاقص، المهدية، جربة، قابس وطرابلس.(143) ويتضح من ذلك أن الدول الأوربية لم تنظم علاقات تجارية مباشرة مع المدن الداخلية بل اقتصرت في تعاملها على المدن الساحلية للبحر الأبيض المتوسط. خاصة وأن السواحل الأطلسية المغربية ظلت لمدة طويلة مجهولة لدى الأوربيين ولم يتجاوزوا قط مدينة أصيلا خلال القرن الرابع عشر الميلادي.(144)

إن هذا التطور الذي عرفته ساكنة إقليم سجلماسة على امتداد التاريخ الوسيط المغربي يفرض التمييز بين مرحلتين في أطوار تعمير هذه المناطق مرحلة أولى تبتدىء منذ فجر التاريخ وتنتهي في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، شهدت فيها سجلماسة استقرار السود وصنهاجة وزناتة وعناصر أخرى مشرقية وأندلسية. ومرحلة ثانية تبتدىء بالقرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وتنتهي في العصور الحديث والمعاصرة، وفيها استقر عرب المعقل وكذلك الشرفاء الحسنيين بهذه المجالات. واستمرت ساكنة هذه المناطق على هذه الحال إلى حين قدوم جماعات أيت عطا في القرن التاسع عشر الميلادي.

أ – السود :

شكلت العناصر السوداء أغلبية سكان المناطق الجنوبية المغربية منذ فترة مبكرة من التاريخ، غير أننا لا نعلم الطريقة التي اعتمدتها هذه العناصر في عيشها بهذا المجال وهل كانت من المستقرين أو من الرحل ؟. وقد كان تواجد السود بسجلماسة مكثفا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري

143) Mas LATRIE; traites et documents divers concernant les relations des chrétiens et des arabes au moyen âge; Paris; 1868. p 185.

144) Ibid; p : 184.

الثامن الميلادي بدليل أن أول أمير للخوارج الصفرية بها كان من هؤلاء وهو عيسى بن يزيد الأسود.

ذكر الاصطخري أن العناصر السوداء تتواجد بكثرة في المناطق الصحراوية والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها. وصنف سكان بلاد المغرب حسب لون بشرتهم بناء على أثر الظروف البيئية في ذلك وقال «وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم بقرب الساحل فتعلوه سمرة، وكلما تباعدوا فيما يلي الجنوب والشرق ازدادوا سودا حتى ينتهوا إلى بلد السودان فيكون الناس بها أشد الأمم سودا».(145) وهذا ما أكده الإدريسي حين أشار إلى أن شدة الحر وإحراق الشمس جعل ألوان سكان الصحراء سوداء وشعورهم متفلفلة.(146)

إن كلمة السود التي لم ترد في مصادر العصر الوسيط إلا للدلالة على العناصر المجلوبة من بلاد السودان إلى بلاد المغرب، تدل بكل مناطق جنوب المغرب على عنصرين مختلفين هم الحراطين والعبيد. وإذا كان هؤلاء الأخيرين قد جلبوا عبر التجارة الصحراوية، فإن الحراطين هم سلالة العناصر التي شغلت مجالات الصحراء منذ فترة مبكرة من التاريخ.(147) وقد ذكرت د. ج. موني أن هذه العناصر هي ما يعرف في المصادر اللاتينية والإغريقية القديمة باسم الإثيوبيين.(148) وهذا لا يتنافى مع ما جاء عند الناصري حول لفظ الحرطاني حين ذكر أن معناه العتيق وقال «واعلم أنه قد وقع في هذه الأخبار لفظ الحرطاني، ومعناه في عرف أهل المغرب العتيق وأصله الحر الثاني كأن الحر الأصلي حر أول وهذا العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الألسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف».(149)

---

145) الإصطخري، المسالك والممالك، القاهرة 1961، ص 36.

146) الإدريسي، م. س. ص 41.

147) Delachapelle; esquise de l'histoire de sahara; op. cit; p : 39.

148) D. J. Meunie; le Maroc saharien; op. cit; p : 196.

149) الناصري، الاستقصا م. س. ج 7. ص 58.

إن قـدم العناصر السـوداء بمجالات سجلماسـة تـؤكده الأحـداث التي شهدتها هذه المنطقة أثناء قيام إمارة الخوارج الصفرية بها. ذكر البكري أن أول من ولي سجلماسـة هو عيسى بن يـزيد الأسـود.(150) وهذا مـا دفع بالبعـض إلى التساؤل عن أسبـاب ذلك، خاصة وأن أبـا القاسم سمكـو بن واسول هو صاحب الفضل في نشر تعاليم مذهب الخوارج بهذه المناطق، كما أن عيسى «لا يرقـى إلى منزلة أبي القـاسم من حيث السابقـة في المذهب أو الأفضلية في العلم، وعلى ذلك فإن اختياره للامامة يدل على ثقل وزن عنصر السودان ورجحانه على سائر العناصر الصفرية بإقليم تافيلالت».(151)

لم تـدم فترة حكم عيسى طـويلا وسرعـان مـا انتقلت الإمامـة إلى أبي القاسـم. قال البكـري «فأنكر أصحـابه الصفـرية عليـه أشياء فقـال أبو الخطاب يـوما لأصحـابه في مجلس عيسى السـودان كلهم سراق حتى هذا وأشار إلى عيسى فأخـذوه وشدوه وثـاقا إلى شجرة في رأس جبل وتـركوه كذلك حتى قتلـه البعوض فسمي ذلك الجبل جبل عيســى إلى اليوم ووليهم خمسة عشر عاما».(152)

كان عزل عيسى في نظر ماك كوك نتيجـة للخطة التي رسمتها مكناسة لنجاح إمارتها. لأن المكناسيين اضطروا إلى الخضوع لسلطة عصبية السود بمجرد نزولهم بمناطق سجلماسة، وحتى إذا ما أصبحت لهم القدرة الكافية استطاعوا أن يجدوا الحجة لخلعه.(153)

ويعد عيسى الذي كان زعيما لعصبيـة السود بسجلماسة أول حاكم في إمارة الخوارج الصفـرية بها وهذا يعطي الدليل على أهميـة العنصر الأسود بهذه المناطق، ولا يستبعد أن يكون هؤلاء هم الـذين أصبحوا يعرفون باسم الحراطين فيما بعـد. وحول هـذا الموضوع كتب مـاك كوك مـا يلي «يعتبر بعض الكتـاب أن الحراطين منحدرون من العبيـد السودانيين الـذين جلبهم

---

150) البكري، م. س. ص 149.

151) محمود اسماعيل، الخوارج، م. س. ص 116 – 117.

152) البكري، م. س. ص 148.

153) ماك كوك، م. س. ص 22.

البربر، وإذا كـان ذلك حقا فربما كانـوا غير موجودين في القـرن الثامن أو كان عـددهم قليلا. وهناك آخـرون يعتبرونهم من سكان الصحـراء السود الأقدمين. ونحن يمكننـا أن نقول أن هذه الجماعة ليست من أعقـاب العبيد الذين أتى بهم البرابرة بل أنها كانت موجودة في ذلك العهد وعلى هذا يمكن أن ينتسب عيسى إلى هذه الجماعة». (154)

يحمل الحراطين بمناطق سجلماسة أسماء أخرى هي «قبـالة» ومفردها «قبلي». وهذه التسميـة مستعملة في البربرية بهذه المنـاطق بصيغة «إقبلين» ومفردها «أقبلي». وهـذه الكلمة كما يظهر من معناهـا تعني أهل القبلة، أي سكان بـلاد القبلة التي تستعمل في المصـادر للدلالـة على مجالات الجنوب المغربي بما فيها درعة وسجلماسة. كما يمكن أن تعني أيضا سكان المناطق الواقعة إلى الجنوب منها أي بلاد الصحراء وما يليها من بلاد السودان.

ذكر أحد الباحثين أن كلمة أقبلي تستعمل بمناطق سجلماسة وكل مناطق الجنوب المغـربي، وهي ذات معنى جغرافي محلي وتـدل على السود أسـاسا الذين ليسوا عبيدا. كما تستعمل للـدلالة على بعض العناصر البيضاء، ويتم التمييـز بين الجماعتين بـ«إقبلين إمـلالـن» أي قبـالـة البيضـان و«إقبلين أحرضـان أخماس» أي قبالة الملونين المشتغلين في الحقول بالخماسة. ويظهر أن بربر الأطلس الكبير الشرقي هم الـذين أطلقوا هذه الأسماء على العناصر التي سبقتهم إلى الاستقرار في مناطق الجنون وهـؤلاء هم أيت مرغاد وايت إزدك اللـذان يمثـلان القبـائل الكبرى في حلف أيت يفلمان». (155) وتجب الإشارة هنـا إلى أن كلمة إقبلين إمـلالن أي قبالـة البيضان لا تستعمل بكل مجالات إقليم سجلماسة اليـوم بل هي خاصة ببعض منـاطق حوض وادي درعة.

ويصعب تحديـد أصل قبالـة البيضـان ويظهر أنهم من سـلالة البربـر الذين شغلوا مجالات الجنوب المغربي منـذ القديم. فقبائل إملوان وإكَـروان وإيـزروان تحدثت عنها المصـادر في القرن السـادس الهجري الثـاني عشر

154) نفسه، صفحة : 19 – 20.

155) F. J. Meunie; le Maroc saharien; op. cit; p : 245.

الميلادي كجماعات تستقر بالأطلس الكبير الشرقي بأسيف ملول وإيمدغاس وغريس وزيز وكَير، ولم يعد لها أثر بهذه المناطق اليوم بعد أن تفرقت في جهات المغرب، واندمج من بقي منها بها مع العناصر المختلفة الأخرى.(156)

وتستعمل كلمة أقبلي إسمخ بمناطق سجلماسة للدلالة على الأسود العبد، والفرق بين أقبلي إسمخ وأقبلي أحرضان أن الأول يختص بالعمل داخل المنازل أما الثاني فيختص بالعمل في الحقول. والعبيد الذين يسمون اليوم بإقبلين إسمخان هم سلالة الجماعات التي تم جلبها بواسطة التجارة الصحراوية. ويمكن تحديد مجال استعمال هذه الكلمات بمناطق سجلماسة على الشكل التالي في الرتب وكَير وغريس تستعمل كلمة إقبلين للدلالة على المشتغلين في الحقول بالخماسة أما في مناطق تيزيمي وتافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة فالشائع هو استعمال كلمة الحراطين وقبالة.

ب - العناصر البربرية

استقرت القبائل البربرية في المناطق الصحراوية منذ عهود قديمة وكانت في مرحلة الحكم الروماني لبلاد المغرب خارجة عن حدود الليمس Limes. وقد ظلت المناطق الواقعة جنوب سلسلة جبال الأطلس خالية من نفوذ هؤلاء، الأمر الذي جعل هذه المناطق مجالا مستقلا تحركت فيه القبائل التي لم يشملها قانون الرومنة. ولم يسجل لنا التاريخ سوى محاولة واحدة قام بها الرومان لتجاوز جبال درن، ويتعلق الأمر بحملة ستنيوس بلينوس التي وجهت ضد قبائل جيتول Getules في سنة 41 م كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه.

ونجهل التاريخ الذي دخلت فيه القبائل البربرية مناطق الصحراء. غير أنه من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث زمان الهجرة النبوية سنة 622م، وشكل دخولها عامل ضغط دفع بالعناصر السوداء إلى التراجع نحو أقصى الجنوب، تاركة مجالاتها للعناصر البيضاء التي أسست الواحات والقصور بهذه المناطق.(157)

---

156) Ibid; p : 246.

157) Delachapelle; esquise de l'histoire de sahara; op. cit; p : 40.

ذكر لويكي أن مناطق الصحراء كانت مسكونة من طرف عدد كبير من القبائل البربرية التي اختلطت بدم السودان بحكم الجوار في المجال. وهذه الجماعات الصحراوية بما فيها السود والبربر هي التي لعبت دورا مهما في تنظيم علاقات تجارية واسعة بين بلاد المغرب ومصر من جهة وبينها وبين السودان الغربي من جهة ثانية. وكانت هذه العناصر البربرية تتكون أساسا من صنهاجة وزناتة وتضم الأولى قبائل الرحل فقط في حين تضم الثانية الرحل والمستقرين على حد سواء.(158)

وإذا كان الترحال وليد ظروف جغرافية محددة وليس من اختصاص جماعة بشرية بعينها فإن المناطق الصحراوية التي تعرف ضعفا كبيرا في كمية التساقطات، ويغلب على مناخها الجفاف في كل فصول السنة، هي المجال الأكثر قبولا لانتشار هذا النوع من أشكال الحياة. ونعلم أن الحدود التاريخية للصحراء تنحصر في الشمال بين وادي نون وباني وهضبة كَم كَم جنوب تافيلالت وإيكَيدي والسورة، وفي الشرق بين طريق إيكَيدي جنوب توات وتندوف بالهكَار وفي الجنوب تكنة وتالمست.(159)

ظل إقليم سجلماسة بحكم موقعه على الحافة الشمالية للصحراء الكبرى مجالا لتنقل قبائل الرحل. عبر التاريخ لأن سكان الصحراء كانوا يصعدون بقطعانهم في فصل الصيف – ما بين شهر ماي وشتنبر – إلى أعالي وادي ملوية ثم يعودون في فصل الخريف نحو المناطق الجنوبية للتزود بالتمور من مناطق الواحات، قبل التوغل في الصحراء جنوبا حيث يقضون فصل الشتاء. وهذه عادة القبائل الصنهاجية كزناكَة وجنفيسة وتاركَة.(160)

كانت مدينة سجلماسة في منقلب رحلة انتجاع القبائل الصحراوية من الجنوب إلى الشمال. فقد ذكر اليعقوبي أن أهل سجلماسة أخلاط والغالبون عليها البربر وأكثرهم من صنهاجة.(161) وبما أن هذه القبائل ظلت تنتجع

158) Ibid; p : 49.

159) L. Massingnon; le Maroc; op. cit; p : 116.

160) Lewicki; titre libyco - Berber; op. cit; p : 44.

161) اليعقوبي، م. س. ص 110.

مناطق الصحراء بأعداد كبيرة حتى قيام دولة المرابطين، فإن تواجدها بمجالات سجلماسة لم يكن دائما. لأن إيلاف الرحلتين كان يقودها من الصحراء التي تمر بها الطرق التجارية المتجهة نحو بلاد السودان جنوبا، إلى أعالي ملوية شمالا.

احتكت قبائل صنهاجة بمجالات سجلماسة في القرون الأولى الميلادية.(162) وجزولة ولمطة اللتان تنتميان إلى المجموعة الصنهاجية هما المرشحتان للاستقرار بهذه المناطق أكثر من غيرهما. فالأولى قريبة من كلمة جيتول Getules المعروفة في العهود القديمة وهي تسكن اليوم قرى الأطلس الصغير بعد أن عاشت حياة الترحال بالصحراء حتى القرن الرابع عشر الميلادي.(163)

كانت قبائل جيتول - إن صح أن كانت هي جزولة على رأي دولاشابيل - مستقرة بمجالات وادي كَير في القرن الأول الميلادي وقد وجه الرومان حملة ضد هذه القبائل قادها ستنيوس بلينوس سنة 41م دامت عشرة أيام. وهي التي فسر بها المؤرخون الأوربيون ما ذكره الوزان عن تأسيس سجلماسة من طرف قائد روماني كما أسلفنا. فتكون مجالات هذه القبائل غير بعيدة عن المنطقة المحددة للدراسة منذ الفترة السابقة لتأسيس مدينة سجلماسة، كما لا يستبعد أن تكون قبيلة جزولة قد أخذت حيها ضمن أحياء المدينة بعد اختطاطها من طرف قبيلة مكناسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي.

استقرت قبيلة لمطة بوادي نون وكانت لها بهذه المناطق مدينة نول لمطة التي اشتهرت بصناعة الدرق اللمطية من جلود حيوان صحراوي يسمى اللمط، كما سيطرت هذه القبائل على كل واحات جبال باني وتواجد عدد كبير منها بسجلماسة.(164)

وكانت العناصر الصنهاجية كثيرة العدد بمجالات سجلماسة زمان حكم مغراوة لها، خاصة وأن المرابطين بسطوا نفوذهم على سجلماسة بدعوة من

162) Delachapelle; esquise de l'histoire de sahara; op. cit; p : 54.
163) Ibid; p : 50.
164) Delachapelle; esquise de l'histoire de sahara; op. cit; p : 60.

أهاليها، وهذا ما يؤكد علاقة هؤلاء بالحركة المرابطية. فعبد الله بن ياسين وجه لمتونة ومسوفة وسائر الملثمين إلى بلاد درعة وسجلماسة، بعد أن راسله أهل سجلماسة في شأن تفشي فساد الأخلاق بمجتمعهم على عهد مسعود بن واندين المغراوي. فكان دخول المرابطين إلى درعة عام «خمس وأربعين وأربعمائة ثم عاودوا الغزو إلى سجلماسة فدخلوها من العام المقبل وقتلوا من كان بها من فل مغراوة».(165)

ومع نجاح الدعوة المرابطية ببلاد المغرب تكاثرت أعداد العناصر الصنهاجية بإقليم سجلماسة. وشكل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي المرحلة الأكثر حيوية في هذا الباب. خاصة وأن سجلماسة أصبحت خاضعة بعد فتح المرابطين لها ليوسف بن تاشفين باعتباره أول عامل لأبي بكر بن عمر عليها بعد أن توجه هذا الأخير إلى أغمات.

ذكر البكري في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أن قبائل مسوفة كانت موجودة بالمناطق القريبة من مجالات سجلماسة حين قال «بنو مسوفة من صنهاجة ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة».(166) كما أشار محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصاري الكتبي إلى أن المناطق الواقعة جنوب سجلماسة على الطريق المؤدي إلى بلاد السودان كانت تسكنها جماعات من البربر في العصر المريني تتكون من لمتونة وكَدالة ومسوفة، وأما لمتونة فهم الأغنياء وأما كَدالة فهم الأكثر عددا وأما مسوفة فهم الأحسن مظهرا.(167)

وبعد وفاة الأنصاري الكتبي بحوالي أربعين سنة مر ابن بطوطة بسجلماسة متوجها إلى بلاد السودان وكان قائد القافلة التي سار فيها إلى هناك من قبيلة مسوفة وهو محمد بن يندكان المسوفي.(168) وهذا ما يؤكد أن سجلماسة كانت تضم عناصر عديدة من هذه القبيلة، فزعامة القافلة

---

165) ابن خلدون، م. س. ج: 7 ص 52.

166) البكري، م. س. ص 149.

167) الأنصاري الكتبي الملقب بوطواط من خلال Fagnan; op. cit; p : 54-55

168) ابن بطوطة، م. س. ج 2، ص 777.

وقيادتها من طـرف رجل من مسوفة يجد تفسيره في أن هذه القبيلـة كانت تباشر مـراقبتها على الطـرق المؤدية إلى بـلاد السودان. وعليـه، فإن وجود رجل منهـا على رأس القـافلـة من شـأنـه أن يسهل عمليـة المرور ويضمن وصول القـافلة بســلام. إضافة إلى أن التكشيف وهـو الرجل الـذي كانت تكتريه القافلة ليتقدم إلى إيولاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الـدور ويخرجون للقـائهم بـالماء كـان من قبيلـة مسوفـة، وكـذلك الشأن بـالنسبـة للـدليل الـذي كـان يـرافق القـافلـة ليـدلها على الطـريق في تلك المفازات.(169)

ويـرجع الفضل في تعمير واحات الصحـراء على أوسع نطاق إلى القبـائل الزناتية كما أشرنا إلى ذلك أعلاه، وهذه الجماعات من القبائل التي كانت لها علاقـة واسعة بمناطق الصحراء منـذ زمن بعيد، وهي على ما يظهـر قبائل أصيلة بهذه المجالات، وقـد لحقها قانون الرومنة في حـدود ضيقة لما كانت بالمغـرب الأوسط ما بين منطقة شليف وتلمســان ومضيق تازة بما في ذلك الهضاب العليا الـوهرانية.(170) ومنذ فترة الفتـوحات الإســلامية أو قبلهـا بقليل استقرت القبائل الزناتيـة في سفوح جبال الأطلس لكن بعض بطونها ساهمت في أحداث بلاد المغرب السياسيـة منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.(171)

إن المجال الذي تنقلت فيه الجماعات الزناتية خلال فترة تاريخية طويلة هو النطاق الصحراوي. ذكر ابن خلدون أن مجالات هذه القبائل بالقفر من فكَـيكَ إلى سجلماسة وملوية وربما تخطوا في ظعنهم إلى الزاب.(172) ومعنى ذلك أن هـذه القبائل – كما هـو الشأن بالنسبـة لصنهاجـة – كانت تقـوم برحلات دائمـة كل سنة من الشمال إلى الجنوب. وإذا كان لعـامل الجفاف الـدور الكبير في الدفع بقبـائل الـرحل إلى التحـرك من مناطـق استقرارهـا

169) نفسه، ص 774.

170) G. S. Colin; origine arabe des grandes mouvements de populations berbers dans le moyen - atlas; H. 1939. p : 265.

171) Ibid; p : 265.

172) ابن خلدون، م. س. ج 7. ص 221.

بالصحراء على رأي دولا شابيل،(173) فإن استقرار زناتة بالواحات الجنوبية كان نتيجة لهذا العامل. كما أن مواصلة رحلتها نحو مناطق الشمال لا يفهم إلا بناء على حاجاتها الدائمة للمراعي ورغبتها في تملك مناطق غنية.

ساعد تأسيس قبيلة مكناسة لمدينة سجلماسة على استقرار العنصر الزناتي بهذه المناطق بأعداد كبيرة. وإذا كانت المناطق الصحراوية مجهولة لدينا فيما يتصل بتاريخها في المرحلة الواقعة ما بين القرن الثامن والحادي عشر الميلاديين، فإن القبائل الزناتية استقرت في هذه الفترة بواحات تافيلالت وتوات وتعاطت للزراعة والرعي، وبدأت تتجه نحو المناطق الشمالية للمغرب الأقصى والأوسط أكثر من توجهها نحو الجنوب. غير أنها بالمقابل استمرت على اهتمامها بتجارة القوافل لأن مدينة سجلماسة التي كانت خلال هذا التاريخ إمارة زناتية تحكمت بشكل واسع في التجارة الصحراوية وقطعت طريق الهجرة إلى الشمال على القبائل الصنهاجية.(174)

وقد اعتبر أحد الباحثين مرحلة حكم قبائل مكناسة ومن بعدهم قبيلة مغراوة لمدينة سجلماسة فترة التواجد المكثف للعناصر الزناتية بهذه المناطق، كما أن سكان المدينة كانوا ممثلين من هؤلاء بأعداد كبيرة.(175) وقد استمرت العناصر المغراوية بسجلماسة كما هو الشأن بالنسبة للعناصر المكناسية بعد انهيار إماراتهم بها، لأن التراجع السياسي لهذه العصبيات لا يعني هجرة المنتمين إليها من هذه المناطق كلية.

أشار الفضيلي إلى أن الشريف مولاي الحسن بن القاسم اطمأنت به الدار بعد قدومه إلى سجلماسة رفقة سيدي أبي إبراهيم العمري من الينبوع فتنافس أهلها في مصاهرته. وأهل العصبية بها وقتئذ الذين أتوا به راغبين في قربه... هم أولاد المزاري وأولاد المغراوي وأولاد البشير وأولاد بن عاقلة وأولاد المعتصم، فاختار لمصاهرته أولاد المزاري لمروئتهم وديانتهم.(176)

173) Delachapelle; op. cit; p 47.

174) Ibid; p 58.

175) M. El Mellouki; Sigilmassa; op. cit; p 226.

176) الفضيلي، الدرر البهية، الطبعة الفاسية، 1314هـ ج 1. ص 75.

إن هـذا النص الذي يشير إلى العنـاصر المكونـة للمجتمع السجلماسي في أواخر القرن الســابع الهجري الثالث عشر الميلادي يذكـر اسم قبيلة مغراوة مسبوقا بكلمة أولاد ومقرونا بياء النسبة أي يذكره بصيغته العربية، وكذلك كل الذين ورد ذكـرهم من سكان سجلماسة، وليس معنى ذلك أن ســاكنة المدينة كانت كلها من العنصر العربي، خـاصة وأن عرب المعقل الذين كانت لهم الغلبة على سجلماسة في هذه الفترة لم يجدوا المدينـة خالية من السكان وقت قدومهم إليها.

تنتمي مكناسة ومغراوة لزناتة في جيلها الأول على حد قول ابن خلدون، وقد شهـدت منطقة سلجماســة استقرار بعض العناصر الـزناتيـة الأخرى ابتداء من أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وهذه العناصر تنتمي للقبائل المرينية التي «استولت على هـذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحـدين وعهـد بنــو مـرين بحكمـه إلى أقـرب النـــاس إليهم وخـاصـة أبناءهم».(177) ونظرا للعنـاية التي أولاها المخـزن المريني لهذه المناطق، فإن سجلماسة عـرفت استقرار بعض وجوه هـذا المخزن، خاصــة منهم الأمراء الذين تعاقبوا على حكم المدينة.

وكان لتحالف المرينيين مع عرب المعقل أثره في تشجيع العناصر الزناتية على الاستقرار بمجالات سجلماسة. لأن ذوي منصــور الذين استقروا بهذه المناطق ابتداء من القـرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي كـانوا شيعة لبني مرين في فترة من الفترات التاريخيــة.. كما كان لاستقلال أبي علي عمر بسجلماسة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي دوره في تزكية هذا الجانب، وأصبحت هذه المجالات قبلة للعناصر الزناتية التي تربطها علاقات وطيدة بهذا الأمير الثائر، كما أن أبناءه الذين أقاموا إمارة بمناطق سجلماسة – بعـد أبيهم بحـوالي نصف قـرن – اتخذوا خـــاصتهم من بعض شيـوخ القبائل المرينيــة. وكل هذه العوامل ساعـدت على استقرار العناصر الزنـــاتية بهذه المجالات إلى جانب حلفائها من عرب المعقل.

---

177) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 121.

ج – **اليهود :**

لا نعرف بالتحديد التاريخ الذي قدم فيه اليهود إلى بلاد المغرب، كما نجهل المناطق التي قدموا منها، ومرد ذلك إلى اختلاف آراء الباحثين في هذا الباب. وقد ميز مونتيل CH. Monteil بين جماعتين يهوديتين بشمال افريقيا يهود المشرق الذي هاجروا في تاريخ مبكر واستقروا بالمناطق الجنوبية للمغرب الأقصى بجبال الأطلس الصغير في إيفران ووادي نون، ويهود الغرب الذي كانوا بشبه جزيرة إيبريا وعادوا منها إلى المغرب مع المسلمين بعد سقوط غرناطة.(178)

ويرى البعض أن تواجد العنصر اليهودي بالمناطق الجنوبية المغربية يعود إلى الفترة التي احتكت فيها القبائل البربرية بهذه المجالات، بعد أن فرت من مناطق نفوذ الهيمنة الرومانية. وقد ساهم كل هؤلاء في تعمير الواحات بما فيها وادي نون ودرعة وسجلماسة وتوات، ويظهر أن البربر واليهود على حد سواء أسسوا مراكز تجارية مهمة في القرون العشرة الأولى الميلادية. كما لا يستبعد أن يكون اليهود الذين استقروا بهذه المناطق قد قدموا إليها من طرابلس كما هو الشأن مع القبائل الزناتية، وكان لتحالف الجماعتين أثره في اندفاع اليهود نحو الغرب واندفاع البعض الآخر نحو بلاد السودان، غير أن اقتراح تاريخ معين لهذه التحولات من الأمور الصعبة للغاية.(179)

وقد تمكن اليهود من إقامة ممالك بمناطق الجنوب المغربي، ومثال ذلك المملكة اليهودية التي كانت موجودة بدرعة منذ عهود غابرة واستمرت قائمة حتى القرن الحادي عشر الميلادي.(180) وهذا الكلام ينطوي على مبالغة كبيرة، خاصة وأن الخوارج الصفرية بسطوا نفوذهم على هذه المناطق منذ القرن التاسع الميلادي، وهو ما من شأنه أن يقضي على مملكة اليهود بها إن كانت قد وجدت حقا.

178) CH. Monteil; problème de soudon occidental; Juifs et Judaisés; H. 3-4 trim; 1976; p : 270.
179) De lachappelle; op. cit; p : 52.
180) D. J. Meunie; Le Maroc saharien; op. cit; p : 228.

ويرى ناحوم سلوش N. Sloush أن منـاطق وادي درعـة وسـوس وكل قصور الـواحات تحمل بقايـا التأثيرات اليهوديـة التي لا تقتصر على القرى والبوادي فقط بل تتعداها إلى الحواضر الكبرى، ويظهر ذلك من خلال المجال الواسع الذي تتضح فيه هذه التأثيرات، والذي يمتد من الواحات القريبة من المحيط الأطلسي غـربـا إلى الواحـات الـواقعة جنـوب جبـال الأطلس شمالا وتنبكتو ببلاد السودان جنوبا.(181)

ويظهر أن اليهود كانوا كثرة في مناطق السودان الغربي، ويرجع السبب في ذلك إلى وفرة الذهب بهذه المناطق. فقـد ذكر الإدريسي أن سكان قمنورية التي تقع على الطريق التجاري بين أغمات وبلاد السودان كانوا من العنصر اليهودي وقال «وأهل بلاد قمنورية فيما يذكره التجار يدعون أنهم يهود، وفي معتقـدهم تشـويش وليسـوا بشيء ولا على شيء، ولا ملك فيهم ولا ملك عليهم».(182) غير أن تـاريخ استقـرار هـذه الجماعـات بتلـك المنـاطق غير معروف.

وحسب بعض الآراء فإن اليهود دخلوا منـاطق سجلماسة بعد سنة 70م أي بعـد تخريب مدينـة أرشليم على يد قـراقش Titus.(183) ولا يستند هـذا الرأي على أي دليل علمي يبعث على الاطمئنان للمعلـومات التي وردت فيه، لأن اليهود بعـد خراب مـدينة القـدس على يد قـراقش اتجهوا نحـو جهات عديدة من العالم القديم، غير أنه بقدرما نجهل المناطق التي استقطبت أعدادا كبيرة منهم بقدرما لا نستطيع التسليم بـوصولهم إلى مناطق سجلماسة في هذا التاريخ.

وذكرت د. ج. مـوني أن الجماعات اليهـودية تـركزت بـأعداد كبيرة في شرق حوض وادي زيـز منذ زمن بعيد، بـدليل أنها كانت في القـرن العاشر الميلادي تشكل الجماعات الأكثر غنى بهذه المناطق.(184) وفي مقال لها حول سكان المنـاطق الجنوبية أشـارت إلى أن بعض سكان وادي دادس وفـركلة

---

181) N. Sloush; études sur l'histoire des Juifs au Maroc; Archives M. vol. VI; 1906.

182) الإدريسي، م. س. ص 17.

183) R. Faure; op. cit; p 111.

184) D. J. Meunie; Le Maroc saharien; op. cit; p : 228.

وغريس ينتمون للجماعات اليهودية، لكنهم اليوم نسوا معتقداتهم واندمجوا كلية مع الأهالي مما يؤكد قدم استقرارهم بهذه الواحات.(185)

وقد أكد ن. سلوش أن مدينة سجلماسة كانت من أهم المناطق التي تواجد بها اليهود منذ عهود قديمة، وأنه كانت بالمدينة جماعتان يهوديتان تعرف واحدة منهما باسم تافيلا Tafilat.(186) ولا نعلم مصدر معلومات هذا المؤلف فيما ذهب إليه، غير أنه على ما يظهر حاول العودة بتاريخ اليهود في هذه المناطق إلى عهود قديمة، وأتى بالحجة الخاصة بالتسمية الواردة أعلاه لإثبات ذلك.

وإذا كانت النصوص الجغرافية والتاريخية الإسلامية القديمة لا تشير إلى دور العناصر اليهودية بالمناطق الجنوبية إلا ابتداء من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فإنه من الصعوبة بمكان أن نساير الآراء التي تعود بتاريخ هذه الجماعة في هذه المناطق إلى فترة غابرة من التاريخ. وحتى إذا كانت بعض الجماعات اليهودية قد استقرت ببعض المدن المغربية في فترة الحكم الروماني، فإن آثارها في معالم الحضارة المغربية لا يمكن أن تكون بالحجم الذي ذكرته الكتابات الأوربية الواردة أعلاه.

ذكر البكري أن اليهود كانوا مختصين ببعض الحرف الرذيلة بمدينة سجلماسة وقال «والبناؤون عندهم يهود لا يتجاوزون بهم هذه الصناعة»،(187) وهذا الوصف يتنافى مع ما اشتهرت به العناصر اليهودية من اشتغال بالصياغة، وكلما يتصل بصناعة الذهب من ضرب النقود وسبك الحلي. غير أن حرص سكان سجلماسة على أن يختص اليهود بحرفة البناء دون غيرها من الحرف، يدل على إدراكهم للمنافسة التي يمكن أن يسببها العنصر اليهودي لسكان المدينة في كل ما يتعلق بالذهب في حالة السماح له بالاشتغال في هذا القطاع.

ويعتبر صاحب الاستبصار أول من فصل القول في أخبار اليهود ببلاد المغرب عامة وسجلماسة على وجه الخصوص، وقد سجل هذا المؤلف رواية

185) D. J. Meunie; hierarchie sociaie; op. cit; p : 259.
186) N. Sloush op. cit; p : 23.

187) البكري، م. س. ص 149.

البكري بحـرفها، غير أنه ذكـر أن اليهود في زمانـه كانوا أغنيـاء وهذا نص تعقيبه على البكري «قـال الناظر كان هذا في الزمـان المتقدم، وأما الآن فهم تجار أهل هذه البـلاد كلها وأغنياؤها وخـاصة بمدينة فـاس فإنني عاينت منهم من يقال أن عنده المال الممدود رجـالا كثيرين وقد كان تنبه لهم الأمر العـالي أيد اللـه دوامه سنـة 582هـ – 1186م فلبس المرتشـون وشـوش المشوشون وخوف المفتشون.(188)

وصـاحب الاستبصار يتحـدث هنا عن غنى اليهـود بكل بلاد المغـرب، ويسجل أنواع الغش التي مارسوها في الذهب وغيره من السلع التي اشتغلوا فيها، وهو مـا دفع بالسلطان يعقوب المنصـور الموحدي إلى اتخاذ إجراءات تحد من غناهم غير المشروع.

ونفهم من روايـة أخـرى لنفس المؤلف الأسبـاب التـي دفعت بسكـان سجلماسـة إلى تشغيل اليهـود في الحرف التـي ذكـر البكـري أنها من اختصـاصهم قـال: «والسبب في تسخير أهل سجلماسـة لليهـود في هـاتين الحرفتين الرذيلتين كـونهم محبين في سكنى بلدهم للاكتسـاب، لما عملوا أن التبر بها أمكن من غيرها من بلاد المغرب، لكونها بـابا لمعدنه، فهم يعاملون التجار به ليخدعونهم بالسرقة وأنواع الخداع».(189) وإذا كانت حرفة البناء من اختصاص اليهود في سجلماسة فإنهم اشتغلـوا أيضا بحرفة أخرى هي حرفة الكنافة.(190) وحـول ذلك قال صـاحب الاستبصـار «فمن دخل في الكنافين من أصناف الناس سموهم المجرمين لاجترامهم على حرفة موقوفة على اليهود وقصروا البنـاء عليهم، خاصة لأنهم خائفـون أبدا من أن يخون

188) مجهول، الاستبصار م. س. ص 201.

189) نفسه، ص 202.

190) الكنافة من فعل كنف يكنف كنفا أو كنوفا، وقـد أورد البكري وصاحب الاستبصار الكلمة هنا بصيغة اسم فاعل كناف، والجمع كنافـون. وقد ذكر ابن منظور أن معنى كنف الشيء أي عمله، وكنفت الـدار اتخذت لها كنيفـا، والكنيف حظيرة من خشب تتخـذ للإبل لتقيهـا الـريح والبرد، يسمى بذلك لأنه يكنفها أي يسترها ويقيها. لسان العرب، ج 7 مادة كنف. ويحتمل أن يكون مـدلول الكلمـة في نص البكري يحمل معنى الكنيف، كما هـو متداول عنـد سكان سجلماسـة، ومعنـاه بيت النظافـة أي المرحاض. ومن ثمـة فإن حرفـة اليهود بـالمدينة كـانت مقتصرة على تنظيف مراحض المنازل أو تنظيف كنيف الإبل أي الحظيرة المخصصة لها.

أحـدهم المسلم فيهلكـه، فهم ينصحون في البنـاء ويـلازمون الخدمـة دون خروج لفرائض الصلوات ولا لغير ذلك من ملازم العبادات». (191)

إن ما ذكره صاحب الاستبصار حول اختصاص اليهود بالحرف الرذيلة في سجلماسة لم يكن هـو الشائع في المناطق المغـربية الأخرى. وقـد شـهدت مـدينة سجلماسـة نفسها تحولا كبيرا أصبحـت معه الجماعـات اليهوديـة صـاحبـة الـدور الكبير في نشـاط المدينـة التجـاري. ونعلم أن الجماعـات اليهوديـة ارتبط نشاطهـا في المدن المغربيـة بالتجارة والصيـاغة. ذكـر أحد الباحثين أن اختصاص اليهـود بصياغة المعادن كان منـذ فترة غابرة، وكثير من المناجـم التي تم استغلالها قبل الإسـلام أو بعد الفتوحـات أو حتى في الفترة المتأخرة ببـلاد المغرب، كانـت تشرف عليها هذه الجماعـة فضلا عن اختصاصـها في ضرب العملة أيضا. (192)

إن اشتغـال اليهـود بالصيـاغـة وكل مـا يتصل بالمعـادن مـرتبط بسر أسطـوري، ذلك أن المهن والحرف التي تعتمـد النـار في صهـر المعـادن لا يشتغل فيهـا بالمنـاطق شبه الصحـراوية سـوى اليهود أو السـود، وحتى الحداديـن من غير اليهـود يـدعـون أن سر المهنـة أخـذوه عن النبي داوود. (193)

وأورد علي بن يوسف الحكيم نصا يـوضح الأسباب التي جعلت اليهود يختصـون بصناعـة الـذهب دون غيرها مـن الحرف وقال «وكـان سبب دخول أهل الـذمة في الصيـاغة والمصارفـة أنه لما اتسع نطـاق ملك المغرب، وسمت همة أمرائه أن يتميز مكانهم بالأمتعة والأسلحة المصنوعة من الذهب والفضة والممـوهة بهما والمكللة بـالأحجار النفيسـة الرفيعة، أبهة لـلإسلام ونكاية لعبدة الأصنام، استدعوا الصياغ من سائر الآفاق والأصقاع واجتمع منهم جملة وافرة، فأبـدعوا الصنائع العجيبة الفـاخرة، فداخلهم إذ ذاك أهل الذمة من اليهود بصناعة الصياغة، واختلفوا بها وأقاموا لها سوقا لأنفسهم،

---

191) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 201.

192) B. Rosemberger; explaitation. miniere; 2ème partie; op. cit; p : 69.

193) Ibid p : 79.

بعد أن كانوا في الحرف الممتهنة كالصباغة والدباغة والصيارة(*) والميارة(*) وأكثرهم حمالين وخياطين وكيالين».(194)

إن شهادة علي بن يوسف الحكيم كافية لمعرفة التطور الذي لحق الحرف الخاصة باليهود في المجتمع المغربي، خاصة وأن هذا المؤلف كان صيرفيا واشتغل بدار سكة فاس في عهد السلطان المريني أبي عنان فارس. وحول أنواع الغش التي مارسها اليهود في النقود والحلي ذكر نفس المؤلف أن لذلك علاقة بمعتقدات اليهود في علاقتهم بالمسلمين، ويظهر ذلك من قوله «ولما استولوا على الصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة في الصرف وقدمهم مع ذلك الولاة والعمال لقبض المجابي والأموال من سائر الأشغال. فعظم بلاؤهم في الدين وضررهم بالمسلمين حتى أن أحبارهم يبيحون لهم الغش ويكذبون لهم على أنبيائهم في وجود إباحته... ويقولون لهم في مجالس وعظهم اعلموا أن أبا القاسم نبي العرب قال لأمته من غشنا فليس منا فإن غششتهم فلستم منهم وإن لم تغشوا فأنتم منهم».(195)

عمل اليهود المشتغلين بدار سكة سجلماسة على الغش في النقود المضروبة بها في العهد الموحدي بدليل ما أورده علي بن يسوف الحكيم في هذا الموضوع، ويتعلق الأمر بضربهم لدينار يحمل طابع دار السكة في عهد الناصر وهو دينار مزور مموه يشبه مثيله السليم وحين عير عند الحاجة إليه ظهر في عياره ضعف كثير أدخل الريبة في الأمين وشهيديه ورفع ذلك لمن يجتهد فيه، فأحضر اليهود الذين سبكوه وهددهم واستبرأ أمرهم. فاعترف أحدهم أنه أخذ عند السبك جزء من الفضة وجعله في جوف قطعة من الفحم الذي سبكوه به بعد ثقبها، وذره فيها ونزع من الذهب بعد ذوبه

(*) الصيارة تعني التصبير.

(*) الميارة هي عملية نقل البضائع من مكان إلى آخر.

194) علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1958 ص 117 – 178.

195) نفسه. ص 178.

بمقدار الفضة وأتلفه بفرن السبك ولما حقق ذلك عوقب الفاعل لأجل غشه.(196)

تؤكد هذه الإشارات الواردة أعلاه أن اليهود تواجدوا بسجلماسة منذ فترة تعود لتاريخ تأسيسها، غير أن مشاركتهم الفعالة في النشاط التجاري للمدينة جاء لاحقا لهذه المرحلة. خاصة وأن البكري أشار إلى اختصاصهم بالحرف الرذيلة. وقد ذكر صاحب الاستبصار أن وجود التبر بسجلماسة كان هو السبب في سكنى اليهود لها، وهذا العامل نفسه هو الذي من شأنه أن يجعل وجود اليهود بسجلماسة سابق للفترة التي عاش فيها البكري أي منذ أن أصبحت المدينة تلعب دورا مهما في التجارة الصحراوية.

وقد لعب العنصر اليهودي دورا كبيرا في النشاط التجاري بسجلماسة في العهد المريني كما كان الشأن في كل المناطق المغربية الأخرى، خاصة وأن بعض الأسر اليهودية كانت مقربة من بعض السلاطين المرينيين ومثال ذلك تقرب ابن وقاصة من السلطان أبي يوسف يعقوب المريني.(197) فضلا عن المكانة التي كانت لليهود عند عبد الحق آخر السلاطين المرينيين. وقد كانت الجماعات اليهودية تؤدي ضرائب باهضة للمرينيين، الأمر الذي يعطي الدليل على غناها وسيطرتها على بعض القطاعات الاقتصادية.(198)

أشار دوفورك Ch. E. Dufourcq إلى أن اليهود كانوا يلعبون دورا حيويا في ربط مدينة سجلماسة بأوربا في المرحلة المرينية اعتمادا على علاقاتهم مع يهود تلمسان وما يوركا وبرشلونة.(199) ومعلوم أن مدينة تلمسان كانت تضم جالية يهودية مهمة من حيث العدد والنشاط التجاري في مرحلة حكم الزيانيين، حتى أصبح الحي الذي كانت تسكنه مع الزمن من أجمل أحياء عاصمة بني عبد الواد وأغناها.(200)

196) علي بن يوسف الحكيم، م. س. ص 122.

197) ابن خلدون، م. س. ج 7 ص 307.

198) Ahmed Khaneboubi, les premiers sultanes mérinides 1269-1331 histoire politique et sociale, Paris 1987, p : 176.

199) Ch. E. Dufourcg, l'espagne catalane et le Maghrèb aux XIII et XIVe siècle, Paris 1966 p : 141.

200) Labrés Bargés : Relations commerciales de Tlemcen avec le Soudan. R. O. Paris 1853 p :347.

حاولت مملكة أراغون ربط علاقات واسعة مع يهود مدينة سجلماسة منذ القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي فاعترف ملكها جاك Jacques le conquerant بحمايته لاسرتين من الأسر اليهودية بها كما سمح لكل يهود هذه المدينة بالاستقرار والمتاجرة بكل مدن مملكته.(201)

واستمرت الجماعات اليهودية في ممارسة نشاطها التجاري والحرفي بمناطق سجلماسة بعد خراب سجلماسة المدينة، وقد ذكر الحسن الوزان في معرض حديثه عن قصر تابعصامت أن به عدد كبير من اليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة وكذلك الشأن في قصر المامون الذي كان زمان هذا المؤلف كبير حصين كثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود.(202)

د - عرب المعقل والشرفاء

مثل دخول عرب المعقل إلى مناطق سجلماسة الطور الثاني في تعمير الإقليم، وتمكن هؤلاء من السيطرة على هذه المناطق في فترة زمنية وجيزة، وأحدثوا تحولات كبيرة في التركيب السكاني بها. فتراجع دور بعض العناصر المستقرة قديما بهذه المجالات كما هو الحال مع العناصر السوداء أو العناصر البربرية كالصنهاجيين والزناتيين، ولم يعد ذكرها يتردد في المصادر القديمة إلا نادرا. وربما كان السبب في ذلك أن هذه المصادر اهتمت بالعنصر العربي المعقلي بحكم كثرته وتحكمه الفعلي في مجريات الأحداث بسجلماسة، أو أن العناصر المستقرة بها قديما اضطرت إلى الهجرة نحو مناطق بعيدة تحت تأثير ضغط القادمين الجدد، وما بقي منها اضطر للخضوع إلى العصبية المعقلية التي أصبحت صاحبة السيادة والنفوذ ليس بسجلماسة فقط بل وفي كل المناطق الواقعة جنوب وشرق جبال الأطلس.

دخل العنصر العربي بلاد المغرب عبر مجموعين أولى أتت لنشر الدين الإسلامي وتطلب منها ذلك الاستقرار بالمدن الكبرى قصد تنظيم الإدارة وتفقيه الأهالي في أمور الدين، فاندمجت مع الأهالي بفعل المصاهرة

201) Ch. E. Dufourcg, op. cit; p : 143- 144.

202) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 126.

وأصبحت تشكل مع الزمن ساكنة المدن التي تم تأسيسها بعد الفتح الإسلامي ولم يكن تواجدها بالبوادي إلا بأعداد قليلة. وثانية دخلت المغرب في أعداد كبيرة مع بني هلال وبني سليم وبني معقل، واختصت أساسا في الاستقرار بالمناطق السهلية ابتداء من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وهي الجماعة التي شكلت غالبية سكان البوادي وسببت مشاكل عديدة للمخزن المغربي.(203)

وسجلماسة التي أسست في الفترة الإسلامية على يد الخوارج كانت تضم العناصر العربية إلى جانب العناصر البربرية المستقرة بها منذ تأسيسها، لكن هذه العناصر لم تستقر على ما يظهر ببواديتها، لأن ما أتت من أجل القيام به في المدينة لم يسمح لها بتجاوز أسوارها. فأغلب هذه العناصر أتت بغرض ممارسة التجارة أو نشر العلم أو التسيير الإداري، وهذا ما دفع بأحدهم إلى القول بأن العناصر العربية التي قدمت إلى بلاد المغرب في فترة مبكرة كان غرضها دنيويا أو روحيا فلم تتجاوز في سكناها العواصم الكبرى.(204)

وتختلف هذه الجماعة عن المجموعة العربية الكبرى التي استقرت في مناطق بلاد المغرب في المدن كما في البوادي، وعرب المعقل الذين استقروا بسجلماسة ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي يمثلون نموذج هذه الازدواجية لأنهم تحكموا في المدينة وضواحيها. وقد صادف دخلوهم إلى هذه المناطق مجيء الشرفاء إلى سجلماسة واستقرارهم بضواحيها. فأصبح الحديث عن سكان هذه المجالات في مصادر المرحلة المعنية بالدراسة وما بعدها مرتبط بهذين العنصرين، لأن المعقل كانوا يمثلون أصحاب القوة العصبية والشرفاء أصحاب القوة الروحية والعلمية.

دخل عرب المعقل بلاد المغرب ضمن المجموعة الهلالية التي كانت عبارة عن أخلاط من القبائل، وضمت بني سليم وهم أقوى وأغنى عناصر

---

203) E. F. Goutier; le passé de l'Afrique; op. cit; p : 394.
204) D. J. Meunie; le Maroc saharien; op. cit; p : 230.

هـذه المجموعـة، وبنـي هـلال الذيـن غلـب اسمهـم على كل من رافقهـم، وبني معقل الذين كـانوا قليلي العدد. أمـا زغبة ورياح اللتـان انضمتا لهذه المجمـوعة فهما قبيلتـان كـانتـا تقيمان على الحدود الغربيـة لمصر في إقليم برقة.(205)

ولا نعلم الشيء الكثير عن أنساب عرب المعقل لأن مـا أتت به المصادر في هذا الباب متناقض ومتضـارب. ويعتبر اعتراف ابن خلدون بغموض نسب المعقل خير دليل على ذلك، خاصة وأنـه المؤرخ الوحيد الذي اعتمـد في كتابة أخبار هـذه الجماعات القبليـة على ما ذكـره نسابتهم واهتم أكثـر من غيره بالقبائل المغربية ومواطن استقرارها.

ذكر هـذا المؤلف في هذا الموضـوع ما يلي «وسـلافة العـرب من هلال يعدونهم من بطون هلال وهو غير صحيح وهم يزعمون أن نسبهم في أهل البيت إلى جعفـر بن أبي طـالب وليـس ذلك أيضـا بصحيح لأن الطـالبيين والهاشميين لم يكونـوا أهل باديـة ونجعة والصحيح والله أعلـم من أمرهم أنهم من عـــرب اليمن، فإن فيهم بطنين يسمى كـل واحـد منهما بـــالمعقل ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير... والآخر من بني الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد ابن مذحج... والأنسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر التي من مذحج».(206) وأشار الحسن الوزان إلى أن أصل بعض بطون الجماعة الهلالية من اليمن.(207) وبما أن المعقل رافقوا هؤلاء في رحلتهم في اتجاه بـلاد المغرب، فإن الـوزان كان يقصدهم بكـلامه حول الأصل اليمني.

وقد أبطل الناصري صحة القول بالأصل اليمني لهذه القبائل وقال بأن «لفظ معقل الذي كـلامنا فيه بفتح الميم وسكون العين المهملـة وكسر القاف بـوزن مسجد، ولفظ معقل الـذي في بني الحرث ابن كعب ضبطه صـاحب

---

205) مصطفى أحمد أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحيـاة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، البيضاء، 1982، ص 57.

206) ابن خلدون، م. س. ج 6 ص 79.

207) الحسن الوزان، م. س. ج 1. ص 38.

القاموس بضم الميم وفتح العين المهملة وكسر القاف المشددة بوزن محرق، وضبطه بعض الحفاظ بفتح القاف المشددة بوزن معظم». (208)

شكل عرب المعقل قلة في المجموعة الهلالية الكبيرة «يقال أنهم لم يبلغوا المائتين واعترضهم بنو سليم فاعجزوهم وتحيزوا إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت وجاوروا زناتة في القفار... فعفوا وكثروا وأنبتوا في صحاري المغرب الأقصى فعمروا رماله وتغلبوا في فيافيه». (209)

تطلب تكاثر العنصر العربي المعقلي فترة تزيد عن قرنين من الزمن، لأن عددهم كان قليلا وقت دخولهم بلاد المغرب رفقة الهلاليين في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. ثم أصبحوا في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي من أوفر قبائل العرب وأقواها. وربما ساعدهم على التكاثر إنعزالهم في المناطق الصحراوية أي في مجال بعيد عن المنافسة القبلية، وهو ما سمح لهم بالتكاثر في هذه المناطق التي لم تشهد صراعا حادا بين القبائل كما حدث في المناطق الشمالية للمغرب يشهد على ذلك عدم ظهورهم على مسرح الأحداث السياسية ببلاد المغرب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، لأن عددهم لم يكن يساعدهم على مزاحمة القبائل القوية ببلاد المغرب، فابتعدوا عن مناطق الصراع لمدة طويلة، حتى إذا وصل القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وجدوا أنفسهم مؤهلين من حيث العدد لفرض سيطرتهم، فتحركوا من مناطق الصحراء إلى الوحات الواقعة جنوب وشرق جبال الأطلس. (210)

وإضافة إلى هذا العامل الذي يظهر أنه ساعد عرب المعقل على التكاثر بعيدا عن المواجهة والصراع القبلي، ذكر ابن خلدون أن جماعات أخرى انضمت للمعقل من غير عصبيتهم وساهمت في تزايد عددهم وهذا نص كلامه «وقد تكاثر المعقل بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم فإن

208) الناصري، طلعة المشتري في النسب الجعفري، الطبعة الفاسية، 1309هـ، ص 114.

209) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 77.

210) G. Marçais : Les arabes en berbèrie du XIe au XIVe siècle; Paris 1913 p : 365.

فيهم من فزارة من أشجع أحياء كثيرة وفيهم الشظة من كـرفة والمهاية من عيــاض، والشعــــراء من حصين والصبــــاح من الأخضر ومــن بني سليم وغيرهم».(211)

إن عرب المعقـل الذين أصبحـوا - بعد انضمام عناصر أخـرى إليهم - عصبيـة كبيرة لم يـدخلوا بـلاد المغـرب بجميع أعـدادهم وإنما بقي منهم بأفريقيـة جمع قليل إندمجوا في جملـة بني كعب من بني سليم حتى كـانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستخلاف العرب.(212)

لخص النــاصري مــا ورد عنـد ابن خلـــدون حــول أصل عــرب المعقل ونسبهم في سبعة قضايا هي دخولهم للمغرب في عدد قليل وتكاثرهم بمن اجتمع إليهم من القبائل وغموض أنسابهم لدى الجمهور وانتسابهم لجعفر بن أبي طالب. وقــول ابن خلدون بأن الطالبيين والهاشميين لم يكـونوا أهل باديـة ونسبتهم لعرب اليمن واعتماد ابن خلـدون على النسابـة في التعريف بفروع هذه القبائل.(213)

وحاول هــذا المؤلف أن يعود بنسب عــرب المعقل إلى آل البيت، وتصدى لكل الآراء القــائلة بالأصل اليمنــي لهم، وجعل أسباب نزوحهــم إلى المغرب نتيجة صراعهم مع أبناء عمومتهم العباسيين. كما ميز بين الأصيل والدخيل في هــذه القبائل بنــاء على ما جــاء عنـد ابن خلدون نفســه.(214) والناصري حينما قال بالأصل الجعفري لبعض بطون المعقل أثار قضية جد أساسية في تاريــخ عرب المعقل بمنــاطق سجلماسة، لأن الشرفــاء العلويين دخلــوا هذه المنــاطق في فترة هيمنــة قبائل المعقـل عليها. والمصــادر لم تتحــدد عن دور الجعافــرة بسجلماسة، لأن حديثهــا كان في عرب المعقل جملــة، في حين كان الحسنيــون المستقرون بقصــور واد إيفلي والغــرفــة والسيفة هم أصحـاب الزعــامة والسيــادة بحكم الامتيازات التي كــانت لهم بالمجتمع السجلماسي،

211) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 79.
212) نفسه، صفحة 77.
213) الناصري، طلعة المشتري. م. س. ص 109 - 110.
214) نفسه، صفحة : 110 - 111.

والمرتبطة بالامتيازات الخاصة بالشرفاء في المجتمع المغربي عامة التي ساهم السلاطين المرينيون في تدعيمها وتـزكيتها بالتقرب من الشرفاء وتخصيص عطايا لهم يستفيدون منها كل سنة.

شغلت قبائل عـرب المعقل بعـد رحيلهـا نحو صحـاري بـلاد المغـرب القصور التي اختطتها زنـاتة في القديم. قال ابن خلـدون «لما ملكت زناتة بـلاد المغرب ودخلـوا إلى الأمصار والمدن قـام هـؤلاء وتفردوا في البيـداء... وملكوا قصور الصحراء التي اختطتها زناتة بالقفر».(215) ومنذ بداية القرن السـابع الهجـري الثالث عشر الميـلادي حـاول عرب المعقـل الوصـول إلى السـواحل الجنـوبيـة الغربيـة للمحيط الأطلسي، وقطعـوا الطـريق في وجـه صنهاجـة وحالوا دونها ومناطق الشمال، لكنهـا نجحت في التسرب إلى هذه المنـاطق وبقيت منهـا جماعات صغيرة بـالصحـاري خضعت لنفوذ عـرب المعقل.(216)

ولم يصل النصف الثـاني من القـرن السـابع الهجـري الثـالث عشر الميلادي حتى كان عرب المعقل قد شغلوا كل الواحات الواقعة جنوب سلسلة جبـال الأطلس وأصبحوا أسيـاد هـذه المنـاطق. وقد حـاولت قبـائل المعقل مواصلة رحلتها في اتجاه المناطق المغـربية الأخرى، لكن تحكم بعض القبائل القوية في الممرات المؤدية إلى هناك منع رحلتهم إليها. فالمرينيون الذين كانوا يمثلون القـوة الضاربة في الشمال كـانوا يتحكمـون في مضيق تازة، كما أن منـاطق الأطلس المتـوسط والكبير كـانت تحت سيطـرة القبـائل البربـريـة المستقرة بهذه المجالات منـذ زمن قديم، أو التي وصلت متأخرة تحت تأثير زحف العنـاصر المعقليـة من جهـة الجنـوب. وكل هـذه الجماعـات لم تكن لتسمـح بتسرب عـرب المعقل نحو مناطق الشمال، وهو مـا دفع بجموعهم إلى البقـاء في المنـاطـق الـواقعـة خلف جبـال الأطلس خـلال مـدة زمنيـة طويلة.(217)

215) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 78.

216) Delachapelle : Esquise de l'histoire du sahara, op. cit; p : 66.

217) M. Terrasse Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français; T. 2; Casablanca; 1950; p : 18.

تشكلت المجموعة المعقلية التي دخلت مناطق الـواحات المغربية في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي من ثلاث بطون كبرى وهي ذوي عبيد الله وذوي حسان وذوي منصور. وقد ذكـر ابن خلدون بطون عرب المعقل مجتمعة وقال «ومن إمـلاء نسابتهم أن معقل جدهم لـه من الولد سحير ومحمد، فولد سحير عبيد اللـه وثعلب، فمن عبيد الله ذوي عبيد الله البطن الكبير منهم، ومن ثعلب الثعـالبـة الـذين كانـوا ببسيط متيجـة في نـواحي الجزائر، وولد محمد مختار ومنصور وجـلال وسالم وعثمان فولد مختار ابن محمـد حسان وشبـانة، فمن حســان ذوي حسان البطن المذكـور أهل سوس الأقصى، ومن شبـانة الشبانات جيرانهم هناك... ومـن جلال سالم وعثمان والرقيطات بـادية لذوي حسان ينتجعـون معهم، وولد منصور بن محمد حسن وأبـو الحسين وعمران وشنب يقال لهم جميعـا ذوي منصور وهم أحد بطونهم الثلاثة الكبرى.(218)

كان ذوي عبيد الله أحلافا لبني عبـد الواد خلال فترة زمنية طويلة ولم يتقربـوا من الدولة المرينيـة إلا في النادر، وسبب ذلك أنهم كـانوا مجاورين للزيانيين. فقد ذكر ابن خلدون أنهم «هم المجاورون لني عامر بن زغبة من سلطان بني عبد الواد من زناتة، فمواطنهم من تلمسان إلى وجدة إلى مصب وادي ملوية في البحر ومنبعث وادي صامن القبلة، وتنتهي رحلتهم في القفار إلى قصـور تـوات وتمنطيت وربما عـاجـوا إلى ذات الشمال إلى تـاسـابيت وتكَـرارين وهذه كلها رقاب القفر إلى بلد السودان».(219)

كما كـانت قبائل ذوي عبيـد الله تحد ذوي منصـور – الذين استقـروا بمجـالات سجلماسة – من جهـة الشمال، ويظهر أن رحلتهم كما وصفهـا ابن خلـدون كانـت تقودهـم إلى سجلماسـة والمناطق الجنوبية لها. غير أن مـا احتك من بطـونهم بهذه المنـاطـق هـو بطن الخراج الـذي كـان حليفـا للمرينيين على خـلاف أغلب عصبيته من ذوي عبيد الله. قـال ابن خلدون «وكان الخراج يجاورون بني منصـور ولهم تاوريرت وما إليهـا وخدمتهم

218) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 79.

219) نفسه، صفحة : 81.

في الغالب لبني مرين وإقطاعاتهم من أيديهم ورجوعهم إلى عبد الواد في الأقل».(220)

أما المجموعة الثانية من عرب المعقل فهي بطن ذوي حسان الذي تحد مجالات استقراره مجالات ذوي منصور من جهة الجنوب. وهي «من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من كَدالة ومسوفة ولمتونة».(221)

واستقرت قبائل ذوي منصور بمجالات سجلماسة والمناطق المجاورة لها. فقد ذكر ابن خلدون أن مواطنهم من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة وعلى درعة وعلى ما يحاديها من التل،(222) ومجالات هذه الجماعة كانت تتوسط مجالات عرب المعقل عموما، وربما كان لقوة ذوي منصور وكثرة عددهم دوره في اختيارهم لهذه المنطقة. أشار ابن خلدون إلى أن ذوي منصور كانوا يشكلون غالبية العناصر المكونة للمعقل وقال «فهم معظم هؤلاء المعقل وجمهورهم وبطونهم أربعة أولاد حسين وأولاد أبي الحسين وهما شقيقان والعمارنة أولاد عمران والمنبات أولاد منبا وهما شقيقان أيضا ويقال لهذين البطنين جميعا الأحلاف».(223)

إن ذوي منصور هم أكثر بطون المعقل تأثيرا في أحداث المغرب السياسية ابتداء من أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وقد أصبحت سجلماسة منذ هذا التاريخ خاضعة لتوجيههم ونفوذهم، لأنهم كانوا العناصر الأكثر حيوية بمجالاتها حيث توزعت بطونهم على الشكل التالي

– أولاد حسين بدرعة في أواخر القرن السابع الهجري وبسجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وهؤلاء «هم

---

(220) نفسه، صفحة 82.
(221) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 77.
(222) نفسه، صفحة 87.
(223) نفسه، نفس الصفحة.

جمهور ذوي منصور، ولهم العزة عليهم ورياستهم أيام بني مرين في أولاد خالد بن جرمون بن جرار بن عرفة بن فارس بن علي بن فارس بن حسين بن منصور. كانت أيام السلطان أبي الحسن لعلي بـن غانم وهلك إثر كائنة طـريف وصارت لأخيـه يحيى، ثم لابنـه عبـد الواحـد بن يحيى ثم لأخيـه زكريـاء ثم لابن عمه أحمد ابن رحو بن غانم ثم لأخيـه يعيش ثم لابن عمه يوسف بن علي بن غانم». (224)

إن ذكر ابن خلدون لزعماء أولاد حسين في القـرن الثامن الهجري الرابع عشر الميـلادي كان وليـد الأهمية التي كـانت لهذا البطن في أحداث المغـرب خـلال هذه المرحلـة، لأنهم سببوا مشـاكل كثيرة للمخزن المريني في أواخـر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، واضطر سلاطين بني مرين إلى تجهيز حملات عسكـرية بغرض إخضـاعهم كما سنعود إليـه في حينه. وفي القـرن الثـامن الهجـري تحالف أولاد حسين مع بني عبـد الـواد بفضل مجهودات عبد الله بن مسلم عامل المرينيين على درعة، كما ساهموا في تولية وخلع أبناء أبي علي أمراء سجلماسة في النصف الثاني من نفس القرن.

كانت مجالات أولاد حسين ما بين درعة وسجلماسـة وأكثر استقرارهم بدرعـة «ومن بإزائه في فسيح جبله من قبائل البربر صنـاكة وغيرهم ولـهم عليهم ضرائب وخفـارات ووضـائع ولهم في مجابي السلطـان اقطـاعـات وتجاورهم الشبانات من أولاد حسان من ناحية الغرب». (225) وقد أصبحت مواطن أولاد حسين في القرن العـاشر الهجري السادس عشر الميلادي «فيما بين مملكة فـاس وسجلماسة ويحكم رئيسـهم مـدينة تـدعى كَـرسلوين... وهم سادة لكثير من الجهات الآهلة بـالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياهـا مختلف ملوك بني مرين جزاء لما قـدمته لهم من عون فائق في بـداية دولتهم». (226)

---

224) نفسه، نفس الصفحة

225) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 89.

226) الحسن الوزان، م. س. ج 1. ص 44 – 45.

– أمـا البطن الثاني مـن ذوي منصور الـذي كـان له تأثير في أحـداث سجلماسـة فيعرف بـ«الأحلاف» ويتكون من العمارنـة والمنبات. قـال ابن خلـدون «ومواطنهم مجاورة لأولاد حسين مـن ناحيـة الشرق ومجالاتهم بالقفر تافيلالت وصحراؤها، وبالتـل ملوية وقصور وطاط وتازى وبطوية وغسـاسـة لهم على ذلـك كلـه الاتـاوات والـوضـائع وفيهـا الاقطـاعـات السلطانية... ورياسة العمارنة في أولاد مظفر بن ثابت بن مخلف بن عمران وكان شيخـه لعهد السلطـان أبي عنان طلحـة بن مظفر وابنـه الزبير ولهذا العهد محمد بن الزبير وأخوه موسى وترابطهم في رياستهم أولاد عمارة بن فلان بن مخلف، فكان منهم محمد العائد ولهذا العهد سليمان بن ناجي بن عمارة ينتجع في القفـــر ويكثـــر الغـــزو إلى اعتراض العير وقصـــور الصحراء».(227)

كان الحديث عن العمارنـة في القرنين السابع والثامن الهجـريين مرتبط بالحديث عن المنبـات، لأن هؤلاء كـانوا أصحاب الـزعامـة في الأحلاف، كما أنهم استقروا في مدينـة سجلماسة العاصمة الحضريـة الوحيدة في مجالات درعة وتافيلالت وكانوا يتواجـدون بكثرة في الرتب ومدرغة و«هم نبلاء في غاية الشجاعة لذلك اعتاد ملـوك فاس أن يتخذوا كلهم تقريبا زوجاتهم من بنات هؤلاء الأعراب ويربطوا معهم وشائج القربى».(228)

وأمـا المنبات الـذين سيطـروا على سجلماسـة في أواخر القـرن السـابع الهجري الثـالث عشر الميلادي وأعلنوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيـان سلطان بني عبد الـواد فيعتبرون القوة الرئيسيـة في ما يسمى بـالأحلاف من ذوي منصور. وكانت زعامتهم زمان ابن خلدون «في محمد بن عبد بن حسين بن يوسف ابن فرج بن منبا وكانت أيام السلطان أبي عنان لأخيه علي من قبله وترادفهم في ريـاستهم ابن عمهم عبد الله بن الحاج عامـر بن أبي البركات بن منبا».(229)

---

227) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 89.

228) الحسن الوزان، م. س. ج 1. ص 45.

229) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 89.

وقد استقرت المنبات زمان الوزان بمنطقة مدغرة والرتب كما هو الشأن بالنسبة لإخوانهم العمارنة. وذكر نفس المؤلف أن أمير المنبات كان يسكن أحد القصور بمدغرة يحمل اسم هلال، ولا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح... وإذا لقي جنوده قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا.(230) واحتفظت ذاكرة المحليين بروايات تعكس القوة التي تمتعت بها قبيلة المنبات في منطقة مدغرة. ومثال ذلك المثل الشعبي الآتي «لُـوْلاَ الـمْـنْـبَـاتْ مَـايْـقَـدْ حَـدّ يْـبَـاتْ» أي لولا وجود عرب المنبات لما استطاع أحد أن يبيت ليلته آمنا.

تقع مجالات الأحلاف على الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وفاس، الذي سبقت الإشارة إليه كممر طبيعي يتبع مجرى وادي زيز حتى أعالي ملوية عبر مضيق تيزي ن تالغمت. كما أنهم كانوا يتحكمون في الطريق الرابط بين سجلماسة وتلمسان، وهذا ما أهلهم لأن يلعبوا دورا كبيرا في تاريخ المنطقة خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، لأنهم كانوا يراقبون مناطق حيوية تمر عبرها القوافل التجارية التي كانت تزود بلاد المغرب بالتبر القادم من بلاد السودان كما أشار إلى ذلك ج. مارسي G. Marçais.(231)

ذكر ابن خلدون أن الأحلاف بما فيهم المنبات والعمارنة كانوا على خلاف دائم مع أولاد حسين، لكن العصبية تجمعهم في فتنة من سواهم.(232) ولهذا الكلام مبررات عديدة في تاريخ سجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حيث شهدت المنطقة مواجهات بين الطرفين. وكان الأحلاف يؤازرون خلال تلك الفترة عبد الحليم بن أبي علي وأولاد حسين يريدون خلعه وتولية أخيه عبد المومن. غير أن صراعهم مع المرينيين كان يدفعهم إلى الاتحاد، وهذا ما حدث بالفعل سنة 770هـ / 1369م حين اجتمعت بطون ذوي منصور بسجلماسة

230) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 123.

231) G. Marçais op. cit; p 374.

232) ابن خلدون، م. س. ج 6. ص 89.

وخلعت طاعة أبي فارس عبد العزيز المريني، والتجأ زعماؤها إلى أبي حمو سلطان الزيانيين بتلمسان. قال يحيى ابن خلدون «وفي هذه السنة وصل إلى بابه الكريم عرب المغرب كافة أولاد حسين والعمارنة والمنبات طرداء خوف ملكهم أبي فارس عبد العزيز متذممين بأمير المسلمين أيده الله فأجارهم وأكرم مثواهم وأكبر إقطاعاتهم».(233)

وإذا كان الأحلاف وأولاد حسين قد تحكموا بشكل فعلي في أحداث إقليم سجلماسة منذ أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، فإن جماعة أولاد أبي الحسين التي تمثل البطن الثالث من ذوي منصور لم يكن لها تأثير كبير في مجريات الأحداث بمجالات سجلماسة. ويرجع السبب في ذلك إلى قلة جموعهم واختيارهم للاستقرار بدل الترحال، مباشرة بعد تحرك الجماعات المعقلية من مناطق الصحراء نحو الواحات الواقعة جنوب الأطلس الكبير. ذكر عبد الرحمان بن خلدون أن هؤلاء عجزوا عن الطعن ونزلوا قصورا اتخذوها بالقفر ما بين تافيلالت وتيكَورارين.(234) وقد كانت مناطق استقرار أولاد أبي الحسين أول خطوة في توسع إمارة سجلماسة تحت قيادة أبي علي عمر في بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. خاصة وأن هذا الأمير افتتح توات وتمنطيت وتيكَورارين بعد السيطرة على درعة، فهل يتعلق الأمر هنا بمحاولة توحيد مجالات عرب ذوي منصور في إمارة مرينية بالجنوب المغربي ؟.

إن تطور نفوذ إمارة سجلماسة مع أبي علي عمر يوحي بأن الأمر كان كذلك فعلا. لأن أبا علي اتجه نحو درعة التي كانت وقتئذ مجالا لتنقل أولاد حسين. مباشرة بعد تحكمه في سجلماسة، وربما ساعده نجاحه في توحيد بطون ذوي منصور على التطلع إلى توحيد كل المجال الذي كانت تستقر به العناصر المعقلية عامة. وهذا ما يفسر حملته على بلاد السوس وقضائه على

---

233) يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر أخبار الملوك من بني عبد الواد، الجزائر 1903، ج 2. ص 228.

234) ابن خلدون، م. س. ج 7. ص 86.

مملكة بني يـدر بها، لأن هذه المنـاطق كانت بدورهـا خاضعـة لنفوذ ذوي حسان من المعقل.

وتـواجـدت بعض العنـاصر الهلاليـــة بإقليم سجلماســة في الفترة التي استقـرت فيها قبـائل عـرب المعقل بها، ويظهر ذلـك من خلال روايـة لابن خلدون ذكـر فيها أن قبيلة الضحاك من المجمـوعات الصغيرة التي انضمت إلى عـرب المعقل وهـي قبيلة هـلالية كـانت مـواطنها مجاورة لمواطن قبيلـة عياض بأفريقية. قال «وأما الضحاك فكـانوا بطونا كثيرة وكانت رياستهم مفترقـة بين أميرين منهم وهما أبـو عطيـة وكلب بن منيع. وغلب كلب أبـا عطيـة على رياســة قبيلتهما لأول دولة الموحـدين، فارتحل فيما زعمـوا إلى المغرب وسكن صحراء سجلماسة، وكانت لـه فيها آثار حتى قتله الموحدون أو غربـوه إلى الأندلس».(235) ولا تشير المصـادر الإخباريـة إلى أحـداث لها عـلاقة بـزعيم الضحاك في سلجماســة زمـان الموحدين، لأن الثـورات التي شـهدتها المدينة في هذه المرحلة كانت تحت قيادة بعض عمال الموحدين عليها أو تحت زعامات محلية كما سنرى.

وإذا كانـت القوة العصبية لعـرب المعقل هي التي ساعـدتهم على التأثير بشكل فعال في أحداث سجلماسة منذ دخولهم هذه المناطق في القرن السابع الهجري الثـالث عشر الميلادي، فإن نفـوذهم بهذا المجال لم يكن خـاليا من منافسة. خاصة وأن الشرفاء الحسنيين قدموا إلى هذه المناطق في نفس فترة استقرار عـرب المعقل بها، وأصبحوا يشكلـون مع الزمن قـوة لها ثقل كبير بالمنطقة، رغم قلة عددهم بالمقارنة مع جموع عرب المعقل.

دخل الشرفـاء الحسنيون منطقـة سجلماســة في أواخـر القرن الســابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وقد لخص الفضيلي الآراء التي ذكرت في هذا الشأن فيما يلي «قال الشيخ العلامة الولي الصالح سيدي إبراهيم بن هلال في مناسكـه... أجداد شرفـاء بلدنـا سجلماسة الـذين نزلـوها أوائل الـدولة المرينية، قال الإمام الحافظ أبو محمد عبـد الله بن علي بن طاهر وذلك سنة

235) نفسه، صفحة : 33 – 34.

أربع وستين وستمائة. قلت وهذا التاريخ أخذ من الشجرة الحسنية التي أتى بها السيد أبو إبراهيم من ينبع، وقيل في دولة عبد الواحد الموحدي المخلوع على ما قاله أبو العباس أحمد بن يوسف السجلماسي، فيكون ذلك في العشرة الثالثة بعد ستمائة. والصحيح الأول وعليه فيكون ذلك في دولة يعقوب المنصور المريني». (236)

استقر الشريف مولاي الحسن بن القاسم جد الشرفاء السجلماسيين بعد قدومه إلى سجلماسة بمكان يسمى المصلح، وهناك توفي كما ورد عند الناصري. (237) ولا يوجد هذا الاسم اليوم في أسماء القصور بهذه المناطق، غير أنه يطلق على حقول ومزارع بالقرب من قصر السيفة في جماعة بني امحمد، وهذا ما يؤكد بأنه هو المكان الذي تواجد فيه القصر قبل خرابه، وقد استقر الشرفاء بعد وفاة مولاي الحسن بوادي إيفلي، واتخذوا به قصورا عديدة لعبت دورا كبيرا في التطور الحضاري لإقليم سجلماسة خلال القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه.

ذكر الفضيلي أن سكان سجلماسة «تنافسوا في مصاهرة الشريف مولاي الحسن بعد حلوله بديارهم، فتزوج من إبنة السيد أبي إبراهيم العمري الذي قدم به من الينبع». (238) ثم تكاثر الشرفاء بهذه المجالات، لأنهم كانوا يتخذون زوجاتهم من عصبيات مختلفة، ويتضح ذلك من خلال ما ورد في مخطوطة محلية نشرها باساك Bassac ذكر صاحبها أن مولاي علي الشريف المتوفى في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي كانت له ثلاث زوجات هن نجمة الحبشية وفاطمة العامرية التادلية والزهرة الأمزرية السجلماسية. (239)

---

236) الفضيلي، م. س. ج 1. ص 53.

237) الناصري، م. س. ج 7. ص 6.

238) الفضيلي، م. س. ج 1. ص 79.

239) Bassac : Sigilmassa traduction d'une manuscrit. op. cit; p : 232.

أصبح الشرفـاء الحسنيون يمثلـون القـوة الدينيـة والـروحية بمنـاطق سجلماسة مع مرور الزمن. وكان للتحولات التي عرفها المجتمع المغربي في العهد المريني دورها في ذلك، لأن المخـزن المريني كان يولي أهمية كبيرة لآل البيت بشكل عام. قال ابن السكاك «أما ملوك بني مرين فلا أعلم منهم إلا من كان معظما للشرفاء مكرما لهم مقدما لهم على غيرهم متمما بمصالحهم، إلا أن بعضـهم امتـازوا في ذلك بمزيـد قـوة اختصاص كـالملك المجاهـد أبي يوسف الذي محا دولة بني عبد المؤمن ومهد الدولة المرينية، كل ذلك ببركة تعظيمه لما هو من رسول الله». (240)

كان اهتمام المرينيين بـالشرفاء – على حد قول محمـد القلبي – نتيجة رغبتهم في تعويض الفراغ الأيديولوجي الذي كانوا يعانون منه، فتقربوا من أشراف الشرق لضمان عطف الـرأي العـام الخارجي، ومن الأشراف المحليين لكسب عطف الرأي العام الـداخلي. وحسب نفس الرأي يمكن تقسيم شرفاء المغرب في القرن الثالث عشر الميـلادي إلى قسمين شرفاء استقروا بالمغرب قديما وهم الشرفاء الصقليون الحسينيون، وشرفاء قدموا في التاريخ المشار إليـه أعـلاه إلى المنـاطق الجنـوبيـة وهم السعـديـون وشرفـاء سجلماسـة الحسنيون. (241)

ويعود اهتمام المرينيين بـالشرفاء إلى عهـد أبي يوسف يعقـوب ابن عبد الحق الذي حاول التقـرب من كل شرفاء بلاد المغرب. ذكـر ابن عبد العظيم الأزموري أن هذا السلطان كان يـراسل الشرفاء، وسن سنة إرسال الكسوة إلى البيت الحرام. وأورد نفس المؤلف رسالة بعث بها أبو يوسف إلى الشرفاء المغاريين سكـان طيط من عمالة آسفـي هذا نصها «أردنـا منكم ومن كمال فضلكم أن تعينـوا وأنتم أجل أهل الفضل ثلاثـة رجال من بيتكم الشريفـة يتوجهون إلى بـلاد الحجاز شرفها الله تعالى ويقـدمون على من أرسلنا مع صلحاء المغرب. (242)

240) ابن السكاك، نصح ملوك الإسلام، م. س. ص 42 – 43.

241) محمد القبلي مسـاهمة في تاريخ التمهيـد لدولة السعـديين، مجلة كليـة الآداب، العدد 3 – 4، الرباط 1978، ص 11 – 12.

242) ابن عبد العظيـم الأزموري، بهجـة الناظريـن وأنس الحاضرين، مخطـوطة خ. ع رقم ج 377، ص 33.

وقد ازدادت مكانة الشرفاء لدى السلاطين المرينيين في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فكان أبو الحسن المريني يسعى إلى التبرك بشرفاء المغرب قاطبة.(243) كما أن أبا عنان فارس كان على علاقة طيبة بشرفاء سبتة وسجلماسة وشرفاء طيط، وقد وصلتنا رسالة من هذا السلطان إلى شرفاء سبتة وسجلماسة ضمن مجموع مؤلف من ظهائر شريفة. وورد في نص الرسالة ذكر اسم مولاي علي الشريف بن الحسن ابن محمد الحسني السجلماسي الذي كان من المقربين لأبي عنان كما هو واضح في نص الرسالة المشار إليها أعلاه.(244) أما علاقة هذا السلطان بالشرفاء المغاريين فقد ذكر ابن عبد العظيم الأزموري أنه وقف على رسالة يأمر فيها السلطان عامله على آسفي بأن يمنح الهبات المخصصة للمغاريين ولأقطابهم كما هي عادتهم مع ملوك بني مرين.(245)

كان اتصال أبي عنان فارس بشرفاء سجلماسة وإدماجهم في سلك شرفاء الدولة بدافع اقتصادي على حد قول الأستاذ محمد القبلي. لأن منطقة نفوذ أشراف سجلماسة أصبحت تطرح مشاكل سياسية واقتصادية منذ أن عين أبو سعيد عثمان ابنه الثائر أبا علي عمر واليا عليها، كما أن وجود قبائل عرب المعقل من الأحلاف بتافيلالت وبلاد ملوية قد قوى نزعة سجلماسة وولاتها من الأمراء على الانفصال عن العاصمة فاس.(246)

وبعد فترة حكم أبي عنان فارس عمل أخواه أبو سالم وعبد العزيز على إكرام الشرفاء كما هي عادة أسلافهم.(247) وتعود أقدم رسالة مرينية معروفة موجهة إلى شرفاء سجلماسة إلى فترة حكم أبي العباس أحمد أوردناها أعلاه.(248) وهي خاصة بشرفاء قصر السيفة وصوصو

---

243) ابن السكاك، م. س. ص 25.

244) انظر نص الرسالة أعلاه صفحة 123.

245) ابن عبد العظيم الأزموري، م. س. ص 35 – 36.

246) محمد القبلي، م. س. ص 21 – 22.

247) ابن السكاك، م. س. ص 46.

248) انظر نص الرسالة أعلاه، ص 124 – 125.

وأخنـوس يستـدعيهم السلطـان للقـدوم إلى فـاس الجديـد لأخـذ هبـاتهم وأعطياتهم.(249)

إن المكانة التي كانت لشرفاء سجلماسة في العهد المريني كان من شأنها أن تجعل نفوذ الحسنيين بسجلماسة أقوى من نفوذ عرب المعقل بها خاصة وأن هـؤلاء الأخيرين لا يستنـدون في قـوتهم إلا على عصبيتهم. لكن رغم امتلاك الشرفـاء للسند الشرعي اللازم لفرض سيطـرتهم على تلك المجالات، فإن عرب المعقل ظلوا أصحاب القرار بها وأثروا في أحداثها تأثيرا كبيرا. لأن الاشراف خلال هذه الفترة – وعلى حد قـول الأستاذ محمد القبلي – ابتعدوا عن الخوض في شؤون السياسية،(250) ومثال ذلك أن مـولاي علي الشريف الذي عاش مـا بين سنة 762هـ وسنة 847هـ / 1361م – 1443م،(251) لم يول عناية كبيرة للأمور السياسية، رغم أنه بعد صيته وكثرت أتباعه حتى هابته ملوك مرين وتخوفوا منه.(252) فضلا عن أنه تلقى رسائل عديدة من أهل الأندلس يدعونه فيها للقدوم عليهم قصد مبايعته بها.(253)

---

249) مجموع مؤلف من ظهائر شريفة، م س. ص 116.

250) محمد القبلي، م. س. ص 35.

251) الفضيلي، الدرر البهية، ج 1. ص 102. والزركلي، الإعلام ج 4. ص 274.

252) الفضيلي، م. س. ج 1. ص 82 – 83.

253) أحمد بن محمـد بن يوسف الحسني، الأنـوار الحسنيـة في نسبة من بسجلماسـة من الأشراف المحمدية، مخطوطة، خ. ع. رقم د. 1351. ص 37.

الفصل الثالث :

التطورات السياسية بسجلماسة وإقليمها من منتصف القرن 7 هـ / 13 م إلى نهاية القرن 8 هـ / 14 م

المبحث الأول سجلماسة في مرحلة الانهيار الموحدي

1 – سجلماسة في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي :

أ – الوضعية السياسية ببلاد المغرب

شهدت بلاد المغرب في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي أحداثا وتطورات سياسية شكلت حلقة أساسية في تاريخها، وامتازت هذه المرحلة بصراع سياسي تحكم كثيرا في التطورات التي شهدتها هذه المناطق في المراحل اللاحقة. فكان من نتائج ذلك انقسام بلاد المغرب على المستوى السياسي بين ثلاث قوى، وأثر ذلك على الوضعية العامة بغرب حوض البحر الأبيض المتوسط بأن اختل ميزان القوى لصالح أوربا الغربية، وبدأت بلاد المغرب تسير نحو التراجع على أكثر من مستوى.

كانت وقعة العقاب التي انهزمت فيها جيوش الناصر بالأندلس سنة 609 هـ / 1212 م ضربة قاسمة لقوة المغرب العسكرية، ولم يستطع هذا الخليفة التخلص من انعكاساتها السلبية على الأوضاع الداخلية للبلاد، كما لم يستطع خلفاؤه من بعده إيجاد حلول ناجعة للأخطار المتزايدة المحدقة بملكهم. وزاد الطين بلة أن تولى شؤون الموحدين بعد وفاة الناصر

في السنة التي تلت الهزيمة إبنه المستنصر الذي اعتكف على اللهو واللعب والخمور،(1) وأهمل أمور تسيير الدولة.

ولم يستطع الخلفاء الذين أتوا بعد المستنصر تفادي ما ضاع من أمجاد الموحدين، وانشغلوا بصراعات حادة حول الحكم. فتضاعفت ثورات القصر، وفتح المجال لتدخل القوى الأجنبية لمؤازرة الأمراء ضد منافسيهم كما هو الحال في تولية المامون الذي لم يستطع الوصول إلى عرش أجداده إلا بالاعتماد على دعم المسيحيين.(2)

إن التراجع العسكري الموحدي الذي ترتب عن هزيمة العقاب لم يكن العامل الوحيد الذي أدى بقوتهم إلى الانهيار والتقهقر، لأن السلطة الموحدية لم تستطع خلال هذه الفترة إحكام قبضتها على الرقعة السياسية بكل مجال نفوذها. ففي شرق بلاد المغرب كان بنو غانية يحاولون فرض سيطرتهم على بلاد أفريقية، وهو ما تطلب من الموحدين تجهيز حملات عسكرية عديدة في عهد الناصر انتهت بتعيين أحد رجالات المخزن الموحدي على تلك المناطق للحد من أطماع بني غانية بها. ويتعلق الأمر بالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي الذي تنتسب إليه الدولة الحفصية.

ساهمت العناصر العربية التي استقدمها الموحدون لتعمير سهول المغرب الأقصى في تضييق الخناق على الخلفاء في مرحلة الضعف، وشكلت قبائل سفيان والخلط قوة معارضة للخلافة بمراكش.(3) كما كان لاستقرار عرب المعقل بالمناطق الجنوبية أثره في تراجع مجال النفوذ الموحدي بهذه المناطق، خصوصا وأن تحالفهم مع المرينيين كان له بالغ الأثر في نجاح بني عبد الحق في التخلص من نفوذ بني عبد المؤمن وتملك المغرب الأقصى.

لم يكن هذا التدهور السياسي والعسكري معزولا عن تدهور مماثل له في المجال الاقتصادي. فإضافة إلى الخسارة البشرية المترتبة عن هزيمة العقاب

1) ابن أبي زرع، م. س. ص 281.

2) Abdelahq Bennani; Rapports et influences entre le royaume de Grenade et le Magrib merinides; 13 - 15eme siècle; Bordeaux 1985; p : 28.

3) Mohamed Fatha, Op. cit. p : 20.

وضعف ساكنة المغرب الذي سبب بالنتيجة في قلة الطاقات البشرية المنتجة، تـوالت الأوبئة والمجـاعات لتسـاهم بـدورها في عمليـة التراجع. فقد أشـار الناصري إلى الوباء العظيم الذي اجتاح البلاد سنة 610هـ / 1213م،(4) وهو ما أدى إلى ضعف عـدد السكان وتراجع النشاط الاقتصـادي بمجال النفوذ الموحدي. كما عـرفت أقاليم المغـرب غلاء شـديدا في أسعـار المواد الغذائيـة نتيجـة اجتياح الجراد والقحط الذي تعـرضت له البلاد في أعوام 615 هـ / 1219 م و624هـ / 1228م.(5)

كان الضعف والوهن الذي لحق نفوذ الموحدين في الربع الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي فـرصة مواتية لانقسام مجال نفوذهم بين عدة قوى سيـاسية استغلت بنجاح إخفاق الخلفـاء المتأخرين في إحكام قبضتهم على زمام الحكم، فـاستقل الحفصيون بالمغرب الأدنى والـزيانيون بالمغرب الأوسط والمرينيون بالمغرب الأقصى.

شكل قيام الدولة الحفصية بأفريقيـة أهم الأحداث الحاسمة التي عرفها عهد المامـون الموحدي. ويعود استقـرار جد هذه الأسرة بـالمغرب الأدنى إلى الحملة التي نظمها الناصر للحد مـن خطر بني غانية سنة 602هـ / 1206م. وقـد استطاع جـد الحفصيين أبو محمـد عبد الـواحد بن أبي حفص عمـر الهنتاتي إبعاد يحيى بن إسحاق زعيم بني غانية عن مناطق المغرب الأدنى، ثم بدأ في تثقيف أطراف تلك الجهات. لكنه بعـد وفاة الناصر تأخر في إعلان البيعة للمستنصر،(6) فساءت عـلاقته مع دار الخلافـة طيلة فترة حكـم هذا الخليفة.

استغل أبنـاء الشيخ أبي محمد عبـد الـواحـد ضعف الخلفاء الموحـدين بمراكش وأعلنوا استقـلالهم بالمغرب الأدنى، وكان لازدياد خطـر بني غانية أثره في تعيين الخليفة العادل الموحدي لعبد الله بن عبد الواحد واليا على تلك

---

4) الناصري، م. س. جـ 3. ص 4.

5) ابن أبي زرع، م. س. ص 273 – 274.

6) عبد الواحـد المراكشـي، المعجـب في تلخيـص أخبار المغـرب، دار الكتـاب الدار البيضاء – 1978، ص 184.

المناطق. ثم كان لتخلي الخليفة المامون عن العقيدة التومرتية أثره في تخلي أبي زكرياء الحفصي - الذي خلف عبد الله على قيادة الموحدين بأفريقية - عن مبايعته،(7) فأسقط أسماء خلفاء مراكش من الخطبة وكان ذلك أول درجة في الاستبداد على حد تعبير الزركشي.(8)

أشار ابن خلدون إلى أن استبداد أبو زكرياء بحكم أفريقية كان سنة 627هـ / 1269م.(9) لكن النجاح الذي لقيه مشروعه السياسي أتى متأخرا لهذا التاريخ. فقد بدأ أبو زكرياء في التطلع إلى بسط سلطته على رقعة النفوذ الموحدي بعد سنة 634هـ / 1236م، فلم يكن ضعف خلفاء مراكش وتردي أوضاع الامبراطورية إلا ليشجع نواياه الهادفة إلى الاستقلال.

ففي ربيع 635هـ / 1238م طلب ابن مردنيش سيد المناطق الشرقية للأندلس مساعدة الحفصيين لفك الحصار المضروب على عاصمته بلنسيا Valence من طرف ملك أراغون J. Le conqueront كما طلبت اشبيلية Seville وطريفة Tarifa من هذا الأمير تعيين أحد رجالاته واليا عليها ليقوم بتسيير شؤونها فأرسل إليها أبا فارس بن يونس الذي تربطه به صلة قرابة. كما أن ابن الأحمر المستقل بغرناطة أقام الخطبة باسم أبي زكرياء معلنا تبعيته له.(10)

وكان لمبايعة بعض مناطق الأندلس لأبي زكرياء دلالات سياسية بالغة الأهمية، لأن النفوذ الحفصي لم يقتصر على الاستقلال بإقليم من أقاليم بلاد المغرب بل تعداه إلى منافسة خلفاء مراكش على الخلافة ببلاد المغرب. فالأندلس - بإعلانها البيعة للحفصيين - أكدت بأنها لم تعد تعتمد على ما يمكن أن تقدمه لها دار الخلافة بمراكش من عون لمواجهة الزحف المسيحي، وهذا يعني أن الأندلسيين رأوا في إعلان البيعة للحفصيين الفرصة المواتية لإعلان العصيان والاستقلال عن دار الخلافة. وهذا ما يفسر قول ابن أبي

---

7) Brunschvig : La berbèrie orientale sous les Hafsides T. 1 Paris 1940 p. 18 - 19.

8) الزركشي، تاريخ الدولتين، تونس 1966. ص 24.

9) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 236.

10) Brunschvig : La berbérie orientale T. 1 Op. cit. p. 32 - 33.

زرع بأن بلاد الأندلس خرجت كلها في هذه المرحلة من ملك الموحدين وصارت إلى ملك ابن هود وابن الأحمر.(11)

ولم يقتصر نفوذ الحفصيين على المغرب الأدنى بعد النجاح الذي لقيته دعوتهم بالأندلس فشرع أبو زكرياء في التوسع غربا واستولى على بجاية والجزائر بالمغرب الأوسط سنة 636هـ / 1239م.(12) وهو ما دفع بكل القوى الطامعة في الاستقلال ببلاد المغرب إلى إعلان تبعيتها له في محاولة منها لتفادي خطر زحف الجيوش الحفصية عليها الذي من شأنه أن يضيع منها فرصة الاستقلال.

ويمثل المرينيون نموذج هذه الازدواجية في التعامل مع الحفصيين لأن أبا يحيى بن عبد الحق الذي أقام رسوم الملك للمرينيين أعلن الطاعة لأبي زكرياء بعد أن استولى على مدينة مكناسة سنة 643هـ / 1246م. ونعلم أن الحركة المرينية بدأت في هذه المرحلة بالذات في تنظيم صفوفها لإقامة دولتها بالمغرب الأقصى، وهذا ما يعطي الدليل على أن مبايعتها للحفصيين، وإن كان الهدف منها كسب المشروعية، لم تكن سوى طاعة شكلية تبناها المرينيون بغرض الاستفادة من تطورات الظرف التاريخي.

كما أعلنت بعض المدن المغربية تبعيتها للحفصيين مستغلة الضعف الذي لحق نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى وكانت سبتة باب المغرب على أوربا وسجلماسة باب المغرب على الصحراء الكبرى سباقتين في هذا الباب، بحيث خرجت المدينتان معا عن طاعة خلفاء مراكش بعد وفاة الرشيد سنة 640هـ / 1242م.

أشار ابن عذاري إلى أن أبا علي بن خلاص البلنسي أعرض عن بيعة الخليفة السعيد الموحدي وبايع الأمير أبي زكرياء الحفصي.(13) ويظهر أن أهمية مدينة سبتة ورغبة الحفصيين في التحكم فيها هي التي كانت وراء اختفاء ابن خلاص عن مسرح الأحداث السياسية بها، ولا يستبعد أن يكون

---

11) ابن أبي زرع، م. س. ص 253.

12) الزركشي، م. س. ص 28.

13) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، البيضاء، 1985. ص 360.

الأمير الحفصي قد عمل على عزله عن شؤون تسيير هذه المدينة خاصة وأن المصادر التاريخية لا تشير إلى الأسباب التي جعلت سبتة تخضع لأحد أقارب أبي زكرياء بدلا من ابن خلاص. فقد اكتفى ابن خلدون بالإشارة إلى أن عامل سبتة رحل بجملته إلى تونس،(14) وذكر صاحب الدخيرة أنه ركب البحر فغرق ومات.(15)

وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد في أن الحفصيين عملوا على إدراج هذه المدينة تحت نفوذهم المباشر حتى يضمنوا لأنفسهم سيطرة فعلية على شمال المغرب الأقصى، لأن النجاح السياسي الذي حققه أبو زكرياء الحفصي يوحي بأن رغبته كانت أكيدة في تملك مجال النفوذ الموحدي منذ توليته بأفريقية وإلى حدود وفاته بها سنة 646هـ / 1249م. وهو التاريخ الذي خلعت فيه سبتة طاعة الحفصيين، وأصبحت بعد ذلك بسنة مستقلة بقيادة آل العزفي.

وقد ثارت مدينة سجلماسة أيضا في عهد السعيد تحت قيادة عامل الموحدين عليها عبد الله بن أبي زكرياء الهزرجي الذي أعلن البيعة للحفصيين بعد موت الخليفة الرشيد. وهذا ما دفع بخلفه السعيد إلى تجهيز حملة عسكرية في اتجاه هذه المدينة سنة 642هـ / 1245م انتهت بعودتها إلى طاعة الموحدين كما سنرى.

إن انتفاضة سجلماسة وسبتة في فترة واحدة ومبايعتهما للحفصيين يستدعي طرح أكثر من سؤال حول الأسباب الكامنة وراء ذلك، خاصة وأن المدينتين، وابتداء من التاريخ الوارد أعلاه، عرفتا تطورا مماثلا على المستوى السياسي واستمر ذلك طيلة القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وكذلك العشرين سنة الأولى من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. فكانت ثورة إحداهما خلال هذه المرحلة تثير رد فعل سريع في الثانية، والأمثلة كثيرة في هذا الباب سواء تعلق الأمر باستقلال آل العزفي بسبتة وانتفاضة سجلماسة تحت زعامة بعض العمال الموحدين أو بعض القادة

---

14) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 186.

15) مجهول، الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط 1972، ص 68.

المحليين خلال نفس الفترة، أو انتفاضة سبتة زمان استقلال أبي علي عمر المريني بسجلماسة في عهد أبي سعيد عثمان.

فهل يتعلق الأمر هنا بالقواسم المشتركة بين المدينتين في الموقع، لأن كلا منهما يمثل بوابة تفتح بلاد المغرب على مناطق خارجية ؟ أو يرتبط ذلك بأهمية المدينتين في التعامل التجاري بين المغرب وأوربا من جهة وبينه وبين بلاد السودان من جهة ثانية ؟

إن هذين السؤالين يدفعان إلى الاعتقاد في أن تشابه التطورات السياسية بالمدينتين مرتبط بعامل موقعهما وأهميتهما في عملية التبادل التجاري. لأنهما كانتا تستقطبان عناصر مختلفة في التكوين والانتماء الاجتماعي، كما أن الرخاء الاقتصادي الذي تمتعتا به في العصر الوسيط، نتيجة الرواج التجاري، كان من شأنه أن يساهم في بلورة المواقف السياسية لساكنتهما، أو يساعد أصحاب النفوذ بهما على خلع الطاعة والجنوح نحو الاستقلال.

ولا يستبعد أن يكون إعلان سبتة لبيعة أبي زكرياء الحفصي تحت قيادة ابن خلاص البلنسي قد حدث تحت تأثير العناصر الأندلسية المستقرة بهذه المدينة، خاصة وأن بلاد الأندلس كانت في هذه الفترة قد أعلنت طاعتها للحفصيين. كما لا يستبعد أيضا أن يكون موقف سجلماسة المماثل وليد رغبة تجار المغرب الأدنى المستقرين بسجلماسة في مبايعة الأمير الحفصي.

وإذا كان النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي قد شكل الفترة الحيوية في تطلع الحفصيين إلى الخلافة ببلاد المغرب والمتمثل في بيعة بلاد الأندلس وبعض مناطق بلاد المغرب لأبي زكرياء، فليس معنى ذلك أن الحفصيين كان بمقدورهم تحقيق هذا المشروع السياسي الضخم. لأن تعدد أطراف النزاع وأطماع القوى المتصارعة من أجل السيادة على أجزاء مجال النفوذ الموحدي، جعل هذا الأمر مستبعدا إن لم يكن مستحيلا طيلة فترة التراجع الموحدي وما تلاها من مراحل، وهو ما يبرره فشل المرينيين في تحقيق هذا الغرض بنجاح كامل.

عمد أبو زكرياء إلى مهادنة الموحدين في عهد السعيد اتقاء لشر الحملة التي نظمها هذا الأخير في اتجاه المغرب الأوسط. أشار التنسي إلى أن أبا

زكرياء بعث «هـدية إلى السعيد حيث ظن استوثق لـه ملك المغرب وتعرض لها أمير المسلمين يغمراسن وأخذها فانتظر الأمير أبو زكرياء انتصار السعيد لنفسه لذلك فلم يكن له إلى ذلك نهوض، فخلع حينئذ طاعته واستقل بنفسه وجهز جيوشـا من عرب افريقية وغيرهـم وتحرك إلى تلمسان سنة خمس وأربعين... (645هـ)».(16).

ولا تفهـم حملـة أبي زكريـاء على تلمسـان إلا في إطـار علاقـة هـذا التحـرك العسكـري الحفصي بوفاة السعيـد الموحدي الـذي تمكن يغمراسن من قتلـه على أبـواب تلمسـان. وهـذا مـا يعطي الـدليل على أن التطلعـات الحفصية لتـوحيد بـلاد المغرب خضعت في تطـوراتها لضعف وقـوة خلفاء مراكش.

وإذا كـان أبو زكـريـاء الحفصي قـد فشل في ضم أجـزاء الامبراطوريـة الموحديـة تحت رايته، فـإن المكانة السيـاسية التي أصبحـت لدولتـه ببلاد المغرب سـاعدتـه على ربط عـلاقات تجارية مـع أوربا الغـربية. فقـد أبرم معاهدة مع البنـدقية سنة 1231م لضمان سلامة الملاحـة والتجار المسلمين الذين يبحرون من أفريقية في اتجاه مصر.(17) كما أصبحت لتونس علاقات تجاريـة مع مدن منطقـة بروفـانس الفـرنسية، بـدليل أن قوانين التجـارة الخاصة بمـدينة مرسيليـا لسنة 1229م تشير إلى بيع الخمـور بمـوانىء إفريقية.(18)

كما عمل ملك أراغـون Jacques le conqueront على التقـرب من أبي زكريـاء الحفصي قصـد استفادة التجـار الكطلانيين من المبـادلات بسواحل المغـرب الأدنى.(19) لأن أراغون كانت خلال هذه الفترة عـازمة على خلق امبراطورية تجارية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

---

16) محمد التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بنـي زيان، تحقيق محمد بوعياد، الجزائر، 1985 ص: 117.

17) Mas Latrie Traités et documents divers concernant les relations des chrétiens et des arabes au moyen âge, Paris 1868, p. 123.

18) Brunschvig La berbérie orientale T. 1 Op. cit. p 29.

19) شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تونس، 1983، جـ 2. ص 179.

وهذا مـا جعل المغرب الأدنى يستفيـد من هذه العـلاقات التجـارية مع أوربا الغربية التي لم تغفل التعامل مع كل القوى السياسية التي قامت على أنقاض نفوذ الموحدين في النصف الثاني مـن القرن السـابع الهجري الثالث عشر الميلادي، رغم أنها أكثرت من التعامل مع الحفصيين في النصف الأول منه.

وبالمغرب الأوسط كان الزيانيون يعملون كأمثالهم الحفصيين والمرينيين على الاستقـلال عن مـركز الخلافـة الموحـديـة بمراكش. ويعـود استقـرار الـزيانيين بتلمســان إلى عهـد الخليفة المامـون، لأن قبـائلهم كانت تتحـرك كسائر بطون زناتة في مجالات المغرب الأوسط قبل هذا العهد. وكان للصراع الموحدي ضـد بني غـانية أثره في تقـرب جابـر بن يوسـف الزيـاني الذي تصدى لبني غانيـة من الخليفة المامون، فعينه هـذا الأخير واليا على المغرب الأوسط، واتخذ من تلمسان قاعدة له.

لخص مؤرخ الدولة الزيانية يحيى بن خلدون تطور الزعامة في بني عبد الواد قبـل إعلان استقلالهم عن الموحـدين بقولـه أن الحسن بن جابـر بن يوسف «حكم ستة أشهر في عهـد الخليفة المامون وانخلع عنها لعمه عثمان ابن يوسف وكان فظا غليظا سيء الملك فخلع سنة 631هـ / 1234م ثم تولى بعده أبو عزة زيدان أبو ثابت فقتل في حروبه مع بني راشد وبني مطهر من بني عبد الواد سنة 633هـ / 1236م ثم ولي أخوه يغمراسن».(20)

وبعد تولي يغمـراسن زعامة بني عبد الـواد اتضحت أطماع هذه القبيلة في الاستقلال والخروج عن طاعـة الموحدين، فقد بايع الزيـانيون يغمراسن ابن زيان بعـد وفاة أخيه يـوم الأحد الرابع والعشرين من ذي القعـدة سنة 633هـ / 1236م على رواية يحيى بن خلدون،(21) أو في سابع عشر جمادى الأخيرة من سنة 637 هـ / 1240 م على رواية التنسي.(22) ومنذ ذلك الوقت

---

20) يحيى ابن خلدون، م. س. جـ 1. ص 108.

21) نفسه، صفحة 110.

22) محمد التنسي، م. س. صفحة 111.

أصبح لتلمسان موقعها في الصراع الدائر ببلاد المغرب حول الإرث السياسي الموحدي.

استمر يغمراسن على زعامة الزيانيين إلى حدود سنة 680هـ / 1282م وسمحت له هذه المدة الطويلة بفتح باب الصراع على واجهتين مع المرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في المغرب الأدنى. وهذا ما كان له دوره في التطورات السياسية بالمنطقة، خاصة وأن الحفصيين كانوا يحاولون السيطرة على كل بلاد المغرب في فترة مبكرة من استقلالهم بالمغرب الأدنى، وهو ما اضطلع به المرينيون فيما بعد.

ولم تكن وضعيه تلمسان بين المغرب الأقصى في الغرب وإفريقية في الشرق إلا لتزيد من أطماع كل من المرينيين والحفصيين في تملكها. لأن الزيانيين لم يكونوا في مستوى القوتين معا خلال هذه المرحلة التاريخية. وهذا ما جعل سياسة يغمراسن بن زيان مع مختلف القوى المهتمة بما يجرى ببلاد المغرب تمتاز بالتقلب وعدم الثبات. تشهد على كل ذلك علاقته مع الخلفاء الموحدين بمراكش وعلاقته بالحفصيين والنصريين التي كان الهدف منها عرقلة نجاح المرينيين في السيطرة على المغرب الأقصى والقيام بأمر الجهاد بالأندلس، وما ترتب عن ذلك على وجه الخصوص من توتر في العلاقات المرينية النصرية وانعكاس ذلك بشكل سلبي على أوضاع الأندلس وميل ميزان القوى بها لصالح المسيحيين.(23)

عمد يغمراسن إلى مؤازرة الخلفاء الموحدين بمراكش في محاولة لابعاد الأخطار المحدقة بملكه.(24) وتضاعفت فرص الصراع ما بين الزيانيين والمرينيين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. لأنه لم تكن هناك حدود فعلية بين مملكة فاس ومملكة تلمسان، وإنما انحصرت هذه الحدود في مجال واسع يمتد ما بين ملوية ووجدة غربا والمناطق المجاورة لتلمسان شرقا.

23) Ahmed Khanboubi, Op. cit. p : 31.
24) J. Brignon et autres : Mistoire du Maroc, Casablanca 1976 p : 136.

وكانت هذه المناطق التي مثلت حدود المملكتين حلبة لحروب عديدة بين المرينيين والزيانيين سنعود لذكرها. كما كان لتحالف يغمراسن مع عرب المعقل المستقرين بمجالات سجلماسة، ومحاولته إحكام قبضته على هذه المدينة المتحكمة في التجارة الصحراوية اعتمادا على حلفائه بها، أثره الفعال في توتر العلاقات بين الجماعتين الزناتيتين، وهو ما أسفر عن مواجهات عديدة بين الطرفين كانت الغلبة فيها للمرينيين في كل جولاتها.

تعرضت تلمسان إلى هجومات الحفصيين في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، لأن القطيعة بين الحفصيين والموحدين في عهد أبي زكرياء سمح بتطور العلاقات الودية بين تلمسان ومراكش.(25) وكان الرشيد الموحدي يسعى إلى التحالف مع يغمراسن بن زيان قصد التخلص من هيمنة بني مرين على بوادي المنطقة الشمالية للمغرب الأقصى، محكوما في ذلك بهدفين أولهما الاعتماد على بني عبد الواد في خلق مشاكل عسكرية لبني مرين، وثانيهما تأمين مناطق نفوذه من خطر الحفصيين القادم من الشرق.

لقد زاد اضطراب أوضاع المغرب الأقصى على عهد الخليفة الرشيد لما فر إلى سجلماسة أمام زحف عرب الخلط على مراكش من تطلعات الحفصيين وشجعهم على التوسع في مناطق المغرب الأوسط. فجاءت الحملة الحفصية على تلمسان تحت قيادة أبي زكرياء لتأديب يغمراسن على تحالفه مع الموحدين بمراكش، وتأكيد السيادة الحفصية وأولويتها على باقي القوى المتصارعة ببلاد المغرب خلال هذه المرحلة.

فبعد أن استولى أبو زكرياء على بجاية والجزائر تحرك نحو تلمسان في شهر شوال سنة 639هـ / أبريل - ماي 1242م وأقام حصاره عليها حتى دخلها عنوة سنة 640هـ / 1243م.(26) فاضطر يغمراسن إلى مغادرة عاصمته في اتجاه المناطق الصحراوية. غير أن أهم ما يثير الانتباه في هذه الحملة الحفصية على تلمسان أن أبا زكرياء لم يعين ولاة من قبله على

25) Brunschvig Op. cit. p 31.

26) الزركشي، م. س، ص 29.

عاصمة الزيانيين، كما أنه سامح أهلها وعفا عنهم على رواية ابن عذاري.(27) وهذا ما يدفع إلى التساؤل عن الأسباب الحقيقية التي أدت به إلى عدم استغلال انتصاره المحقق على الزيانيين للزيادة من رقعة النفوذ الحفصي ؟ مع العلم بأن الاستيلاء على المغرب الأوسط يمكن أن يمثل بالنسبة للحفصيين عاملا مشجعا على اكتساح المغرب الأقصى وتوحيد أقاليم كل بلاد المغرب.

أشار التنسي إلى أن أبا زكرياء «عرض ولاية تلمسان على جميع خواصه فامتنعوا منها خوفا من أمير المسلمين يغمراس، فقال حينئذ ليس لها إلا صاحبها فبعث إليه بالصلح، والرجوع إلى موضعه... وعقدا بينهما صلحا، تعاقدا فيه على عداوة بني عبد المؤمن».(28) وهذه الرواية التي انفرد بذكرها التنسي - خلافا لباقي المصادر التي اهتمت بهذا الحدث - لا تخلو من مبالغة في إبراز قوة يغمراسن بن زيان، لأنه لا يعقل أن يتقدم أمير الحفصيين بطلب الصلح من يغمراسن بعد أن انتصر عليه وطرده عن عاصمة ملكه. أما الشق الثاني من هذه الرواية فيؤكد أن الصلح بين الطرفين كان يفرض على يغمراسن التخلي عن تحالفه مع بني عبد المؤمن، وهو ما لا يتنافى مع ما ذكره الزركشي حين أشار إلى أن يغمراسن عاد إلى تلمسان بعد أن توسطت له أمه «سوط النساء» في التفاوض مع أبي زكرياء وقبلت شروط هذا الأخير القاضية بأن يقوم بالدعوة للحفصيين والخطبة باسمهم في كل مجال نفوذه.(29)

إن هذه الروايات تدفع إلى الاعتقاد في أن أبا زكرياء كان يهدف من وراء حملته على تلمسان إلى الحفاظ على المكانة المتميزة التي اكتسبها في المجال السياسي منذ إعلان استقلاله. خاصة وأن أغلب مناطق بلاد المغرب كانت ترى في النفوذ الحفصي الوريث الشرعي للحكم الموحدي، فأعلنت طاعتها لأبي زكرياء باستثناء إمارة تلمسان.

---

27) ابن عذاري. البيان، قسم الموحدين، م. س، ص 362.

28) التنسي م. س. ص 118.

29) الزركشي. م. س، ص 29.

يضـاف إلى ذلك أن الحفصيين كـان يكفيهم في هـذه المرحلـة الاعتراف بسلطتهم كمنـافسين لبني عبـد المؤمن على الخلافة، مـا دام تـوحيد بـلاد المغـرب تحت سلطتهم كان يتطلب إمكـانات تفـوق طاقتهم بـالنظر لتعـدد القـوى الطـامعـة في الاستقـلال بمجال النفـوذ الموحـدي. وهـو مـا كـان الحفصيـون يـدركونـه تمام الادراك أكثـر من غيرهم، ولعل هـذا مـا يبرر اقتصارهم بعد نجاح حملتهم ضد الزيانيين على فرض شروط صلح تصبح تلمســان بمـوجبها تـابعـة لبني حفص من النـاحية الشكليـة، أي معترفـة بطاعتهم، لأن في ذلك نجـاح للدعوة الحفصية في إطـار صراعها على الخلافة مع الموحدين بمراكش.

وعرف المغرب الأقصى في هذه الفترة – وعلى غـرار ما حدث في المغربين الأوسط والأدنى – محاولـة استقلال عن مـركز الخلافة بمـراكش. ويتعلق الأمر بـالحركة المرينية التي استغلت ضعف نفوذ الخلفـاء الموحدين المترتب عن نشاط معـارضة القوى النـاشئة بالأنـدلس والمغربين الأدنى والأوسط، وتراجع القوة العسكرية للموحـدين بشكل لم يساعدهم على تفادي الأخطار المحيطة بملكهم. فعمل المرينيون على اقتسام مناطق المغرب الأقصى مع بني عبـد المؤمن، لكن مهمتهم في التخلص من منافسيهـم كانت صعبـة للغايـة، وهـو مـا يفسر تـأخـرهم في إعـلان استقـلالهم مقـارنـة مع الحفصيين والزيانيين.

تنتسب القبائل المرينيـة إلى المجموعـة الزنـاتية التي تنتمي إليهـا أيضا قبيلة بني عبد الواد. وقد كانت مواطن بني مرين في المرحلة المرابطية ببوادي بلاد المغرب وبـلاد الزاب الأسفل إلى ما يلي مـدينة تلمسـان.(30) وفي القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ذكر ابـن خلدون أن قبائل زناتة كانت تعتمـد أسلوب عيش العـرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركـوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتستقـر بالقرى الجريديـة بالصحراء وجبال طـرابلس وضواحي إفريقيـة وجبل الأوراس بالمغـرب الأوسط الذي

30) ابن الأحمر، روضة النسرين في تاريخ بني مرين، باريس، 1917، ص 7.

كان يسمى بوطن زناتة وكان «منهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى وهي لهذا العهد أهل دول وملك وكانت لهم فيه دول أخرى في القديم ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم».(31) ويقصد ابن خلدون بحديثه عن زناتة بالمغرب الأقصى جيلها الأول ممثلا في مغراوة ومكناسة وبني يفرن وجيلها الثاني ممثلا في المرينيين.

ونجهل الكيفية التي دخلت بها القبائل المرينية إلى بلاد المغرب الأقصى كما نجهل الكيفية التي انتقلت بها هذه الجماعات من قبائل تعتمد الترحال في أسلوب عيشها إلى قوة سياسية ترغب في منافسة الموحدين على الحكم. ويرجع السبب في ذلك حسب بعض الدارسين إلى كون القبائل المرينية لم يلتفت إليها المؤرخون في بداية عهدها ببلاد المغرب الأقصى ولم تسجل المصادر التاريخية من أخبارها شيئا قبل نجاحها في السيطرة على بواديه الشمالية.(32)

وتجمع أغلب روايات الاخباريين على أن المرينيين دخلوا المغرب الأقصى في سنة 610هـ / 1213م من جهة كَرسيف،(33) وكانت مجالاتهم بالقفر من فكَيكَ إلى سجلماسة وملوية وربما تخطوا في ظعنهم إلى الزاب.(34) وقد أشار الأستاذ القبلي إلى أن الضغط الهلالي هو الذي أدى ببني مرين إلى التحرك من الزاب نحو المناطق الغربية لبلاد المغرب.(35)

يتضح من هذه الروايات الخاصة بمجالات المرينيين قبل تملكهم للمغرب أن قبائلهم كانت تنتجع المناطق الشرقية للمغرب الأقصى وأن احترافها للرعي كان يقودها في رحلتها من وادي ملوية إلى قصور الصحراء مرورا بواحات سجلماسة. وقد حدد أحدهم تحركات هذه القبائل في اتجاه عمودي وأفقي أي من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي أفقيا ومنه إلى الجنوب

---

31) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 3.

32) Maya Shatzmiller, Islam de compagne et Islam de ville le facteur religieux à l'avénement des mirinides, S.I., T.L. 1, 1980, p : 124.

33) ابن الأحمر، م. س. ص 9. وابن أبي زرع، م. س. ص 282.

34) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 121.

35) M. Kably, Op. cit. p 2.

الغربي عمـوديا، لأن بني مرين كـانوا يستقرون في الشمال بملويـة ما بين وجدة وتازة في فصل الصيف ثم يتجهون نحو سجلماسة ومنها إلى أقصى الجنوب في فصل الخريف.(36)

أشـار الزركشي إلى أن القبـائل المرينيـة كانـت وقت دخولها إلى المغـرب الأقصى قليلـة العدد وأن جماعـاتها كانت تضم أربعمائة فـارس(37) وهذا الـرقم لا يسـاعد على تبريـر النجـاح الـذي حققه المرينيـون في مـواجهتهم للموحدين بعـد ثلاث سنوات فقط من تاريخ احتكـاكهم بمناطق الشمال في السنة التي عرفـت بعام المشعلة. وعليه، فإن الرقـم الذي أورده هذا المؤلف يعبر عن عـدد أفراد الجماعـة الأولى من بني مـرين التي دخلت المغـرب ثم أبرقـت إلى باقي الجماعـات الأخرى للالتحـاق بها، بعد أن أيقنت مـن عدم وجـود من يصدهـا عن البـلاد ولا من ينـازعها فيهـا على روايـة ابن أبي زرع.(38) فقدمت جموعهم بعد ذلك في جيـش «كالسيل أو الليل المقمر وأمم كالنمل، أو الجراد المنتشر».(39)

حـــاولت القبائـل المرينيـة بعد احتكـاكهـا بمناطق الشمال المغـربي أن تتوغـــل في اتجـــاه المناطـــق الداخليـة لكنهـــا اصطدمـــت بقـوة القبـائل المستقـرة في تلك المنـاطق. وهذا مـا يفسر حـروبها ضد قبـائل ريـاح التي أسفـــرت عن هزيمــــة المرينييـن سنـــة 613هــ / 1217م، لكن اضطـراب أوضـاع بـــلاد المغرب الأقصى وضعف خلفاء مراكش شجع هـذه القبائل على مـواصلـة فـرض سيطرتها على الأجـزاء الشماليـة للبـلاد. وقـد حقق المرينيـــون سيطـــرة فعليـة على منـاطق الشمال تحت قيـادة الأمير عثمان الذي خلف أباه عبد الحق بن محيـو على زعامة قبيلته، واستمر على ذلك إلى حدود سنة 638هـ / 1241م. واستطاع خلال هـذه المدة أن يأخذ البيعة من عدد كبير من القبائل «وفرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا

---

36) Ahmed Khanboubi, Op. cit. p 34.

37) الزركشي، م. س. ص 19.

38) ابن أبي زرع، م. س. ص 282.

39) نفسه، صفحة : 283.

وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم». (40)

ورغم النجاح الذي حققته الحركة المرينية في عهد عثمان بن عبد الحق، فإنها لم تستطع أن تصل مرحلة التنظيم الذي يمكنها من خوض صراع فعلي من أجل السيادة ببلاد المغرب. وقد تزامنت زعامة عثمان بن عبد الحق للمرينيين مع خلافة العادل والمامون ثم الرشيد من بني عبد المؤمن، ولم يكن هؤلاء الخلفاء على درجة من القوة تمكنهم من فرض سيطرة حقيقية على المناطق البعيدة عن العاصمة مراكش، وهذا ما سمح للقبائل المرينية بترسيخ نفوذها في البوادي الشمالية للمغرب. غير أن تولية السعيد بعد وفاة الرشيد سنة 640هـ / 1243م أعاد لقوة الموحدين نوعا من الاعتبار وأرغم المرينيين تحت قيادة أبي بكر بن عبد الحق على الطاعة والمساهمة بحصة من الجند في حملته على تلمسان.

ظهر المرينيون بمظهر موحد في فترة زعامة أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق الذي اتخذ شارات الملك وحشد الجنود وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد. (41) ويمكن القول بأن الحركة المرينية بدأت في هذه المرحلة في التحول من جماعات قبلية تهتم بجمع الضرائب من الأمصار إلى قوة سياسية ترغب في توحيد المغرب الأقصى تحت رايتها.

وهذا ما تبرره التطورات التي عرفتها حركتهم تحت قيادة هذا الأمير، حيث أصبح التوسع المريني يتجه نحو مناطق لها أهمية خاصة بالمغرب الأقصى، في محاولة للتحكم في طرق التجارة من جهة وتضييق الخناق على خلفاء مراكش من جهة ثانية. ويظهر ذلك في توجههم نحو تادلة والمناطق المجاورة لنهر أم الربيع، وتوجههم أيضا نحو سجلماسة في إطار صراعهم مع بني عبد الواد حول المحاور التجارية، فضلا عن حروبهم الدائمة ضد الزيانيين في المنطقة الشمالية الشرقية للمغرب الأقصى ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

---

40) الناصري، م. س. جـ 3. ص 10.

41) ابن أبي زرع، م. س. ص 291. وابن خلدون م، س. جـ 7. ص 228.

وفي الوقت الذي كانت فيه القبائل المرينية تعمل جاهدة من أجل التحكم في المراكز المهمة بالمغرب الأقصى تحت قيادة أبي بكر بن عبد الحق شهد النفوذ الموحدي بمراكش تحولا نوعيا في القوة والسيادة، ويتعلق الأمر بتولية الخليفة السعيد الذي - كان على ما يظهر - في مستوى إدراك الضعف والوهن الذي لحق النفوذ الموحدي، فقام بتجهيز الجيوش ونظم حملة عسكرية في اتجاه المناطق الشرقية للمغرب الأقصى، بغرض استرجاع الأقاليم التي تم اقتطاعها من مجال النفوذ الموحدي نتيجة محاولات الاستقلال بالمغربين الأوسط والأدنى التي تمت الإشارة إليها أعلاه.

ذكر ابن خلدون أن الأسباب التي أدت بالخليفة السعيد إلى الاتجاه نحو الشرق هي خروج المغرب الأوسط والأدنى عن نفوذ الموحدين، وتبعية يغمراسن بن زيان لأبي زكرياء الحفصي.(42) ومعنى ذلك أن هذه الحملة أتت بمثابة محاولة إنقاذ للنفوذ الموحدي وإعادة سيادته على بلاد المغرب قاطبة، ويتضح ذلك من خلال ما بذله السعيد من جهد في تهدئة أوضاع المغرب الأقصى قبل الشروع في الحركة نحو الشرق.

بدأ الخليفة السعيد بحرب بني مرين الذين كان نفوذهم يشمل كل المناطق الشمالية للمغرب الأقصى. وهذا ما عبر عنه ابن أبي زرع بقوله «وكانوا قد تملكوا جميع بوادي المغرب».(43) ولم تجد جيوشه صعوبة كبيرة في تشريد القبائل المرينية وإبعادها عن المناطق المجاورة للمدن الكبرى الشمالية، فقد حاول أبو بكر بن عبد الحق تفادي المواجهة المباشرة مع الموحدين واعتصم بجموعه في جبال غمارة. غير أن رغبة السعيد في إخضاع كل مناطق المغرب الأقصى لسلطته قبل التوجه نحو المغرب الأوسط أرغمت الأمير المريني على تقديم البيعة إليه والمساهمة بحصة عسكرية في الجيش الموحدي المتجه نحو تلمسان.(44)

42) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 109.
43) ابن أبي زرع، م. س. ص 256.
44) نفسه، نفسه الصفحة.

ورغم النجاح الذي حققه الخليفة السعيد في تمهيد مناطق المغرب الأقصى، فإن حملته على المناطق الشرقية كانت محفوفة بالمخاطر، بالنظر إلى تعدد القوى المتصارعة من أجل السيادة ببلاد المغرب، إضافة إلى أن سيطرته على المغرب الأقصى لم تكن نهائية ولا ناجعة. فمبايعة المرينيين له لا تعني تراجعهم عن طلب الملك بصفة نهائية وإنما كانت خطة سياسية نهجها زعيمهم قصد الاستفادة من تطورات الأوضاع في هذه الفترة.

وقد ظهرت حملة السعيد على تلمسان وكأنها ستحقق الأغراض المرجوة منها. خاصة وأن يغمراسن بن زيان لم يستطع الصمود أمام زحف الجيوش الموحدية، ففر عن عاصمة ملكه وتحصن بقلعة تامزدركت إلى الشرق من مدينة وجدة حسب توطين ابن خلدون.(45) فاضطر السعيد إلى ملاحقته ومحاصرته بها فكان مقتله بذلك الموضع سنة 646هـ / 1249م على يد بني عبد الواد، وأخفق بذلك مشروعه الهادف إلى إعادة توحيد أقاليم بلاد المغرب.

كان تاريخ تراجع الجيوش الموحدية عن المغرب الأوسط بعد مقتل السعيد إيذانا ببداية صراع قوي بين بني عبد الواد وبني مرين. لأن كلا منهما كان يعمل من أجل ترسيخ قواعد حكمه بمجال نفوذه. لكن يغمراسن ابن زيان الذي كانت له اليد الطويلة في مقتل الخليفة السعيد أخذ المبادرة وشرع في التوسع في اتجاه المغرب الأقصى. وهذا ما عبر عنه ابن خلدون بقوله «وسما له أمل في مزاحمة بني مرين على كرسي الخليفة بمراكش».(46)

ولم تكن إمكانيات الدولة الزيانية تسمح ليغمراسن بدخول الصراع حول الخلافة من باب المشروعية، ولامن باب المواجهة العسكرية. فتقرب من الخليفة المرتضى الذي آلت إليه خلافة الموحدين بعد السعيد، فتبادلا

---

45) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 109.

46) نفسه، صفحة 110. وتامزدركت عند يحيى بن خلدون تقع جنوب وجدة، بغية الرواد، جـ 1 ص 113.

الرسائل وتحالفا ضد المرينيين بهدف النيل من قوة أبي بكر بن عبد الحق عدوهما المشترك.(47)

شجع هذا التقارب العبد الوادي – الموحدي يغمراسن بن زيان على التمادي في تضييق الخناق على المرينيين، فشن الغارات على المناطق الشمالية للمغرب الأقصى حتى وصلت إحدى حملاته العسكرية إلى مقربة من رباط تازة. وكان هدفه من ذلك شغل الأمير أبي بكر عن افتتاح مدينة فاس للمرة الثانية بعد ما ثارت على عامله بها سنة 647هـ / 1250م لما كان المرينيون يفتتحون بلاد فازاز.(48) وقد اضطر يغمراسن إلى التراجع نحو الشرق بعد سماعه بخروج المرينيين إليه. ثم وقعت بين الطرفين حرب إسلي الأولى بأحواز وجدة التي كانت الهزيمة فيها على بني عبد الواد سنة 647هـ / 1250م.

ذهب صاحب الدخيرة السنية إلى القول بأن هاته الحرب هي الأولى من نوعها بين الطرفين.(49) ولهذا الرأي نصيبه من الصحة إذا نظرنا إلى الحروب بين الزيانيين والمرينيين في طابعها الرسمي أي بعد ظهور أطماع كل منهما في تملك بلاد المغرب. أما جدور الصراع المريني العبد الوادي فتعود إلى تاريخ أقدم من ذلك، لأن مرحلة ازدهار النفوذ الموحدي عرفت مواجهات بين الطرفين. خصوصا وأن بني عبد الواد كانت تربطهم بالموحدين روابط التحالف منذ حملة عبد المؤمن بن علي الكومي على المغرب الأوسط سنة 540هـ / 1146م التي كان الهدف منها مطاردة الأمراء المتأخرين من لمتونة – خلافا لكل القبائل الزناتية التي واجهت بضراوة هذا الزحف عبر اتحاد شامل لكل بطونها، فكان لتحالف بني عبد الواد مع عبد المومن أثره في ازدياد نفوذهم بتلك المناطق اعتمادا على الدعم الموحدي.(50)

---

47) ابن أبي زرع، م. س. ص 277.

48) مجهول، الدخيرة السنية، ص 76.

49) مجهول، الدخيرة السنية، ص 76.

50) يحيى بن خلدون، بغية الرواد، جـ 1. ص 101.

وكان من نتائج سيطرة عبد المؤمن على المغرب الأوسط تراجع القبائل المرينية نحو المناطق الواقعة جنوب جبال الأوراس واستقرارها بالزاب، حيث أصبحت تتابع ما يجري في مناطق الشمال باهتمام كبير. وقد اعترضت القبائل المرينية جموع الموحدين في طريقها نحو المغرب الأقصى، واستولت على الغنائم التي أرسلها عبد المؤمن من المغرب الأوسط إلى جبل تينمل.(51)

وكان ذلك من الدوافع التي جعلت الخليفة الموحدي يعتمد على حلفائه من بني عبد الواد في استرجاع الغنائم من المرينيين، وهكذا اشتعلت نار الفتنة بين المرينيين وبني عبد الواد بإيعاز من عبد المؤمن. واستطاع العبد الواديون بقيادة أميرهم أبي محمد عبد الحق بن معاد إلحاق الهزيمة بالأمير المريني المخضب بن عسكر سنة 540هـ / 1146م.(52) وشكل هذا الحدث أحد الظغائن القديمة التي أضيفت إلى الصراع من أجل السيادة ببلاد المغرب في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي فكانت النتيجة أن طبعت علاقات المرينيين بأبناء جلدتهم العبد الواديين بطابع عدائي تشهد عليه الحروب العديدة التي خاضها الطرفان بعد قيام دولهما بكل من تلمسان وفاس.

أصبح المغرب الأقصى في عهد الخليفة عمر المرتضى منقسما إلى مملكتين المرينيون بفاس والموحدون بمراكش.(53) وهذا ما استدعى من الموحدين تجهيز الجيوش للتخلص من سيادة أبي بكر بن عبد الحق على شمال المغرب. لكن المواجهة بين الطرفين أسفرت عن هزيمة الموحدين بمنطقة بني بهلول بأحواز فاس سنة 653هـ / 1256م.(54) وتشير المصادر التاريخية إلى أن هذه الحرب وقعت بين المرينيين والموحدين بعد فشل المفاوضات بينهما عن طريق المراسلة، وأن لقاء الجمعان لم يتم وإنما

51) عبد الرحمان بن خلدون، العبر، جـ 7. ص 221.
52) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 101.
53) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 400.
54) ابن أبي زرع، م. س. ص 258.

انهزمت جيوش المرتضى بفعل اضطراب لحق معسكرها ليلا، فتراجع الخليفة نحو مراكش دون تحقيق ما خرج من أجله.(55)

إن هذا يدفع إلى الاعتقاد في أن الموحدين لم يكن غرضهم من هذه الحملة القضاء على تطلع المرينيين نحو السلطة بقدرما كانوا يهدفون إلى التوصل لحل يتم بموجبه تحديد مناطق النفوذ الخاصة بكل منهما. وهذا ما عبرت عنه المصادر حين أشارت إلى المفاوضة التي تمت بين الطرفين، لأن في ذلك التفاوض اعتراف من الموحدين بالسلطة المرينية. أما انهزامهم دون مواجهة فعلية مع المرينيين فمرده إلى الضعف العام الذي كان تنظيمهم العسكري يعاني منه طيلة مرحلة التراجع، خاصة وأن المعارك التي خاضها الموحدون بعد هزيمة معركة العقاب انهزموا فيها جميعها. وهي نتيجة تعكس بصورة جلية هشاشة وضعف الجيش الموحدي، الذي لم يعد يقوم بمبادرات عسكرية بل اقتصر على الدفاع محكوما بالرغبة في الحفاظ على نفوذ مهدد بالزوال نتيجة تنامي أطماع القوى الناشئة الهادفة إلى الاستقلال ببلاد المغرب.

أثار انتصار المرينيين على جيوش المرتضى حفيظة تلمسان التي كانت ترى في النجاح المريني تهديدا حقيقيا لاستقلال المغرب الأوسط عن مركز الخلافة. وحاول يغمراسن بن زيان شغل المرينيين عن التفرغ لفرض سيطرتهم على المغرب الأقصى، فشرع في توجيه الحملات العسكرية في اتجاه المناطق الغربية لمملكته، وكان يهدف من وراء ذلك إلى خلق جبهة جديدة من جبهات الحروب التي كان المرينيون يواجهونها في إطار صراعهم من أجل الاستقلال بحكم المغرب الأقصى، وإلحاق الفشل بأهدافهم السياسية. وكان من نتائج ذلك أن وقعت حرب أبي سليط بين الطرفين انهزمت فيها للمرة الثانية جموع يغمراسن سنة 655هـ / 1258م. وقد حاول أبو بكر متابعة الزيانيين وغزوهم في عقر دارهم، إلا أن أخاه يعقوب بن عبد الحق رده عن

---

55) نفسه، نفس الصفحة. وابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 400، والناصري، الاستقصا، جـ 3، ص 18.

ذلك.(56) وذهب الناصري إلى القول بأن الأمير يعقوب إنما أقنع أخاه بالعودة لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن.(57)

ومع نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي بدأت القوى السياسية التي قامت على أنقاض الحكم الموحدي ببلاد المغرب تعمل جادة من أجل ترسيخ قواعد حكمها في مجالات نفوذها. وتركز الصراع المريني العبد الوادي خلال هذه المرحلة بالمناطق الشمالية الشرقية للمغرب الأقصى ومثلت منطقة وجدة مسرحا لحروب الطرفين. غير أن الفترات اللاحقة شهدت تطورا نوعيا في شكل هذا الصراع الذي كان في بدايته مقتصرا على صراع المرينيين والموحدين من أجل السيادة على المغرب الأقصى، ودور تلمسان في عرقلة ذلك. ثم تطور فيما بعد إلى صراع من أجل التحكم في المناطق الجنوبية المشرفة على التجارة الصحراوية فأصبح لمنطقة سجلماسة أهمية خاصة في المخططات العسكرية للقوتين معا وتأرجحت هذه المدينة في تبعيتها بين طاعة هؤلاء وأولائك.

وإذا كانت الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب في النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي لم تأت على انهيار النفوذ الموحدي بصفة نهائية، فإنها أعطت المرينيين بالمغرب الأقصى فرص السبق ومؤهلات ربح رهان صراعهم مع خلفاء مراكش وأمراء تلمسان حول السيادة بهذه المناطق. فكان من نتائج ذلك ظهور تطورات جديدة تمثلت في المواقف الحذرة لبني الأحمر من المرينيين، وتمكن هؤلاء الأخيرين من الظهور بمظهر قوة لها وزنها في منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

ب – التجاء الخليفة الرشيد إلى سجلماسة :

لا نعلم الشيء الكثير عن أخبار سجلماسة في السنوات الأولى من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، ويقتصر ما وصلنا منها على الإشارات

56) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 112.

57) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 18.

الخاصة بالأمير الموحدي يحيى بن الناصر الذي فر إلى سجلماسة ودرعة بعد انهزامه أمام جيوش الخليفة المامون.(58) ولا تشير المصادر إلى ما قام به هذا الأمير الموحدي الطامع في الخلافة بالمناطق التي فر إليها سوى أنه مكث بها حتى استقدمه عرب الخلط وأجلبوا به على نواحي مراكش.(59)

ورغم قلة المعلومات الخاصة بأخبار سجلماسة في هذه الفترة يمكن القول بأن أوضاع المدينة والمناطق المجاورة لها لم تكن معزولة عما كانت تعرفه بلاد المغرب من أزمات اقتصادية في العشرين سنة الأولى من القرن السابع الهجري، نتيجة توالي أعوام القحط والجراد والوباء سنوات 610هـ / 1213م و615هـ / 1219م و624هـ / 1228م.

وقد شهد المغرب بعد ذلك أحداثا مماثلة انعكست سلبيا على أوضاعه العامة وأثرت في نفوذ الموحدين مزكية مسلسل ضعفهم. أشار ابن أبي زرع إلى أن المجاعة التي عرفها المغرب سنة 630هـ / 1233م سببت في خلاء البلاد نتيجة مارافقها من وباء.(60) كما أشار ابن عذاري إلى مجاعة أخرى عرفتها البلاد بعد سنتين من سابقتها عدمت فيها الأقوات البتة وكاد الناس يأكل بعضهم بعضا.(61)

ويظهر أن سجلماسة لم تتأثر بأخطار هاتين المجاعتين بنفس الحجم الذي ذكره ابن عذاري في باقي المناطق المغربية، بدليل أنها وفرت للخليفة الرشيد الموحدي بعد فراره إليها جميع اللوازم الضرورية لاسترجاع ملكه. وهذا ما أكده نفس المؤلف حين أشار إلى أن جموع الرشيد حين دخلت سجلماسة «وقد كاد الجوع أن يبيدهم حصلوا في خفض العيش وبلد خصيب متسع الخيرات رحيب، فاستقام الحال واستقر الناس في دعة وأمن».(62)

---

58) الزركشي، م. س. ص 24.

59) الناصري، الاستقصا. م. س. جـ 2. ص 243.

60) ابن أبي زرع، م. س. ص 276.

61) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 320.

62) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 325.

وبعد أن أصبح الرشيد خليفة للموحدين إثروفاة أبيه المامون قام عرب الخلط بإعلان الثورة، وزحفت جموعهم نحـو العاصمة مراكش فتمكنت من دخولها سنة 629هـ / 1232م فنهبتها.(63) واضطر الخليفة إلى الفـرار عنها صحبة جيشه من المرتزقة الروم في اتجاه مدينة سجلماسة.

ويظهر أن اختيار الـرشيد لسجلماسة كان محكوما بعـدة عوامل أهمها بعدها عن مـركز النفوذ الموحدي، وأهميتهـا في تجارة الصحراء، فضلا عن وجود جماعات من الجيوش المرتزقـة بها. وهو ما يمكن أن يشكل بالنسبة له شروطا مـلائمة لمعاودة فرض سيطرته على مـراكش بعد استجماع قواه بهذه المناطق النائية.

شكل هجوم يحيى بن النـاصر وأحلافه عرب الخلط على مـراكش عامل ضغط أرغم الـرشيـد على التعجيل بـالرحلـة في اتجاه سجلماســة. وكـانت طريقـه نحوها مليئة بـالمتاعب، غير أن رغبته الملحة في التحكم فيهـا جلعته يواصل السير دون مبـالات بالمخـاطر. خصـوصا وأن الطريـق الرابط بين مراكش وسجلماسة كانت في مرحلة التراجع الموحدي تحت مراقبة مجموعة من القبائل المعقلية التي كانت تعترض قوافل المارين بمجالاتها.

وتظهر أهمية سجلماسة في مخطط الرشيد – بعد انهزامه بمراكش أمام يحيى بن الناصر – فيما ذكـره ابن عذاري الـذي قال بأن الموحـدين الذين رافقوا الرشيد في رحلته حين اقتربوا من هذه المدينة قالوا «هذه سجلماسة أمامنا وبها تتم آمـالنا وتتسع أحوالنا وننسى ما كابـدناه من الأهوال وإذا ملكناها ملكنا كل البلاد وتيسر لنا فيما نرومه المراد».(64)

وبقدر مـا كان التحكم في سجلماسة بالنسبـة للرشيد مصيريا بقـدرما كان فتحها صعبا أمام جنوده. ويظهـر أن العامل الموحدي عليها وهو أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش كان معارضـا لخلافة الرشيد، ولا يستبعد أن يكون حليفا لمنافسه على الخلافة يحيى بن الناصر، باعتبار أن هذا الأخير كان قـد فر إلى سجلماســة ودرعة في عهد المامـون. وهذا مـا من شأنه أن

---

63) ابن أبي زرع، م. س. ص 255.

64) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 324.

يعزز روابطه بالعامل الموحدي على هذه المدينة الذي «أعد العدة للقاء الرشيد ووزع الأموال على الجند ووسع العطاء للمرتزقة النصارى الذين كانوا معه بسجلماسة وأسند مامورية محاربة الرشيد لأحد أقربائه».(65)

أرغمت هذه التدابير والاجراءات العسكرية التي قام بها عامل الموحدين على سجلماسة الرشيد على البقاء مدة غير محددة - قد تصل بضع أشهر - خارج أسوار المدينة حتى أصبح دخوله إليها أمرا بعيد المنال، لكن المرتزقة النصارى الذين كانوا مع ابن مردنيش نقضوا عليه وفتحوا أبواب المدينة للخليفة الرشيد ومن معه من الموحدين والمرتزقة.(66) وهذا ما يوحي بأن هذا النجاح الذي حققه الرشيد إنما كان نتيجة اتفاق بين المرتزقة الذين كانوا يشكلون جيشه وإخوانهم الذين كانوا رفقة ابن مردنيش بسجلماسة.

استقر الرشيد بمدينة سجلماسة طيلة سنة 632هـ / 1234م وكانت هذه المدة كافية لاستجماع قواه، ثم غادرها في السنة التالية في اتجاه مدينة فاس بعد أن قوي وجمع الجيوش والأموال.(67) ويتضح من ذلك أن هذا الخليفة اعتمد على خراج المدينة من الضرائب التي تمت جبايتها من التجار في توفير حاجته من المال. وهذا ما يؤكد أن سجلماسة كانت في هذه الفترة ما تزال متحكمة في التجارة الصحراوية، وأنها مثلت حتى ذلك الوقت أحد المراكز الحيوية في هذا القطاع ببلاد المغرب.

تمكن الرشيد من تجنيد الجيوش بسجلماسة من عرب المعقل. فقد أشار الناصري إلى أن تحالف الرشيد مع هؤلاء العرب وعلاقة الود التي كانت تجمعهم به في فترة تحكمه في سجلماسة هو الذي أدى بهم إلى الغدر بيحيى بن الناصر وقتلهم له بعد أن وعدوه النصرة أثناء تخلي عرب الخلط عنه.(68)

---

65) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 325.

66) نفسه، نفس الصفحة.

67) ابن أبي زرع، م. س. ص 334.

68) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 2. ص 245.

حاول الرشيد قبل مغادرته لسجلماسة ربط هذه المدينة بنفوذه إدراكا منه للأهمية التي كانت تحتلها في اقتصاد المغرب خلال هذه المرحلة فعين أحد رجالاته عاملا عليها. لكن سجلماسة لم تبق على طاعة الموحدين أكثر من فترة بقاء الرشيد بها فأعلنت خروجها عن الطاعة مباشرة بعد مغادرته لها سنة 633هـ / 1235م. وظهر بضواحيها رجل من صنهاجة يدعى محمد ابن عبد العزيز الصنهاجي قام بالدعوة لنفسه وضيق على الموحدين بها حتى اقتحمها بمساعدة من أهلها فقتل عامل الرشيد عليها يوسف بن علي ابن يوسف بن علي وفر من كان معه من الموحدين إلى درعة.(69)

ولا يستبعد أن تكون الأهداف السياسية لهذا الثائر أكبر بكثير من الاكتفاء بإعلان استقلاله بمناطق سجلماسة. فقد أشار ابن غذاري إلى أنه كانت له فيها – أي في سجلماسة – آثار سلك فيها مسالك الخلفاء في أمور يطول ذكرها،(70) وهذا ما يؤكد أهمية انتفاضته رغم النقص الواضح في المعلومات الخاصة بها في المصادر التاريخية. وقد اعتبر البعض قيام الصنهاجي بسجلماسة في عهد الرشيد استمرارا لحركة الاستقلال التي عرفتها بلاد القبلة بما فيها السوس ودرعة وسجلماسة، خلال أغلب الفترات التاريخية من العصر الوسيط.(71)

ج – انتفاضة الهزرجي :

إذا كانت أخبار سجلماسة في المراحل الأولى من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي قليلة ونادرة في مصادر تاريخ المغرب. وإذا كان لجوء الرشيد الموحدي إلى هذه المنطقة قد جعل بعض المؤرخين يسلطون الأضواء على أوضاعها السياسية، فإن اهتماما نوعيا بأخبارها قد ظهر ابتداء من ذلك التاريخ، فأصبحت معلوماتنا عن المدينة وإقليمها متوفرة بنسبة تفوق ما كانت عليه في السابق.

---

69) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 334.

70) نفسه، صفحة : 338.

71) D. J. Meunié, le Maroc saharién; Op. cit; p 266.

ويمثل كتاب «البيان المغرب» لابن عذاري المصدر الوحيد الذي يمكن من تتبع التطورات التي شهدتها سجلماسة في السنوات الأخيرة من النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. ومن ثم، فإن اقتصارنا على المعلومات الواردة في هذا الكتاب حول انتفاضة الهزرجي بسجلماسة يفسره النقص والقصور الحاصل في المادة المصدرية المتعلقة بهذا الموضوع في مختلف مصادر التاريخ.

سبقت الإشارة إلى المجهودات التي بذلها الخليفة السعيد الموحدي من أجل تفادي الضعف الذي لحق نفوذ أسلافه بكل بلاد المغرب ومحاولته التخلص من المتطلعين نحو الاستقلال، وفشل مجهوداته العسكرية على أبواب تلمسان. لكن حملته هاته كانت مسبوقة بعملية تمهيد لبعض أقاليم المغرب الأقصى التي خلعت طاعة الموحدين، فبات من اللازم إخضاعها قبل الإقدام على توحيد بلاد المغرب، ويتعلق الأمر ببني مرين ومدينة سبتة في الشمال وسجلماسة في الجنوب. فبالنسبة للمرينيين فقد سبقت الإشارة إلى مساهمتهم بحصة من الجند في جيش السعيد، وتقديم أميرهم أبي بكر بن عبد الحق البيعة للموحدين. أما سبتة فقد أعلن عاملها ابن خلاص البلنسي بيعته لأبي زكرياء الحفصي ولم يخضع للموحدين لأن السعيد لم يجهز ضده حملة عسكرية، واستمرت سبتة على تبعيتها للحفصيين إلى حدود تاريخ وفاة السعيد وأبي زكرياء الحفصي سنة 642هـ / 1246م.

وأما سجلماسة فعملت في نفس الفترة على الخروج عن طاعة الموحدين تحت قيادة عبد الله بن زكرياء الهزرجي الذي أرغم السعيد على الخروج إليه من مراكش «لما استبد فيها أمره وانقاد له أهل تلك الجهات والانحاء ووصلته العرب من جهة الصحراء وفوض له الأمور في تلك الجهات الأمير أبو زكرياء الحفصي وأطمعه في استمداده بأموال وزيادة ودعا له في الخطبة بسجلماسة».(72)

ويفهم من كلام ابن عذاري أن انتفاضة الهزرجي كانت تمثل خطرا حقيقيا على السعيد الموحدي، لأن عامل سجلماسة دخل باب الصراع مع

72) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 363.

الموحدين من بــابه الواسع لما أعلن تبعيتــه للحفصيين واسقط أسماء خلفاء مــراكش من الخطبة، فضــلا عن تحكمه في مجالات نفــوذه بدعم من عــرب المعقل المتحكمين في مناطق الواحات وكل بلاد الصحراء.

تابع السعيد تطــور الأحداث في سجلماسة بأهمية بالغــة خصوصا وأن الهزرجي شجع بعض الشخصيات الموحديــة على الفرار من مراكش إليه في الوقت الذي كــان فيه الخليفة السعيد يتأهب للحركة نحــو فاس لقتال بني مرين، ويتعلق الأمر بعلي بن عثمان بن أبي زكــرياء الجدميوي الذي تقبض عليه الخليفة واصطحبه معه إلى مدينة فاس حيث قتله، وبأخيه أبى زيد عبد الرحمان الذي تمكن من اللحاق بالهزرجي بسجلماسة.(73)

غادر أبو زيــد عبد الرحمان مراكش في اتجاه سجلماســة صحبة جماعة من أصــدقــائه وبعض الجنود النصــارى، ولقي في رحلتــه مصــاعب كبيرة تمثلت في اعتراض طريقهم من قبل بعض قبائل درعــة من بني يعز، ونهبها لأمتعتهم. ثم اعترضتهم بعد ذلك جماعــة من عرب المعقل وكــادوا أن يفتكوا بهم، فاقترح عليهم أبو زيد أن يأخذوه وأصحابــه كرهائن مقابل أن يطالبوا بفديتهم لدى عامل سجلماسة. فسلموا من الهلاك بعد أن «كتب لخازن المال بسجلماسة، اليهودي المسمى بابن شلوخة، أن يدفع لرسول الاعراب عشرة آلاف دينار من الدنــانير العشرية السجلماسية».(74) وهذا مــا يعطي الدليل على اضطراب أوضاع الجنوب في مرحلة الضعف الموحدي، لأن تراجع نفوذ خلفاء مراكش سمح للقبائل بممارسة نفــوذ واسع بمناطق استقرارها. وهو مــا كان لــه بــالغ الأثــر في ضعف النشــاط التجاري، لأن اعتراض القبــائل للمارين بمجالاتها، كان من شأنه أن يقلــل من فرص التعامل التجاري بين مختلف المناطق.

تحرك الخليفة السعيد في اتجاه سجلماسة للقضاء على انتفاضة عبد الله بن زكرياء الهزرجي محفوفا بكامل السريــة «وأخذ على طريق درعة، بعدما قدم خيلا ورجالا لسد تلك المسالك، لئلا يسلكها سالك ويتعرف ابن زكرياء

73) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 363.

74) نفسه، صفحة : 364.

بحركته، فيأخذ في حال أهبته».(75) وعمل أبو زيد عبد الرحمان بن أبي زكرياء الجدميوي الذي فر من مراكش إلى سجلماسة على التقرب من الخليفة السعيد من جديد وغدر بقريبه المستقل بسجلماسة بعد أن استمال المرتزقة النصارى وبعض الأجناد العرب فنجح في إبعاده عنها قبل وصول الجيوش الموحدية إليها، ثم ألقي القبض عليه فيما بعد وجيء به إلى السعيد سنة 642هـ / 1245م.(76)

أعزى البعض فشل انتفاضة الهزرجي إلى الدور الذي لعبته عناصر الجيش من المرتزقة النصارى من الذين كانوا يتواجدون في سجلماسة مع إخوانهم الذين قدموا مع أبي زيد عبد الرحمان بن أبي زكرياء الجدميوي من مراكش وقال بأن هذه العناصر كانت تشكل الحرس الخاص بالشخصيات ذات النفوذ والجاه في العهد الموحدي.(77)

ولم نعثر في المصادر التاريخية والجغرافية على ما يبرر هذه الاستنتاجات التي تبالغ في ذكر أهمية المرتزقة النصارى في سجلماسة، وأهمية دورهم في التأثير على تطور الأحداث بها. خاصة وأن صاحب هذا الرأي اعتمد أساسا على ما جاء عند ابن عذاري في موضوع فتح الرشيد لسجلماسة، وانتفاضة عبد الله بن زكرياء الهزرجي بها.

ويرى محمد الملوكي أن سجلماسة بدأت تعرف في هذه المرحلة تراجعا على المستوى الاقتصادي رغم استمرار علاقاتها التجارية مع افريقيا الغربية.(78) ويمكن أن ينطبق هذا الرأي على علاقة سجلماسة بباقي المدن المغربية التي عرفت نوعا من التراجع خلال فترة الضعف الموحدي، نتيجة خروج القبائل عن طاعة الخلفاء، وظروف انعدام الأمن التي واكبت ذلك وجعلت المسالك التجارية تحت رحمة شيوخ القبائل. لكن الحديث عن تراجع سجلماسة على المستوى الاقتصادي في هذه الفترة يتنافى مع النجاح

---

75) نفسه، نفس الصفحة.

76) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 364.

77) D. J. Meunié; Le Maroc saharien, Op. cit; p 268.

78) Mohamed Elmallouki; Sijilmassa; Op. cit; p 208.

الذي لقيه الرشيد بعد التجائه إليها، وكذلك استقلال عمالها بها ومجاهرتهم بالعصيان، الأمر الذي لا يفسر سوى بتوفرها على الموارد اللازمة لتجنيد الجيوش واستمالة القبائل.

د - انتفاضة القطراني :

اتخذ الصراع المريني العبد الوادي بعد وقعة أبي سليط بين يغمراسن بن زيان وأبي بكر بن عبد الحق سنة 655هـ / 1258م وجهات مغايرة لما كان يعرفه في السابق. وبعدما شكلت منطقة وجدة حلبة للحروب التي دارت بين الطرفين حول يغمراسن صراعه مع المرينيين إلى المنطقة الجنوبية، مظهرا رغبته الأكيدة في السيطرة على سجلماسة والاستفادة من دورها في الاشراف على تجارة القوافل.

ويمثل صراع المرينيين مع العبد الواديين حول سجلماسة مرحلة مهمة في تاريخ الدولتين، لأنه يعبر بحق عن البعد الاقتصادي لأهدافهما السياسية، خاصة وأن مناطق الواحات كانت تشكل في هذه المرحلة منطقة مغرية لمختلف القوى، بالنظر لنشاطها الاقتصادي وعلاقتها التجارية مع مختلف المراكز الحضرية في مناطق الشمال، بما فيها المراكز الداخلية والموانىء.(79)

وقد كان لاستيلاء المرينيين على مدينة فاس واتخاذها عاصمة لهم أثره في توجيه اهتمامهم نحو المناطق المشرفة على طرق التجارة الداخلية والخارجية. وهذا ما يفسر الحملات العسكرية التي وجهها أميرهم أبو بكر ابن عبد الحق على بلاد فازاز سنة 649هـ / 1252م ثم تادلا سنة 651هـ / 1254م للتحكم في الطريق الرابط بين مراكش وفاس. ثم أصبح من اللازم بالنسبة لهم بعد نجاح فتوحاتهم بهذه المناطق توجيه حملاتهم نحو سجلماسة، فسيطروا عليها سنة 653هـ / 1255م وطردوا عنها عامل الخليفة المرتضى أبي محمد عبد الحق الجنفيسي.(80)

79) M. Kably; Op. cit; p 52.

80) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 233.

كان الزيانيـون في نفس هذه الفترة يولون أهمية بـالغة لتطور الأوضاع بسجلماسة، لأن التحكم في هـذه المدينة له تأثير قوي على اقتصـاد تلمسان بحكم عـلاقات المدينتين التجاريـة في العصر الوسيط. فعمل يغمـراسن على التقرب من الخليفـة المرتضى ووطد علاقتـه به لإضعاف المرينيين وعـرقلة نجـاحهم العسكـري بـالمغـرب الأقصى. وكـان لـرغبـة المرينيين الملحـة في السيطرة على سجلماسة أثره في الدفع بيغمراسن إلى التـوجه نحوها مدفوعا بالرغبة في الاستيلاء عليها، كما هو الشأن بالنسبة لبني مرين.

وتشير المصـادر إلى روايتين مختلفتين حـول الأسبـاب التي دفعت بيغمراسن إلى التـوجه نحـو سجلماسة، أولها للنـاصري وتقول بأن الأمير الزياني كان مؤازرا من طرف سكان سجلماسة وأن توجهه إليها كان بعد أن داخله بعض أهلهـا في ذلك،(81) وثانيهـا ليحيى بن خلدون تحصر سبب ذلك في رغبة يغمراسن في محاصرة أبي بكر بن عبد الحق بها.(82) ويستفاد من كل ذلك أن أمير الزيانيين لم يكن في حاجة إلى توجيه حملة عسكرية على سجلماسة زمـان تبعيتها للمـوحدين، لأن أحـلافه من عـرب المنبات كـانوا يمثلون الضمانة الحقيقية للحفاظ على استفـادته من نشاطها التجاري، لكن تحكم المرينيين فيها فرض عليه ذلك.

أدت رغبـة الزيـانيين والمرينيين في السيطـرة على سجلماسة إلى وقـوع حرب بينهما خارج أسـوار هذه المدينة على مقربة من أحد أبـوابها الذي هو باب تاخنوست على رواية ابن أبي زرع.(83) لكن هذه الحرب لم تظهر فيها الغلبة لأحـد كما ورد في كتاب العبر.(84) ومن هناك جازلنـا التساؤل حول الأسبـاب التي أدت بيغمـراسن بن زيـان إلى الانسحاب عنهـا ؟ إن تطـور الأوضاع السياسية يوحي بأن تـراجع الزيانيين بعد تكافئهم في الحرب مع

---

81) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 18.

82) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 115.

83) ابـن أبي زرع، م. س. ص 296. وذكر الناصري أن هذا البـاب كان يحمل اسم باب تاحسنت، الاستقصا م. س. جـ 3. ص 18.

84) ابن خلدون، م. .ن. جـ 7. ص 234.

المرينيين بسجلماسة لم يكن معزولا عن تحالفهم مع المنبات بها، لأن هؤلاء العرب كانـوا قادرين على التحكم في المدينة استنادا إلى قـوة عصبيتهم، وهو مـا من شأنـه أن يجعل تلـك المنـاطق تحت مـراقبـة غير مبـاشرة من قبل تلمسان. وهذا مـا يبرر الحملة التفقدية التي قام بها أبـو بكر بن عبد الحق لسجلماسة سنة 656هـ / 1259م، رغم أنها كانت خـاضعة لسلطة عـامله بها.

فقـد عمل المرينيون بعـد تراجع جيـوش يغمراسن عن سجلماسـة على تنظيم الإدارة والجباية بها، وعين الأمير أبو بكر يـوسف بن يزكاسن عاملا عليها وعلى سـائر بلاد القبلة واستعمـل على الجباية عبـد السلام الأوربي، وجعل مسلحـة الجند لنظر أبي يحيـى القطراني وملكـه قيادتهم.(85) وإن تعيين هذا الطاقم الكبير من رجال الإدارة والجبـاية والجيش على هذه المدينة من طـرف المرينيين يعطي الـدليل على الأهمية الخاصـة التي كـانت لها في مخططاتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية.

وبعد وفـاة الأمير أبي بكر بن عبد الحق خـرجت سجلماسة عن طـاعة المرينيين تحت قيادة القطراني الـذي قام بالدعـوة لنفسه،(86) وطرد ممثلي النفود المريني عنها.(87) مستغلا المشاكل التي عرفها المرينيون حول الزعامة بعد وفاة أبي بكر سنة 656هـ / 1259م حيث انقسمت جموعهم بين الطاعة ليعقوب بن عبد الحق وابن أخيـه عمر بن أبي بكر.(88) ومكنه كل ذلك من الاستقلال بسجلماسة بعيدا عن أية مضايقة مرينية.

كانت سجلماسـة زمان انتفاضة القطـراني ما تزال تباشر مـراقبتها على المحاور التجارية الرابطة بين بلاد المغرب والسودان الغربي. وهذا ما يعكسه الاهتمام الكبير الذي أولته إليها كل القوى السيـاسية المعنية بقطاع التجارة الصحراوية خاصة كل من المرينيين والـزيانيين والموحدين فضلا عن أطماع

---

85) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 19.

86) مجهول، الدخير السنية، م. س. ص 84.

87) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 413.

88) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 237.

المستقل بها يحيى القطراني الذي أدرك أهمية سجلماسة بالنسبة لمنافسيه، وسخر تلك الأهمية لصالح طموحه من أجل السيادة رغم بساطة وضعه الاجتماعي على حد تعبير ابن عذاري.(89)

فتك يحيى القطراني بشيخ الجماعة بسجلماسة عمر الورندغزاني ثم تنكر للنفوذ الموحدي والمريني على حد السواء فجند الأجناد ووصلته من العرب الأمداد.(90) ويتضح من هذا كله أن هذا الشخص حاول إبعاد كل القوى المهتمة بسجلماسة عن مجال نفوذه بعد أن استطاع استمالة عرب المعقل الذين كانوا يمثلون بالنسبة لتلمسان على وجه الخصوص القوة المعول عليها في الحفاظ على النفوذ الزياني في تلك المناطق.

لم يكن القطراني يتوفر على المشروعية للسير قدما نحو تحقيق استقلال تام بمناطق سجلماسة. وهذا ما يفسره إعلانه البيعة للمرتضى بعد مرحلة من القطيعة بينهما، ويظهر أن تقرب القطراني من المرتضى كان نتيجة إدراكه للضعف الذي لحق نفوذ الموحدين بكل مناطق المغرب الأقصى. لأن المرتضى اقتصر في هذه الفترة على مراقبة المناطق الواقعة جنوب وادي أم الربيع، ولم يستطع فرض سيطرة حقيقية سوى على المناطق القريبة من العاصمة مراكش. وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد في أن هذه البيعة لم تؤثر على تمتع القطراني باستقلال تام عن الموحدين، رغم ذكر اسم المرتضى في الخطبة بجوامع سجلماسة، بل كان الغرض منها على ما يظهر إبعاد النفوذ المريني عن تلك المناطق، خصوصا وأن القطراني لو بقي على تبعيته للمرينيين لارتبط بهم في كل شيء وهو ما يتنافى مع طموحه السياسي.

ومهما كان من أمر في هذا الموضوع فإن استقلال القطراني بسجلماسة لم يستمر طويلا، لأن الموحدين تمكنوا من ضمها إلى نفوذهم بعد سنتين من تاريخ انتفاضته بها.(91) ويرجع الفضل في ذلك إلى المجهود الكبير الذي بذله المرتضى من أجل التحكم في هذا المركز التجاري الحيوي. أشار ابن

89) ابن عذاري، م. س. ص 413.

90) ابن خلدون، م. س. ص 238.

91) مجهول، الدخيرة السنية، م. س. ص 84.

عذاري إلى أن عامل سجلماسة كان يعول على مساعدة المرتضى فطلب منه إرسال قاضيا للإشراف على تطبيق الشريعة، ومساعدته بحصة من الجند. فاستجاب الخليفة إلى طلبه وأمده بالجنود وببعض رجالات الإدارة. ثم ازدادت مكانة قائد الجنود الذي أرسله المرتضى للعمل في سجلماسة لدى القطراني، وأصبح يلعب دورا مهما في تسيير شؤون المدينة، حتى أصبح من أقرب المقربين إلى عاملها، ثم صار مستشاره وسيد خاصته واستمر على ذلك إلى أن تمكن من التخلص منه سنة 658هـ / 1261م.(92)

في حين أشار ابن أبي زرع إلى أن تراجع انتفاضة القطراني كان نتيجة الدور الذي لعبه علي بن عمر، الذي قام بالدعوة للمرتضى ثم ملك سجلماسة ثلاث سنين ونصفا إلى أن توفي سنة اثنتين وستين وستمائة.(93) ويستفاد من رواية ابن خلدون أن علي بن عمر كان يمثل رغبة أهاليها في إعلان الطاعة لخليفة مراكش، لأنهم هم الذين أعلنوا خروجهم عن طاعة القطراني وساقوا بيعتهم إلى المرتضى وتولى ذلك القاضي ابن حجاج وعلي ابن عمر.(94)

لكن ارتباط سجلماسة بطاعة الموحدين لم يستمر طويلا بسبب تدخل العنصر العربي المعقلي في الشؤون السياسية بها. فقد أعلن عرب المنبات من ذوي منصور بيعتهم ليغمراسن بن زيان سلطان تلمسان، وهذا ما دفع بالمرينيين إلى منافسة بني عبد الواد على حكم هذه المنطقة الحيوية. لكن انشغالاتهم بتوحيد المغرب الأقصى أمهلت فتحهم لسجلماسة إلى ما بعد تاريخ تحكمهم في مراكش والتخلص من نفوذ آخر أمراء بني عبد المومن بها في مفتتح سنة 668هـ / شتنبر 1269م.

92) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 413.
93) ابن أبي زرع، م. س. ص 297.
94) ابن خلدون، م. س. جـ 7، ص 248.

2 – سجلماسة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري :

أ – عرب المعقل وتبعية سجلماسة لبني عبد الواد :

شكلت قبائل عرب المعقل القوة العصبية التي كان بإمكانها منافسة القبائل المرينية على السلطة بالمغرب الأقصى، لأن هاتين المجموعتين القبليتين كانتا من أوفر قبائل المغرب عددا وقتئذ واحتكتا بمجال واحد ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وإذا كان المرينيون قد استطاعوا فرض سيطرتهم على البوادي الشمالية للمغرب الأقصى قبل نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري، فإن القبائل المعقلية هيمنت بدورها كلية على مدن وبوادي المناطق الجنوبية، لكنها لم تخضع لزعامة موحدة، كما هو الشأن بالنسبة للمرينيين، كما أن تحرك بطونها في مجال واسع يمتد من شمال شرق المغرب الأقصى إلى جنوبه الغربي، جعل توحيدها تحت قيادة موحدة أمرا صعبا للغاية بالنظر إلى التفاف كل بطن من بطونها على زعامة خاصة به.

وقد حاول المرينيون التقرب من قبائل المعقل والارتباط بهم بروابط الحلف، لكن ذوي عبيد الله منهم كانوا شيعة لتلمسان بحكم علاقات الجوار بينهم وبين بني عبد الواد. وعليه فإن التقارب بين المعقل والمرينيين عموما لا يمكن الحديث عنه قبل نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، رغم أن بعض جماعات المعقل صاحبت بني مرين نحو المغرب الأقصى منذ بداية عهدها به. ومن ثم، وجب التمييز بين مرحلتين متميزتين في علاقة الطرفين مرحلة القرن السابع الهجري، وكانت أغلب القبائل المعقلية فيها غير مرتبطة بالمرينيين بروابط الحلف، تشهد على ذلك الحروب التي خاضها يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف ضد أولاد حسين من ذوي منصور بدرعة وسجلماسة وذوي حسان بسوس. كما أنه في هذه المرحلة بالذات كان عرب المنبات شيعة ليغمراسن بن زيان. ومرحلة القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وما بعده، وفيها تقرب المرينيون من المعقل وأقطعوهم اقطاعات عديدة واستعملوهم في الجيش. وصاهروهم وتقربوا من شيوخهم.

انشغلت بطون المعقل في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي عن الخوض في شؤون السياسة بفرض سيادتها على مجالاتها، ومما يؤكد ذلك أن مشاركتها في الأحداث التي عرفتها هذه المرحلة تحكمت فيها إلى أبعد الحدود نوعية العلاقة التي كانت لمختلف القوى بتطور الأحداث السياسية في بلاد القبلة. فقد سبقت الإشارة إلى تحالفها مع الخليفة الرشيد أثناء التجائه إلى سجلماسة، ومساندتها لمن استقل بمجالات نفوذها من العمال، ثم مبايعة بعض بطونها ليغمراسن بن زيان وتنكرها للمرينيين، وهكذا تميز القرن 7هـ / 13م على العموم بانحياز ذوي منصور وخاصة منهم المنبات لبني عبد الواد وسلطانهم يغمراسن بن زيان.

تحكم عرب المنبات في سجلماسة لأنها كانت في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم،(95) ثم أعلنوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيان. ويمكن اعتبار هذا الحدث أول مشاركة فعلية لهؤلاء في الحياة السياسية بتلك المناطق. فقد كانت هذه المدينة خاضعة لنفوذ علي بن عمر بعد ثورة أهاليها على أبي يحيى القطراني ومبايعتهم للخليفة المرتضى، ثم أتت سيطرة المنبات عليها لتجعل منها منطقة نفوذ زياني، في وقت كان المرينيون يحاولون بدورهم انتزاعها من يد عاملها علي بن عمر. فقد أشار ابن خلدون إلى أن أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق جهز حملة على سجلماسة لكنها فشلت في السيطرة عليها.(96) في نفس السنة التي تحكم فيها عرب المنبات في سجلماسة وهي سنة 660هـ / 1259م.(97) وقد مارست هذه القبائل مراقبتها على الطرق التجارية منذ ذلك التاريخ ووجهتها من سجلماسة في اتجاه تلمسان. فأصبحت مناطق نفوذهم صلة وصل بين افريقيا السوداء وميناء هنين شمال العاصمة الزيانية، كما أصبحت بذلك إحدى المفاتيح المهمة لاقتصاد المغرب في العصر الوسيط في يد بني عبد الواد الذين استفادوا في سيطرتهم

95) ابن خلدون، م. س. جـ 6. ص 77.

96) نفسه، جـ 7. ص 114.

97) ابن أبي زرع، م. س. ص 297.

على سجلماسة من انشغال المرينيين بالصراع من أجل القضاء على الموحدين.(98)

أسرع يغمراسن في اتجاه سجلماسة بمجرد ما علم بتحكم عرب المنبات فيها مستغلا فرصته الذهبية التي هيأها له أحلافه بها، وعمل على تنظيم الإدارة بها وعين عليها عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة إضافة لابنه يحيى الذي أقامه أميرا عليها.(99)

ولا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات كثيرة حول كيفية تسيير الزيانيين لسجلماسة. ذكر الأستاذ القبلي أن هذه المدينة كانت تحظى باهتمام خاص من طرف يغمراسن، لأنه كان يولي أبنائه عليها كل سنة بالتناوب، وأن تعيينهم عليها إلى جانب الولاة الزيانيين يدفع إلى الاعتقاد في أنه كان يتاجر مع بلاد السودان لحسابه.(100)

ولم يكن يغمراسن في حاجة إلى تجنيد الجيوش وإرسالها نحو سجلماسة قصد ضمان استمرار نفوذه عليها، لأن حلفاءه – عرب المنبات – كانوا قادرين على ضمان حماية المدينة اعتمادا على جموعهم المتحكمة في المناطق المجاورة لها. وقد كان لعرب المنبات بسجلماسة خلال هذه الفترة امتيازات واسعة يبررها ما كان لهم من فضل في تملك الزيانيين لها.

مثلت سجلماسة في فترة تبعيتها للزيانيين منطقة جبائية مهمة بالنسبة لسلاطين تلمسان، ونموذج ذلك أن يغمراسن كان يرسل أحد أبنائه كل سنة لضبط خراجها كما جاء في كتاب القرطاس.(101) ولاشك في أن تلمسان قد عرفت إزدهارا تجاريا خلال هذه المرحلة، لأن ولات يغمراسن وأحلافه بمدينة سجلماسة حولوا موارد تجارتها نحو العاصمة الزيانية، وشجعوا قوافلها على الاتجاه نحو المغرب الأوسط طيلة الفترة التي ظل نفوذ الزيانيين قائما بها، أي ما يزيد عن ثلاث عشرة سنة فاصلة بين تاريخ تبعيتها ليغمراسن وتاريخ سقوطها في يد المرينيين سنة 673هـ / 1274م.

---

98) M. Kably, Op. cit, p : 68.

99) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 114.

100) M. Kably, Op. cit.; p : 73.

ب – أسباب تأخر المرينيين عن منافســة بني عبد الواد في السيطرة على سجلماسة :

تأخر المرينيون عن انتــزاع مدينة سجلماسة من يــد يغمراسن بن زيان سلطان بني عبــد الواد نتيجة المشاكل التي عــرفوها بعد وفــاة أبي بكر بن عبد الحق سنة 665هـ / 1267م. وأهم هذه المشاكل المنــافسة حول الحكم بين أفراد الأسرة المرينية، والصراع من أجل القضـــاء على الموحدين إضافة إلى خروج عــرب المعقل عن طاعتهم في السوس ودرعة، واستقــلال سبتة تحت قيادة آل العزفي.

سبقت الإشارة إلى أن المرينيين انقسموا على أنفسهم بعــد وفاة أبي بكر ابن عبد الحق بين الطاعة لابنه عمــر وأخيه يعقوب بن عبد الحق. واستطاع هذا الأخير الانفراد بــزعامتهم نتيجة مؤازرة أشياخ القبــائل المرينية له، غير أن قيام أبناء إدريس بن عبد الحق وتوليتهم لاخيهم الأكبر محمد تطلب من زعيم المرينيين مجهــودات عسكرية وسيــاسية دامت أربع سنــوات وانتهت بخــروج هؤلاء الثــائرين إلى بلاد الأنــدلس بعــد أن «استرضاهم السلطــان يعقوب وعقد لعامر بن ادريس منهم سنة ستين وستمائة... وأغزاهم لجهاد العدو بها». (102)

كــانت رغبــة يعقــوب بن عبد الحق جــد ملحــة في التخلص من النفــوذ الموحدي بمراكش. ذكر ابن خلدون أنه «لما فرغ من شأن الخوارج عليه من عشيره استجمع لمنــازلة المرتضى والموحــدين»، (103) فنظم حملـــة في اتجاه المناطق الجنــوبية وحاول الخليفــة المرتضى صد الهجــوم المريني بعيدا عن العاصمة مراكش، وأوكل أمر قيــادة جيوشه لأبي دبوس إدريس بن محمد ابن أبي حفص بن عبد المومن. ثم التقى الجمعان بوادي أم الربيع الذي كان يمثل الحد بين نفــوذ كل منهما منــذ عهد أبي بكــر بن عبــد الحق، وكــانت الهزيمة على الموحدين سنة 660هـ / 1262م.

---

101) ابن أبي زرع، م. س. ص 312.
102) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 23.
103) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 237.

تزامن الضغط العسكري المريني على المناطق الجنوبية مع تزايد الضعف الموحدي، الذي استفحل بسبب احتدام المنافسة حول الحكم بين المرتضى وأبي دبوس. فالتجأ هذا الأخير إلى المرينيين – بعد سنة من مواجهته لهم في معركة أم الرجلين على وادي أم الربيع المشار إليها أعلاه – وطلب من السلطان يعقوب بن عبد الحق مساعدته على التحكم في مراكش والقضاء على نفوذ المرتضى بها.

استطاع أبو دبوس دخول مراكش سنة 665هـ / 1267م بفضل الدعم الذي قدمه له السلطان يعقوب بن عبد الحق.(104) ثم استغل انتصاره لصالح طموحه وأهدافه السياسية، وتنكر للمرينيين الذين أمدوه بالعساكر ومكنوه من دخول عاصمة أجداده، وعجل بربط علاقات ودية مع يغمراسن ابن زيان بهدف عرقلة مجهودات المرينيين الرامية إلى إخضاع المغرب الأقصى لسلطتهم.

لعبت سجلماسة دورا أساسيا في تمتين الروابط بين أبي دبوس ويغمراسن بن زيان بحكم خضوعها لسلطة الزيانيين. ومثلت القناة الرئيسية في ربط الاتصال بينهما بدليل ما جاء به ابن عذاري في موضوع الهدية التي بعث بها خليفة مراكش إلى يغمراسن بواسطة واليه على سجلماسة.(105) وقد وجهت هذه الهدية من مراكش إلى تلمسان على طريقين بري وبحري «وتوجه الفقيه أبو الحسن بن قطرال ببعضها في البر، وتوجه أبو عبد الله البكري بأثقالها في البحر، دخل من آسفي وخرج في هنين، وأخذ أبو الحسن بن قطرال على طريق سجلماسة مع رسول يغمراسن وهو ابن أبي عثمان مع ابن مديون الونجاسني، فوصلوا إلى سجلماسة فوجدوا بها عثمان بن يغمراسن، فبعثهم مع بعض أشياخ المعقل».(106)

---

104) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 434.

105) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 465.

106) نفسه، ص 465 – 466.

عمل يغمراسن بن زيـان بعد تحالفـه مع أبي دبوس على شغل المرينيين عن حصار مراكش، وذلك بتـوجيه جيوشه نحو المنـاطق الشمالية للمغرب الأقصى. وهو ما اضطـر معه السلطان يعقوب إلى مـواجهته في وادي تلاغ، فكانت الهزيمة على بني عبد الواد «وقتل في هذه الحرب كبير أبناء يغمراسن وشخصيات أخـرى من المقـربين له».(107) ثم تفـرغ المرينيـون بعـد ذلك لحصار مـراكش واستطاعـوا دخولها يـوم الأحد تاسـع محرم مفتتح سنة 668هـ / 1 شتنبر 1269م مسجلين بذلك نهاية فترة حكم الموحدين.

ولم تنته المشاكل التي واجهها المرينيون في فرض سيطرتهم على المغرب الأقصى باستيلائهم على مـراكش عاصمة الموحدين بل كـان عليهم مواجهة انتفـاضات عـديدة ورثـوهـا ببعض أقاليم المغـرب الأقصى عن فترة حكم سابقيهم، خاصة منطقة السوس التي استقلت عن الموحدين بزعامة علي بن يـدر وأحـلافه ذوي حســان من عـرب المعقل في النصف الأول من القـرن السابع الهجري الثـالث عشر الميلادي،(108) واستمرت على انتفاضتهـا بعد نجاح المرينيين في القضـاء على الموحدين. ثم منطقة درعـة حيث عرب أولاد حسين يفـرضـون سيطـرتهم الفعلية ويتحكمـون في حصـونها وقـلاعهـا ويبيدون بالقتل والنهب أهلها.(109)

لقـد كـان عـرب المعقل على استعداد دائم للعصيـان كما ذكـر جـورج مارسي.(110) ويتضح ذلك مما جرى بمنـاطق استقرارهم من ثورات أرغمت المرينيين بعد تحكمهم في مراكش على تجهيز حملات عسكـرية عديدة، وهذا ما يتنافى مع القـول الشائع بأن جموع عرب المعقل كانـت شيعة للمرينيين وحليفـة لهم منذ تحكمهم في المنـاطق الشمالية للمغـرب الأقصى في بدايـة القرن 7هـ / 13م.

وعليـه، فإن الحروب التي خاضتهـا جيوش السلطـان يعقوب بن عبـد الحق ضـد ذوي حسان بـالسوس وأولاد حسين بـدرعة لا تجد تفسيرهـا

107) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 239.

108) Bringon et autres Histoire du Maroc; Op. cit. p : 140.

109) ابن أبي زرع، م. س. صفحة 307.

110) G. Marçais, Op. cit. p. 380.

سوى في التمييز بين مرحلتين في علاقة عرب المعقل بالمرينيين كما أشرنا إلى ذلك سابقا، مرحلة القرن السابع الهجري حيث كانت هذه العلاقة متوترة بفعل تبعية بعض بطون المعقل لبني عبد الواد، ومرحلة القرن الثامن حيث أصبح عرب المعقل أداة مطواعة سخرها سلاطين بني مرين والثوار من أمرائهم في الجيش والإدارة، فتوطدت وشائج التقارب بين الطرفين بفعل الاقطاعات المتميزة التي حظيت بها هذه القبائل مقابل خدمتها للسلاطين.

ويبدو أن مواجهة السلطان يعقوب لعرب المعقل مباشرة بعد دخوله مراكش كانت ضرورية نظرا لما كانت تسببه انتفاضة المناطق الجنوبية من مشاكل مادية للمخزن المريني. فخروج هذه المناطق عن الطاعة معناه تقلص استفادة الدولة من موارد التجارة الصحراوية فضلا عن ضياع قسط مهم من موارد الجباية. فكان تأخر عرب المعقل عن تقديم البيعة للسلطان المريني سببا مباشرا في توجيهه لحملات عسكرية تهدف إلى الحد من سيادة هؤلاء الأعراب على مجالات استقرارهم.(111) وقد ألحقت جيوش السلطان يعقوب الهزيمة بعرب المعقل المستقرين بدرعة بعد سنة من انتفاضتهم وذلك سنة 669هـ / 1271م.(112) أما عرب السوس فلم يتمكن المرينيون من إخضاعهم رغم الجهود التي بذلوها في ذلك فاستمر ذوي حسان على علاقتهم المتوترة مع المرينيين إلى أن استمالهم الأمير أبو علي عمر الثائر بسجلماسة في عشرينيات القرن الثامن الهجري.

وكان لاستيلاء يعقوب بن عبد الحق على مراكش أثره في تضاعف حجم الصراع بينه وبين يغمراسن سلطان بني عبد الواد. فبعد فشل هذا الأخير في إنقاذ حليفه أبي دبوس من الخطر المريني، بدأ في تجهيز الحملات على المناطق الشمالية للمغرب الأقصى بهدف شغل المرينيين عن التحكم في سجلماسة التي كانت ما تزال إلى حدود تلك الفترة خاضعة لنفوذه، فقرر السلطان يعقوب التوجه إلى تلمسان لمحاصرة عدوه بها، فخرج من فاس على

---

111) ش. جلويان، تاريخ افريقيا الشمالية، جـ 2. ص 217.

112) مجهول، الدخير السنية، م. س. صفحة 122.

رأس جيوش ضخمة سنة 670هـ / 1272م، لكن وفود أهل الأندلس قدمت عليه بمنطقة أنكَاد وهو في طريقه نحو تلمسان واستنجدت به لمساعدة المسلمين في صد خطر الممالك المسيحية.(113)

حاول السلطان المريني تجاوز خلافاته مع الزيانيين وطلب من يغمراسن إبرام الصلح بينهما حتى يتمكن من مساعدة بني نصر على مواجهة المسيحيين، لكن رفض هذا الأخير لهذا الطلب أدى بأبي يوسف يعقوب إلى إعلان الحرب عليه. فوقعت بين الطرفين حرب إيسلي الثانية التي كان من نتائجها اكتساح النفوذ المريني للمناطق الواقعة إلى الشرق من تلمسان بفضل تحالفهم مع بني توجين أعداء بني عبد الواد، ومشاركة هؤلاء في حصار تلمسان إلى جانب الجيوش المرينية تحت قيادة زعيمهم محمد بن عبد القوي.(114)

اضطرت الجيوش المرينية إلى العودة نحو المغرب الأقصى بعد أن استعصى عليها أمر فتح تلمسان، لأن الأوضاع الداخلية بمجال النفوذ المريني كانت في حاجة إلى بذل المزيد من المجهودات العسكرية قصد إخضاع مناطق جد مهمة بالنسبة للمخزن المريني. ويتعلق الأمر بمدينتي سبتة وسجلماسة اللتان خرجتا عن طاعة المرينيين بفعل تحكم آل العزفي في الأولى وتبعية الثانية لبني عبد الواد وحلفائهم من عرب المنبات فكان لهذه الوضعية أثرها في تأخر المرينيين عن الاستجابة لطلب ابن الأحمر ومده بالمساعدة اللازمة لمواجهة الأخطار المسيحية بالأندلس.

ج – استيلاء المرينيين على سجلماسة وطردهم لبني عبد الواد عنها:

رغم المشاكل التي واجهها السلطان يعقوب بن عبد الحق أثناء محاولته القضاء على نفوذ الموحدين بمراكش، وصراعه مع بني عبد الواد الذين كانوا يعملون جاهدين من أجل إبقاء الوضع السياسي بالمغرب الأقصى على ما كان عليه، اهتم المرينيون بترسيخ قواعد حكمهم في المناطق الخاضعة لهم

113) ابن خلدون. م. س. جـ 7. صفحة 244.

114) نفسه، صفحة : 245.

دون أن يصرفوا نظرهم عن المناطق الثائرة فانصب اهتمامهم بعد القضاء على الموحدين على الأجزاء الواقعة في أقصى شمال المغرب وجنوبه، لأن خروج هذه الأقاليم المهمة عن طاعتهم معناه عدم اكتمال سيادتهم على المجال الذي حاربوا من أجل التحكم فيه طيلة القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.

وإذا كان اهتمام المرينيين بمدينة سبتة قد تضاعف نتيجة التقارب الذي تم بين السلطان يعقوب بن عبد الحق وبني نصر حكام غرناطة بعد استنجادهم به سنة 670هـ / 1272م، فإن مدينة سجلماسة حظيت باهتمام بالغ من طرف المرينيين نظرا لأهميتها التجارية وسيطرة أعدائهم بني عبد الواد عليها. وهذا ما تؤكده الحملات العسكرية التي جهزها السلطان يعقوب لانتزاعها في المرحلة الفاصلة بين سنة توليته وسنة استيلائه على مراكش.

سبقت الإشارة إلى أن السلطان المريني اتجه على رأس جيوشه نحو سجلماسة وحاصرها سنة 660هـ / 1262م قصد انتزاعها من يد علي بن عمر عامل الخليفة المرتضى عليها، لكنه فشل في اقتحامها وتراجع نحو فاس. وهذا ما سمح لعرب المنبات بالتحكم فيها وإعلان تبعيتها لبني عبد الواد. وقد حاولت الجيوش المرينية التحكم في المدينة مرة ثانية بعد تسع سنوات من محاولتها الأولى. وصار على رأس هذه الحملة ولي العهد المريني الأمير يوسف بن يعقوب وأقام حصاره عليها أربعة أيام ثم ارتحل عنها بعد أن فشل في إخضاعها على رواية صاحب الدخيرة.(115)

كما أصبح لمدينة سبتة أهمية كبيرة في المخططات العسكرية المرينية مباشرة بعد تحكم الجيوش المرينية في عاصمة الموحدين، وربما كان السبب في ذلك هو رغبة السلطان يعقوب في السيطرة على المواقع المتميزة التي بإمكانها أن تساعده على مد يد العون إلى النصريين. خاصة وأن مساعدته لهؤلاء ستجعل المرينيين يظهرون بمظهر أسلافهم الموحدين في العناية بشؤون الجهاد، وهو ما من شأنه أن يؤكد مشروعية حكمهم بالمغرب

115) مجهول، الديخرة السنية، م. س. ص 126.

الأقصى ويــزيــد من تأهيلهـم لخوض صراع قــوي مع مختلف القــوى السياسية لبلاد المغرب حول خلافة الموحدين.

فمـدينـة سبتـة التي كـانت تمثل بـاب المغـرب على أوربـا استقلت عن الموحدين بعد وفاة الخليفة السعيد. وعمل أبو القاسم العزفي على طرد ممثلي السلطـة الحفصية بها، بعـدمـا كـان ابن خلاص البلنسي قـد أعلن تبعيتـه للسلطـان أبي زكريـاء الحفصي. وأصبحت مدينـة سبتة خـارجة عن نفـوذ الموحدين من بني حفص وبنــي عبد المؤمن في عهد الخليفـة المرتضى ابتداء من سنة 647هـ / 1250م.(116) وعمل المستقل بها أبو القاسم العزفي على مد نفوذه نحو المناطق المجـاورة، خاصة مدينة طنجة التي حـاول صاحبها أبو الحجـاج يوسف بن محمـد الهمداني المعـروف بابن الأمير الاستقـلال بها والتنكر لطـاعة العزفي، فخطب للحفصيين ثم للعباسيين إلى أن استطـاع أبو القاسم طرده عنها وضمها لنفوذه.(117)

توجـه المرينيون لافتتـاح طنجة وسبتـة سنة 672هـ / 1274م، وأقام السلطان يعقوب حصاره على طنجة ثلاثـة أشهر ولم تستطع قواته أن تنال من صمـود سكانها شيئـا، حتى أن السلطـان المريني فكر في فك الحصـار عنها قبل أن تدين له بالطاعة. قال ابن خلدون «وأقام عليها أياما ثم اعتزم على الافراج عنها فقذف الله في قلوبهم الرعب وافترق بينهم».(118) ويفهم من ذلك أن فتحها تم بموافقة بعض سكانها.

سهل سقـوط طنجة في يـد المرينيين مامـوريتهم في فتح مـدينة سبتـة، وتوجهـت قواتهـــم إليها في نفس السنة التي حاصروا فيهـا طنجة وأرغمت أبا القـاسم العزفي على التبعيـة لهم «فلاذ بـالطاعـة على المنعة واشترط على نفســه خراجـا يـؤديـه كل سنة فتقبل السلطـان منـه وأفـرجت عساكـره عنه».(119)

---

116) ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، م. س. ص 393.

117) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 34.

118) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 187.

119) نفسه، نفس الصفحة.

غير أن هـذه السهـولة التي تـم بها فتح مدينـة سبتـة لا تتنـاسب مع الإمكانيات العسكرية لأبي القاسم العزفي الثائر بها. خصوصا وأن المرينيين عملـوا على حصارهـا عبر البر ولم يكن لـديهم أسطول يمكنهم من فـرض خناق فعلي عليها. وهذا ما يجعل خضـوعها بهذه الكيفية مثيرا للدهشة على حد تعبير الأستـاذ محمد القبلي بـالنظر لإدراك أطـراف النزاع بها لأهميتهـا الاستراتيجيـة. ومن ثم، فإنـه لا يعقل أن تستسلم سبتـة في وجـه الضغط المريني بالطريقة التي ذكرتها مصادر المرحلة.(120)

أشار دوفورك Ch. E. Dufourcq إلى أن مملكة أراغون وقعت معاهدة صداقة مع المرينيين مؤرخة بتاريخ 18 نونبر 1274م، وهي عبارة عن اتفاق عسكري ينص على أن يـزود ملك أراغـون J. Le conqueront السلطان يعقـوب المريني بخمسمائة فارس وحـوالي خمسين سفينة، على أن يلتزم يعقـوب من جهته بدفع أجـر يومي لكل فارس، وأن يخصـص جزء من هذه الـرواتب لفائدة ملك أراغون. (121)

لقد كان لهذا الاتفـاق علاقة فعلية برغبـة السلطان المريني في الاستيلاء على سبتـة. خـاصـة وأن المعـاهـدة تحمل عبـارات صريحة متصلـة بهذا الموضوع، لأنها تنص على أن يدفع المرينيـون مبالغ مالية إضافيـة في حالة تعـذر فتح المدينة في مـدة أكثر مـن سنة، كما أن عليهم تجهيـز الفرسـان الأراغونيين بـالخيول ووسائل التنقل، فضـلا عن بناء كنيسـة لهم لممارسة عباداتهم، وفي حـالة النجاح في السيطرة على سبتـة يصبح السلطان المريني مطالب بدفع ضريبة سنوية لآراغون.(122)

إن هذه التنـازلات الكبيرة التي أبداهـا المرينيون في اتفـاقهم مع أراغون تعبر عن عجزهم حيـال السيطرة على مـدينة سبتة اعتمادا على إمكـانياتهم الخاصـة، وتـؤكـد فشل قواتهم البريـة في إرغـام أبي القـاسم العـزفي على

---

120) M. Kably; Op. cit; p 25.
121) CH. E. Dufourcq; La question de Ceuta au XIIIe siècle, H. Tome XIII, 1ere - 2eme trim. 1955 p. 116.
122) Ch. E. Dufourcq, l'Espagne catalane, Op. cit; p. 166.

الاستسلام والطاعة. كما تعكس أيضـا ضعف قوتهم في مجال البحر، لأنهم لم يكونوا إلى حدود هذا التاريخ يملكون أسطولا قويا.

مثلت هـذه المعاهـدة نجاحـا مهما للأراغـونيين في علاقتهم مع المغـرب الأقصى، خاصـة وأن ملك أراغون Jacques le conqueront كـان يعمل على خلق امبراطوريـة تجارية بـالحوض الغربي للبحر الأبيـض المتوسط، فعمل على ربط علاقات مـع الحفصيين والزيانيين قبل تقربه مـن المرينيين. أشار أحد الدارسين إلى أن أبـا يوسف يعقـوب لقب في نص المعاهـدة مع ملك أراغون بأمير مراكش وفاس وسجلماسة فكان لذكر كلمة سجلماسة وقع خاص في نفوس الكطلانيين،(123) ويرجـع السبب في ذلك إلى كون التجـار الكطلانيين كانـوا يتاجـرون مع هذه المدينـة عبر وساطة الـزيانيين أو الأسر اليهـودية السجلماسية التي حظيت بعناية كبيرة لدى ملك أراغون كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعـلاه. ومهما كان من أمـر فإن أراغـون اعترفت في نص المعاهـدة بسيطرة المرينيين على سجلماسـة رغم أن هذه المدينـة كانت مـا تزال تحت السيطرة الزيانية وقت إبرام نص الاتفاق بين السلطان المريني وملك أراغون حول فتح سبتة.

إن خضـوع مدينـة سبتـة للنفـوذ المريني على الذي سبـق كان نتيجـة حصـار بحـري وبـري أي نتيجـة تحالف المرينيين مع أراغـون. وغيـاب المعلومات الخاصة بهذا التحالف في مصادر التاريخ المغربي لا وجود لسبب واضح يفسره، لكن يمكننا أن نتساءل مع الأستـاذ محمد القبلي حول ما إذا كان من مصلحـة السلطان المريني الإعـلان عن اتفاقيـة يتعهد فيهـا بدفع الأموال لملك أراغـون مقابل أن يستعين بقـواته المسيحيـة في حصار مـدينة مسلمة ؟ خصوصا وأن السلطان المريني كـان على أهبة العبور إلى الأندلس بغرض الجهاد.(124) إن رغبة السلطان المريني في الاضطـلاع بمهام الجهاد وحماية الإسلام بالأندلس على غرار مـا قام به الخلفاء من بني عبد المؤمن حالت دون شيوع خبر اتفاقه مع النصـارى في شأن فتح مدينة سبتة، لأن

123) Ibid, p : 176.

124) M. Kably, Op. cit, p : 25.

معرفة الرأي العام بذلك سيفقده المشروعية التي مازال يعمل جاهدا من أجل اكتسابها.

وقد انصب اهتمام المرينيين بعد التحكم في سبتة على المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى الخاضعة لنفوذ بني عبد الواد إلى حدود هذا التاريخ. وتوجه المرينيون لحصار سجلماسة في شهر رجب من سنة اثنتين وسبعين وستمائة،(125) بعدما حشد السلطان يعقوب لهذا الغرض جيشا ضخما يضم «أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر».(126) واستعمل في حصاره على هذه المدينة جميع أنواع الآلات الحربية» من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة».(127) واستمرت القوات المرينية على حصار هذه المدينة إلى أن «هتك المنجنيق من سور لها برج ومسافة فانهد البرج والمسافة فدخلها من هنالك عنوة بالسيف».(128)

تمكن المرينيون من دخول سجلماسة يوم الجمعة ثالث ربيع الأول من سنة ثلاث وسبعين وستمائة واحد شتنبر 1274م،(129) بعد سنة كاملة من الحصار، فقتل السلطان يعقوب عامل بني عبد الواد عليها ومن ظفر به من عرب المنبات.(130) وقد أشار ابن أبي زرع إلى أن هذا السلطان أمن أهلها وعفا عنهم،(131) في حين ذكر ابن خلدون عكس ذلك حين قال بأن المرينيين «قتلوا المقاتلة وسبوا الرعية».(132)

ويظهر من بعض الروايات الواردة أعلاه أن المرينيين استعملوا في حصار سجلماسة الأسلحة النارية وقد تساءل الأستاذ محمد القبلي حول مصدر

125) ابن أبي زرع، م. س. ص 312.
126) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 249.
127) نفسه، نفس الصفحة.
128) ابن أبي زرع، م. س. ص 312.
129) نفسه، نفس الصفحة.
130) مجهول، الذخيرة السنية، م. س. ص 139.
131) ابن أبي زرع، م. س. ص 312.
132) ابن خلدون م. س. جـ 7. ص 250.

هذه الأسلحة واستنتج أن لـذلك علاقة وطيدة بفتح مدينـة سبتة وقال بأن قطع المدفعيـة التي وظفهـا المرينيـون في حصارهـم لمدينة سجلماسـة قـد حصلوا عليهـا بموجب اتفاقيتهم مـع أراغون أثناء حصـارهم لأبي القاسم العزفي.(133)

استطاع المرينيون بعد تحكمهم في سجلماسـة فرض سيطرتهم على كل مناطق المغرب الأقصـى، وشرعوا بعد ذلك في الاستعداد للقيام بـأمر الجهاد وتعزيز نفوذ المسلمين بالأنـدلس. أشار ابن خلدون إلى أن السلطان يعقوب لما طرد بني عبـد الواد عن سجلماسة «انصرف أملـه إلى الغزو وآثار طـاعة الله بجهاد أعدائه.». (134)

لكن السلطـان المريني لم يكن بمقـدوره القيـام بأي تحرك في اتجاه الخارج دون الاطمئنان على مجال نفوذه من خطر بني عبد الواد، لأن انتزاع سجلماسة من أيديهم لا يعني بالنسبة لهم اقتطاع أحد المراكز الأساسية في التجارة الصحراوية من قبضة نفـوذهم فحسب، بقدرما يهدد سلامة وأمن تلمسـان نفسها، فحـاول السلطان يعقـوب إبرام الصلح مع يغمـراسن بن زيان «فبعث حافده تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن... فأكرم موصله وموصل قومه، وبادر إلى الإجابة والألفـة وأوفـد مشيخـة من بني عبـد الـواد على السلطـان يعقـوب لعقـد السلم». (135)

يدعو هـذا السلم المبرم بين تلمسان وفاس إلى التفكير في أن المرينيين لم يستجيبـوا لنجـدة أهل الأنـدلـس إلا بغـرض استغـلال شعـور التضـامن الإسلامي لكسب مشروعية حكمهم.(136) وقد ساعد هذا الانفراج الذي عرفه الصراع المريني العبد الـوادي السلطان يعقوب على ربط علاقـات واسعة مع مختلف القوى السياسية ببلاد المغرب، فتـوصل بهدايا أمراء أفريقية وأمراء

---

133) M. Kably; Op. cit, p : 77.

134) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 250.

135) الناصري، الاستقصا. م. س جـ 3. ص 37.

136) M. Kably; Op. cit; p : 73.

بني توجين.(137) فكان لهذا النجاح السياسي أثره في تهيء الفرصة المواتية للاضطلاع بمهمة الجهاد بالأندلس، فتوالت جوازات السلطان يعقوب ما بين سنة 674هـ / 1275م، وسنة 684هـ / 1286م.

د - سجلماسة في السنوات الأخيرة من القرن السابع الهجري

كانت وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق بالجزيرة الخضراء سنة 684هـ / 1286م إيذانا ببداية مشاكل واضطرابات سياسية في مناطق مختلفة من بلاد المغرب الأقصى. واضطر خلفه يوسف إلى أن يبتدىء عهده بصراع قوي ضد عرب المعقل المسيطرين على المجالات الجنوبية. ولعل هذا ما يفسر حركته نحو مراكش مباشرة بعد أن بايعه المرينيون بفاس، لأن من شأن تواجده بعاصمة الجنوب أن يمكنه من مراقبة ما يجري بالمناطق الواقعة إلى الشرق والجنوب منها حيث كان عرب المعقل يفرضون سيطرتهم الفعلية بعيدا عن أي ولاء للمرينيين.

أعلنت منطقة السوس خروجها عن طاعة المرينيين سنة 686هـ / 1288م في وقت كان فيه السلطان يوسف بمدينة مراكش. ونعلم أن هذه المنطقة كانت خارجة عن نفوذ الموحدين منذ منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، ولم يستطع السلطان يعقوب بن عبد الحق فرض سيطرته الحقيقية عليها رغم الحملات العسكرية التي وجهها إليها. ومن ثم، فإن ثورتها على ابنه يوسف هي استمرار لما كان عليه أهلها من عصيان في علاقتهم بالمخزن.

وعموما فإن الرغبة في السيطرة على المناطق الجنوبية كانت هاجسا لازم جميع التحركات العسكرية المرينية نظرا لما لهذه المناطق من دور فعال في إنعاش اقتصاد المغرب، خاصة وأن التحكم فيها كان يعني ضمان الاستفادة من موارد التجارة الصحراوية، وضمان سلامة القوافل الواردة من بلاد السودان. فخروج عرب المعقل عن طاعة المرينيين كان يعني في حقيقة الأمر تحويل طرق التجارة نحو محاور أخرى، وهو ما كان المرينيون

137) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 259.

يسعـون جاهـدين إلى تفـاديه حتـى يضمنوا للمـراكـز الحضرية الشماليـة انتعاشا اقتصاديا مستمرا.

ويظهـر أن عرب المعقل رغم مـا طبع تحركاتهم من عشـوائية بمنـاطق الجنوب كانوا على بينة من أهمية مجالاتهم في المخططات المرينيين العسكرية والاقتصادية، وبما أنهم لم يتوصلوا طيلة القرن السابع الهجري إلى التقرب من الحكام الجدد للمغرب الأقصى، فإن انتفـاضاتهم المتكررة عليهم في هذه المرحلة التـاريخية نبهت السلاطين المرينيين إلى ضرورة استمالتهم وهـو ما تحقق لهم في القرن الثامن الهجري.

تحركت جيوش السلطان يوسف في اتجاه منطقة السوس لمحاربة عرب ذوي حسان وأمير بنـي يدر طلحة بـن علي، واستطاع المرينيـون لأول مرة إلحاق الهزيمة بهذا الثائر الذي قتل في حربه ضدهـم يوم الاثنين الثالث عشر من جمادى الآخر سنـة ست وثمانين وستمائة.(138) لكن الجيوش المرينية لم تستطع التحكم في هذه المنـاطق بعد هـذا الانتصار، واستمرت انتفـاضة أهل السوس بعد هـذا التاريخ مدة طويلة، لأن عرب المعقل كـانوا يستغلون انشغال المخزن المريني بحروبه مع جيرانـه الزيانيين فيعلنون ثوراتهم كلما كانت الفرصة سانحة بذلك.(139)

ولم تكن منطقة درعة وسجلماسة في الجهـة الشرقية لجبال درن خالية من أيـة معارضـة للنفوذ المريني. وقـد حـاولت العناصر العـربية المعقليـة المستقرة بها استغـلال موت السلطان يعقوب وتـولية ابنه يـوسف لإعلان عصيانها، فقامت بطون ذوي منصور بإحكام قبضتها على المسالك التجارية الرابطـة بين المناطق الصحـراوية من جهـة ومناطق سجلماسـة ودرعة من جهـة ثـانيـة، فأضروا بـالعمـران وأفسـدوا السـابلـة على حـد تعبير ابن خلدون.(140)

---

138) ابن أبي زرع، م. س. ص 377.

139) G. Marçais; Les arabes en berbèrie; Op. cit; p : 326.

140) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 280.

اضطر السلطان يوسف أمام هـذه التطورات إلى الخروج لمحاربة بطون ذوي منصـور بدرعـة وسجلماسـة في جيش بلغت أعـداده اثنى عشر ألف مقاتل.(141) واستطـاع إلحاق الهزيمـة بهم وتشريـدهم في الصحـراء ثم طاردهم بها حتى ظفر بهم «فقتل منهم حلقا كثيرا وسبى أموالهم ونسائهم وأمر بقطع رؤوسهم وحملها إلى مـراكش وفاس وسجلماسة».(142) وكانت عـودة السلطان إلى مـراكش من حملته هـاته على المعقل ببـلاد القبلة سنـة 686هـ / 1288م.

عرفت سجلماسـة في هذه الفترة تـرديا كبيرا في أوضـاعها العـامة لأن تحرك عـرب المعقل بمجالاتها وإغـارتهم على القوافل التجـارية النـاتج عن تحكمهم في المسالك والطـرقات أثـر على النشـاط التجـاري بها، وقد زاد من حـدة هـذا الوضع الانعكـاسـات السلبيـة للظـروف المناخيـة على النشـاط الفلاحي بها، لأن المغرب الأقصى تعـرض في هذه الفترة لموجة من الجفاف كما يستنتج من روايـة النـاصري الـذي قـال «وفي سنـة ست وثمانين وستمائة كـانت الـريح الشرقيـة المتـواليـة الهبـوب ونشـأ فيهـا القحط الشديد».(143) وقد كانت سجلماسة بدون شـك أكثر المناطق المغربية تضررا من هذه الرياح بحكم موقعها في المناطق المشرفة على الصحراء الكبرى.

وتمثل انتفاضة ذوي منصور على عهد السلطـان يوسف الحدث الوحيد الـذي أشارت إليـه المصـادر في أخبار سجلماسـة ودرعـة في أواخر القـرن السابع الهجـري. ويمكن القول أن عرب المعقل استمـروا على خروجهم عن طاعة المرينيين بعـد سنة 686هـ / 1288م. لأن الهزيمـة التي ألحقهـا بهم

141) الناصري، م. س. جـ 3. ص 67.
142) ابن أبي زرع، م. س. ص 378.
143) الناصري، الاستقصا. م. س. ص 89.

السلطان المريني، والقسوة التي عاملهم بها من شأنها أن تدفع بهم إلى إعلان العصيان من جديد.

كما أن تأزم الأوضاع الاقتصادية بالمغرب الأقصى في هذه المرحلة نتيجة توالي المجاعات والجفاف شجع عرب المعقل على فرض سيطرتهم على المسالك التجارية بهدف الحصول على موارد للعيش. أشار ابن أبي زرع إلى أن موجة خطيرة من الجفاف توالت على بلاد المغرب ما بين السنة التي هبت فيها الرياح الشرقية أي سنة 686هـ / 1288م وسنة 690هـ / 1291م حيث نزل المطر في شهر أبريل فحرث الناس عند ذلك وحصدوا ما حرثوه من زرع في أربعين يوما.(144) وفي سنة 693هـ / 1294م عمت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر وهلك من جراء ذلك خلق كثير.(145) ولم تعرف الأوضاع الاقتصادية تحسنا إلا في السنة التي تلتها «وفيها صلح أمر الناس وانجبرت أحوالهم ورخصت الأسعار في جميع الأمصار».(146) وهكذا كان لهذه الكوارث أثرها في تراجع أوضاع المغرب الاقتصادية، وهو ما يمكن أن يكون قد صاحبه اضطراب عام ومشاكل سياسية في مختلف مناطق المغرب الأقصى.

كان المرينيون في هذه الفترة منشغلون بالتفاوض مع الزيانيين في شأن الأمير أبي عامر بن السلطان يوسف ووزيره ابن عطو اللذان فرا عن مراكش بعد أن حاولا الاستقلال بها واتجها نحو بلاد القبلة.(147) ويرجح أن يكون المقصود ببلاد القبلة هنا مدينة سجلماسة وليس درعة، نظرا لما اشتهرت به

---

144) ابن أبي زرع، م. س. ص 408.
145) ابن أبي زرع، م. س. ص 409.
146) الناصري، م. س. جـ 3. ص 91.
147) ابن أبي زرع، م. س. ص 379.

هذه المدينة من دور في استقبال الطامعين في الملك أو المطرودين عنه، كما هو الحال في استقلال عمالها بها والتجاء الرشيد الموحدي إليها.

ولم تكن مدينة القوافل التجارية في فترة التجاء الأمير أبي عامر ووزيره ابن عطو إليها مؤهلة لتوفير لـوازم استجماع القوة لهما، لأن ما ذكرناه عن تـراجع الأوضاع الاقتصـاديـة بالمغـرب الأقصى في أواخـر القرن السـابع الهجـري الثالث عشر الميـلادي جعل مجالاتـها عـرضة لنهب قبـائل المعقل. وهو مـا كان له بالغ الاثـر في اضطراب حبل الأمن الذي سبب بـالنتيجة في تقلص فرص الرواج التجـاري وتراجع الإنتاج الفلاحي. فاضطر أبـو عامر على إثر ذلك إلى مغـادرة بلاد القبلة في اتجاه تلمسان، وهو الأمـر الذي دفع بالسلطان يوسف إلى إقامة حصاره الطويل الأمد على عاصمة الزيانيين الذي دام ثمان سنوات.

المبحث الثاني :

سجلماسة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي

1 – سجلماسة في مرحلة الإزدهار المريني

أ – الصراع المريني العبد الوادي في السنوات الأولى من القرن الثامن الهجري :

ودع المغرب الأقصى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي تحت وطأة ظروف اقتصادية قاسية نتيجة ما عرفته البلاد من مجاعات وأوبئة. وسمح الرخاء الاقتصادي الذي عم المغرب ابتداء من سنة 694هـ / 1295م للمرينيين بالتفرغ لمحاربة أعدائهم الزيانيين، خاصة وأن تلمسان غيرت سياستها اتجاه المرينيين في هذه المرحلة وأصبحت تستقبل الأمراء الثائرين منهم، كما هو الحال مع أبي عامر ووزيره ابن عطو اللذان فرا إلى تلمسان وأكرم السلطان الزياني أبو سعيد عثمان مثواهما. ثم عاد أبو عامر إلى المغرب بعد عفو أبيه عنه، وبقي ابن عطوفي خدمة السلطان الزياني. فأثارت مطالبة السلطان المريني نظيره الزياني بتسليمه إليه توترا في العلاقات بين الطرفين.(148)

وإذا كان فرار ابن عطو وأبي عامر إلى تلمسان هو السبب المباشر الذي دفع بالسلطان يوسف إلى فتح واجهة الصراع مع الزيانيين. فإن التطورات التي شهدها المغرب في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، كان لها الاثر الكبير في توجيه سياسة المرينيين وتحديد مهام سلاطينهم إزاء تطور الأوضاع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. ويتعلق

148) محمد التنسي، م. س. ص 130.

الأمر بتطور الأوضاع في الأندلس ومحاولة القوى المعنية بذلك إقامة تحالفات تهدف إلى عرقلة الجهاد المريني بها. وفي هذا الإطار يدخل تحالف عثمان بن يغمراسن مع ملك قشتالة شانجة بن الفونصو العاشر الذي استطاع في هذه الفترة ضم مناطق واسعة من مجال نفوذ المسلمين بالأندلس إلى مجال نفوذه.

أعرض المرينيون عن مواصلة الجهاد بالأندلس لأن سياسة بني نصر كانت تميل لجانب أعدائهم أحيانا، ونموذج ذلك انضمام غرناطة إلى التحالف الذي تم بين الزيانيين وقشتالة سنة 691هـ / 1292م، فتوجه اهتمام السلطان يوسف نحو بلاد المغرب لأن الأوضاع السياسية بها كانت تسمح للمرينيين بالظهور كأكبر قوة إسلامية بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. في وقت كان فيه الزيانيون والحفصيون قد عرفوا تراجعا كبيرا تمثل في موت يغمراسن، وانقسام نفوذ الدولة الحفصية بين أمراء تونس وأمراء بجاية.(149)

عمل الحفصيون على التقرب من بني مرين وبعثوا الهدايا إلى سلطانهم يوسف بن يعقوب، لكن حظوظ المرينيين في النجاح بالأندلس كانت ضعيفة جدا نتيجة التحالف الثلاثي بين قشتالة والزيانيين وبني نصر. وهذا ما شجع السلطان يوسف على نهج سياسة وطنية تهدف إلى تأكيد سيادته على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط،(150) فتخلى عن المساعدة التي قدمها سلفه يعقوب لغرناطة، وتنازل لابن الأحمر عن جميع الثغور التي احتلتها الجيوش القشتالية بالأندلس.(151) وكان ذلك سنة 694هـ / 1295م لما عبر سلطان غرناطة إلى العدوة والتقى بالسلطان يوسف بطنجة. وفي ذلك دلالة واضحة على بداية توجه جديد في السياسة المرينية، حيث أقبل سلاطين بني عبد الحق على مواجهة أعدائهم ببلاد المغرب معرضين عن الاهتمام بأوضاع الأندلس الإسلامية.

149) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 80.

150) H. Terrasse; Histoire du Maroc; T. 2; Op. cit; p : 45.

151) ابن خلدون، م. س. جـ 7. صفحة 384.

شكلت السنـوات الأولى التي تلت لقـاء السلطـان المريني مع ابن الأحمر بطنجة حلقـة ساخنـة من حلقات الصراع المرينـي العبد الوادي. وتـوجهت الجيوش المرينية نحو تلمسان سنة 695هـ/ 1296م، ثم أصبح توجهها إليها - بعد هذا التاريخ - سنة متبعة من طـرف السلطان يوسف مرة كل سنة على الأقل إلى أن أقام حصاره عليها بصفة نهاية سنة 698هـ/ 1299م.(152)

أصبحت مـدينة وجـدة قاعـدة أساسيـة للجيوش المرينيـة شنوا منهـا الغارات في اتجاه مناطق المغرب الأوسط. وكـان لذلك أثره في اكتساح النفوذ المريني لبعض المناطق التابعة للزيانيين قبل إقامة السلطان يوسف حصاره على عاصمتهـم تلمسان، فتقبل المرينيون بيعـة عدد كبير من سكـان بعض المدن التابعـة للزيانيين كندرومـة وتاونت.(153) وهـو ما شجع السلطـان المريني على التوجه نحو عاصمة بني عبد الواد وتضييق الخناق عليها.

كان الحصار المريني على تلمسان نتيجة لـلأحقاد والظغائن القديمة بين العصبيتين الزنـاتيتين من جهة، وتظافر جهـود سلاطين الزيانيين لعـرقلة جهود نظـرائهم المرينيين في الاستقلال بـالمغرب الأقصى أثنـاء صراعهم مع الموحدين من جهـة ثانية، بـالاضافة إلى إيـوائهم للأمـراء الثائرين من بني مرين وتحالفهم مع مملكة قشتالة من أجل عرقلة الجهاد المريني بالأندلس. فضلا عن أن تلمســان كانت العقبة الرئيسيـة التي تمنع النفوذ المريني من اكتساح المناطق الشرقية لبلاد المغرب، لذلك فإن توجههم نحوها كان يهدف إلى القضاء على نفـوذ بني عبـد الواد بصفة نهائيـة لما كانـوا يسببونـه من ازعاج للمرينيين حينا بعد آخر.

إن هـذه الأسبـاب جميعهـا هي التي تبرر رغبـة السلطـان يـوسف في التخلص من نفـوذ بني عبد الـواد، وهو مـا لخصه ابن أبي زرع في جملـة صريحة حين قال «ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة فيها نزل الأمير يوسف مدينة تلمسان النزول الأخير الذي لم يقلع عنه إلا ميتا».(154)

---

152) نفسه، صفحة 290.

153) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 291.

154) ابن أبي زرع، م. س. ص 386.

ولم تمض سوى سنة على بداية الحصار المريني على تلمسان حتى كان نفوذهم قد اكتسح أغلب مناطق المغرب الأوسط وبات يهدد النفوذ الحفصي في إفريقية. خاصة وأن أوضاع هؤلاء الاخيرين لم تعد تسمح لهم بتزعم قيادة بلاد المغرب منذ السنوات الأخيرة من ثمانينات القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي،(155) بعد انقسام نفوذهم بين قوتين سياسيتين واحدة ببجاية وأخرى بتونس.

لم يؤثر الحصار العسكري الذي ضربه السلطان يوسف على تلمسان في صمودها ولم يكن فعالا بكيفية تسمح باقتحام جيوشه لها، لذلك عمل على تعزيز مفعوله بحصار اقتصادي. وهذا ما يبرره قول ابن خلدون أن السلطان المريني كان ينزل شديد العقاب والقسوة بمن يميرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها.(156) استمر هذا السلطان على هذه الحال في حصاره لعاصمة الزيانيين أربع سنوات، لكن استمرار صمودها جعله يفكر في إنشاء مدينة بجوارها أطلق عليها اسم تلمسان الجديدة أو المنصورة،(157) في مكان أصبح يعرف في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي باسم البلقع المشهور برحا الريح كما ذكر مؤرخ الزيانيين يحيى ابن خلدون.(158)

وأصبحت المنصورة من أهم مدن بلاد المغرب في فترة حصار المرينيين لتلمسان، بعد أن استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق.(159)

كما أصبحت عاصمة الزيانيين على اثر هذه الإجراءات مهددة بالخراب، أشار يحيى بن خلدون إلى أن هذا الحصار أضر بأهل البلد وهلكت الناس بالجوع والسيف والمنجنيقات.(160) كما ذكر التنسي أن

155) عبد الله العروي، تاريخ المغرب محاولة في التركيب، بيروت 1977. ص 202.

156) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 292.

157) ابن أبي زرع، م. س. ص 387.

158) يحيى ابن خلدون، م. س. جـ 1. ص 121.

159) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 293.

160) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 121.

الحصار «كان على أهل تلمسان بلاء عظيم من غلاء الأسعار وموت الرجال... فلم يبق فيها من الرعية الا نحو المائتين وكان فيها من المقاتلة نحو الألف».(161)

توفي عثمان بن يغمراسن سلطان الزيانيين في فترة الحصار وولي ابنه محمد المعروف بأبي زيان سنة 703هـ / 1304م،(162) فتخلى عن تحالف الزيانيين مع الحفصيين الذي كان قد عقده أبوه عثمان من أجل التصدي للزحف المريني. ويرجع السبب في تغيير سياسة تلمسان تجاه الحفصيين في عهد أبي زيان محمد إلى أن أمير تونس محمد بن المستنصر حاول التقرب من المرينيين لما تيقن من عجز تلمسان عن صد خطرهم، فبعث سفارات عديدة إلى السلطان المريني يوسف بن يعقوب في السنوات الأولى من القرن الثامن الهجري.(163)

ونتيجة لهذا التقارب الحفصي المريني طلب السلطان يوسف من أمير تونس مساعدته على فتح بعض مدن المغرب الأوسط اعتمادا على الأسطول الحفصي، وكانت استجابة الأمير الحفصي لطلب المرينيين السبب المباشر الذي أدى إلى القطيعة بينه وبين الزيانيين.

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان يوسف بن يعقوب يواصل حصاره على تلمسان تحول اهتمام مملكة بني نصر نحو المغرب الأقصى، واستغل محمد المخلوع انشغال المرينيين بحصار تلمسان فاستولى على مدينة سبتة سنة 703هـ / 1306م، ورغم أهمية هذه المدينة بالنسبة للمرينيين اكتفى السلطان يوسف بتوجيه ابنه إبراهيم لاسترجاعها من يد النصريين، ولم يتمكن الأمير إبراهيم من طرد عساكر المخلوع عن المدينة فأقلع عنها مهزوما.(164) مسجلا بذلك فشل المرينيين في صد خطر بني نصر عن مناطق الشمال.

---

161) محمد التنسي، م. س. ص 132.

162) ابن أبي زرع، م. س. ص 387.

163) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 297.

164) ابن أبي زرع، م. س. ص 388.

وبعد وفاة السلطان يوسف يوم الأربعاء السابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة،(165) كان الصراع الذي دار بين الأمراء المرينيين حول الحكم في مصلحة الزيانيين، لأنه سبب في الافراج عن عاصمتهم. ذلك أن أبا ثابت عامر لما أخذ البيعة من أشياخ بني مرين «بعث إلى أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن فصالحه وصرف عليه جميع البلاد التي كان أخذها جده لهم حاشا تلمسان الجديدة فإنه اشترط عليه أن لا يدخلها».(166)

عمل أبو ثابت بعد أن عقد الصلح مع الزيانيين على تصفية أجواء حكمه من المنافسة قصد ضمان استمراره على رأس الزعامة المرينية خاصة وأن عماه أبا يحيى وأبا سالم كانا يمثلان خطرا عليه، فتخلص منهما قبل رحيله إلى المغرب الأقصى على رواية ابن أبي زرع.(167) في حين ذكر يحيى بن خلدون أن أبا سالم قتل على يد السلطان أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن بعد دخوله لمدينة المنصورة.(168) فيكون أبو ثابت قد تخلص من أبي يحيى في حين تكفل أبو زيان محمد بقتل أبي سالم تدعيما لحلفه مع السلطان المريني الجديد. ولم يعمل السلطان المريني بعد ذلك على مضايقة الزيانيين كما لم يعملوا بدورهم على خلق مشاكل له فعرف الصراع بين القوتين لأول مرة انفراجا واضحا.

ولم تعرف أوضاع المغرب الأقصى استقرارا في فترة حكم أبي ثابت، فقد ثار عليه عامل المرينيين على مراكش يوسف بن محمد بن أبي عياد سنة 707هـ / 1308م، فتحرك السلطان على رأس جيوش ضخمة في اتجاه الجنوب وألحق الهزيمة بهذا الثائر قرب وادي أم الربيع. كما سببت القبائل العربية التي وصلت إلى المغرب في العصر الموحدي مشاكل عديدة للمرينيين في فترة حكم أبي ثابت، فانتقض عليه عرب الخلط والعاصم وبنو جابر بتامسنا كما انتقضت عليه قبائل رياح بسهول الغرب.(169)

165) نفسه نفس الصفحة.

166) نفسه، صفحة 390.

167) ابن أبي زرع، م. س. ص 390.

168) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 124.

169) ابن أبي زرع، م. س. ص 391.

وهكذا كانت سنة حكمه الوحيدة مليئة بالمتاعب والتحركات العسكرية الهادفة إلى إخماد الفتن وتمهيد المناطق الثائرة، ولم تستطع جيوشه التحكم في مدينة سبتة رغم النجاح الذي حققته بسيطرتها على طنجة سنة 708هـ / 1309م.(170) وتمثل فترة حكم أبي ثابت في نظر البعض بداية التراجع المريني، لأن قتله لمنافسيه حول الحكم دفع بعدد كبير من الأمراء إلى الفرار في اتجاه الأندلس والاحتماء بأعداء المرينيين. وهو ما كان له انعكاس على تطور الأحداث السياسية للمخزن المريني بعد منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.(171)

اختلف المرينيون في من يخلف السلطان عامر «وتصدى للقيام بالأمر عمه علي ابن السلطان أبي يعقوب وخلص الملأ من بني مرين... إلى أخيه أبي الربيع سليمان».(172) الذي واجهته مشاكل متعددة ناتجة عن منافسة بعض الأمراء المرينيين له، وهو ما لم يسمح له بالتصدي لأعدائه في ظروف لائقة.

وجه أبو الربيع سليمان جيوشه إلى مدينة سبتة بعد توليته سنة 708هـ / 1309م تحت قيادة تاشفين بن يعقوب الوطاسي الذي «صار إليها في جيش عظيم من بني مرين ففتحها عنوة بأمر أشياخها وموافقة عامتها».(173) وكان فتح سبتة سنة 709هـ / 1310م، وهي السنة التي استولى فيها ملك قشتالة على جبل طارق.(174)

واضطر أبو الربيع سليمان إلى صرف جهود كبيرة في مواجهة وزرائه ورجال دولته بعد سنة من تاريخ فتحه لمدينة سبتة وطرده لبني الأحمر عنها، بعد أن عمل هؤلاء على خلعه برباط تازة ومبايعة عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق، فتحرك السلطان في اتجاههم وأرغمهم على الفرار عنها، ثم توجهوا بعد ذلك نحو تلمسان ومنها إلى الأندلس.(175)

---

170) نفسه، ص 392.

171) M. Terrasse; Histoire du Maroc, T. 2; Op. cit. p 45.

172) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 314.

173) ابن أبي زرع، م. س. ص 393.

174) الناصري، الاستقصا. م. س. جـ 3. ص 121.

175) نفسه، نفس الصفحة.

ورغم كل ما ذكر وصفت فترة حكم أبي الربيع سليمان بالرخاء والرفاهية في مصادر التاريخ المريني. أشار ابن خلدون إلى أن أيامه «كانت كلها ترفا لأهل الدولة... وتغالى الناس في أثمان العقار... واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالنقوش».(176) غير أن أبا سعيد عثمان الذي خلفه على زعامة المرينيين سنة 710هـ / 1311م تولى الأمر في وقت كانت بلاد المغرب الأقصى تعرف فيه أوضاعا مناخية قاسية، شبيهة بما عرفته بعد مضي السنوات العشر الأولى من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي التي سبقت الإشارة إليها أعلاه.

فقد تعرضت البلاد لموجة من الجفاف سنة 711هـ / 1312م «فخرج أمير المسلمين عثمان إلى إقامة سنة الاستسقاء فمشى على قدميه حتى وصل المصلى والفقهاء والصلحاء والقراء بين يديه بالذكر»،(177) وكما حدث بعد انتهاء العشرين سنة الأولى من القرن السابع الهجري عرف المغرب بعد مضي نفس الفترة من القرن الثامن سلسلة من المجاعات الناتجة عن الظروف المناخية. قال ابن أبي زرع «وفي سنة عشرين وسبعمائة كان القحط الشديد بالمغرب... وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة وصدر من سنة خمس وعشرين كانت المجاعة بالمغرب وارتفع السعر في جميع البلاد».(178) وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد في أن دورة الجفاف تبلغ ببلاد المغرب أوجها على رأس كل مائة سنة، بدليل تشابه المعطيات المناخية في بداية القرن السابع الهجري مع مثيلتها في بداية القرن الثامن.

وإضافة إلى الظروف الاقتصادية الصعبة التي عرفها عهد أبي سعيد عثمان كان على هذا السلطان مواجهة بعض المصاعب التي اعترضت ملكه. فقد ثارت عليه منطقة هسكورة وأعلنت خروجها عن طاعته سنة 713هـ / 1314م تحت قيادة عدي بن همو الهسكوري، فتطلب ذلك من أبي سعيد

---

176) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 314 – 315.

177) ابن أبي زرع، م. س. ص 398.

178) نفسه، ص 401.

جهودا عسكرية مضنية انتهت بالقضاء على زعيم هسكورة.(179) ثم شرع هذا السلطان بعد ذلك في نهج سياسة تهتم أكثر فأكثر بالمناطق الشرقية للمغرب الأقصى سيرا على نهج أسلافه. خاصة وأن الزيانيين في هذه الفترة كانوا يشنون غاراتهم على مملكة الحفصيين، فجهز جيوشه وسار على رأسها نحو تلمسان سنة 714هـ / 1315م «ولما انتهى إلى وادي ملوية قدم ابنه أبا الحسن وأبا علي في عسكرين عظيمين في الجناحين وسار في ساقتهما ودخل بلاد بني عبد الواد على هذه التعبية فاكتسح نواحيها».(180)

تحصن الزيانيون في عاصمتهم أمام الزحف المريني وتركوا مناطق نفوذهم فريسة لجيوش السلطان أبي سعيد عثمان.(181) وازدادت رغبة السلطان المريني في تضييق الخناق على الزيانيين بعد أن فر الأمير يعيش بن يعقوب بن عبد الحق من معسكر المرينيين إلى تلمسان، فأواه بها سلطانها أبو حمو موسى. غير أن الجيوش المرينية لم تستطع النيل من صمود الزيانيين فتراجع السلطان أبو سعيد نحو المغرب الأقصى وأقام برباط تازة، وبعث ابنه الأمير أبا علي إلى فاس حيث ثار عليه بها.(182) وكان لذلك أثره في انشغال السلطان المريني بالأوضاع الداخلية للمغرب وإهماله لخلافه مع أبي حمو موسى سلطان بني عبد الواد لمدة طويلة من الزمن.

ب – انتفاضة أبي علي عمر بفاس

أصبح أبو علي عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان وليا للعهد في سنة بيعة أبيه من طرف المرينيين أي في سنة 710هـ / 1311م وهو شاب لم يطر شاربه،(183) رغم وجود أخيه الأكبر أبي الحسن علي، ويرجع السبب في ذلك

---

179) نفسه، ص: 399.

180) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 321.

181) ابن أبي زرع، م. س. ص 399.

182) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 321.

183) العباس بن ابراهيم. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، الرباط 1980 جـ : 9. ص 287.

إلى أن «هــذا الأصغر أعلق بقلــب السلطان وأحبهما إليــه». (184) واتخذ هذا الأمير خــاصتــــه من رجــالات الـــدولــة «ووضع ألقــــاب الإمــارة... واتخذ العلامة»، (185) و«عقد على وزارتــه لإبراهيم بن عيسى اليرنيــاني من صنائع دولتهم وكبار المرشحين بها، (186) وخاطب سلاطين المناطق المجاورة. وأثبت في الديوان ومحا وزاد في العطاء ونقص وكاد أن يستبد». (187)

كان لهذه الامتيــازات التي حظي بها الأمير عمر دون أخيه علي أثـرها في طمعه في خلع أبيه وتــولية نفسه سلطانا على المغرب. وكــان يدرك ما يمكن أن يسببه له أخــوه أبو الحسن من منافسة، فحاول التخلص منــه بدليل ما أورده ابن مرزوق الذي ذكر أنه سمع من السلطان أبي الحسن القول الآتي «فجئت يوما إلى خباء جيوشه - يعني أخيه عمر - فسمعتهم يتفاوضون في قتلي فتقهقرت ولم أظهر على نفسي أثر وفوضت الأمر لله». (188)

استغل أبو علي عمر بقاء السلطان أبي سعيــد عثمان في تازة بعد عودته من حملته على تلمسان فأعلن خروجه عن طاعته بفاس «فأطاعه الناس ولم يتوقفــوا عنه لما كان أبوه جعل إليــه من أمره». (189) وسـاعــده على ذلك كل رجال الــدولة المرينيــة باستثناء وزيــره إبراهيم بن عيسى اليرنيــاني الذي راسل السلطان بتازة والتحق به خوفا من بطش ابنه الثائر. (190)

حاول أبو سعيــد بعد ذلك التصدي لابنه وخــرج على رأس جيوشه من تازة لكنــه لم يكن يملك القوة الكافيــة لمنازلة أبي علي، «وكــان لقاء الجمعين بالمقرمــدة مابين فاس وتازة، فانهزمت جموع أبي سعيد وعــاد هو إلى تازة مثخنا بالجروح التي أصيب بها في هــذه المعركة»، (191) وعمل أبــو علي على

184) الناصري، الاستقصا م. س. جـ 3. ص 105.

185) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 321.

186) العباس بن إبراهيم، م. س. جـ 9. ص 287.

187) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 322.

188) ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن، الجزائر. 1981. ص 244.

189) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 106.

190) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 322.

191) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 106.

استغلال انتصاره لتصفية الأجواء من المنافسة على الحكم، فلاحق أباه وحاصره بمدينة تازة «وسعى الخواص بين السلطان وابنه في الصلح على أن يخرج له السلطان عن الأمر ويقتصر على تازى وجهاتها».(192)

أصبح أبو علي سلطانا للمغرب الأقصى بعد أن حدد نفوذ أبيه بمناطق تازة «وشهد الملأ من مشيخة العرب وزناتة وأهل الأمصار واستحكم العقد بينهما».(193) لكن ظروفه الصحية لم تساعده على مباشرة أمور التسيير بعد أن «اعتل عقب وصوله إلى فاس واشتد وجعه حتى أشرف على الهلاك»،(194) وكان ذلك بداية لفرار خاصته عنه خوفا من المحنة التي يمكن أن تلحقهم بعد معاودة السلطان الكرة على فاس واسترجاع ملكه.

تحرك أبو سعيد عثمان في اتجاه فاس حيث نفوذ ابنه يعرف تراجعا متزايدا مع الأيام بعد أن «اجتمع إليه كافة بني مرين والجند وعسكر على البلد الجديد وأقام محاصرا له».(195) مدة تزيد عن تسعة أشهر.(196) وجعل على ولاية عهده ابنه أبا الحسن علي. وكان نفوذ الأمير الثائر بفاس في هذه الفترة قد عرف تدهورا كبيرا حتى أن جيشه اقتصر على جماعة قليلة من النصارى بقيت ملتزمة بخدمته «لأن قائدهم يمت إليه بخؤولة».(197)

واضطر أبو علي عمر بعد هذا الضغط الذي لحق قواته إلى التفاوض مع أبيه «فبعث إليه في الصلح على أن يعوض سجلماسة وماوالاها فأجيب إلى ذلك».(198) ثم غادر فاس في شهر ذي الحجة من سنة 714هـ /. 1315م بعد أن عقد له أبوه «على بلاد القبلة ومدينة سجلماسة وبلاد درعة وما إلى ذلك

---

192) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 322.

193) نفسه، نفس الصفحة.

194) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 106.

195) نفسه، ص 107.

196) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية بدون تاريخ، جـ 4. ص 78.

197) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 323.

198) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 107.

إلى الصحراء وفوض له الأمر في خراجها وجميع أمورها»،(199) وكانت دولته بفاس الجديد ستة أشهر.(200)

اختار أبو علي عمر مدينة سجلماسة نتيجة إدراكه للأهمية التي كانت لها في اقتصاد المغرب خلال هذه المرحلة، كما أن لهذا الاختيار علاقة وطيدة برغبته في السيطرة على طرق التجارة الصحراوية، خاصة وأن سجلماسة، وكما أشار الأستاذ عبد الله العروي، كانت تعرف نشاطا تجاريا مهما في هذه الفترة تؤكده الأهمية التي أصبحت لسلطنة هذا الأمير بها.(201)

ولا يستبعد أن يكون وراء اختيار الأمير عمر للاستقلال بمدينة القوافل التجارية إحدى القوى المسيحية الأوربية لضمان استفادتها من تجارة الذهب. فنحن نعرف أن الجيش الذي التزم بخدمة الأمير أبي علي بعد مرضه بفاس كان مكونا من النصارى، وأغلبهم من الأراغونيين الذين ارتبطوا بخدمة المرينيين منذ عهد السلطان أبي يوسف يعقوب الذي أمضى معاهدة مع ملك أراغون J. Leconqurent أثناء محاصرته لسبتة حصل بموجبها على مرتزقة كطلانيين وأسلحة نارية كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ومهما كان من أمر في اختيار هذا الأمير الاستقلال بسجلماسة، فإن بلاد القبلة عموما كانت في هذه الفترة مؤهلة لأن توفر لأبي علي جميع لوازم استجماع القوة المادية والعسكرية. لذلك تعاقد هذا الأمير الثائر مع أبيه على أن يكون نفوذه عليها نفوذا كاملا خاليا من أية تبعية للعاصمة المرينية فاس وهذا ما يستفاد من رواية ابن أبي زرع الذي عاصر هذه الأحداث وقال بأن السلطان أبا سعيد عثمان فوض لابنه الأمر في خراجها وجميع أمورها، ومعنى ذلك أنه ولاه على تلك المناطق ولاية تفويض لا ولاية تنفيذ، وهو اعتراف ضمني باستقلاله بتلك المناطق وسيادته عليها وهذا ما

199) ابن أبي زرع، م. س. ص 399.

200) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، الرباط 1974. ص 494.

201) عبد الله العروي، م. س. ص 217.

شجع أبو علي عمر على التوسع في المناطق الجنوبية للمغرب الأقصى، إلى أن جعل من إمارته بها مملكة مرينية واسعة تناظر مملكة فاس.

عمل السلطان أبو سعيد عثمان بعد عودته إلى عاصمته مدينة فاس على التخلص من الذين ساعدوا ابنه على الثورة، وتكفل بذلك ولي العهد أبو الحسن علي الذي قتل منديل بن محمد الكناني كاتب أبي علي،(202) وشخصيات أخرى كان لها دور كبير في أمور التسيير. كما تلقى السلطان وولي عهده الجديد بيعة قبائل المغرب وعمال المخزن المريني على المراكز الكبرى، لكن استقلال أبو علي عمر بسجلماسة شجع بعض المناطق على إعلان العصيان، فكان لذلك أثره في خلق مشاكل عديدة للسلطان أبي سعيد تطلبت منه مجودات عسكرية جبارة.

كانت مدينة سبتة سباقة إلى خلع طاعة السلطان أبي سعيد بعد استقلال ابنه بسجلماسة، ولا يستبعد أن يكون لهذا الحدث علاقة وطيدة بشخص أبي علي نفسه. فمن المعروف أن هذا الأمير عين على سبتة لما ثار بفاس أحد خواصه وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي العلاء القرشي.(203) ومعروف أيضا أن السلطان أبا سعيد عثمان أسند أمرها إلى آل العزفي بعد تمكنه من إخضاع ابنه الثائر وعودته إلى عاصمة ملكه، لكن هؤلاء خلعوا طاعته سنة 716هـ / 1317م واستقلوا بالمدينة. وهو ما يدفع إلى الاعتقاد في أن لذلك علاقة بوجود أحد خواص أبي علي بها وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي العلاء القرشي الذي من المحتمل أن يكون قد لعب دورا في تنسيق الجهود بين الأمير أبي علي وآل العزفي.

تزامن تاريخ استقلال سبتة عن أبي سعيد عثمان مع الحملات العسكرية التي كان يقودها أبو علي على المناطق الجنوبية والشرقية لسجلماسة. وقد بعث السلطان المريني جيشا ضخما لمحاصرة مدينة سبتة تحت قيادة الوزير إبراهيم بن عيسى اليرنياني،(204) لكن هذه الحملة لم

---

202) ابن أبي زرع، م. س. ص 399.

203) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 327.

204) ابن أبي زرع، م. س. ص 400.

تحقق الأغراض المتوخاة منها. واستمر يحيى بن أبي طالب العزفي على خروجه عن طاعة المرينيين بل أصبح يهدد ملكهم بعد أن «استقدم من الأندلس عبد الحق بن عثمان فقدم عليه وعقد له على الحرب ليفرق الكلمة به ويوهن ببأسه عزائم السلطان».(205)

ورغم هذا النجاح الذي حققته مدينة سبتة تحت قيادة يحيى العزفي في مواجهتها لأبي سعيد عثمان، فإن قائدها عاد إلى طاعة المرينيين لأسباب غير معروفة. ذكر الناصري أن يحيى العزفي «رغب بعدها – أي بعد الحملة – في رضا السلطان وطاعته وولايته»،(206) غير أن الأحداث التاريخية التي تلت الحملة تؤكد أن علاقة أمير سبتة مع السلطان المريني لم تكن عادية تماما حتى بعد إعلانه الطاعة للمرينيين. فقد ذكر ابن خلدون أن السلطان نهض سنة تسع عشرة وسبعمائة إلى طنجة لاختبار طاعة الأمير يحيى العزفي فعقد له على سبتة واشترط هو على نفسه الوفاء لجباية السلطان.(207)

استفادت سبتة إلى حد كبير من التطورات السياسية التي شهدها جنوب المغرب في علاقته مع السلطان أبي سعيد عثمان في عشرينات القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. فقد حاول أبو علي عمر في هذه الفترة التحكم في مدينة مراكش، وأسند السلطان المريني أمر التصدي له إلى ابنه أبي الحسن، فكان ذلك فرصة مواتية لمحمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي للاستقلال بسبتة بعد وفاة أبيه سنة 720هـ / 1321م.(208) واستمر على خروجه عن طاعة المرينيين إلى أن توجهت إليه جيوشهم تحت قيادة السلطان نفسه سنة 728هـ / 1328م،(209) واقتحمت مدينته فأبعد السلطان

---

205) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 326.
206) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 115.
207) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 327.
208) نفسه، نفس الصفحة.
209) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 115.

المريني آل العــزفي عن تسييرهـا واستعمل عليهـا رجـالاتـه وخـواص مجلسه.(210)

ويتضح مما مضى التشابه الواضح في علاقة مدينتي سبتة وسجلماسة بالمخزن المريني لما عرفتا به من جنوح نحو الاستقلال تشهد عليه تطورات الأحداث السياسية بهما في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وأحداث الثلاثين سنة الأولى من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

ج – استقلال أبي علي عمر بسجلماسة وتحالفه مع بني عبد الواد :

ارتحل أبو علي عمر من فاس إلى سجلماسة في شهر ذي الحجة من سنة 714هـ / 1315م على رواية ابن أبي زرع،(211) وذكر ابن خلدون أن ذلك كان سنة 715هـ / 1316م.(212) ومن المعقول أن نأخذ بالرواية الأولى لكون صاحبها أقرب من هذا الحدث من غيره، باعتباره شاهد عيان لما كان يجري في العاصمة المرينية في الربع الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

وبعد وصول أبي علي وجموعه إلى سجلماسة «أقام بها ملكا ودون الدواوين واستلحق واستركب وفرق العطاء»،(213) وعمل على تثبيت دعائم ملكه بها. وقد مكنته موارد المدينة من الانفاق في أعطياته للعنصر العربي المعقلي، الذي أصبح بفعل تحالفه مع أبي علي القوة البشرية الفعالة في تحقيق الطموح السياسي لهذا الأمير المريني والضمانة الحقيقية لاستقلاله عن أبيه.

استطاع أبو علي التوسع بسرعة فائقة في المناطق الجنوبية لسجلماسة اعتمادا على «ظواعن العرب من المعقل»،(214) والمرتزقة النصارى الذين قدموا

---

210) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 327.
211) ابن أبي زرع، م. س. ص 399.
212) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 323.
213) نفسه، نفس الصفحة.
214) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 107.

صحبته من فـاس، فجعل من سجلماسة عاصمـة لمملكة مرينية بـالجنوب المغربي تسعى إلى التحكم في أكبر رقعة ممكنة من مجال النفوذ المريني.

توجهـت أول حملة لـلأمير أبي علي نحو قصـور الصحراء الـواقعة إلى الجنوب من سجلماسـة، وهذا ما يـدفع إلى الاعتقاد في أن ذلك كـان نتيجة للمشاكل التي بـدأت تعرفها التجارة الصحراويـة، بسبب تحكم عرب المعقل في مسالكها ونهبهم للقوافل المارة بمجالاتهم وما ترتب عن ذلك من انحراف الطرق نحو الشرق. وقد كان لموجـة الجفاف التي اجتاحت المغرب الأقصى في فترة حكم أبي سعيد عثمان أثرها في مـا قام به عرب المعقل من اعتراض للقوافل التجارية، فقد ذكر ابن أبي زرع أن البلاد عرفت تضررا كبيرا وهلك النـاس والدواب والمواشي والبقـر والغنم والخيل والإبل والدواويـر. بفعل تلك الكوارث.(215)

واستطاع أمير سجلماسة التحكم في هذه المنـاطق الصحراوية التي تضم قصور توات وتيكَـورارين وتمنطيت دون صعوبة.(216) ويرجع السبب في ذلك إلى كونها كـانت مأهولة من طـرف أولاد أبي الحسين من عرب المعقل، الذين عجزوا عن الظعن صحبة ذوي منصور فاستقروا في قصور الصحراء التي اختطتها زناتة قبل زحفهـا على مناطق شمال التل كما سبقت الإشارة إليه.

وبعد حملته على قصور الصحراء بدأ أبو علي يتطلع إلى ضم كل المناطق الواقعـة جنوب درن، فاتجهت أطماعـه نحو منطقـة سوس التي تطلبت من المرينيين مجهـودات عسكـريـة كبيرة في عهد يعقـوب بن عبـد الحق وابنـه يوسف، واستمرت على العصيان تحت قيادة أمراء بني يدر وأحلافهم ذوي حسان من عرب المعقل.

ولم يجد أمير سجلماسة مقاومة عنيفة بمناطق السوس بدليل تحكمه في أغلب أجزائهـا في فترة وجيزة وتمكنـه من القضاء على مملكـة بني يدر بها رغم عجز أسلافه المرينيين عن ذلك. أورد ابن خلـدون في موضوع سيطرة

215) ابن أبي زرع، م. س. ص 413.

216) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 323.

هذا الأمير على السوس روايتين مختلفتين أولاهما تذكر أن أبا علي «افتتحها وتغلب على ضواحيها وأثخن في أعرابها من ذوي حسان والشبانات وزكنة حتى استقاموا طاعته»،(217) وهذا ما يؤكد إخضاعه لها بحد السيف. الثانية تشير إلى أنه بعد استيلائه على سجلماسة «انضوى إليه هؤلاء الأعراب أهل سوس من الشبانات وبني حسان ورغبوه في ملك هذه القصور فأغزاها من تخوم وطنه بدرعة ودخل القرى عنوة».(218) فيكون أبو علي على هذا قد استجاب لدعوة الاعراب بالسوس الذين رغبوا في طاعته وحارب سكان القصور والقرى الذين استمروا على طاعتهم لبني يدر.

كانت منطقة السوس كما هو الحال بالنسبة لسجلماسة توفر الظروف المواتية للراغبين في الاستقلال ابتداء من مرحلة الضعف الموحدي، ويرجع السبب في ذلك على رأي أحد الدارسين إلى الموقع البعيد للمنطقتين معا عن مناطق تمركز نفوذ الدول، وصعوبة اجتياز الجيوش إلى كل منهما نتيجة صعوبة التضاريس، إضافة إلى احتكاك عرب المعقل بمجالاتهما ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي بما فيهم ذوي منصور بسجلماسة وذوي حسان بالسوس.(219) وعليه، فإن دعوة عرب ذوي حسان لأبي علي قصد التحكم في السوس نابع من علاقة العصبية وروابط الدم التي تجمعهم بأنصاره ذوي منصور. لأن امتداد نفوذ سجلماسة وسيادتها على جنوب المغرب خلال هذه المرحلة يعزى الفضل فيه إلى العنصر العربي المعقلي عموما، استثناء لذوي عبيد الله الذين بقوا بعيدين عن أي خضوع لسيادة أبي علي وأحلافه من عصبيتهم.

شرع أبو علي بعد أن تحكم في قصور السوس وواحاتها في الاستعداد للحملة على بني يدر المستقلين بتارودانت منذ زمن يعود لمنتصف القرن السابع الهجري بفضل دعم ذوي حسان لهم. وقد أصبحت حظوظ أمير سجلماسة كبيرة في القضاء عليهم بعد أن تقرب من عرب السوس، ولا

---

217) نفسه، نفس الصفحة.

218) نفسه، جـ 6. ص 92.

219) G. Marçais; Les arabes en berbérie; Op. cit. p : 382.

يستبعد أن يكون هذا التقارب قد تم بفعل الهبات والعطايا التي كان بإمكان أمير سجلماسة أن يقدمها لشيوخ قبائل ذوي حسان اعتمادا على موارد التجارة الصحراوية بعاصمة إمارته، فتحركت جيوشه نحو بلاد السوس واستطاعت الاستيلاء على عاصمة بني يدر بفضل غارة ليلية تمكن فيها الأمير أبو علي من قتل الأمير عبد الرحمان بن يدر وأباد سلطانه.(220)

ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن هذه الحملة كانت سنة 720هـ / 1321م.(221) غير أن المتتبع لتطور توسعات الأمير أبي علي في المناطق الجنوبية للمغرب الأقصى يستنتج أنها تمت قبل هذا التاريخ بسنة واحدة، لأن ابن خلدون الذي كشف لنا النقاب عن تاريخ بني يدر بالسوس اكتفى بالإشارة إلى أن هذه الحملة كانت قبل احتدام الصراع بين أمير سجلماسة وأبيه حول مراكش سنة 720هـ / 1321م.(222)

إن نجاح أمير سجلماسة في السيطرة على المناطق الواقعة إلى الجنوب من جبال درن شجعه على بسط نفوذه على المناطق الواقعة إلى الشمال منها، والتطلع إلى التحكم في مدينة مراكش إدراكا منه لأهميتها في تحقيق سيادته الفعلية على المناطق الجنوبية. فاتضحت بذلك للسلطان أبي سعيد عثمان أطماع ابنه في توحيد المغرب الأقصى، لأن التحكم في مراكش لم يكن سوى خطوة تمهيدية للإجلاب على باقي المناطق الشمالية للمغرب.

وأمام خطورة تطور الأوضاع بمناطق الجنوب أسند السلطان أبو سعيد إلى ابنه وولي عهده الأمير أبا الحسن مهمة التصدي لأخيه المستقل بسجلماسة، وأغزاه أياه في سنة 720هـ / 1321م.(223) ويرجع السبب في ذلك حسب رأي الناصري إلى أن أبا علي عمر تغلب على درعة وسما إلى طلب مراكش.(224) ونعرف أن درعة كانت ضمن نفوذ هذا الأمير منذ بداية استقلاله بسجلماسة بدليل ما ذكره ابن أبي زرع حين قال بأن أبا سعيد

220) ابن خلدون، العبر، م. س. جـ 7. ص 323.

221) D. J. Meunié; Le Maroc saharien; Op. cit; p : 287.

222) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 323.

223) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 323.

224) الناصري، الاستقصا، م. س. ص 110.

عقد لابنه على بــلاد القبلة ومدينة سجلماســة وبلاد درعة.(225) ومن هناك فإن بلاد درعة كــانت من مجالات نفوذ صاحب سجلماســة في العقد الذي أبرم بينــه وبين أبيه بعد فشــل ثورته بفــاس سنة 714هــ / 1315م. ومما يــؤكد هــذا الاتجاه أن ابن خلــدون أشار إلى أن حــركة أمير سجلماســة في اتجاه مناطق السوس كانت من تخوم وطنة بدرعة،(226) وعليه فإن السبب الحقيقي في إسناد السلطان المريني مهمة مواجهة أبي علي لأخيه أبي الحسن هو الصراع من أجل التحكم في مدينة مراكش.

تحركت جيــوش المرينيين من فاس في اتجاه مــراكش لما اتضحت نوايا أمير سجلماســة في ضمها لنفــوذه، وســار السلطــان أبو سعيــد على رأس الحملة رفقــة ولي عهده واجــد في السير حتى يتمكن من دخول هــذه المدينة قبل وصول جيوش ابنه إليهــا، فدخلها سنة 720هــ / 1321م وبقي «حتى سكن أحوالها وتفقــد أمورها وضبط ثغــورها واستخلف عليهــا كَندوز بن عثمان ورجع إلى مدينة فاس في آخر سنة عشرين».(227)

زادت هذه العناية الخاصة التي أولاها السلطان أبو سعيد لمدينة مراكش من رغبة ابنه في منافسته على التحكم فيهــا، واستعد أبو علي لذلك استعدادا كبيرا وخرج على رأس جموعه من سجلماسة سنة 722هــ / 1323م «وفاجأ كندوز بن عثمان عامل أبيه على مراكش فتقبض عليه وضرب عنقه»،(228) ثم ملك سائر ضواحي المدينة».(229)

وبالتحكم في مدينة مراكش لم تعد سجلماســة قاعدة ولاية ادية وإنما عاصمة لمملكة مرينية بالجنوب المغربي، لأن توسعات أميرها قسمت النفوذ المريني إلى مملكتين واحدة في الشمال عــاصمتها فاس وأخــرى في الجنوب عاصمتها سجلماســة. لكن المرينيين بفاس لم يكونوا ليقبلوا هــذه الوضعية

225) ابن أبي زرع، م. س. ص 399.
226) ابن خلدون، م. س. جـ 6. ص 98.
227) ابن أبي زرع، م. س. ص 400.
228) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 323.
229) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 110.

التي تعبر عن ضعف قوتهم أمام قوة أبي علي مادام في ذلك تطاول على مجالات نفوذهم، إضافة إلى أن العقد الذي أبرم بين أبي علي وأبيه أبي سعيد لا يخول لأمير سجلماسة بسط نفوذه على مراكش. فبدأ السلطان أبو سعيد في الاستعداد للقاء ابنه «وخرج من حضرته في عساكره بعد أن احتشد وأزاح العلل واستوفى الاعطيات»،(230) إرضاء لرغبات خاصته وتحسبا لأي خذلان أو ميل لجانب ابنه من طرف رجال الدولة، لأن من شأن ذلك أن يجعل جموع بني مرين تنحاز لأبي علي كما حدث في بداية تاريخ ثورته بفاس.

اتجهت حملة المرينيين إلى وادي ملوية الذي كان يمثل الحد الفاصل بين المناطق التابعة لفاس وسجلماسة، وانتهت جيوش السلطان أبي سعيد إلى مكان بها يسمى يويو* وباتوا ليلتهم يقظين خوفا من مباغتة جيوش أبي علي لهم.(231) ويرجح أن يكون المقصود بكلمة يويو في رواية ابن خلدون أحد الأماكن في سفوح جبال الأطلس حيث يبتدىء الممر الرابط بين الشمال والجنوب الذي هو ممر تيزي ن تالغمت. خاصة وأن المصادر تشير إلى أن الحرب دارت بين الطرفين في مناطق وادي ملوية وهذا يعني أن الجيوش المرينية لم تتجاوز خط تقسيم المياه بين حوضي زيز وملوية أي لم تتجاوز ممر تيزي ن تالغمت.

كانت المواجهة بين الطرفين سنة 723هـ / 1323م، وبما أن أبا علي قد تمكن من دخول تارودانت إثر غارة ليلية - وكذلك مراكش لأن الروايات الواردة أعلاه تشير إلى أنه فاجأ كَندوز بن عثمان - فإنه اتخذ الليل مطية لخوض حربه ضد أبيه بالمكان المسمى يويو في حوض ملوية. أشار الناصري إلى أن المرينيين «باتوا ليلتهم على ظهور خيلهم، وبعد مضي جزء من الليل طرقهم أبو علي في جموعه فكانت الدبرة عليه وفل عسكره».(232)

230) نفسه، نفس الصفحة.

*) وردت هذه الكلمة في نسخة أخرى من كتاب العبر باسم توتووفي أخرى نونو، انظر العبر، جـ 7. هامش. ص 424.

231) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 424.

232) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 110 - 111.

فتراجع نحو سجلماسة «وسلك على جبال درن وافترقت جنوده في أوعاره ولحقهم من ممراته شناعات حتى ترجل الأمير أبو علي عن فرسه وسعى على قدميه وخلص من ورطة ذلك الجبل بعد عصب الريق ولحق بسجلماسة».(233)

ولم يستطع السلطان أبو سعيد اللحاق بابنه نتيجة صعوبة التنقل بمرتفعات الأطلس فاتجه نحو مراكش لانتزاعها من يد عمال ابنه عليها. وعقد عليها «لموسى بن علي بن محمد الهنتاتي»،(234) فاستفاد هذا العامل من إقامته بها خيرما استفادة، بدليل ما ذكره عنه ابن خلدون حين قال بأنه «عظم غناه في ذلك واضطلاعه وأمتدت أيام ولايته».(235) ثم أصبح أبناؤه فيما بعد أسياد تلك المناطق خصوصا في مرحلة الضعف المريني.

وبعد تهدئة الأوضاع بالمناطق المجاورة لمراكش واسترجاعها من يد عامل أبي علي عليها، تحرك السلطان أبو سعيد على رأس جيوشه في اتجاه سجلماسة. لكنه تراجع قبل وصوله إليها لأن الأمير أبا علي «دافعه بالخضوع ورغبه إليه في الصفح والرضا والعود إلى السلم فأجابه السلطان إلى ذلك»،(236) لشغفه به وحبه له.(237)

لم يستطع أبو علي بعد الفترة التي لحقت عفو أبيه عنه التطلع إلى ربح مناطق جديدة على حساب النفوذ المريني، لكنه على العكس من ذلك شرع في ربط علاقات ودية مع أعدائهم الزيانيين. وقد ظهر هذا التوجه الجديد في سياسته وقت استعداده للقاء أبيه في حرب وادي ملوية سنة 722هـ / 1323م، لما بعث بسفارة إلى تلمسان قصد التعاون مع سلطانها ضد أبيه بفاس. وهذا ما أكده يحيى بن خلدون حين ذكر أنه في هذه السنة وصل إلى سلطان تلمسان أبي تاشفين بن أبي حمو أولاد أبي علي عمر بن

---

233) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 424.

234) نفسه، نفس الصفحة.

235) نفسه، نفس الصفحة.

236) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 111.

237) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 424.

السلطـان أبي سعيد عثمان المرينـي من سجلماسة مبعـوثين إليـه من قبل أبيهم.(238)

ولم يتوصل أبو علي إلى إبـرام اتفاق مع تلمسان، بدليل مـا ذكره يحيى بن خلـدون حين قـال أن أبـا تـاشفين «أرسل داود بن علي بن مجن إلى سجلماسـة لمفاوضـة الأمير أبي علي في كيفية المصـارخـة فلم يتفقا وعـاد المذكور مغضبا».(239) ولا نعـرف سبب فشل المفـاوضات بين سجلماسـة وتلمسان، غير أنه من المحتمل أن يكون السلطان الزياني قد اشترط شروطا لتحـالفه مع أبي علي، وهـذا مـا جعل أمير سجلماسة يغلظ القـول لسفيره الذي عاد إلى تلمسان مغضبا.

وحـاول السلطـان الزيـاني بعد فشل مفاوضاتـه مع أبي علي التقرب من السلطـان أبـي سعيـد عثمـان كما يفهم من رواية ابن خلـدون الذي ذكـر أن أبا تـاشفين «جنح بعـدهـا – أي بعد المفـاوضـات – إلى التمسك بالسلطـان أبي سعيــد فتعاقـدا على الصلح وأقاما عليـه مدة».(240) وهذه المدة هي المرحلة الفاصلة بين سنة اتصال أمير سجلماسة بأبي تاشفين، أي سنة 722هـ / 1323م وتـاريخ استنجاد الحفصيين بـالسلطان أبي سعيـد سنة 730هـ / 1330م لإنقـاذهم من ضغط الزيـانيين على مناطق نفـوذهم بالمغرب الأدنى.

اضطر السلطان المريني في فترة انتفاضـة ابنه عليه بسجلماسة إلى نهج سياسـة محلية ضيقـة تهتم بأوضـاع المغرب الـداخلية دون غيرهـا. وكان لتردي الأوضاع الاقتصـادية بالبـلاد نتيجة موجـات الجفاف والقحط التي ذكرناها أعلاه أثـرها في انحصار الاهتمام المريني بهذا المجال المحدود، ولم يستطع المرينيون نتيجة هذه التطورات مسـاعدة المسلمين بالأندلس بعد أن تراجعت عملياتهم العسكرية بها منـذ عهد السلطان يوسف بن يعقوب. كما أن أبا سعيـد عثمان لم يعمل على تـوجيه الجيـوش المرينية خـارج المغرب

238) يحيى ابن خلدون، م. س. جـ 2. ص 135.

239) نفسه نفس الصفحة.

240) ابن خلدون، م. س جـ 7. ص 146.

الأقصى طيلة فترة حكمــه، استثناء للحملة التــي وجهها ضد تلمســان بعد توليته في سنة 714 / 1315م.

وفي الوقت الــذي كان فيه السلطــان أبو سعيد عثمان منشغــلا بإصلاح الأوضـاع الاقتصـادية والسيـاسية للبلاد، كان بنو عبد الـواد وسلطانهم أبو تــاشفين عبد الــرحمان بن أبي حمو يــوجهــون حملاتهم العسكــرية نحـو المغرب الأدنى. وحاصروا بجاية سنة 724هــ / 1325م ثم تابعوا مضايقتهم للحفصيين إلى حدود سنــة 730هــ / 1330م حين أرسل سلطــانهم «جميع قواده بجيوش مــرؤوسين ليحيى بن موسى الجمي ومعهم ابن أبي عمران الحفصي الذي كان عنده بتلمسان». (241) واستطاعت جيوش الزيانيين خلال هــذه الحملة إلحاق الهزيمــة بسلطان الحفصيين أبي بكــر بن أبي زكريــاء، وبات نفوذهم يهدد المغرب الأدنى بأكمله.

وأمام عجز السلطان الحفصي عن مدافعة الجيــوش الزيانية أرسل ولده يحيى ووزيره أبا محمد عبد الله بن محمد بن تفراجين في البحر رسولين إلى ملك المغرب السلطان أبي سعيد راغبين منه كف عادية السلطان أبي تاشفين عنهم ومعرضين له لمصــاهرته ابنه.(242) وقــد جاء في كتــاب العبر أن طلب المصــاهرة كــان من الطرف المرينــي بعد أن نهض السلطــان أبو سعيــد إلى تلمسان بهدف مناصرة الحفصيين.(243)

وهكذا كان لتوسع الزيانيين بالمغرب الأدنى أثره في تحريك الحقد الدفين بين بني مرين وبني عبــد الواد، بعــد أن عرف الصراع بين الطرفين تــراجعا واضحا إثر الحصــار الطويل الذي فرضه السلطــان يوسف بن يعقوب على تلمسان في أواخر القرن السابع الهجري الثــالث عشر الميلادي وبداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وهذا ما دفع بالسلطان أبي الحسن إلى تجهيز حملات عديدة على تلمسان بهدف تحجيم نفوذ الزيانيين في مجالات المغرب الأوسط والحد من تطاولهم على مجال النفوذ الحفصي في الشرق.

---

241) يحيى بن خلدون، م. س. جــ 1. ص 137.

242) نفسه، صفحة 139.

243) ابن خلدون، م. س. جــ 7. ص 333.

كانت وفاة السلطان أبي سعيد عثمان سنة 731هـ / 1331م، بعد أن خرج من عاصمة ملكه مدينة فاس إلى مدينة تازة لاستقبال عروس ابنه الأميرة الحفصية. فكان لهذه المصاهرة أثرها في تمتين روابط الصداقة بين سلاطين فاس وسلاطين تونس، وهو ما كان له دوره البالغ في تو جيه أنظار المرينيين نحو المناطق الشرقية للمغرب الأقصى، بعد أن أصبح أبو الحسن سلطانا للمرينيين إثر وفاة أبيه.

د - الصراع بين أبي علي عمر وأخيه أبي الحسن علي

تولى أبو الحسن أمر تسيير المرينيين بعد وفاة أبيه أبي سعيد عثمان سنة 731هـ 1331م، وكان هذا التاريخ بداية لتدخل المرينيين في شؤون الزيانيين بالمغرب الأوسط بشكل أكثر فعالية مما كان عليه الأمر في المراحل السابقة. كما كانت لروابط المصاهرة بين أبي الحسن وأبي بكر الحفصي أثرها في اهتمام المرينيين بما يجري في مناطق الحدود الفاصلة بين الزيانيين والحفصيين. أشار ابن خلدون إلى أن أبا الحسن بعث رسله إلى السلطان أبي تاشفين سنة توليته «شفعاء للموحدين في المسالمة والإقلاع عن بجايتهم فلم تنجح رسالتهم»،(244) فشكل استمرار نفوذ بني عبد الواد على بجاية سببا مباشرا في الخلاف بين السلطان المريني ونظيره الزياني.

ولم تكن ظروف المغرب مواتية لتوجيه أنظار السلطان المريني نحو الخارج، لأن سجلماسة مازالت تحت نفوذ أميرها تمثل خطرا داهما لابد من أخذه في الحسبان قبل الإقدام على أي عمل عسكري في اتجاه الشرق. كما كان من المخاطرة بمكان أن يفتتح أبو الحسن عهده بمواجهة الزيانيين، مادام لم يتوصل بعد إلى حل مع أخيه المستقل بسجلماسة. فعجل بذلك قبل التفرغ لمواجهة أعدائه في الخارج «فارتحل من معسكره بالزيتون - بفاس - قاصدا سجلماسة».(245)

244) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 139.

245) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 35..

وتظهر الخطـورة التي كانت تمثلها سجلماسة في هـذه الفترة من خلال الاهتمام البالغ الذي أولاه أبو الحسن لها. فقد كان أول تحرك عسكري قام به هذا السلطان في اتجاهها، رغم ما كـانت تعرفه المناطق الشمالية للمغرب الأقصى من اضطـرابـات نـاتجة عن حملات بني عبـد الـواد التي وصلت منطقة تـاوريرت وألحقت الهزيمـة بجيوش المرينيين بها.(246) لكن ذلك لم يؤثر في عـزيمة السلطان المريني الذي فضل متابعـة السير نحو سجلماسة بدل التصدي لنبي عبد الواد. ثم تراجعت جيـوشه عنها لما أظهر أميرها أبو علي عمر رغبتـه في التصالح وبعث بوفـد للقاء أخيه «مـؤديا حقه ومـوجبا مبرته ومهنئـا له... ويعلمه مع ذلك بأنه متجـاف عن المنازعة لـه، قانع من تراث أبيه بما في يده، طالبا منه أن يعقد له بذلك».(247)

أجـاب السلطان أبـو الحسن أخـاه أبـا علي إلى ما سـأل، وعقد لـه على سجلماسة وما إليهـا من بلاد القبلة، كما كان لعهـد أبيهما وشهد على ذلك الملأ من القبيل وسائر زنـاتة والعرب.(248) وكان التعايش الـذي تم الاتفاق عليه بين الأخوين بداية لتحول اهتمام السلطان المريني نحو المناطق الشرقية للمغرب الأقصى، بعد أن تطاول بنو عبد الواد على مناطق نفوذه، فضلا عن توسعاتهم في المغرب الأدنى على حساب أصهاره الحفصيين.

وفي الـوقت الـذي تحركت فيـه الجيـوش المرينيـة في اتجاه تلمسـان وعسكرت بالمناطق القريبة منها سنة 732هـ / 1332م،(249) في انتظار قدوم سلطان الحفصيين، حسب ما تم الاتفاق عليه بين الطرفين،(250) انتقض أبو علي بسجلماسة على أخيـه وتحالف مع السلطان الزيـاني من أجل التعاون والتآزر في مواجهة السلطان أبي الحسن. وكـانت مبادرة إبرام هذا التحالف من طرف السلطان الزياني الذي أرسل وفدا إلى أبي علي في هذا الشأن.(251)

246) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 140.
247) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 119.
248) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 335.
249) نفسه، نفس الصفحة.
250) الناصري، الاستقصا. م. س. جـ 3. ص 119.
251) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 140.

وعمل أبـو علي على إثر هذا التحـالف على خلق مشاكل لأخيـه أبي الحسن، فشرع، في التوسـع بـالمناطق الجنـوبية لسجلماسـة» ونـهض منهـا إلى درعة، فقتل عاملها وولى عليها عاملا من قبله». (252) كما تطلع إلى إحياء ما كان له من سيادة ونفـوذ بالمناطق الـواقعة جنوب جبال درن، وكما حـدث في عهد أبيه «سرح العسكر إلى بلاد مراكش»، (253) بهدف شغل المرينيين عن مواجهة حلفائه الزيانيين.

وأمام تزايد نفوذ هذا الأمير بالمناطق الجنوبية للمغرب الأقصـى، عاد أبو الحسن من حملتـه على تلمسـان بعـد أن أوكل لابنـه تـاشفين ومنـديل بن حمامة شيخ بني تيربعين مهمة مـراقبة الزيانيين وأنـزلهما بتاوريرت. (254) ثم عاد على رأس حملته في اتجاه سجلماسة «فنزل عليهـا وأحاطت عساكره بها وأخذ بمخنقهـا وحشد الفعلة والصنـاع لعمل الآلات لحصارهـا والبناء بساحتها وأقام يغاديها القتال ويراوحها حولا كريتا». (255)

أشار بـاسـاك Bassac إلى أن مدينة جـديدة قد ظهرت بجـوار سجلماسة نتيجة طول مـدة الحصار الذي فرضه السلطـان أبو الحسن على أخيه أبي علي عمر. (256) ويذكـرنا هـذا بما أحدثـه المرينيون أثنـاء حصارهـم لمدينة تلمسان حيث بنى السلطان يوسف بن يعقوب تلمسان الجديدة (المنصورة) بجوار عاصمة الزيانيين. غير أننا نجهل مصدر معلومات هذا المؤلف في هذا الموضوع، لأن ذلك لم تشر إليـه المصادر المكتوبة التي أوردت تفـاصيل ما وقع في سجلماسـة أثناء حصـار المرينيين لها بقيـادة أبي الحسن. وإذا لم يكن هناك في المصـادر التـاريخية ما يؤكد ما ذهب إليه صـاحب هذا الرأي، فإنه ليس هناك ما ينفيه أيضـا، خاصة وأن حصار المرينيين لسجلماسة في هذه الفترة قد دام سنة كاملة، وهو ما يجعل بناء بعض المرافق المعمارية في المحلة من الأمور غير المستبعدة بالنظر إلى طول هذه المدة ؟

252) الناصري، الاستقصا. م. س. جـ 3. ص 119.
253) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 336.
254) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 120.
255) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 336.
256) Bassac; Sijilmassa d'après les auteurs arabes; Op. cit; p : 462.

وإذا كانت سجلماسة قد توصلت لإنقاذ حليفتها تلمسان بإعلان أميرها الخروج عن طاعة المرينيين أثناء محاصرتهم لها، فإن السلطان العبد الوادي أبا تاشفين قد عمل بدوره على رد الدين لحليفه «فنهض مغربا فنزل وادي زا».(257) ولما انتهى إلى تاوريرت «برز إليه ابن السلطان – الأمير تاشفين - في وزرائه وعساكره، وزحفوا إليه في التعبية فاختل مصافه وانهزم ولم يلق أحدا وعاد إلى منحجره».(258) وبعد فشل سلطان تلمسان في تحويل أنظار المرينيين عن سجلماسة بما قام به من غارات على المناطق الشمالية للمغرب الأقصى، بعث إلى أبي علي «بحصة من جنده مددا فتسربوا إلى سجلماسة جماعات وأقدادا حتى تكاملوا لديه ولم يغنوا شيئا».(259)

استمر السلطان أبو الحسن على حصاره لسجماسة حتى «اقتحم البلد عنوة وتقبض على الأمير أبي علي عند باب قصره وسيق إلى السلطان فأمهله واعتقله واستولى على ملكه».(260) وذكر الناصري أن اقتحام الجيوش المرينية لهذه المدينة كان في التاسع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وسبعمائة.(261) وكذلك جاء عند المقري في «نفح الطيب».(262) غير أن هذا التاريخ لا يمثل في حقيقته سوى تاريخ وفاة الأمير أبي علي عمر في سجنه بفاس،(263) أما تاريخ سقوط عاصمة إمارته في يد السلطان أبي الحسن فكان سنة 733هـ / 1333م كما ورد عند ابن خلدون،(264) بدليل أن أبا الحسن حاصر سجلماسة سنة كاملة بعد أن عاد إليها من تاسالت بالمغرب الأوسط سنة 732هـ / 1332م، وهي السنة التي قاد فيها حملته ضد الزيانيين كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه. فيكون تاريخ سقوط سلجماسة بعد هذا التاريخ بسنة، لأن حصارها دام عاما كاملا.

---

257) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 1. ص 140.
258) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 337.
259) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 120.
260) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 337.
261) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 120.
262) المقري، نفح الطيب، م. س. جـ 5. ص 156.
263) ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس، م. س. جـ 2. ص 495.
264) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 337.

وذكـر ابن القـاضي المكنـاسي أن أبـا علي حكم سجلماســة تسعـة عشر سنة،(265) رغم أن فترة حكمه لم تستمر في الواقــع سـوى ثمانية عشر سنة. ويرجع السبب في ما قاله هذا المؤلف إلى أنه اعتبر تاريخ وفاة أبي علي عمر بمدينة فاس هو تاريخ نهاية ملكه بسجلماسة. وقد توفي الأمير أبو علي عن سن ينـاهــز سبعـة وثـلاثين سنــة، لأن ولادتـه كــانت سنــة 696هــ / 1298م.(266)

هـ - سجلماسة في السنوات الأخيرة من عهد الازدهار المريني

عرف المخزن المريني في المرحلة الواقعة بين سنة تولية أبي سعيد عثمان 710هـ / 1310م وسنة وفـاة أبي عنان فـارس 759هـ / 1358م نوعا من الاشعاع السياسي تمثل في رغبة بعض السلاطين في بسط النفوذ المريني على كل منـاطق بلاد المغـرب. ورافق ذلك اهتمام ضيق بأوضاع الأنـدلس، لأن حظوظ النجاح بها لم تكن في صالح المرينيين تماما.

ففي الـوقت الذي كـان فيه أبو علي عمـر يعمل على التوسع في المنـاطق الجنوبيـة المغربيـة بهدف شغل السلطان أبي الحسن عن حصــار تلمسان سنة 732هـ / 1332م، كانت أوضاع الأندلس تعرف تدهورا متزايدا أثر على النفــوذ الإســلامي بها. وهــذا مـا جعل السلطـان محمـد بن إسماعيل بن الأحمر يطلب النجـدة من المرينيين، فقـدم لهذا الغـرض على السلطـان أبي الحسن لكن التطـورات السياسية التي كـانت تعرفهـا المناطق الجنـوبية لم تسمح للسلطان المريني بالاستجابة لسلطان بني نصر والعبور بصحبته إلى الأندلس، واقتصر على إمداده بالجند «وعقد لابنه أبي مالك على خمسة آلاف من أنجـاد بني مـرين وأوفـدهم مع ابن الأحمر لمنـازلـة جبل الفتح».(267) وتوجـه هو إلى سجلماســة فحاصرهـا حتى سقطت في يـده سنة 333هـ / 1333م.

265) ابن القاضي، المكناسي، م. س. جـ 2. ص 494.

266) نفسه، نفس الصفحة.

267) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 122.

استطـاعت الجيوش المرينيـة التي عبرت إلى الأنـدلس صحبة السلطـان النصري افتتـاح جبل طارق في نفس السنـة التي تحكم فيهـا السلطان أبـو الحسن في سجلماسـة وطـردت الجيـوش القشتـاليـة عن المضيق بعـد أن استلوت عليه منذ سنة 709هـ / 1310م في عهد أبي الـربيع سليمان. وكان من نتائج التقارب المريني النصري في عهد أبي الحسن عودة الثقة إلى علاقة الطـرفين. ولم يمنع السلطان المريني مملكـة غرنـاطـة من ممارسـة كافـة سلطاتها في الأندلس، كما لم يعمل سلاطينهـا على التدخل في شؤون المغرب الداخلية.(268)

وبعـد أن تخلص السلطان أبـو الحسن من أخيـه أبي علي بفاس سنـة 734هـ / 1334م، شرع في الاستعداد للحملة على بني عبـد الواد، فتحرك في اتجاه تلمسان في السنة التي تلت هذا التاريخ. واكتسح النفوذ المريني أغلب المناطق التابعة للزيانيين في مدة لا تتعدى سنة واحدة، ووفدت على السلطان أبي الحسن القبائل المستقرة في شرق المغرب الأوسط كمغراوة وبني توجين معلنة طاعتهـا له.(269) واستمـر المرينيـون على حصـارهم لتلمسـان حتى تمكنوا من اقتحامها بعد سنتين من بداية حصارهم لها أي في سنة 737هـ / 1337م، لأن هذه الحملة المرينية كـانت تهدف في المقام الأول إلى القضاء على ملـك بني عبـد الواد بالمغـرب الأوسط. وهو مـا يبرره كلام الناصري حين قال بـأن أبا الحسن لم يترك حصـار تلمسان منذ أن دخـل مجال النفوذ الزياني واختط بغـربها البلد الجديد لسكناه ونزول عسـاكره وأحيى معالم المنصورة التي كان اختطها عمه يوسف بن يعقوب.(270)

وهكذا استطاع أبو الحسن المريني القضاء على مملكة بني عبد الواد بعد أن قتل سلطانهم أبـا تاشفين بن أبي حمو. ولم يظهر أمراء بنـو زيان على مسرح الأحداث السيـاسية من جديـد إلا بعد فشل حملة هـذا السلطان على المغرب الأدنى. فزاد استيلاؤه على المغرب الأوسط من مكانة المخزن المريني

268) Abdelhaq Bennani; Op. cit; p 123.

269) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 339.

270) الناصري، الاستقصا، م. س، ج 3، ص 124.

السياسية في الحوض الغربي للأبيض المتوسط، وحظي أبو الحسن باحترام أمثاله من ملوك عصره.

وكان للنجاح العسكري الذي حققه المرينيون بالمغرب الأوسط أثره في تشجيعهم على مواصلة جهودهم من أجل التحكم في مناطق أخرى من بلاد المغرب وهذا ما يفسر معاودة اهتمامهم بالجهاد وأوضاع الأندلس عامة لكن إمكانياتهم لم تكن تسمح لهم بالقيام بهذا الأمر على الوجه الأكمل. خاصة وأن ميزان القوى كان في صالح الممالك المسيحية خلال هذه الفترة، وهذا ما دفع بالأستاذ عبد الله العروي إلى القول بأن محاولة الجهاد المريني بالأندلس كانت تتم عامة في أحوال أقل ملاءمة للغاية من أحوال أسلافهم الموحدين.(271)

وتعتبر وقعة طريفة خير مثال على ما ذهب إليه صاحب هذا الرأي، لأن الجيوش المرينية انهزمت فيها شر هزيمة سنة 741هـ / 1341م، وكانت نتائجها شبيهة بما وقع بالمغرب الأقصى عقب هزيمة الموحدين في معركة العقاب. ولم يستطع المخزن المريني بعدها أن يظهر بمظهر القوة الذي كان عليه قبلها، رغم ما بذله أبو الحسن وأبو عنان من جهود لإثبات قوتهم العسكرية ببلاد المغرب.

عرف المغرب بعد هزيمة طريفة ضعفا كبيرا في عدد سكانه بسبب الطاعون الأسود «الذي نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة... وذهب بأهل الجيل وطوف كثيرا من محاسن العمران ومحاها».(272) وقد تنبه ابن خلدون إلى الضعف الذي كانت تعاني منه دول بلاد المغرب زمان اجتياح هذا الوباء الجارف لهذه المناطق وقال بأنه «جاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها».(273)

ورغم الظروف العصيبة التي كان المغرب يعيشها في هذه الفترة كان السلطان أبو الحسن المريني يعد العدة للحملة على بلاد المغرب مدفوعا

271) عبد الله العروي م. س، ص 204.

272) ابن خلدون، المقدمة، ص 43.

273) نفسه، نفس الصفحة.

برغبته في مساعدة أصهاره الحفصيين - وكان قد صاهرهم ثانية بعد وفاة زوجته السيدة فاطمة بنت السلطان يحيى الحفصي في معركة طريفة - أو على الأصح مدفوعا برغبته في بسط نفوذه على كل بلاد المغرب. غير أن هذا الطموح المريني كان محفوفا بكثير من المخاطر، لأن الحركة نحو إفريقية كانت في وقت «كاد فيه الطاعون أن يأتي على الخليقة أجمع».(274)

لقيت هذه الحملة معارضة من طرف بعض رجالات الدولة المرينية، وتخوف عدد منهم من الإقدام عليها، لأن قدرات المرينيين لم تكن بالقوة اللازمة لتحقيق الأغراض المرجوة منها. وقد سجل الكفيف الزرهوني موقف الوزير عيسى بن الحسن المعارض للحملة حين قال

قالْ لِي رِيتْ وَأَنَا بِها أَدْرى
لكن إذا نْزْل لْقْضَا عمَّت لْجْفَان
ونْقُول لِكْ مَارْمَى الْمْرِينَا
من حْضَرة فاس إلى عَرَبْ ذْبَابْ(275)

وهذا ما نلمسه أيضا في كلام ابن أبي حجلة الذي أشار إلى أن الكثير من الناس كانوا يآخذون على أبي الحسن إقدامه على الحروب بدعوى أن ذلك من باب الطيش، لأنه «كان يقتحم الهيجاء بنفسه ويلحق في الحرب يومه بأمسه، فهو وإن كان فارسا كرارا وخلص بقائم سيفه مرارا، فإنه ليس المخاطر بمحمود وإن سلم».(276)

ورغم أن السلطان أبا حسن المريني لم يلق صعوبة كبيرة في الاستيلاء على قسطنطينة وبجاية وأيضا تونس، فإن انتقاض عرب ذباب عليه بالمغرب الأدنى وانهزام جيوشه أمامهم يعكس ضعف قواته وما لحق النفوذ المريني عامة من وهن، رغم مظهر القوة الذي نلمسه فيما كتبته المصادر عن مرحلة حكمه. وقد تكررت هذه العملية في عهد أبي عنان فارس الذي اضطر هو الآخر إلى الالتحاق بالمغرب الأقصى على جناح السرعة، بعد

274) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 181.

275) الكفيف الزرهوني، ملعبة، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط 1987، ص 65.

276) ابن أبي حجلة، المغربي التلمساني الحنفي، سكردان السلطان، مصر 1306هـ ص 62.

استيلائه على بعض مدن المغرب الأدنى.(277) وإذا كان المرينيون قد ظهروا في عهد أبي الحسن وابنه أبي عنان بمثابة الورثة الحقيقيين للموحدين في مجال السيادة ببلاد المغرب، فإن هذا الحلم الذي راودهم مرارا كان يفوق إمكانياتهم العسكرية بكثير على حد قول هنري تيراس.(278)

مثلت سجلماسة في هذه الفترة منطقة جبائية مهمة للدولة المرينية، وقد عدها علي بن يوسف الحكيم من بين المناطق الخمسة الأساسية في الجباية المرينية على عهد أبي الحسن وأبي عنان وقال «الأقطار التي تجب فيها الأعشار في بلادنا هي حضرة فاس وما والاها من البلاد إلى سلا وتازى... وسبتة وما والاها من البلاد إلى الريف والهبط إلى قصر كتامة... ومراكش وماوالاها من البلاد إلى سوس... ودرعة وسجلماسة وماوالاها من البلاد... وتلمسان وماوالاها وما ورائها من البلاد إلى الجزائر».(279)

ويعود هذا التقسيم الذي أورده علي بن يوسف الحكيم إلى سنة 736هـ / 1336م، وهي السنة التي استولت فيها الجيوش المرينية على أغلب مناطق المغرب الأوسط قبل سقوط تلمسان في يد أبي الحسن في السنة التي تلتها كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

كانت موارد الجباية المرينية من سجلماسة تعادل في هذه الفترة ما كانت تتم جبايته من العواصم المغربية الكبيرة كمراكش وفاس. ويتضح ذلك من خلال الجدول الذي أعده المستشرق لوي ماسنيون Massignon حول الموارد الجبائية للدولة المرينية ما بين سنة 709هـ / 1310م وسنة 751هـ / 1351م، حيث كانت سجلماسة ودرعة تدفع للمرينيين 150 ألف مثقال ذهبي.(280)

ولم تعرف سجلماسة اضطرابات سياسية على عهد أبي الحسن المريني عكس ما كان عليه الأمر في الفترات السابقة لمرحلة حكمه، وهذا ما يدفع إلى

---

277) ش. أ. جلويان، تاريخ افريقيا الشمالية، س. جـ 2. ص 184 – 185.

278) H. Terrasse, Histoire du Maroc; T. 2 Op. cit; p 13.

279) علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة، م. س. ص 179 – 180.

280) L. Massignon; Le Maroc; Op. cit. p : 180.

التساؤل عن الأسباب التي حدت بسكانها إلى التزام طاعة المخزن المريني في هذه المرحلة بالذات ؟ يرجع ذلك على حسب ما نعتقد إلى عوامل سياسية واقتصادية

بالنبسة للأولى كان لتسامح هذا السلطان المريني مع أهل هذه المدينة بعد دخوله إليها عنوة على أخيه أبي علي عمر،(281) أثره في تشبت سكانها بطاعته والامتثال لأوامر ابنه إبراهيم واليه عليها.(282) ولا يستبعد أن يكون هذا الأمير قد تقرب من عرب المعقل المتحكمين في مجالاتها واستمالهم بالعطايا حتى ضمن بذلك طاعتهم لأبيه.

أما الثانية فقد كان لإصلاح نظام الضرائب الذي استحدثه أبو الحسن المريني وعممه على جميع بوادي المغرب ومدنه بالغ الأهمية في طاعة سكان سجلماسة وتشبتهم بولائهم له، فقد رفع عنهم «المغرم الذي تعوده أهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة فإنهم كانوا يغرمون مغرما يسمونه الجمون(*) في النخل والزرع ويجتمع فيه كل سنة أحمالا من الذهب مغرما ألفوه»،(283) «واقتصروا بعد هذا الأمر النكر على الزكاة والعشر».(284)

أشار ابن مرزوق الخطيب الذي كان من المقربين من السلطان أبي الحسن وشاهد عيان لما كان يجري بالمغرب من أحداث خلال هذه المرحلة إلى أن أبا الحسن «رفع عن أهل البوادي جملة ألقاب لا تحصى كالخرس(*)

---

281) ابن مرزوق، المسند، م. س. ص 203.

282) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 1. ص 304.

*) الجمون ينطق بتافيلالت بالجيم المصرية والجمع كَمامين وتصغيره الكَميمينة وهي جزء الكَمون. كما تقسم الكَميمينة إلى أجزاء، ويسمى الجزء منها الشرويط. ويستعمل لفظ الحوض أحيانا كمرادف للكَمون، لكن الحوض يستعمل في غالب الأحيان للدلالة على البحيرة أي على مزروعات الخضر، أما الكَمون فيستعمل للدلالة على الزراعات المختلفة الأخرى كالزرع والشعير والذرة والفصفصة وغيرها.

283) ابن مرزوق، المسند، م. س. ص 283.

284) نفسه، نفس الصفحة.

*) الخرس هذه الكلمة من التخريس وهو التقدير العام أي الجزاف، وتقدير المنتوج قبل نضج الفاكهة ممنوع شرعا. ومع ذلك كان المخزن المريني يفرضها على أهل البادية معتمدا في ذلك على تقدير الخراس لقيمتها بناء على قيمة الغلات والإنتاجهم الزراعي.

والبرنس(*) والضيافة(*) والانزال(*) والقاعة(*) والخطيئة(*)(285) وكلها أسماء لضرائب كان أهل البادية يؤدونها للمرينيين قبل عهد أبي الحسن. وكان للتخلي عنها أثره في استقرار أوضاع المغرب الأقصى عموما خلال فترة حكم هذا السلطان، بما في ذلك إقليم سجلماسة الذي ظل لفترة طويلة خارجا عن سلطة المرينيين بفاس.

ومما يؤكد تشبث إقليم سجلماسة بطاعة السلطان أبي الحسن تقرب عرب المعقل منه بعدما كانوا فيما سبق يسببون مشاكل متعددة لأسلافه. ذكر ابن خلدون أن أبا الحسن «أوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير مع الوفد الذي بعثه إلى مالي ذهابا وإيابا وأسند هذه المهمة لعلي بن غانم زعيم أولاد حسين المستقرين بمجالات درعة وسجلماسة». (286)

إن تقرب السلطان المريني من عرب المعقل كان نتيجة لسيادة هؤلاء على مجالات استقرارهم، لأنهم كانوا يباشرون مراقبتهم على الطريق الصحراوي الرابط بين المغرب ومالي، وهوما يبرر تقرب السلطان منهم لقدرتهم أكثر من غيرهم على ربط الاتصال بينه وبين منسى سليمان سلطان مالي الذي خلف منسى موسى بعد موته سنة 736هـ / 1336م.(287) وإدراكا منه بأن

---

*) البرنس هو ما يعرف عند العامة بـ السلهام، وضريبة البرنس كانت تؤدى على قطيع الغنم خلافا للخرس التي كانت تؤدى على الإنتاج الزراعي، وقد أستعملت هذه الكلمة في النظام الجبائي بصيغة كناية، لأن الشاب حينما يرتدي السلهام فإن ذلك يعني أنه وصل سن الرجولة وأن في ملكه خيمة وقطيع من الأغنام.

*) الضيافة هي إطعام خدام المخزن من الموظفين أو الجند في حالة مرورهم بمجالات قبيلة ما.

*) الانزال يقصد بهذه الضريبة نزول خدام المخزن عند شخص من الأشخاص في البادية. وقد كان الانزال يضر بأهل البادية لأن من تكفل بإعالة رجال المخزن كان يطالب السكان بنصيبهم في ذلك.

*) القاعة معناها الضريبة التي كانت تفرضها الدولة على الأماكن المخصصة لبيع سلعة معينة، وتؤدى هذه الضريبة لامين السوق أو أمين القاعة.

*) الخطيئة وهي الضريبة التي كان يأخذها المخزن من أهل البادية عقابا لهم على ارتكابهم لمخالفة ما في حق الجماعة أو في حق الدولة نفسها، وهي ما يعبر عنها عند العامة بـ الخطية.

285) ابن مرزوق المسند. م. س. ص 284.

286) ابن خلدون م. س. جـ 7. ص 353.

287) بوفيل، الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء، القاهرة 1968، ص 121.

الهدية المرينية التي كان يريد إرسالها إلى مالي لم يكن وصولها إليها ممكنا بدون إشراف زعيم عرب أولاد حسين عليها.

قصد أبو الحسن مدينة سجلماسة صحبة وليه ونزمار بن عريف، بعد أن فشلت حملته على المغرب الأدنى وثورة ابنه أبي عنان عليه أثناء تواجده بتونس فدخلها سنة 750هـ / 1350م. وكانت آنذاك تحت قبضة عامل أبي عنان الذي فر عنها بعد كل ما عاينه من تشبث سكانها بطاعة أبي الحسن. ذكر الناصري أن أهل هذه المدينة لما عاينوا السلطان «تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج حتى خرج إليه العذاري من ستورهن ميلا إليه ورغبة في ولايته».(288) وقد كان هذا الإقبال الذي لقيه أبو الحسن بسجلماسة كافيا لأن يشجعه على استجماع قوته بها لاسترجاع ملكه من يد ابنه أبي عنان. لكن هذا الأخير لم يمهله وبادر إلى قيادة جيوشه في اتجاهها «بعد أن أزاح عللهم وأفاض عطاءه فيهم».(289)

وكان أبو عنان فارس قد استطاع استمالة ونزمار بن عريف زعيم عرب سويد قبل تجهيزه للحملة على سجلماسة، فاضطرْ السلطان إلى الخروج عنها وتوجه إلى مراكش سنة 751هـ / 1351م، ومن هناك إلى منطقة استقرار قبيلة هنتاتة في جبال درن حيث توفي بعد سنة من وصوله إليها.

دخلت جيوش أبي عنان مدينة سجلماسة وعقد السلطان عليها ليحياتن ابن عمر بن عبد المومن كبير بني ونكاسن،(290) بعد أن نهب أطرافها على رواية الزركشي.(291) وكان ذلك سببا في إعلان سكان سجلماسة خروجهم عن طاعة أبي عنان. فقد ذكر ابن خلدون في هذا الصدد أن عرب أولاد حسين من ذوي منصور «خالفوا على السلطان أبي عنان أعوام خمس

288) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 3. ص 172.
289) نفسه، نفس الصفحة.
290) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 378.
291) الزركشي، م. س. ص 90.

وخمسين وسبعمائة وما بعدها ونازلوا سجلماسة وأوقعت بهم عساكر بني مرين».(292)

ويفهم من كلام هذا المؤلف أن سجلماسة استمرت على خروجها عن طاعة أبي عنان بعد التاريخ المشار إليه أعلاه، وهو ما تؤكده الأحداث التي عرفتها هذه المنطقة بعد وفاة هذا السلطان، حيث أصبح لعرب المعقل بها سيادة فعلية ونفوذ قوي تمثل في مبايعتهم لأبناء أبي علي عمر، ومساعدتهم لهم على الاستقلال في فترة تغلب الوزراء على السلاطين المرينيين بفاس.

---

292) ابن خلدون، م. س. جـ 6. ص 71.

2 – سجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي : مرحلة التراجع.

أ – تحالف عرب المعقل مع بني عبد الواد

ازدادت وضعية الدولة المرينية تعقيدا بعد موت السلطان أبي عنان فارس سنة 759هـ / 1358م، وتجلت معالم الضعف في سطوة الوزراء واستبدادهم على السلاطين بدليل أن من أصل سبعة عشر سلطانا الذين تعاقبوا على زعامة المرينيين بعد وفاة هذا السلطان، سبعة منهم قتلوا على يد وزرائهم وخمسة تم خلعهم، في حين استمر خمسة منهم فقط على رأس الدولة حتى ماتوا موتتهم الطبيعية.(293)

وكان الأشخاص الذين تعاقبوا على منصب الوزارة في هذه المرحلة تربطهم علاقة التحالف أو المصاهرة مع الأسرة الحاكمة، لكن مهامهم وصلاحياتهم لم تكن محددة، وهذا ما ساعدهم على التغلب والتمتع بسلطة مطلقة تجلت في قيادتهم للجيوش واختصاصهم بجميع أمور التسيير الإداري، فساهموا بدور كبير في تراجع وضعف المخزن المريني في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.(294)

لم تستطع عاصمة المرينيين خلال مرحلة الضعف فرض نفوذها على كل مناطق المغرب الأقصى، واستغلت بعض الأقاليم هذه الوضعية، فأعلن شيوخ القبائل بها استقلالهم وبايعوا بعض أبناء الأسرة الحاكمة ليموهوا بهم على العامة، كما هو الشأن مع عامر بن محمد بن علي الهنتاتي بمراكش، وشيوخ عرب المعقل بسجلماسة.

وكان من نتائج الضعف والانهيار الذي عرفه النفوذ المريني بالمغرب الأقصى ظهور أطماع القوى الخارجية وتوالي تدخلاتها في شؤون البلاد

---

293) H. Terrasse; Histoire du Maroc; T. 2; Op. cit. p : 86 - 87.
294) Mohamed Fatha; cit. p : 132.

الداخلية، ونموذج ذلك سلاطين بني نصر الذين ساهموا بحصة وافرة في تولية وخلع السلاطين المرينيين في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري. وكذلك الشأن بالنسبة لسلاطين تلمسان الذين جهزوا بدورهم بعض الأمراء وأمدوهم بالجيوش والعتاد ووجهوهم نحو العاصمة فاس، فضلا عن دور مملكة قشتالة في مساعدة بعض السلاطين المرينيين في الوصول إلى الحكم.

عمل الوزير حسن بن عمر على الاستبداد بأمور التسيير بعد وفاة السلطان أبي عنان، وموه على أشياخ بني مرين بالسلطان أبي بكر السعيد الذي أخذ له البيعة في سن الخامسة من عمره سنة 759هـ / 1358م.(295) وإذا كان استبداد هذا الوزير لم يثر ردود فعل في العاصمة المرينية، فإنه أعطى إشارة الانطلاق لانتفاضة الأقاليم، فحاول عامر بن محمد بن علي شيخ قبيلة هنتاتة الاستقلال بجهات مراكش وبايع أحد أبناء أبي عنان بها وهو محمد المعتمد.(296)

ورغم اضطراب الأوضاع الداخلية للمغرب الأقصى في هذه المرحلة، اهتم الوزير حسن بن عمر بالتطورات السياسية التي شهدها المغرب الأوسط، فجهز الجيوش لمحاربة أبي حمو بن يوسف الزياني – الذي أعاد ملك بني عبد الواد إلى تلمسان بعد أن تم القضاء عليه من طرف أبي عنان فارس للمرة الثانية سنة 753هـ / 1353م – وجعل على رأس هذه الحملة الوزير عبد الرحمان بن ماسي. وقد اضطر أبو حمو موسى الزياني أمام زحف الجيوش المرينية إلى طلب المساعدة من عرب المعقل «فأرسل من أعيان قبيله رسلا إلى المعقل شيعة أمره العزيز وكانوا برأس العين من قبلة دبدو يقول انهضوا والموعد وجدة ثم عرج إليها فسبقه للحلول بساحتها المعقل».(297)

سببت حملة الوزير الحسن بن عمر على تلمسان مشاكل عديدة له ولسلطانه، لأنها لم تحقق الأغراض المرجوة منها وهي القضاء على نفوذ

295) خير الدين الزركلي، الإعلام، جـ 2. ص 68.

296) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 397.

297) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 2. ص 51.

الزيانيين، فضلا عن أنها أسفرت عن مبايعة أشياخ بني مرين لمنصور بن سليمان بإيعاز من قائد الحملة الوزير عبد الرحمان بن ماسي. وهذا ما جعل الملأ من بني مرين ينفض عن الوزير المستبد بفاس إلى السلطان الجديد الذي اجتمعت إليه وفود القبائل المغربية معلنة بيعتها له بعد عودته من تلمسان،(298) في وقت كان فيه الحسن بن عمر يحاصر عامر بن محمد بن علي الهنتاتي وسلطانه محمد المعتمد بضواحي مراكش.

تمكن الأمير أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن في هذه الفترة من الحصول على مساعدة قشتالة بعد أن فشل في الحصول على دعم مملكة غرناطة.(299) واستطاع بعد حروبه مع منصور بن سليمان دخول العاصمة المرينية سنة 760هـ / 1359م،(300) مسجلا بذلك إعادة الاعتبار لنفوذ السلاطين المرينيين في الداخل والخارج أي في صراعهم مع الوزراء ومع القوى الخارجية.

افتتح هذا السلطان عهده بالتخلص من الوزراء وتغلبهم، ثم شرع في الاستعداد لمواجهة بني عبد الواد – الذين كانوا يشنون الغارات على المناطق الشمالية للمغرب الأقصى ويحرضون أحلافهم من عرب المعقل على شق عصا الطاعة للمرينيين – بعد أن أصبح عرب أولاد حسين من ذوي منصور أحلافا لأبي حمو موسى الثاني بفضل جهود عبد الله بن مسلم في استمالتهم إلى الجانب الزياني.

ويرجع نسب عبد الله بن مسلم إلى بني زردال من بني بادين اخوة بني عبد الواد وتوجين.(301) سمحت له وظيفته كعامل للمرينيين على درعة في عهد أبي عنان وابنه أبي بكر السعيد من التقرب من عرب المعقل المستقرين بتلك الجهات. ولما استبد الوزير حسن بن عمر على أبي بكر السعيد بفاس واتضحت نيته في التخلص من الأمراء المرينيين، تكفل عبد الله بن مسلم

---

298) عبد الرحمان بن خلدون، م. س. جـ 7. ص 401.

299) ابن الخطيب، الإحاطة. م. س. جـ 1. ص 306.

300) نفسه، اللمحة البدرية في الدولة النهرية، بيروت 1979. ص 118.

301) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 166.

بقتل أبي الفضل بن أبي الحسن. فكان دخول أبي سالم إبراهيم إلى المغرب واستيلائه على مقاليد الحكم بفضل الدعم القشتالي عاملا مباشرا دفع بعبد الله بن مسلم إلى الفرار عن مقر ولايته «وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه لذلك»،(302) وقد حظي عبد الله بن مسلم بعناية كبيرة لدى السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني الذي اتخذه وزيرا. فكان لذلك بالغ الأثر في نشوب الحرب من جديد بين المرينيين والزيانيين.

نهض أبو سالم إبراهيم لحرب بني عبد الواد في سنة توليته بالمغرب، وحاصر عاصمتهم تلمسان وأرغم سلطانها ووزيره عبد الله بن مسلم على الفرار إلى مناطق استقرار بني عامر من زغبة، وراسلا من هناك عرب بني معقل طالبين منهم المساعدة فأجابوهم كافة الاشردمة من الأحلاف.(303) والمقصود بهذه الشردمة هنا في كلام الناصري هم العمارنة الذين كان أميرهم الزبير بن طلحة متحيزا إلى المرينيين في هذه الفترة.(304)

دخل أبو سالم عاصمة بني عبد الواد في سنة 761هـ / 1360م وعقد عليها لأمير من الزيانيين من حفدة السلطان أبي تاشفين بن أبي حمو الأول. لكن هذا الأخير لم يستطع الحفاظ على نفوذه بها، بعد أن عاود أبو حمو موسى الثاني وأنصاره من عرب المعقل هجومه عليها، ففر حليف أبي سالم في اتجاه فاس بعد انهزام الجيش المريني الذي كان برفقته والمكون من مغراوة وبني توجين.(305)

واستطاع بذلك أبو حمو طرد المرينيين عن تلمسان بفضل جموع عرب المعقل التي أصبحت في خدمته وقوت جانبه في الجيش والجباية. وكان لذلك

---

302) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 166.

303) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 33.

304) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 412.

305) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 34.

أثره في اتساع الخرق بين عرب المعقل وبني مـرين، خاصة بعد أن انحازت جموعهم لبني عبـد الـواد وأقطعهم السلطـان الـزيـاني أراضي بنـواحي تلمسان.(306)

عمل أبو سالم إبراهيم بعد عـودته من حملته على تلمسان على التخلص من الأمراء المرينيين «فالتقط من العصبية ما بين مراهق ومحتلم ومستجمع طائفة تناهز العشرين... فقتلوا إغـراقا من غير شفقة... ورأى أن قد خلى له الجو فتواكل».(307) ومعنى ذلك أن هـذا السلطـان ابتعـد عن الخوض في شـؤون تسيير البـلاد بعـد أن تمكن من قتل أغلب الأمـراء المرينيين، فمنح الوزراء فـرصة استرجاع سلطتهم. وكـان من نتائج ذلك أن أصبح الـوزير عمر بن عبد الله صاحب السيادة الفعلية بمدينة فاس.

لم تمض فترة طويلـة على تواكل أبي سـالم وابتعاده عـن أمور التسيير حتى تمكن وزيره عمر بن عبد الله من عزله وولى مكانه تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن سنـة 762هـ / 1361م.(308) وإذا كـان عزل أبي سـالم ثم اغتياله بعد ذلك راجع إلى تواكله وابتعاده عن أمور التسيير واعتماده في ذلك على الـوزراء كما ذكـر ابن الخطيب في النـص الـوارد أعـلاه، فإن أبـا حمو موسى الثاني سلطان الزيانيين قـد أشار في كتابه «واسطة السلوك» إلى أن ما قام به الوزير عمر بن عبد اللـه كان بإيعاز منه هو ووزيره عبد الله بن مسلم. ويعـود ذلك حسب ما ذكـره إلى السنـة التي جهز فيهـا أبو سـالم جيوشه للهجـوم على تلمسان ثم أرسل وزيره للتفاوض مع الـزيانيين، بعد عودته لعاصمة ملكه، في شأن استقـرار عرب المعقل بمجالات بني عبد الواد عوض مجالاتهم الأولى بالمغرب الأقصى. فقام هـذا السلطان الزياني بإغراء الوزيـر المريني الذي أتـى من أجل التفاوض معـه، وألبه على سلطـانه ولم يغـادر تلمسـان عائدا إلى المغـرب إلا بعـد أن عـاهـد الزيـانيين على الغـدر بسلطانه كما تعهـد بأن يجلس أخاه مكانه، وأن يطلق سراح بنـي عبد الواد

306) ابن خلدون، م. س. جـ 6. ص 88.

307) ابن الخطيب، الإحاطة. م. س. جـ 1. ص 307.

308) نفسه، ص 309.

الـذين في حكم الثقاف، وأن تكـون بعـد ذلك بينه وبين الـزيانيين مصلحـة ومصالحة ليس فيها خلاف.(309)

تأكـد تحالف عمـر بن عبد اللـه مع الـزيـانيين بعودة عـرب المعقل إلى الاستقرار في مجالاتهم بدرعة وسجلماسة مباشرة بعد موت أبي سالم. ذكر ابن خلدون أن عرب المعقل رجعوا إلى أوطانهم بعد مهلك السلطان أبي سالم أعوام ثلاث وستين وسبعمائة على حين اضطراب المغرب بفتنة أولاد أبي علي ونزولهم بسجلماسة.(310) ومن هناك تظهر العلاقـة بين عودة عرب المعقل لمناطق استقـرارهم الأولى واستقلال أولاد أبي علي بسجلماسة، خـاصة وأن هؤلاء الأمراء تم تجهيزهم من تلمسان للاجلاب على المغرب.

شهدت سجلماسة في عهد أبي سالم ووزيره عمر بن عبد الله ثم في عهد استبـداد هـــذا الأخيـر على تـاشفين الموسوس اضطـرابات كثيرة جعلتهـا بعيدة عن أي خضوع فعلي للنفوذ المريني. فإضـافة إلى انحياز سكانها من عرب المعقل لبني عبد الواد وهجـرة بعض بطونهم إلى المغرب الأوسط رفقة عبـد اللـه بن مسلم، فـــرضت هـذه القبـائل على المرينيين تجهيـز حملات عسكريـة لحماية عمالهم بها، لأن هـؤلاء العمال «كانـوا يعانـون من أمور العرب مشقة».(311) ولا يستبعـد أن يكـون لهذه الأحداث عـلاقـة مبـاشرة بالتدخلات العسكـرية للزيانيين في هذه المناطق بـواسطة حلفائهم من عرب المعقل.

ويتضـح من مراسلة بعث بها ابن الخطيب إلى الفقيه أبي عبد الله محمد الكناني، أحد أصدقائه من رجـالات المخزن المريني بسجلماسة في عهد أبى سالم إبـراهيم، أن هذه المدينـة لم تكن تعرف استقـرارا خلال هـذه المرحلة وهـو مـا يبرره قـوله «ولابـد أن يعـود الحق على الشك فتعـود الأمـور إلى معتادها».(312)

---

309) أبو حمو موسى، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تونس، 1279هـ ص 160.

310) ابن خلدون، م. س. جـ 6. ص 88.

311) نفسه، نفس الصفحة.

312) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، البيضاء. 1985. ص 148.

ب - تجهيز أبناء أبي علي عمر للاستيلاء على الحكم بالمغرب الأقصى من طرف بني عبد الواد :

نشأ أبناء أبي علي عمر بعد وفاة أبيهم بفاس سنة 734هـ / 1334م في كنف السلطان أبي الحسن المريني الذي منحهم الرعاية الكافية لتربيتهم كباقي الأمراء المرينيين «وأنكح السلطان ابنته تاحضريت العزيزة عليه عليا منهم المكنى بأبي يفلوسن»،(313) الذي شارك في حملة السلطان أبي الحسن على تونس، ثم عبر بعد ذلك إلى الأندلس خوفا من بطش السلطان أبي عنان فارس، وبقي بها إلى أن استطاع أبو عنان قتله سنة 752هـ / 1352م في حين بقي إخوته الثلاثة بالأندلس وهم على التوالي الناصر وعبد الحليم وعبد المؤمن.

وكانت أوضاع الأندلس في هذه المرحلة أحسن حالا من مثيلاتها بالمغرب الأقصى نتيجة الازدهار الذي عرفته مملكة غرناطة في فترة حكم محمد الخامس المعروف بالغني بالله.(314) لكن ثورة أخيه إسماعيل عليه وفرار الغني بالله ووزيره ابن الخطيب إلى المغرب الأقصى وما لقياه من حفاوة استقبال لدى السلطان المريني أبي سالم إبراهيم، دفع بالمتغلب على غرناطة إلى التحالف مع الزيانيين من أجل التصدي المشترك للمرينيين.

وكان أبو حمو موسى في هذه الفترة يراسل بني نصر في شأن أولاد أبي علي عمر ويطلب منهم أن يجيزوهم إليه ليجعلهم زبونا على السلطان أبي سالم،(315) في الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرينية تحاصر تلمسان سنة 761هـ / 1360م. وقد استجاب السلطان النصري إسماعيل بن يوسف لطلب أبي حمو موسى، فأطلق أبناء أبي علي عمر من مكان اعتقالهم «وأركب عبد الحليم وعبد المومن وعبد الرحمان ابن أخيهما علي بن أبي يفلوسن في الأسطول باتجاه تلمسان».(316)

---

313) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 418.

314) Abdelhaq Bennani; Op. cit. p : 170.

315) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 419.

316) نفسه، نفس الصفحة.

خــرج أبناء أبي علي من مــرسى المنكب على الســاحل الشرقي للأنــدلس واعترضتهم أساطيل مملكــة قشتالة، لكنهم استطاعوا الافــلات من قبضتها «في قطعة مختصرة التحفت الظلمة وخاضــت الموجة... فكان نزولهم ببعض مراسي السواحل التلمسانية»،(317) وهو مرسى هنين.(318)

وكان وصــولهم إلى العاصمــة الزيانيــة في نفس الوقت الــذي تمكن فيه الوزيــر عمر بن عبد اللــه من توليــة تاشفين الموسوس بفــاس واغتيال أبي سالم إبــراهيم. وكان المرينيون على استعــداد كامل لتقبل طــاعتهم، نظرا لما أبداه الــوزير عمــر بن عبد اللــه من استبداد على سلطــانه المعتــوه تاشفين الموسوس، وخلافــه مع بعض أشياخ القبائل المرينية خــاصة محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم الذي فر إلى تلمســان خوفا من بطش الوزير المستبد بفاس وأغرى عبد الحليم بن أبي علي بالرحيل إلى المغرب لطلب الملك.(319)

وأمــام هــذه التطــورات عمل أبـــو حمو مــوسى على استغــلال ضعف المرينيين وبعث بأبناء أبي علي عمر إلى فاس بعد أن رشح منهم عبد الحليم للملك «وأعطــاه الآلة واستــوزر له محمــد السبيع».(320) وســار أبــو حمو موسى مع عبد الحليم وجموعه حتى وصل منطقــة دبدو بالمغرب الشرقي، ثم عاد إلى تلمســان بعد أن انضم إلى عبد الحليم محمــد بن زكراز من أولاد علي شيوخ بني ونكاسن المستقــرين بدبدو وساعد ذلك على وفــرة جيوشه وقوتها.

تضاعفت فرص نجاح عبــد الحليم في تملك المغرب الأقصى بفعل مالقيه من قبول من طرف شيوخ القبائل المرينيــة، وهذا ما أكده ابن الخطيب حين قال «لما تواترت الأخبــار بإقبال الأمير عبد الحليم بن عمر... اجتمع الملأ من

317) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، م. س. ص 301.

318) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 419.

319) نفسه، نفس الصفحة.

320) نفسه، ص 420.

قبيل بني مـرين... وعسكـروا بالهضبـة تجاه المدينـة... وطيروا رسلهم إلى القادم»،(321) والتقوا به في تازة وعاد معهم إلى فاس.(322)

ولم يكن هذا النجاح الذي لقيه الأمير عبد الحليـم كافيا لفرض سيطرته على عاصمة المرينيين، لأن المدينة القديمة منها كانت تحت طاعة أشياخ بني مرين، في حين كانت المدينة الجديدة في يد الوزير عمر بن عبد الله وسلطانه تـاشفين الموسـوس. فنـازلها عبـد الحليم في 6 محرم سنـة 763هـ / 1362م،(323) وتوافدت عليه أثناء حصاره لها قبائل المغرب معلنة بيعتها له.

وقـد ظهر عبـد الحليم في هذه الفترة وكـأنه سيحقق غـرضه في إزاحـة منافسيـه على الحكم بفاس، لكنـه كان في أمـس الحاجة إلى الأموال لتـأدية نفقات جنده وخـاصته. ولا يستبعد أن يكون لخروج عمـر بن عبد الله من مدينـة فاس قصد منازلتـه جيوش عبد الحليم، علاقـة بهذا الحدث أي أنه حاول استغلال ما يعرفه الأمير عبد الحليم من صعوبات ناتجة عن حاجته إلى المال، وقـد تمكن الـوزيـر من إلحاق الهزيمـة بعبـد الحليم اعتمادا على جيشه المكون في أغلبه من المرتزقة النصارى،(324) وافترقت القبائل المرينية التي كـانت مع عبد الحليم إثـر هـذه الهزيمة في حين التحق هـو وإخوتـه بمدينة تازة.(325)

اتخذ الأمير عبد الحليم من مـدينة تازة قـاعدة لانطلاق غـاراته في اتجاه فاس والمناطق القـريبة منها. واستطاعت جيوشه التحكم في مـدينة مكناسة التي استقر بها أخوه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمان ابن أبي يفلوسن، وشرعوا بدورهم في شن الهجمات على العاصمة المرينية، «فضـاق درع فاس للملك بهم»،(326) لأنهم حاصروا نفوذ الوزير المستبد بها من جهات عديدة.

---

321) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، م. س. ص 306.
322) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 420.
323) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، م. س. ص 118.
324) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4 / ص 43.
325) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 420.
326) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 3. ص 532.

وكان الوزير عمر بن عبد الله يدرك سبب هروب أشياخ بني مرين عنه، لأن متاعبه كانت نابعة من توليته لتاشفين بن أبي الحسن الذي كان معتوها غير قادر على الاضطلاع بمهام الملك. فبدأ يفكر في خلعه وتولية غيره وراسل مملكة قشتالة في شأن أحد أمراء المرينيين وهو أبو زيان محمد بن أبي عبد الرحمان يعقوب بن أبي الحسن.(327) وكما حدث في تولية أبي سالم إبراهيم جهزت قشتالة أبا زيان محمد وبعثت به إلى مدينة فاس فدخلها في الثاني والعشرين لصفر من سنة 763هـ / 1362م،(328) بعد أن فشلت جيوش عبد الحليم في القضاء عليه لما اعترضت طريقه.

اضطربت أحوال أبناء أبي علي بعد وصول هذا الأمير المريني المدعم من قبل قشتالة، فبدأ جانب الوزير عمر بن عبد الله يتقوى بالمقابل يوما عن يوم. بعد أن أخذ البيعة لأبي زيان محمد وجهز الجيوش ووجهها نحو مكناسة لطرد عبد المؤمن بن أبي علي عنها، وهو ما كان له بالغ الأثر في تخلي شيوخ بني مرين عن مساندة أبناء أبي علي.(329) واقتصر نفوذ عبد الحليم على تازة وجهاتها ثم توجه صحبة إخوته إلى سجلماسة «بلد أبيه لكونها مما دخل في طاعته وتبادرت إلى تقبل دعوته».(330) فاتخذ منها قاعدة لسلطنته اعتمادا على أحلافه من عرب المعقل.

ج – سلطنة عبد الحليم بن أبي علي عمر بسجلماسة

ضعفت حظوظ أبناء أبي علي في الاستيلاء على عرش المرينيين بفاس بعد أن بويع محمد بن عبد الرحمان بن أبي الحسن، فخرج عبد الحليم بن أبي علي وإخوته من تازة في اتجاه سجلماسة صحبة من بقي معهم من أشياخ المرينيين بما فيهم الوزير محمد السبيع. ولم يجد عبد الحليم أدنى صعوبة في دخول هذه المدينة لأن أهلها كانوا على طاعته، فأقام بها رسوم الملك

---

327) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 44.

328) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 3. ص 532.

329) نفسه، نفس الصفحة.

330) نفسه، اللمحة البدرية، م. س. ص 119.

والسلطان،(331) ووزع خراجها في عرب المعقل «وأقطعهم جنات المخلص بأسرها واعصوصبوا عليه».(332)

وكان المغرب الأقصى يعرف تطورات سياسية تعكس ضعف المخزن المريني في الوقت الذي تمكن فيه عبد الحليم من التحكم في مدينة سجلماسة. وتجلى ذلك في الانقسامات الناتجة عن ثورات الأقاليم ورغبة زعمائها في الاستقلال. فقد عمد شيوخ القبائل والوزراء إلى تولية أبناء الأسرة الحاكمة بمناطق نفوذهم لضمان مشروعية استقلالهم بها. وهكذا انقسم المغرب المريني إلى إمارات متعددة، فإضافة لما قام به عبد الحليم بسجلماسة كانت مراكش والمناطق المجاورة لها تتطلع لمنافسة الوزراء وتعمل على الاستقلال كما هو الحال بفاس، فبايع عامر بن محمد الهنتاتي الأمير أبا الفضل بن أبي سالم سلطانا بها. لكن إحساس الوزير عمر بن عبد الله بخطورة استقلال عبد الحليم بسجلماسة، وما يمكن أن يترتب عنه من نتائج في غير صالح استبداده بفاس، جعله يتقرب من عامر بن محمد الهنتاتي ويعاهده على التعاون معه ضد عبد الحليم.(333)

كان من نتائج تقارب عمر بن عبد الله وعامر بن محمد الهنتاتي أن وجه الوزير المستبد بفاس حملة في اتجاه سجلماسة، في وقت كان فيه السلطان عبد الحليم يعد العدة لمعاودة هجومه على العاصمة المرينية. فتحركت جيوشه نحو المناطق الشمالية لمجالات سجلماسة سنة 763هـ / 1362م والتقت بجيوش عمر بن عبد الله «بتاغزوطت عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلى الصحراء».(334) ولم تكن نتائج هذه الحرب لصالح كل منهما، ولما اتضح تكافؤ قوتيهما تدخل الملأ من بني مرين لعقد الصلح بينهما. «فكانت بين القوم مهادنة وعاد كل من الوزير عمر بن عبد الله والسلطان عبد الحليم إلى مكان نفوذه السابق».(335)

331) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 422.
332) نفسه، ص 423.
333) نفسه، ص 422.
334) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 3. ص 532.
335) نفسه، نفس الصفحة.

وعرفت سجلماسة بعد حرب عبد الحليم مع الوزير عمر بن عبد الله أزمة سياسية تمثلت في الخلاف الذي دار بين سلطانها ووزيره محمد بن السبيع. ولا تمدنا المصادر بمعلومات حول سبب ذلك الخلاف. فقد اكتفى ابن خلدون بذكر أن هذا الوزير «نزع عن السلطان عبد الحليم إلى الوزير عمر وسلطانه فتقبله وحل محل التكرمة».(336)

ولا يستبعد أن يكون خروج محمد السبيع عن طاعة عبد الحليم ناتج عن عدم نيله لمبتغاه من هذا الأمير، لأن من المعروف أن الوزراء كانوا يستبدون على سلاطينهم خلال هذه المرحلة، وهو مالم يتسنى لمحمد السبيع القيام به في سجلماسة، نظرا لما كان لعبد الحليم من عزم وإرادة في إعادة الاعتبار للدولة المرينية. وليس أدل على ذلك من جهوده في القضاء على الوزير عمر بن عبد الله ورغبته الأكيدة في انتزاع مقاليد الحكم بالعاصمة فاس.

استمر عبد الحليم على حكم مدينة سجلماسة سنة كاملة بعد حربه مع الوزير عمر بن عبد الله سنة 763هـ / 1362م. ونجهل الوضعية التي كانت عليها هذه المناطق في هذه الفترة على المستوى الاقتصادي، خاصة وأنها لم توفر لهذا الأمير الإمكانيات الكافية لفرض نفوذه على مناطق بعيدة عن مجالاتها كما حدث في عهد أبيه أبي علي عمر. وربما كان السبب في ذلك راجع إلى ضعف موارد التجارة الصحراوية بسجلماسة خلال هذه المرحلة الناتج عن نشاط الطريق الشرقي المتجه نحو مصر، واضطراب حبل الأمن على طول مسافة الطريق الرابط بين سجلماسة ومالي بفعل تحكم بعض بطون المعقل في المسالك التجارية.

كان للأحداث الاجتماعية الخطيرة التي كانت تعرفها مدينة سجلماسة وإقليمها أثر كبير في اقتصار نفوذ عبد الحليم عليها وعلى ضواحيها ولم تساعده على المضي قدما في صراعه من أجل التحكم في عرش المرينيين والقضاء على سلطة الوزراء المستبدين بالعاصمة فاس. لأن الصراع كان

---

336) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 224.

محتدما بين العناصر المعقلية المتحكمة في سجلماسة في هذه الفترة، وكان النزاع بين أولاد حسين والأحلاف يفرض نفسه على تطور الأحداث بتلك المناطق أكثر من أي وقت مضى، فقد أشار ابن خلدون إلى أن الصراع بين هذين البطنين من ذوي منصور كان دائما ومستمرا، رغم أن العصبية تجمعهم في فتنة من سواهم.(337)

وكانت حظوظ التفوق بسجلماسة في صالح أولاد حسين لأن من كان من الأحلاف بها هم المنبات فقط أما العمارنة فكانوا في هذه الفترة يتنقلون في مناطق بعيدة عن هذه المدينة وكان شيخهم «سليمان بن ناجي بن عمارة ينتجع في القفر ويكثر الغزو إلى اعتراض العير وقصور الصحراء».(338) ولو كان الأحلاف بما فيهم المنبات والعمارنة وقتئذ بسجلماسة لتغيرت نتائج صراعهم مع أولاد حسين، لأنهم إذا اجتمعوا فاق عددهم عدد أولاد حسين.(339)

انعكس الخلاف بين الأحلاف وأولاد حسين على أوضاع سجلماسة في هذه الفترة. ولم يستطع عبد الحليم أن يحقق نجاحا في صراعه مع الوزير عمر بن عبد الله نتيجة ذلك. كما ازدادت الأوضاع بهذه المدينة اضطرابا، بعد أن تمكن الوزير المستبد بفاس من كسب ود عرب أولاد حسين الذين كانوا يحقدون على الأحلاف علاقتهم بالسلطان عبد الحليم، لأنهم كانوا عماد جيشه فأعلنوا الحرب ضدهم بإيعاز من عمر بن عبد الله.(340)

وعجز عبد الحليم في تحقيق المصالحة بين أولاد حسين والأحلاف فأوْكَلَ هذه المهمة لأخيه عبد المؤمن. لكن أولاد حسين لما قدم عليهم هذا الأخير بغرض التدخل في الصلح بينهم وبين الأحلاف «دعوه إلى البيعة والقيام بالأمر فأبى فأكرهوه عليها وبايعوه».(341) ثم زحفوا به على

337) ابن خلدون، م. س. جـ 6. ص 89.
338) نفسه، نفسه الصفحة.
339) نفسه، نفس الصفحة.
340) نفسه، جـ 7. ص 424.
341) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 424.

سجلماسة لمنافسة الأحلاف وسلطانهم عبد الحليم، فدخلوها في صفر من سنة 664هـ / 1363م. وذكر ابن الخطيب أن عبد المؤمن لم يخرج إلى أولاد حسين في شأن التدخل في الصلح بينهم وبين الأحلاف وإنما «برز إليهم في شأن استخلاص الجباية فرجعوا به إلى سجلماسة».(342) ومهما كان في ذلك من أمر فإن مبايعتهم له تؤكد رغبتهم في الثأر من الأحلاف شيعة عبد الحليم.

واضطر السلطان عبد الحليم أمام زحف جموع أولاد حسين ومبايعتهم لأخيه عبد المؤمن إلى استنهاض عرب الأحلاف لحرب أعدائهم. لكنه انهزم في هذه الحرب، وهلك فيها يحيى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين.(343) وكان هذا الشخص قطب الرحى للقوم في الوجهة إلى الأمير عبد الحليم أثناء قدومه من تلمسان إلى فاس.(344) ولم يبق أمام عبد الحليم بعد هزيمة جيوشه سوى الاذعان للخلع،(345) فخرج عن سجلماسة قصد أداء فريضة الحج، واتجه نحو مالي أولا ومنها صحب ركب الحجيج إلى مصر، وتوفي أثناء عودته من حجه في الاسكندرية سنة 766هـ / 1365م.

كان انتصار أولاد حسين على الأحلاف مؤشرا لبداية مرحلة جديدة في تاريخ سجلماسة، طبعها الصراع الاجتماعي بين بطون عرب المعقل. وانعكس ذلك بدون شك على أوضاع المنطقة بأن اضطرب حبل الأمن بها، فتضرر نشاطها التجاري نتيجة ذلك. وقد استغل الوزير عمر بن عبد الله الخلاف بين أولاد حسين والأحلاف وسخره لصالحه، فعمل على ضرب بعضهما ببعض. وهو ما أثر على سلطة عبد المؤمن بهذه المناطق وساهم إلى أبعد حد في فشل محاولة استقلاله بها.

342) ابن الخطيب، الإحاطة م. س. جـ 3. ص 532.
343) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 424.
344) ابن الخطيب، الإحاطة م. س. جـ 4. ص 362.
345) نفسه، جـ 3. ص 532.

د – سلطنة عبد المؤمن بن أبي علي عمر :

لما استقل عبد المؤمن بن أبي علي بسجلماسة اعتمادا على قوة عرب أولاد حسين بقي على بره لأخيه عبد الحليم موفيا حقه موجبا تجليته إلى حين انصرافه إلى المشرق.(346) ولم يستطع عبد المؤمن كما هو الشأن بالنسبة لأخيه عبد الحليم توسيع مجال نفوذه خارج إقليم سجلماسة، وانحصر نفوذه بعاصمته كما هو الحال بالنسبة للعاصمة فاس ومراكش.

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كثيرة عن سلطنة عبد المومن بسجلماسة بل اكتفت بالإشارة إلى استقلاله بها بعد أن تم خلع أخيه من طرف أولاد حسين.(347) ويفهم من ذلك أن سجلماسة لم تمثل في هذه المرحلة أية خطورة للوزير المستبد بفاس عمر بن عبد الله، وشيخ قبيلة هنتاتة المستبد بمراكش وجهاتها عامر بن محمد الهنتاتي. وهذا ما يؤكد الاضطراب الكبير الذي كانت تعرفه هذه المنطقة بسبب حروب أولاد حسين مع إخوانهم الأحلاف.

كانت الوضعية السياسية للمغرب الأقصى في هذه الفترة تعرف تقسيما ثلاثيا لم يساعد أطراف النزاع على أخذ مبادرة توحيد البلاد تحت قيادة موحدة. لكن قوة عبد المومن بن أبي علي بسجلماسة كانت أكثر تهديدا بالزوال من غيرها، بسبب الاضطرابات الاجتماعية المحلية من جهة وتحالف عمر بن عبد الله مع عامر بن محمد الهنتاتي ضد عبد المومن بن أبي علي من جهة ثانية، وهذا ما حد من تطلعات هذا الأمير وعجل بتراجع نفوذه.

عمل الوزير عمر بن عبد الله على استغلال صراع أولاد حسين مع الأحلاف بسجلماسة لصالح نفوذه بها، وتقرب من عرب الأحلاف على عكس ما فعل في عهد عبد الحليم حين تحالف مع أولاد حسين، فساعد تحالفه مع الأحلاف على ضرب قوة عبد المومن بسجلماسة والقضاء على نفوذه بها.

---

346) ابن الخطيب، الإحاطة م. س. جـ 3. ص 533.

347) نفسه، نفس الصفحة.

جهز الوزير المستبد بفاس حملة على سجلماسة وأوكل أمر قيادتها للوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي في نفس سنة تولية عبد المؤمن، أي سنة 764هـ / 1363م وانضمت للوزير مسعود جموع عرب الأحلاف في زحفه على المدينة.(348) كما انحازت إليه أيضا جماعة من عرب أولاد حسين.(349) وهذا ما يعطي الدليل على التفرقة التي كانت تعيشها بطون عرب المعقل في هذه الفترة والتي تعكس قوة الصراع الاجتماعي بمناطق سجلماسة. وربما كان مرد انقسام أولاد حسين على أنفسهم، بين حليف لعبد المؤمن وحليف للوزير عمر بن عبد الله، إلى استفادة بعض بطونهم من تولية عبد المؤمن على حساب أخرى، الأمر الذي جعل هذه الأخيرة ترفض بقاءها في الحلف مع عصبيتها. كما يمكن أن يكون لذلك علاقة بالتحالف الذي تم بالأمس القريب بين أولاد حسين والوزير عمر بن عبد الله قبل خلعهم لعبد الحليم في إطار صراعهم مع الأحلاف.

لم يجد عبد الرحمان بن ماسي صعوبة في دخول سجلماسة لأن انضمام عرب الأحلاف وبعض العناصر من أولاد حسين إلى جيوشه أضعف إمكانية صمود عرب أولاد حسين بها، فضمها إلى مجال نفوذ مملكة فاس.(350) وأصبح سلطانها عبد المؤمن مهددا بمطاردة جيوش ابن ماسي، فاضطر إلى مغادرة عاصمته بحثا عن مكان آمن.

وتظافرت جهود مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي وعامر بن محمد الهنتاتي سيد الجهات المراكشية من أجل مطاردة عبد المؤمن، فخاطب الوزير عمر بن عبد الله المستبد بفاس «عامر بن محمد الهنتاتي في اتصال اليد به واقتسام الملك بالمغرب بينه وبينه»،(351) فاستدعى عامر بن محمد سلطان سجلماسة عبد المؤمن فلحق به بعد أن أمنه،(352) ثم قبض عليه

348) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 425.

349) نفسه، نفس الصفحة.

350) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 51.

351) نفسه، ص 52.

352) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 425.

وثقفه.(353) فكان من نتائج ذلك أن خلى الجو لعمر بن عبد الله من منافسة عبد المؤمن، وعاد قائد حملته على سجلماسة مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي إلى فاس بعد شهرين من حركته إليها.(354)

تفرق أبناء أبي علي عمر بعد دخول مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي إلى سجلماسة، وبقي عبد المؤمن في معتقله بقصبة مراكش إلى أن قتله أبو الفضل بن أبي سالم بها، بإيعاز من شيخه عامر بن محمد الهنتاتي.(355)

هـ - المفاوضات المرينية الزيانية حول استقرار بعض بطون عرب المعقل بمجالات نفوذ الزيانيين :

تخلص الوزير عمر بن عبد الله من السلطان أبي زيان محمد بن عبد الرحمان سنة 767هـ / 1366م، لما علم بالمؤامرة التي دبرها هذا الأخير للقضاء عليه.(356) ثم استدعى الأمير عبد العزيز بن أبي الحسن من إحدى قصبات فاس للاضطلاع بأمور الملك، وأخذ له البيعة من شيوخ بني مرين، فكتب لهذا الأمير أن يعيد النفوذ المريني إلى ما كان عليه في المرحلة التي سبقت وفاة أبي عنان.

وهكذا أنعش عبد العزيز دولة بني مرين بعد تلاشيها وأعاد لها شبابها بعد هرمها على حد تعبير الناصري.(357) وتخلص من منافسيه على الحكم من المرينيين كما هو الشأن في قضائه على أبي الفضل بن أبي سالم أمير مراكش كما تخلص من الوزير عمر بن عبد الله. واتخذ لوزارته أبا بكر بن غازي ووجهه على رأس حملة عسكرية إلى مناطق هسكورة للتخلص من

353) ابن الخطيب، الإحاطة م. س. جـ 3. ص 534.
354) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 425.
355) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 53.
356) نفسه، ص 51.
357) نفسه، ص 52.

نفوذ عـامر بن محمـد الهنتاتي عليهـا «فانطلقت الأيـدي على معاقل عـامر ودياره، وانتهب الوزير من الأموال والسلاح والدخيرة والزرع والأقوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت». (358)

وبعد أن تمكن السلطـان عبد العزيـز من القضاء على استقـلال الوزراء وشيوخ القبـائل ووحد المغـرب الأقصى تحت سلطته، بـدأ يتطلع إلى إحياء أمجاد دولـة بني مـرين وإعـادة سيادتهم على المنـاطق الشرقيـة للمغـرب الأقصى. ففتح بـاب الصراع مع بني عبـد الـواد من جديـد بعـد أن فشلت مفاوضته مع سلطانهم أبي حمو في شأن عرب المعقل.

ذكر عبد الـرحمان بن خلدون أن عرب المعقل كانـوا «موطنين بصحراء المغرب من لـدن سوس ودرعة وتافيلالـت وملوية وصاوكـان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف مختصين في طـاعة بني مـرين. ثم تحيزوا إلى بني عبد الواد في عهد أبي حمو، وأقطعهم في أوطانه واستقروا هناك من لدن نزوع عبد اللـه بن مسلم، ولما استبد السلطان عبـد العزيز اشترط على أبي حمو التجافي عن قبول عرب المعقل بـوطنه لما فيه من الاستكثار بهم عليهم وأبا عليهم أبو حمو». (359)

ويتضح مما أورده هذا المؤلف أن استقرار عرب المعقل بالمغرب الأوسط - الذي كـان سببا في الخلاف بين عبد العزيـز وأبي حمو - يرجع إلى فترة نزوح عبد اللـه بن مسلم عن درعة إلى تلمسان صحبـة أولاد حسين، خوفا من بطش أبي ســالم إبراهيم كما أشرنـا إلى ذلك أعـلاه. ومعروف أن هـذه القبائل عـادت إلى مواطنها في فترة دخول أبنـاء أبي علي إلى المغرب الأقصى وآزرت عبـد الحليم في سعيـه لطلب الملـك بفـاس قبل أن تعـود رفقتـه إلى سجلماسة، وهـذا ما يؤكـد أنها عادت إلى الخروج عن طاعـة المرينيين بعد فترة حكم أبي ســالم وتقـربت من أبي حمو موسى سلطـان تلمســان، ثم هاجرت إثر ذلك إلى المغرب الأوسط.

---

358) نفسه، ص 53.

359) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 435.

أشار يحيى بن خلدون إلى أنه «في آخر شعبان سنة = 770هـ / 1369م وصل إلى أبي حمو موسى عرب المغرب كافة أولاد حسين والعمارنة والمنبات طرداء خوف ملكهم أبي فارس عبد العزيز فأجارهم وأكرم مثواهم وأكبر إقطاعاتهم».(360) وهذا ما يؤكد بأن عرب المعقل المستقرين بسجلماسة خالفوا على السلطان أبي فارس عبد العزيز وانحازوا إلى أبي حمو موسى كما سبق أن فعلوا في عهد أبي سالم إبراهيم قبله.

تحركت جيوش السلطان عبد العزيز في اتجاه تلمسان لما رفض أبو حمو إعادة عرب المعقل إلى مواطنهم. واستطاعت الجيوش المرينية دخول عاصمة الزيانيين سنة 771هـ / 1370م بعد سنة كاملة من الحصار. ولا يستبعد أن يكون السلطان عبد العزيز قد ربط اتصالاته أثناء حصاره لتلمسان مع عرب المعقل، لأن هذه المدة كانت كافية للسلطان المريني لتحقيق ذلك، خاصة وأن انهزام الزيانيين كان نتيجة تخلي هؤلاء الأعراب عن مساندة أبي حمو موسى بما فيهم الأحلاف سكان سجلماسة وإخوتهم ذوي عبيد الله سكان المناطق الشمالية الشرقية للمغرب الأقصى.(361)

وتجب الإشارة إلى أن منطقة سجلماسة لم تعرف استقرارا في أوضاعها الاجتماعية في الفترة التي تلت حرب السلطان عبد العزيز مع أبي حمو. ومرد ذلك للحروب الدائرة بين بطون ذوي منصور بها، بعدما تمت عودتهم إلى مجالاتهم الأولى، وتخليهم عن التحالف مع الزيانيين بسبب استمالة السلطان عبد العزيز لشيوخهم.

ذكر ابن خلدون أن رحو بن منصور أمير الخراج من ذوي عبيد الله خرج على السلطان عبد العزيز ولحق بأبي حمو وأجلب معه على المغرب في نفس السنة التي استولى فيها المرينيون على تلمسان.(362) لكن السلطان عبد العزيز أرضى شيخ ذوي عبيد الله وأقطعه ما أحب من الضواحي.(363)

360) يحيى بن خلدون، م. س. جـ 2. ص 252.

361) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 436.

362) نفسه، ص 430.

363) نفسه، صفحة : 439.

وهـذا مـا يعطي الدليـل على أن عدوة أولاد حسين والأحـلاف إلى أوطـانهم بسجلماسة قد تمت بنفس الأسلوب الذي استمال بـه السلطان عبد العزيز زعيم ذوي عبيد الله.

توجه هـذا السلطان المريني نحو تلمسان بعد ثـلاث سنوات من حملته عليها المشار إليها أعـلاه، ففر عنها سلطانها نحو المناطـق الصحراوية، وقد وصلت به الرحلة قصور تيكَـورارين، لكن هذه الحملة المرينية على المغرب الأوسط لم تستمر مدة طويلـة، كما لم تحقق الأغراض المرجوة منها بسبب وفاة السلطان عبد العزيز سنة 774هـ / 1373م وعودة جيوشه إلى المغرب الأقصى.

وبمـوت السلطان عبـد العزيـز خلى الجو لأبي بكـر بن غازي لفـرض سيطرته على العاصمة فاس، وبايع محمد بن السلطان عبد العزيز في سن لا لا تمكنه من القيام بمهام الملك. ثم أعد العدة لمنازلة الزيانيين بتلمسان، لكن مجيء عبد الـرحمان بن أبي يفلوسن بن أبي علي من الأنـدلس، أرغمه على التخلي عن حملتـه ضـد الـزيـانيين، ودفع بـه إلى تكثيف جهـوده من أجل التصدي لـلأمير القادم من الأندلس ووزيـره مسعود بن عبـد الرحمان بن ماسي.

و – استقلال عبـد الرحمان بن أبي يفلوسن بمـراكش وتحالفه مع عرب المعقل :

فر عبـد الرحمان بن أبي يفلـوسن بن أبي علي عمر مـن سجلماسة في اتجاه تادلة، بعـد أن سقطت عاصمة عمه عبد المؤمن في يد الـوزير مسعود ابن عبد الرحمان بن ماسي سنة 764هـ / 1363م. ولما كان المغرب الأقصى في هذه الفترة مقسما بين نفـوذ الوزير عمر بن عبـد الله بفاس وعـامر بن محمـد الهنتاتي بمـراكش، حاول مسعـود بن عبد الـرحمان بن ماسي بعـد عودته إلى فاس قادما إليها من سجلماسة الخروج عن طاعة الوزير عمر بن

عبد اللـه، فتحرك في اتجاه مكناسـة واحتلها ثم «كتب إلى عبـد الرحمان بن أبي يفلوس بن أبي علي يستقدمه للبيعة». (364)

وأجاب عبـد الرحمان بن أبي يفلوسن الـوزير مسعود إلى طلبـه، فقدم عليه مـن تادلـة وأخذ البيعة مـن المرينيين الذين كـانوا بصحبتـه، واضطر الوزير عمر بن عبد الله إلى اتخاذ إجـراءات لتدارك الموقف «وأخرج سلطانه محمد بن أبي عبـد الرحمان وعسكر بكديـة العرائس... ثم ارتحل إلى وادي النجا فبيته مسعـود وقومه وثبت هو وعسكـره في مراكزهم». (365) وانهزم مسعود بن عبـد الرحمان بن ماسي وتفرقت جموعـه ولحق بتادلة، في حين ذهب عبـد الـرحمان بن أبي يفلـوسن إلى منطقـة بني ونكـاسن وتمسك شيخهم محمد بن زكراز بدعوته. (366) ثم توجهت جيوش الـوزير عمر بن عبد اللـه إلى المناطق الشمالية الشرقية للمغـرب الأقصى بهدف مطاردة ابن أبي يفلوسن ففر أمام زحفها إلى تلمسـان.

واستطـاع وزير عبـد الرحمان بن أبي يفلـوسن اللحاق بشمال المغـرب قادما إليها من تادلا، واستدعى سلطانه للقدوم عليه من تلمسان «ليطارد به لفـرصة ظنهـا في المغرب ينتهـزهـا على حد تعبير ابن خلـدون»، (367) لكن الوزير عمر بن عبد الله بادر إلى مواجهة ابن ماسي وألحق الهزيمة به ثانية.

ولـم تعد سجلماسـة في هذه الفترة ملائمة لإقـامة سلطنة مرينية بها كما حـدث فيما قبل، وهـو مـا يفسره امتنـاع عبـد الـرحمان بي أبي يفلـوسن ووزيره عن العودة إليها. لأن صراع العصبيات بها جعلها تعيش مرحلة من الفوضى يصعب على الأمـراء استغلالها لصالح نفـوذهم، ففضل حفيد أبي علي عمر ووزيـره العبور إلى الأندلس، فجازوا إليهـا سنة 767هـ / 1366م وأقام بها عبد الرحمان وأصبح شيخ الغزاة بها. (368)

---

364) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 426.

365) نفسه، نفس الصفحة.

366) نفسه، نفس الصفحة.

367) نفسه، نفس الصفحة.

368) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 2. ص 39.

ولما استبد الوزير أبو بكر بن غازي على أبي زيان محمد بن السلطان عبد العزيز بعد وفاة هذا الأخير سنة 774هـ / 1373م جهز ملوك غرناطة الأمير عبد الرحمان بن أبي يفلوسن وأرسلوه صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي لطلب الملك بفاس.(369) وحاول الوزير أبو بكر بن غازي التخلص من منافسه قبل استفحال أمره، فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبتة خوفا عليها من نفوذ ابن الأحمر،(370) وتوجه هو للقاء عبد الرحمان بن أبي يفلوسن. لكنه فشل في النيل من قوته فتراجع نحو عاصمته فاس، وواصلت جموع الأمير القادم من الأندلس زحفها حتى استقرت بتازة.(371)

ولم يقدر عبد الرحمان بن أبي يفلوسن على أخذ مبادرة الاجهاز على الوزير المستبد بفاس، وبقي بتازة يتصيد الفرصة المناسبة لذلك. لكن التطورات السياسية التي عرفها المغرب الأقصى في تلك الفترة جعلت حظوظ هذا الأمير في الاستيلاء على عرش المرينيين بفاس قليلة جدا. ويتعلق الأمر بقدوم ابن الخطيب إلى عاصمة المرينيين فارا من بطش سلطانه الغني بالله، ومطالبة هذا الأخير بإعادة وزيره إلى الأندلس.

ولم يعمل الوزير أبو بكر بن غازي بما تقدم به سلطان النصريين في شأن وزيره ابن الخطيب، فشرع الغني بالله في البحث عن السبل الممكنة التي تساعده على إقامة سلطان مريني من قبله على فاس. فاتصل بمحمد ابن عثمان الذي عينه أبو بكر بن غازي على سبتة وأقنعه بمساعدة السلطان أبي العباس أحمد على التحكم في العاصمة المرينية. واتصلت يد محمد بن عثمان مع يد أبي العباس أحمد، مدعومين بمساندة الغني بالله سلطان غرناطة الذي اشترط عليهما «أن ينزلوا له عن الجبل - أي جبل طارق - إذا انعقد أمرهم».(372)

---

369) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 61.

370) خير الدين الزركلي، الإعلام، م. س. جـ 8. ص 103.

371) ابن خلدون م. س. جـ 7. ص 449.

372) نفسه، نفس الصفحة.

اتجه السلطان أبو العباس أحمد ومحمد بن عثمان إلى مدينة فاس «وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمان باتصال اليد بابن عمه السلطان أبي العباس»،(373) فقبل ابن أبي يفلوسن وساطة ابن الأحمر وانضم إلى جموع أبى العباس بعد أن «عقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمان بملك سلفه - أي سلجماسة - فتراضيا».(374) وكان ابن أبي يفلوسن قد توصل في هذه الفترة إلى كسب ود عرب الأحلاف سكان سجلماسة الذين شكلوا غالبية جيشه وأقاموا على طاعته.(375)

زحف السلطان أبو العباس أحمد ووزيره محمد بن عثمان على مدينة فاس في وقت كان فيه الوزير أبو بكر بن غازي منشغلا بحصار مدينة تازة، فأفرج عنها وأعترض طريقهم بجبل زرهون فانهزمت جيوشه وعاد للتحصن بالعاصمة. ثم عسكر السلطان أبو العباس أحمد بضواحيها وأقام حصاره عليها «ونزل الأمير عبد الرحمان بن أبي يفلوسن بإزاء معسكر السلطان أحمد... وضربوا على البلد الجديد بفاس سياجا».(376)

عمد الوزير أبو بكر بن غازي إلى طلب مساعدة عرب أولاد حسين ليضرب بهم عبد الرحمان بن أبي يفلوسن وشيعته من الأحلاف «فأجابوا دعوته وانتقلوا من مواطنهم بسجلماسة وعسكروا بظاهر فاس... فنهض الأمير عبد الرحمان... بمن كان معه من العرب الأحلاف وشردهم إلى الصحراء».(377) ففشلت بذلك خطة ابن غازي الرامية إلى استغلال الخلاف بين بطون عرب المعقل وتوظيفه لفك الحصار المضروب عليه بفاس.

دخل السلطان أبو العباس أحمد مدينة فاس سنة 776هـ / 1375م وبويع بها البيعة العامة.(378) ثم أقام بها حكمه رغم وجود عدد كبير من الأمراء المرينيين الطامعين في الحكم، وهذا ما لم يساعده على ممارسة نفوذه كاملا

---

373) نفسه، ص 450.

374) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 450.

375) نفسه، نفس الصفحة.

376) خير الدين الزركلي، الإعلام، جـ 8. ص 103.

377) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 451.

378) خير الدين الزركلي، الإعلام، جـ 1. ص 87.

على بـلاد المغرب الأقصـى. خاصـة وأن مشـاركة عبـد الـرحمان ابن أبي يفلوسن في حصـار العاصمة المرينيـة إلى جانب السلطـان المريني سبب له بعض المشـاكل السياسيـة منذ بدايـة عهده بحكـم المغرب. فقد نقـض عبد الـرحمان بن أبي يفلوسن الاتفـاق الـذي تم بينه وبين أبي العبـاس أحمد والقـاضي باستقـلاله بسجلماسـة لما يتم لهم القضاء على الـوزير المستبـد بفاس. ذلك أن الأمير عبد الرحمان اشترط على أبي العباس عندما أشرفا على فتح العاصمة المرينية ولاية مراكش عوضا عن سجلماسة، فعقد له السلطان على كره مخافة أن تفترق كلمتهم ولا يتم أمرهم.(379)

وبعد أن دخل أبو العبـاس أحمد العاصمة المرينية توجـه عبد الرحمان ابن أبي يفلوسن إلى مـراكش صحبة وزيـره مسعود بن عبـد الرحمان بن ماسي وعلي بن عمر بن ويغـلان شيخ بني مرين.(380) واستولى هذا الأمير على عاصمـة الجنوب، ثم تقرب من العـرب الهلاليين خاصة عـرب سفيان الذين كانوا ينتجعون «أرض السوس وقفـاره وبلاد حاحة وكانت رياستهم في أولاد مطاوع من بطن الحرث... واستقدمهـم بعض أيامه»،(381) لكنه عاد وتخلص منهم في نفس سنة تقربه منهم وهي سنة 676هـ / 1375م.

وانقسم النفـوذ المريني في هـذه الفترة إلى قسمين قسم بفـاس يقـوده حفدة السلطان أبي الحسن علي، وقسم بمراكش يقوده حفدة أخيه أبي علي عمر. وتميزت علاقة الطرفين في البدايـة بالتسامح والتعايش بدليل ما ذكره ابن خلدون في هـذا الموضوع حين قال «واستوسق للسلطـان أمره وأحكم العقـد مع الأمير عبد الـرحمان بن أبي يفلوسن صـاحب مراكش وتـرددت المهاداة بينهما بعض إلى بعض وإلى صاحب الأنـدلس وإليه منهما وامتلأت المغرب هـدنة وأمنا وانبعثت الأمـال بساطـا وغبطة... لهذا العهد آخـر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة».(382)

---

379) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 62.

380) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 452.

381) نفسه، جـ 6. ص 39.

382) نفسه، جـ 7. ص 456.

عرفت العلاقات بين سلطان وفاس وسلطان مراكش بعد ذلك توترا بسبب الخلاف الذي دار بين عبد الرحمان بن أبي يفلوسن وشيخ بني مرين علي بن عمر بن ويغلان. ولا نعرف أسباب هذا الخلاف، لأن المصادر التاريخية لا تشير إلى ذلك، كما لا تفيدنا سوى في معرفة الجهود التي بذلها ابن أبي يفلوسن في ملاحقة علي بن عمر الذي فر من مراكش نحو أزمور ومنها إلى فاس، وطاردته في كل ذلك جيوش سلطانه بقيادة عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن منصور بن أبي مالك.(383)

تمت المراسلات بين أبي العباس أحمد وعبد الرحمان بن أبي يفلوسن في شأن التحكم في مدينة أزمور، فتوجه إليها عبد الرحمان بن أبي يفلوسن على رأس جيوشه وانتزعها من يد عامل أبي العباس أحمد. ثم توصل الطرفان إلى عقد صلح بينهما بعد ذلك تم فيه تحديد مناطق النفوذ. فكان الحد «بين الدولتين ثغر أزمور.(384) فأرسل السلطان أبو العباس أحمد إلى مدينة أزمور الحسن بن يحيى بن حسون الصنهاجي عاملا من قبله عليها.(385)

ثم دفع عامل أزمور بالسلطان عبد الرحمان إلى الاخلال بمعاهدة الصلح التي تمت بينه وبين أبي العباس أحمد لما ضم عمالة دكالة لنفوذه. وألحقها بمجال سيادة سلطان فاس، وهو ما اضطر معه عبد الرحمان بن أبي يفلوسن إلى السير نحو أزمور فاستولى عليها وعلى جميع جهاتها ومد نفوذ مملكته حتى وصل آنفا. وبعث إلى السلطان أبي العباس أحمد رسالة اشترط فيها أن يكون الحد بين مملكتيهما وادي أم الربيع.(386) فبدأ بذلك الشقاق بينهما، ثم توصلا إلى الهدنة والتصالح بفضل وساطة الغني بالله سلطان بني نصر الذي أرسل وزيره أبا القاسم الحكيم الرندي لعقد الصلح بينهما.(387)

383) نفسه، نفس الصفحة.

384) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 65.

385) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 458.

386) نفسه، ص 454.

387) مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، البيضاء 1979. ص 189.

عرف نفوذ عبد الرحمان بن أبي يفلوسن تراجعا كبيرا بجهات مراكش بعد عقده الهدنة مع أبي العباس أحمد. فقد ثار عليه في هذه الفترة علي بن زكرياء شيخ الهساكرة، وعمل أبو العباس على استغلال تلك الفرصة للقضاء على نفوذ منافسه بمراكش، فسار إليه على رأس حملة سنة 784هـ / 1383م.(388)

ولما اشتد الحصار على عبد الرحمان بن أبي يفلوسن بعاصمته مراكش اتصل بالزيانيين وتحالف مع سلطانهم من أجل إعانته في صراعه مع أبي العباس أحمد.(389) كما أرسل ابن عمه أبا العشائر بن منصور بن أبي علي عمر إلى يوسف بن علي بن غانم زعيم أولاد حسين لطلب المعونة.(390) استجاب السلطان الزياني أبو حمو موسى لطلب سلطان مراكش، كما هو الحال بالنسبة ليوسف بن علي بن غانم، فشنا الغارات على مناطق المغرب الأقصى، وباتت هذه الحملات الزيانية المعقلية تهدد عاصمة الملك مدينة فاس، بعد أن وصلت أحواز مكناسة بقيادة شيخ أولاد حسين يوسف بن علي بن غانم وأبو العشائر بن منصور بن أبي علي وأبو تاشفين بن أبي حمو الزياني.(391)

وكان أبو العباس أحمد وقتئذ يقيم حصاره على مراكش، وحاول عامله على فاس البحث عن المساعدة للتصدي لهذه الحملات، فالتجأ إلى ونزمار بن عريف شيخ عرب سويد الذي استطاع أن يفرق بين عرب المعقل «واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف وصاروا لمدافعة العدو بنواحي مكناسة».(392) واضطرت جموع أولاد حسين وجيوش العبد الواديين إلى التراجع عن هذه المناطق، فحاصرت مدينة تازة في طريق عودتها

388) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 65.

389) نفسه، ص 67.

390) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 188.

391) نفسه، نفس الصفحة.

392) نفسه، ص 462.

وخربت ضواحيها،(393) كما خربت قصور ونزمار بن عريف بالمغرب الشرقي.(394)

تمكن السلطان أبو العباس أحمد من دخول مراكش بعد أن استطاع عامله على فاس وونزمار بن عريف طرد عرب أولاد حسين والزيانيين عن مناطق مكناسة بعد عدة أشهر من حملاتهم عليها، وكان حصاره لها تسعة أشهر من سنة 784هـ / 1383م فقضى على استقلال عبد الرحمان بن أبي يفلوسن بها.

ز – تدخل عرب المعقل بفاس وصراعهم مع الوزراء المستبدين بها :

استعد السلطان أبو العباس أحمد بعد قضائه على نفوذ عبد الرحمان ابن أبي يفلوسن بمراكش لتجهيز الحملات العسكرية على الزيانيين الذين وصلت جيوشهم إلى المناطق الداخلية للمغرب الأقصى. وتوجه على رأس حملة لحصار تلمسان في نفس السنة التي تمكن فيها من القضاء على مملكة مراكش. ولم يستطع أبو حمو موسى الصمود في وجه الزحف المريني، فدخل أبو العباس أحمد عاصمة الزيانيين وخرب قصور الملوك من بني عبد الواد بها.(395)

وحاول السلطان المريني ملاحقة جموع بني عبد الواد بغرض القضاء على نفوذهم في المغرب الأوسط. لكن قدوم موسى بن أبي عنان لطلب الملك من الأندلس حوله عن هذا الهدف، وأرغمه على العودة على جناح السرعة إلى فاس.

اهتم السلطان أبو العباس أحمد بخروج عرب المعقل عنه ومساعدتهم لعبد الرحمان بن أبي يفلوسن أثناء حصاره له بمراكش. وأوكل أمر محاربتهم لوزيره محمد بن عثمان الذي كان بينه وبين يوسف بن علي بن غانم عداوة وخلاف، فأعلن عرب المعقل سكان سجلماسة خروجهم عن

---

393) نفسه، نفس الصفحة.

394) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 67.

395) نفسه، ص 65.

طاعة أبي العباس أحمد، وجهز الوزير محمد بن عثمان الجيوش سنة 784هـ / 1383م وبعث بها إلى سجلماسة فخربت ما كان ليوسف بن علي بن غانم من العقار والأملاك بها.(396)

وجهزت مملكة غرناطة في هذه الفترة الأمير موسى بن أبي عنان وجعلت على وزارته مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي – وزير عبد الرحمان بن أبي يفلوسن سابقا – الذي فر إلى الأندلس بعد نجاح أبي العباس أحمد في دخول مراكش.(397) واستطاع موسى بن أبي عنان ووزيره دخول العاصمة المرينية سنة 786هـ / 1385م. ثم استبد عليه وزيره بها وقام بخلعه بعد سنتين من تاريخ توليته، واختار أبا زيان محمد بن أبي العباس للبيعة بعد أن أرسل أباه المخلوع إلى الأندلس.

كان عمر السلطان المريني الجديد لا يتعدى خمس سنوات، وأمام صغر سنه شرع ابن ماسي في البحث عن أمير آخر يكفيه حقد الأشياخ والملأ من بني مرين، فراسل سلطان غرناطة في شأن تجهيز أبي العباس أحمد للمرة الثانية. لكنه تراجع عن ذلك وراسله في طلب الواثق بن أبي الفضل بن أبي الحسن،(398) لأنه رآه أليق بالاستبداد والحجر.(399)

كان لقدوم الواثق من الأندلس أثره في خروج عدد كبير من رجالات الدولة وأشياخ بني مرين عن الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي وميلهم إلى جانب هذا السلطان. كما تعزز جانبه أيضا بمؤازرة عرب المعقل خاصة أولاد حسين منهم وشيخهم يوسف بن علي بن غانم الذي كان على خلاف مع الوزير مسعود منذ فترة استبداده على موسى بن أبي عنان.(400) وهذا ما كان من شأنه أن يساعد على التخلص من استبداد الوزير مسعود، لكن الواثق تقرب منه ودخل العاصمة المرينية

---

396) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 462.

397) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 69.

398) نفسه، نفس الصفحة.

399) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 468.

400) نفسه، ص 469.

سنة 788هـ / 1387م بعد أن اشترط عليه مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي إبقاءه على رأس منصب الوزارة.

ساءت علاقة الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي ببني نصر سنة 789هـ / 1388م بسبب صراعهما حول سبتة.(401) وهذا ما دفع بسلاطين غرناطة إلى تجهيز أبي العباس أحمد للمرة الثانية وإرساله إلى فاس لطلب الملك، في الوقت الذي كان فيه المغرب الأقصى يعيش فترة اضطراب كبيرة بسبب غارات قبائل المعقل على مدنه وبواديه.(402) غير أن ظروف انعدام الأمن هاته قد شكلت فرصة مواتية لنجاح أبي العباس في السيطرة على العاصمة المرينية. خصوصا وأن استبداد الوزير ابن ماسي بها قد جعل الناس يحقدون عليه ويتطلعون إلى سلطان يكفيهم شر ما تميزت به المرحلة من اضطراب عام.

وحتى عرب المعقل الذين كانوا يشنون الغارات على المناطق المجاورة لفاس ومكناسة وتارة كانوا على استعداد للتقرب من السلطان أبي العباس أحمد، نظرا لما كان بين شيخهم يوسف بن علي بن غانم والوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي من عداوة. فأصبح زعيمهم يدعو لطاعة السلطان أبي العباس ويراسل بني نصر في شأن استقدامه إلى المغرب.(403) كما كان ونزمار بن عريف شيخ عرب سويد يدعو بدوره لهذا السلطان ويكاتب غرناطة في طلبه.(404)

تحركت جموع السلطان المريني من سبتة «فأهرع الناس إلى الدخول في طاعته حتى من مراكش»،(405) وتحرك يوسف بن علي بن غانم من سجلماسة، وشن الغارات على المناطق المجاورة لفاس.(406) فاستطاع أبو العباس بمساعدة حلفائه دخول العاصمة، بعد أن نازلها ثلاثة أشهر أرغم

401) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 469.
402) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 73.
403) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 475.
404) نفسه، ص 472.
405) نفسه، نفس الصفحة.
406) نفسه، نفس الصفحة.

خلالها الوزير مسعود على الطاعة،(407) وكان ذلك في خامس رمضان من سنة تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه.(408)

ح - سلطنة محمد بن عبد الحليم بسجلماسة

لما اشتد الحصار على الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي من طرف جيوش السلطان أبي العباس أحمد وشيوخ القبائل المغربية - التي بادرت إلى بيعته أثناء عودته لطلب الملك للمرة الثانية سنة 789هـ / 1388م - حاول البحث عن حلفاء يضرب بهم أنصار أبي العباس، فالتجأ إلى عرب الأحلاف من ذوي منصور وطلب منهم المساعدة، مستغلا خلافهم مع يوسف بن علي بن غانم زعيم أعدائهم أولاد حسين الذي كان إلى جانب السلطان أبي العباس أحمد في حصاره لفاس.

ذكر ابن خلدون أن الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي راسل واليه على سجلماسة علي بن إبراهيم بن عبو بن ماسي وطلب منه أخذ البيعة للأمير محمد بن عبد الحليم بن أبي علي ليخفف من ضغط أبي العباس على مدينة فاس «ففعل ذلك ودخل محمد بن السلطان عبد الحليم إلى سجلماسة فملكها وقام علي بن إبراهيم بوزارته.(409) وذكر الناصري أن الوزير المستبد بفاس راسل عرب الأحلاف وليس عامله على سجلماسة في شأن بيعة محمد ابن عبد الحليم وهذا نص كلامه «ولما اشتد الحصار على مسعود بن ماسي دس إلى الأحلاف أن ينصبوا محمدا بن عبد الحليم للأمر ويجلب به على المغرب ليأخذ بحجزة السلطان».(410)

ومهما كان من اختلاف في الروايتين فإن مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي لم يكن يعنيه الأمير محمد بن عبد الحليم ومبايعته بسجلماسة بقدرما يهمه استغلال العداء بين أولاد حسين والأحلاف وتوظيفه لفك الحصار عن

---

407) نفسه، صفحة 473.

408) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 73.

409) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 477.

410) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 74.

عاصمة الملك فاس. ومع ذلك فإن رواية الناصري تظهر في مضمونها مكملة لرواية ابن خلدون، لأن هـذا الأخير أشار إلى أن محمد بن عبد الحليم دخل سجلماسة وملكهـا، ومعنى ذلك أنه لم يكن مستقـرا بها، وأن دخولـه إليها كان بموافقة عرب الأحلاف بعـد الجهود التي بذلها عامل سجلماسة في هذا الشأن.

لم يكن إذن محمد بن عبد الحليم قديم العهد بسكنى سجلماسة في هذه الفترة، ويتضح ذلك من خـلال تتبع سيرته قبـل مبايعتـه بها. فقد استقـر بالاسكندرية مدة بعـد وفاة أبيه بها سنة 767هـ / 1366م في طريق عودته من حجته. ثم عاد رفقة حاشية أبيه إلى المغرب «ونشأ متقلبا من الدولة من مـالك إلى آخر منتبـذا عن قومـه بغيرة أبناء السلطـان أبي الحسن من بني عمهم السلطـان أبي علي». (411) وكانـت أكثر إقامتـه عند أبي حمو مـوسى سلطان بني عبد الواد «لما يرم بـه من الأجلاب على المغرب ودفع عادية بني مرين عنه». (412)

قدم الأمير محمد بن عبد الحليم على إقليـم سجلماسة من تلمسان سنة 786هـ / 1385م في الوقت الـذي كان فيـه عرب أولاد حسين منتقضين على الوزير مسعـود بن عبد الرحمان بن ماسي وسلطانـه موسى بن أبي عنان. وقـد حـاول أبو حمو مـوسى أن يـدفع بهذا الأمير إلى طلب الملك مستغـلا خلاف يوسف بن علي بن غانم مع الوزير المستبد بفاس. وهذا ما أكده ابن خلدون حين أشار إلى أن السلطان الزياني جهز حفيد أبي علي وبعث به إلى عرب المعقل ليجلب به على المغرب ويمزقوا من الملك ما قدروا عليه. (413) غير أن هذه المحاولة لم تلق النجاح لأن يـوسف بن علي بن غانم كان قد تحول إلى طاعة السلطان أبي العبـاس أحمد، وكان يراسل ملوك بني نصر في شأن استقدامه لطلب الملك.

---

411) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 477.
412) نفسه، نفس الصفحة.
413) نفسه، نفس الصفحة.

ولما استقر محمد بن عبد الحليم بسجلماسة أقام عند الأحلاف،(414) الذين كانوا شيعة لأبيه قبل خلعه وتولية عبد المؤمن. ولا تشير المصادر إلى مشاركة هؤلاء في صراع يوسف بن علي بن غانم مع الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي في هذه الفترة، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد في أن الصراع الذي دار بين الأحلاف وأولاد حسين لم يعرف فتورا بسجلماسة منذ كانت بدايته في عهد عبد الحليم وعبد المؤمن وإلى حدود المرحلة التي نحن بصددها، بدليل أن كل بطن منهما استمر على ولائه القديم لأبناء أبي علي. حتى أن زعيم أولاد حسين يوسف بن علي بن غانم، لم يتبن دعوة محمد ابن عبد الحليم في وقت كان فيه في أمس الحاجة إلى أمير مريني ينافس به الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي. ويعلن به استقلاله عن العاصمة فاس.

وإذا كان الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي قد استطاع تسخير الصراع الاجتماعي الذي عرفته سجلماسة لصالحه بأن طلب من عامله عليها أن يبايع محمد بن عبد الحليم، فإن عامله علي بن إبراهيم بن عبو بن ماسي وشيعته من العرب الأحلاف لم يستطيعوا النهوض من سجلماسة في اتجاه فاس لفك الحصار المضروب عليها، فكانت النتيجة أن تمكن أبو العباس أحمد من دخولها سنة 789هـ / 1388م.

وبعد نكبة الوزير مسعود بن عبد الرحمان بن ماسي إثر دخول السلطان المريني إلى العاصمة فاس «اضطرب علي بن إبراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد ففر عن سجلماسة ودعا إلى أبي حمو سلطان تلمسان».(415) وأمام اقتصار دعم عرب المعقل لمحمد بن عبد الحليم على الأحلاف – دون أولاد حسين الذين كان شيخهم حليفا لأبي العباس – خرج هذا الأمير من سجلماسة «ولحق بأحياء العرب وصارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه ونزل على السلطان أبي حمو».(416) وبقي هناك

414) نفسه، نفس الصفحة.

415) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 477.

416) نفسه، نفس الصفحة.

بتلمسان إلى أن توفي سلطانها سنة 791هـ / 1389م، فخرج منها إلى تونس ونــزل على صــاحبهــا أبي العبــاس الحفصي، ثم ارتحل إلى المشرق لحج الفريضة.(417)

اختفت أخبار سجلماسة وإقليمها من مصادر التاريخ المريني مع الفشل الذي لقيه محمد بن عبد الحليم بها. وقد ذكر الحسن الوزان أن المرينيين لما استــولوا على هــذا الإقليم «عهدوا بحكمــه إلى أقرب النــاس إليهم وخاصة أبناءهم. وظـل الأمر كذلك إلى أن مــات أحمد ملك فاس، فثـار الإقليم وقتل أهل البلد الوالي وهدموا سور المدينــة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا، وتجمع الناس فبنوا قصــورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليـم، بعضها حر، والبعض الآخر خاضع للاعراب».(418)

وتجب الإشارة هنا إلى أن ما ذكره الوزان أعلاه هو ما نتوفر عليه حول تطور الأوضاع بسجلماسة وإقليمها من نهاية سلطنة محمد بن عبد الحليم بها، وإلى حدود انــدراس مدينة سجلماســة في تاريخ غير معــروف. وعليه، فإن الفترة الفاصلة بين تــاريخ فشل محمد بن عبد الحليم في إقــامة سلطنة بهذه المدينة وتاريخ انهيــارها هي فترة غامضة في تــاريخها نجهل تفاصيل ما وقع فيها من أحداث.

ويستفاد مما ذكـره الوزان أن سجلماسة ثارت بعــد وفاة السلطان أبي العباس أحمد سنة 796هـ / 1392م، ولا نعرف تاريخ وقوع هذه الثورة ولا من كان ورائها غير أنه من غير المستبعــد أنها لم تتجاوز عهد السلطان أبي فارس عبد العــزيز الذي حكم المغــرب ما بين سنة 796هـ / 1392م وسنة 799هـ / 1397م، وهو مــا يستنتج من قول الــوزان «إلى أن مات أحمد ملك فاس».

كما لا يستبعد أن يكون الخراب الذي لحق المعالم الحضريــة للمدينة قد ارتبط بــالصراع الاجتماعي الــذي دار بها بين سكانها من الأحــلاف وأولاد حسين. خصــوصــا وأن يوســف بن علي بن غــانم كان على عــلاقــة طيبـة

417) الناصري، الاستقصا، م. س. جـ 4. ص 74.
418) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 121.

بالسلطان أبي العباس أحمد بدليل أنه آزره في حصاره لفاس، وتوسط له في ربط الاتصـال مع ملك مصر الظاهـر بـرقوق أثنـاء حجته سنـة 793هـ / 1391م، وعاد بهدية من هـذا الأخير إلى ملك المغرب،(419) في حين ظل عرب الأحلاف مخالفين على هذا السلطان.

تمثل وفاة السلطان أبي العباس أحمد سنة 796هـ / 1392م تحولا كبيرا في تطور الأحداث بسجلماسة، لأنها اسفرت بدون شك عن عودة يوسف بن علي بن غـانم إلى هذه المنـاطق. ومعنى ذلك أن باب الصراع قـد فتح مجددا بين الأحلاف وأولاد حسين. وإذا أخذنا بعين الاعتبـار العلاقات الطيبة التي كانت تجمـع شيخ أولاد حسين بأبي العباس أحمد وواليـه على سجلماسة، جاز لنـا أن نتصور أنه بعـد عودة عرب أولاد حسين إلى الجنـوب أصبحوا الأسياد الحقيقيين لعاصمة إقليم سجلماسة. ويظهر ذلك من خلال التقارب الذي يمكن أن يكون قد تم بين يوسف بن علي بن غانم وعامل المرينيين على سجلماسة، وهـذا ما كان من شـأنه أن يثير حقد الأحـلاف ويدفع بهم إلى إعلان الحرب على المرينيين وأولاد حسين على حد سواء.

ويمكن أن تستنتج من إشارة الـوزان إلى تخريب سجلماسة مـا يفيد في معرفة أن هـذه المدينة عاشت مدة معينـة تحت وطأة الحصار قبل تخريب سـورهـا. كما أن تخريب السور يـوحي بتخـريب معـالم أخرى خـاصـة القصبـة، لأن ثورة أهلهـا التي أودت بحيـاة الـوالي لابد أنها أتت على مقـر سكناه بالهدم.

419) الناصري، الاستقصا، م. س. ص 77.

الفصل الرابع :

النشاط الاقتصادي بسجلماسة وإقليمها

إن الحديث عن النشاط الاقتصادي لمنطقة ما يقتضي الإحاطة بجميع المؤهلات التي تتوفر عليها بما في ذلك المعطيات البيئية والبشرية. غير أن الاهتمام بالنشاط الاقتصادي لمدينة سجلماسة في العصر الوسيط ارتبط بالدور الذي لعبته في التجارة الصحراوية، أي بدورها في الوساطة بين بلاد المغرب والسودان الغربي.

والواقع أن النشاط التجاري لمدينة سجلماسة لم يزدهر بمعزل عن النشاط الفلاحي بمجالاتها. خاصة وأن بعض المنتوجات الفلاحية التي اشتهرت منطقة سجلماسة بإنتاجها دون غيرها من المناطق ببلاد المغرب قد لعبت دورا مهما في التجارة مع بلاد السودان وباقي المدن المغربية الأخرى وبلاد أوربا. ومثال ذلك إنتاج الحناء والتمور والتَّاكَّوْت والنيلج.

أكد أحد الباحثين أن المدينة المغربية لم تزدهر في القرن الرابع عشر الميلادي كما في المراحل السابقة له بمعزل عن باديتها، لأن العلاقة بينهما كانت علاقة تكامل اقتصادي وشملت عدة ميادين. غير أنه رغم ما توفره البادية من منتوج فلاحي، فإن ذلك لم يشكل المصدر الوحيد في إنعاش اقتصاد بعض المدن كما هو الحال بالنسبة لسجلماسة.(1)

إن التكامل الاقتصادي بين سجلماسة ومجالها القروي هو الذي جعل منها مركزا حيويا في النشاط الاقتصادي للمغرب الوسيط. ويمكن القول بأن مجالات سجلماسة قد حافظت على أولويتها طالما استمرت هذه العلاقة بين المدينة وباديتها قائمة، وأن التراجع الذي عرفته في أواخر العهد المريني كانت نتيجة اختلال التوازن في هذه العلاقة نفسها. حين أصبحت المدينة

1) M. Fatha, Op. cit; p : 332.

معزولة عن باديتها بفعل تحكم القوى المحلية في مجالاتها، واضطراب الأوضاع العامة خارج أسوارها، وهو ما سبب في بداية تراجعها وضعفها بالتدريج إلى أن اختفت من الخريطة الحضرية كلية.

عرف مجتمع الواحات ببلاد القبلة أزمات عديدة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. ومرد ذلك إلى اضطراب أوضاع هذه المناطق نتيجة الصراعات الاجتماعية التي سببتها الحروب بين بطون عرب المعقل. فقد سبقت الإشارة إلى أن مناطق سجلماسة خضعت لسيطرة فعلية من قبل أولاد حسين والأحلاف منذ منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. فكان لخلافات هذين البطنين أثره في تأزم الأوضاع بها لما رافقه من رعب ونهب، كما انعكس ذلك على المدينة بشكل سلبي وأتى على تخريب بعض المعالم العمرانية بها في السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر الميلادي.

المبحث الأول :

النشاط الفلاحي الزراعة والرعي

1 – الزراعة

ساعد موقع سجلماسة على باب الصحراء الكبرى على تحديد الخصائص البيئية والمناخية بها. فمن سجلماسة كان يتم الدخول إلى بلاد السودان عبر صحراء قاحلة، وأجمعت المصادر الجغرافية على أنه في المناطق الواقعة إلى الشرق والجنوب من هذه المدينة لا توجد مناطق مأهولة. ومعنى ذلك أننا بصدد منطقة صحراوية جافة لا تختلف كثيرا عما اشتهرت به المناطق القاحلة من قسوة في الظروف الطبيعية، وضعف في الإنتاج الفلاحي، وقلة في مصادر الماء، وزحف لكثبان الرمال، وانعدام للرطوبة وارتفاع في درجة الحرارة، وتجمع للسكن في أشرطة الواحات الضيقة.

تدفع المعلومات التي أوردتها كتب الجغرافيا حول سجلماسة ومجالاتها إلى التشكك فيما ذكرته هذه المصادر حول ارتفاع مردودية الإنتاج الزراعي بهذه المناطق. فقد أوردنا أعلاه النصوص المتعلقة بمناخ المنطقة وخلصنا إلى

أن المطر قليل بها، وأنها كانت تتعرض على الدوام لزحف الكثبان الرملية، فضلا عن ارتفاع درجة الحرارة بها وما يسببه ذلك من أمراض لسكانها خاصة مرض العيون الذي سماه الوزان بالنزلة.(2)

يضاف لكل ذلك أن التربة بمناطق سجلماسة سبخة، وقد أشرنا إلى أن اللوحة تقضي على النباتات في أصلها قبل نموها. ومعنى ذلك أن النشاط الزراعي بالأرض السبخة معرض لمخاطر كثيرة بالنظر لارتفاع نسبة اللوحة في التربة وعدم قدرة جميع النباتات على تحملها. كما أن نسيج التربة بإقليم سجلماسة يتكون في غالبيته من الصلصال والرمل، غير أن هذه التربة فقيرة من حيث مادة الآزوت. ويميز الفلاحون بتافيلالت في أنواع التربة بين «الْحلُوَّة» أي الطيبة الغنية بالمواد العضوية، والتربة المالحة «البَخْبَاخْ» التي لا تنبت غير بعض الأعشاب الشوكية خصوصا ما يسمى منها محليا بـ«الكْطَفْ» وهو نبات محبب ومفضل لدى الإبل.

غير أن هذه الخصائص بما فيها من العوائق التي تحول في غالب الأحيان من إقامة نشاط زراعي مكثف كانت قابلة بإقليم سجلماسة، لأن تصبح غير ذات أهمية كبيرة، لأن التربة بهذا المجال كانت تتعرض للتخصيب على الدوام بفعل توضعات الأنهار. ففيضانات وادي زيز تأتي بالطمي والغرين كل سنة وتساهم في رفع مستوى سطح الأرض بما يعادل سنتمتر واحد في السنة.(3) إضافة إلى أن الأراضي العقيمة غير الصالحة لنمو النباتات لا تغطي سوى 4 ٪ من مجموع المساحة الإجمالية للإقليم كما أشرنا سابقا.

وإذا كانت أغلب أراضي إقليم سجلماسة تتكون مما يسمى بالحمادات التي هي عبارة عن سهول قاحلة لا تستغل إلا في الرعي، فإن تقارب مجرى وادي زيز من مجرى وادي غريس في منطقة تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة قد سمح بتكون سهل رسوبي خصب يعرف أقصى اتساعه شرق موقع مدينة سجلماسة ويبلغ معدل ارتفاعه 810م، ويقع في عروض 30 درجة و30

2) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 126.

3) Ofice Agricole du tafilalet; Op. cit. p : 19.

دقيقة و31 درجة و10 دقائق.(4) وقد اعتمدت مدينة سجلماسة على هذه الأراضي الخصبة في زراعتها في العصر الوسيط وشكل هذا السهل بدون شك أحد العوامل الرئيسية في ارتفاع مردودية إنتاجها الفلاحي في هذه المرحلة الغابرة من تاريخها.

وبخصوص المعطيات المناخية التي عرفتها سجلماسة في المرحلة التي نحن بصددها تطالعنا المصادر بمعلومات لا تساعد على فهم أسباب ارتفاع مردودية الإنتاج الفلاحي بهذه المناطق. فقد أشرنا أعلاه إلى النقص الواضح الذي كانت تعاني منه في مجال التساقطات، إضافة إلى ارتفاع درجة الحرارة وانعدام الرطوبة في أغلب فصول السنة نتيجة انعدام المؤثرات البحرية.

كان لكل هذه العوامل أثرها في ظهور الحافز لدى الفلاح السجلماسي للبحث عن طرق ووسائل عديدة في استنباط المياه الجوفية قصد تعويض النقص الحاصل في مياه التساقطات، والمياه الجارية في الأودية. فازدهرت نتيجة ذلك تقنيات رفع الماء كالخطارة وأغرور، التي كان الهدف منها التمكن من الاستغلال الكامل للدورة الزراعية في تلك المناطق الجافة.

غير أن كل ما ذكرناه لا يعطي تفسيرا واضحا ومقنعا للوصف الذي خصصته كتب الجغرافيا للنشاط الزراعي المكثف بسجلماسة، ومن ثم، فإن هذا النشاط الزراعي بما عرف به من فائض في الإنتاج كان يتوقف إلى أبعد الحدود على المياه الجارية بوادي زيز. وليس لهذا من تفسير سوى أن الظروف المناخية كانت أكثر ملائمة لممارسة النشاط الزراعي بسجلماسة في العصر الوسيط مما هي عليه اليوم. فقد أشرنا سابقا إلى أن المجاري المائية التي كانت تخترق مجالات سجلماسة كانت تتغذى بالمياه على الدوام، إما عن طريق المنابع كما هو الحال في أكَلف وتيمدرين، أو عن طريق ذوبان الثلوج بمرتفعات الأطلس الكبير الشرقي حيث منابع وادي زيز وغريس.

قدر R. Faure كمية المياه المنقولة عن طريق الفيضانات التي يعرفها وادي زيز، وقال بأن حجم الماء في الفيضانات القوية يصل 100 مليون م3 وأن

4) Ibid; p : 2.

مدة الفيض تتراوح مـا بين عدة ساعات وعـدة أيام.(5) غير أن أهمية هـذه الفيضانات بالنسبـة لأراضي سجلماسة لا تنحصر في سقي الحقول فحسب بل تتعدى ذلك لتلعب دورا مهما في تزويـد التربة بالمواد المخصبة. وتتراوح حمولة الأنهار من الطمي خـلال السنة الواحـدة ما بين 1,5 و2 مليون طن، وهو ما يسمح بتكوين فرشة غرينية يتراوح سمكها ما بين 0,5 و1 سنتمتر في السنة أي بمعدل متر خلال القرن الواحد.

وهكـذا فإن ارتفاع مـردوديـة الإنتـاج الفلاحي بسجلماسـة في العصر الوسيط مرده إلى ما كانت تقـوم به أنهار زيز وغريس من تخصيب للتربة وتوفير لميـاه الري. وهو ما سـاعد على تجاوز حدة وقع الظروف المنـاخية القاسية التي كانت تعرفها المنطقة بفعل وقوعها على باب الصحراء الكبرى.

ارتبطت الدورة الزراعية في إقليم سجلماسة بالـظروف المناخية وبوفرة المياه أوقلتها بـوادي زيز. أشرنا سابقا إلى أن فصل التسـاقطات يبتدىء في مناطق الـواحات في شـهر شتنبر. غير أن كميات الأمطار التـي تستقبلها هذه المنـاطق لا تسمح بممارسـة نشـاط زراعي دائم. وبما أن مـوسم الحرث يبتـدىء في شـهر أكتـوبر، فإن منطقـة سجلماسة وكل منـاطق بلاد القبلـة تكـون في أمس الحاجـة إلى فيضـانـات أوديتهـا. ونعلم أن أنهار الجنـوب الصحراوي تعرف موسمين من الجريان الدائم هما فصل الخريف وفصل الربيع مفصولين بموسمين من الجفاف هما فصل الشتاء وفصل الصيف، وهـذا ما سـاعد المزارع بمنطقـة سجلماسـة في العصر الوسيط على القيـام بنشاطه الفـلاحي بعيدا عن أخطار الجفاف ما دام هنـاك تطابق بين موسم الحرث وموسم الفيضـانات.

أشـار Jouannet إلى أن شروط نجـاح الموسم الفـلاحي بـالمنـاطق الجافـة تنحصر في سقي المزروعات ثلاث مرات كحـد أدنى خلال الموسم الفلاحي، أولها في شـهر أكتوبر – نونبر، وثانيهـا في شهر فبراير – مارس، وثالثة في بداية شـهر ماي.(6) ويغلب على الظن أن سجلماسـة كانت تتـوفر في العصر

5) R. Faure; Op. cit; p 18.
6) Jouannet; Vie au Tafilalet; Op. cit. p : 8.

الوسيط على المياه الكافية لسقي مزارعها، خاصة وأن نهرها كان يفيض في فصل الخريف والربيع، وأن الحرث بها يبتدىء في شهر شتنبر والحصاد في شهر ماي. وهذا ما يتضح من خلال الدورة الزراعية بسجلماسة في علاقتها بالمعطيات المناخية لمجالاتها، وهو ما لخصناه في الجدول الآتي اعتمادا على ما ذكره كل من الوزان ومارمول كاربخال.(7)

شهور السنة	نوع العمل الفلاحي	الظروف المناخية
أكتوبر	بداية موسم الحرث «الَحـرْثْ الْـبَـكْـرِي» جني محصول الحناء	موسم التساقطات
نونبر	اَلحـرْثْ الـمَـازُوزِي	موسم التساقطات
دجنبر		موسم البرد
يناير		موسم البرد
فبراير	تأبير شجر النخيل	بداية فترة الاعتدال
مارس	تأبير شجر النخيل	موسم فيضانات الأنهار
أبريل	حصاد الشعير – زرع الخضر	الرياح الغبارية
ماي	حصاد القمح – زراعة الحناء	بداية الموسم الحار
يونيو		موسم الحرارة المفرطة
يوليوز		
غشت	جني محصول الحناء	
شتنبر	جني التمور	بداية موسم التساقطات بداية الفيضانات

7) الوزان، م. س. جـ 2. ص 122. ومارمول كاربخال، م. س. ص 45.

يتضح من هذا الجدول أن النشاط الزراعي بسجلماسة كانت تتحكم فيه العوامل المناخية، وأن الفلاح كان يتوقف عن العمل في بعض شهور فصل الشتاء لشدة البرد وطيلة فصل الصيف لشدة الحر.

أ - الحبوب :

تم الاعتماد على مياه نهر زيز في الزراعة بسجلماسة في العصر الوسيط، بشهادة جميع المصادر الجغرافية التي تم تأليفها ما بين القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي والقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. ذكر ابن حوقل أن سجلماسة على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل.(8) وهو ما أكده البكري حين قال بأنها على نهرين عنصرهما من موضع يقال له أكَلف تمده عيون كثيرة.(9) وقد سبق لنا أن ناقشنا المعلومات الواردة في نص البكري وأوضحنا أن مكان المنابع التي تحدث عنها كان يقع بين قصر الجبيل وقصر الدار البيضاء، وأن جفاف هذه المنابع كان نتيجة تراكم الطمي المنقول عبر فيضانات وادي زيز، الذي سبب في ارتفاع مستوى سطح الأرض بحوالي تسعة أمطار من الفترة التي عاش فيها البكري إلى وقتنا هذا.

وتردد ذكر المعلومات المتعلقة بوفرة المياه في وادي سجلماسة - كما جاءت عند ابن حوقل والبكري - في مختلف المصادر الجغرافية التي تلت القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ومثال ذلك ما جاء عند صاحب كتاب الاسبصار،(10) وما جاء عند ياقوت الحموي،(11) وابن عبد المنعم الحميري،(12) والقلشقندي(13) وكل هؤلاء أكدوا وفرة المياه بوادي

---

8) ابن حوقل، م. س. ص 90.

9) البكري، م. س. ص 148.

10) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 201.

11) ياقوت الحموي، م. س. ص 192.

12) ابن عبد المنعم الحميري، م. س. ص 305.

13) القلقشندي م. س. جـ 5. ص 164.

سجلماسة وأشاروا إلى اعتماد هذه المدينة عليها في زراعتها وفي شربها بشكل كلي.

ويتضح من شهادة أغلب الجغرافيين أن سجلماسة لم تعان من نقص في المياه الجارية خلال العصر الوسيط. وهذا ما مكن المزارعين بها من ممارسة نشاط زراعي مكثف في وسط صحراوي شبه جاف. غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن الزراعة البورية لم يكن معمولا بها في هذه المناطق بسبب قلة التساقطات. لذلك ظلت الحمادات التي تشكل غالبية أراضي الإقليم بعيدة عن أي استغلال زراعي، واقتصرت صلاحيتها على توفير العشب لقطعان الرحل الذين كانوا ينتجعونها، في حين كان نشاط المزارعين مكثفا في أشرطة الواحات الممتدة على ضفاف الأودية فضلا عن المناطق السهلية الشاسعة التي تحيط بمدينة سجلماسة من جهة الشمال والشرق.

ونظرا لأهمية مياه وادي زيز في النشاط الزراعي للإقليم، فإن الفلاح السجلماسي اضطر إلى تحويل المياه من مجراها الطبيعي قصد الاستفادة منها. أشرنا سابقا إلى أن المجرى الطبيعي لوادي زيز يشرع عند اقترابه من موقع مدينة سجلماسة في التوجه نحو الغرب تاركا المجالات السهلية الصالحة للزراعة إلى الشرق منه. وهذا ما دفع بسكان المنطقة إلى شق ساقية كبيرة لجلب المياه أطلقوا عليها اسم «وَادْ الشَّرْفَا» إضافة إلى محاولة تقريب مجرى وادي زيز من مجرى وادي غريس جنوب سهل تيزيمي عبر رافد اصطناعي يحمل اسم «زِيزْ الْفِلاَلِي». وهذا ما يؤكد الأهمية التي كانت لمياه النهر في حياة السكان ورغبتهم في مواجهة الظروف البيئية القاسية بجميع الوسائل المتاحة.

وفرضت رغبة سكان سجلماسة في الحفاظ على كمية المياه الآتية عبر فياضانات الأنهار واستغلالها بكيفية جيدة إقامة السدود الحجرية وشق السواقي لجلب المياه إلى المناطق التي تقع على ارتفاع معين من المستوى العادي لجريان الماء. وقد كانت عملية شق السواقي واستعمالها في الري سائدة بكل من قابس وأغمات وسجلماسة في العصر الوسيط.(14)

14) Claudette Vanacker; Géographie économique de l'Afrique du Nord, A.E.S.C; Mai - Juin 1973 p. 8.

انفرد اليعقوبي بالإشارة إلى أن الزراعة بسجلماسة كانت تقوم على الأمطار خلافا لكل المصادر الجغرافية التي ربطت بين هذا النشاط ومياه وادي زيز. وذكر أن زرع أهل سجلماسة على الأمطار لقلة المياه عندهم فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع.(15) وإن انتماء مناخ هذه المنطقة للمناخ الجاف حسب ما جاء عند الجغرافيين العرب لا يبعث على الاطمئنان والتسليم برواية هذا المؤلف، خاصة وأن سجلماسة كانت شديدة الحر كثيرة القيظ والزوابع الغبارية.

تعود أقدم المعلومات التي نتوفر عليها حول الإنتاج الوافر لسجلماسة من الحبوب إلى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي. ويتعلق الأمر برواية ابن حوقل في هذا الموضوع التي تؤكد أن إنتاج سجلماسة من الحبوب لم يقتصر على تغطية الحاجيات المحلية بل تعداه إلى التصدير، وكان من بين المواد التي تمت المتاجرة بها في مدينة أودغست حيث كان قنطار القمح السجلماسي يباع بستة مثاقيل.(16)

لم يكن القمح الذي كانت تنتجه سجلماسة من النوع الجيد، ويفهم ذلك من خلال ما ذكرته بعض المصادر الجغرافية حول هذا المنتوج. أشارا بن حوقل إلى أن سنابله لا تشبه سنابل الحنطة ولا الشعير وخلقه ما بين القمح والشعير.(17) في حين اكتفى اليعقوبي بالقول أن زراعة الحبوب بسجلماسة يغلب عليها الدخن والذرة.(18)

وحول الأسباب التي جعلت قمح سجلماسة يتخذ هذه الخصائص تطالعنا المصادر بروايات متعددة نسوقها حسب تسلسها الزمني على الشكل التالي

أشار ابن حوقل إلى أن سكان هذه المنطقة يزرعون بماء وادي زيز «حسب زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا سنة عن بدر وحصدوا ما

---

15) اليعقوبي، م. س. ص 110.
16) ابن حوقل، م. س. ص 90.
17) نفسه، نفس الصفحة.
18) اليعقوبي، م. س. صفحة : 110.

زرعوه، وتواترت السنون بالمياه، فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب الأخرى حصدوه إلى سبع سنين».(19) وإذا كانت رواية هذا المؤلف قد جعلت البذر سنة والحصاد سبع سنين بعدها دون بذر شريطة أن تسقى الأرض بمياه الفيضانات، فإن رواية البكري تعطي تفسيرا لهذه العملية بناء على المعطيات المناخية للمنطقة رغم أن هذه الرواية تختلف مع الأولى في مدة الإنتاج التي تتلو سنة البذر.

قال البكري «ويزرع بأرض سجلماسة عاما ويحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام، لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد وأرضهم مشققة فيقع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان في العام الثاني حرث بلا بذر وكذلك في الثالث وقمحهم رقيق».(20)

وأكدت كتب الجغرافيا في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ما جاء عند ابن حوقل والبكري حول القمح بسجلماسة. فقد نقل صاحب الاستبصار هذه المعلومات دون إضافة في حين يفيد ما كتبه الإدريسي في معرفة بعض المعلومات الإضافية حول هذا الموضوع. ويظهر أنه اعتمد على معلومات سابقيه، لكنه جاء بالجديد في إطار تفسيره لطول مدة الإنتاج بعد البذر الأول.

ذكر هذا المؤلف أن سجلماسة «على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل ويزدرع بمائه حسبما يزرع فلاحو مصر، ولزراعته إصابة كبيرة معلومة وفي بعض الأعوام الكثيرة المياه المتواترة بخروج هذا النهر ينبت لهم ما حصدوه في العام السابق من غير بذر. وفي الأكثر من السنين إذا فاض النهر عندهم ثم رجع بذروا على تلك الأرض زرعهم ثم حصدوه عند تناهيه، وتركوا جذوره إلى العام القادم فينبت ذلك من غير حاجة إلى بذر زراعة. وحكى الحوقلي أن البذر بها يكون عاما والحصاد فيه في كل سنة إلى تمام سبع سنين، لكن تلك الحنطة التي تنبت من غير بذر تتغير

---

19) ابن حوقل، م. س. ص 90.

20) البكري، م. س. ص 151.

عن حـالها حتى تكون بين الحنطـة والشعير وتسمى هـذه الحنطة يَـرْدَنْ تْـزْوَاوْ».(21)

ويستفاد مما مضى أن زراعة القمح قـد عرفت ازدهارا واسعا في العصر الوسيط إلى حدود القرن الســادس الهجري الثاني عشر الميلادي. وأن توالي الحصاد سنوات عديـدة تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات اعتمادا على زريعة واحدة يعتبر ظاهرة شاذة ومثيرة للغرابة، لأنها كانت تنتج عن عوامل ثلاثة اختلفت باختلاف الروايات الواردة أعلاه.

تشترط روايـة ابن حوقل في نجـاح الفلاح السجلماسي في الحصـول على المنتوج من غير بذر فيضان النهر ثم تراجعـه، وهو ما اتفقت عليه الروايات الأخرى أيضا.

أمـا رواية البكـري فأعطتنـا تفسيرا معقـولا لهذه العمليـة، لأن تناثـر الحبوب عنـد الحصاد ووقـوعها في الشقـوق يعتبر بذرا في حـد ذاته يسبق عملية الحرث. غير أن ما يجب إثـارة الانتباه إليه في هذه العمليـة هو توغل حبات القمح في الشقـوق حتى عمق كبير، وهو ما من شـأنـه أن يمنعها من أن تنبت في العام المقبل بعد الحرث.

أشارت الدراســات الحديثة المتعلقة بالزراعة في تـافيلالت إلى أن الحبوب إذا بـذرت على عمق عشر سنتمترات لا تنبت تمامـــا بعـد أن يتراكم عليهـا الطمي المنقول عبر فيضانات الأنهار.(22) أضف إلى ذلك أن المحراث الخشبي الـذي كان معتمـدا في الحرث في العصر الـوسيط لا يشق الأرض على عمق كبير. وهـذا مـا يمنع من قلب التربـة إلى مستـوى العمق الـذي تصل إليـه البذور في الشقوق إن هي كانت عميقة جدا.

أما رواية الإدريسي فأضـافت مشكلة جديدة إلى مشــاكل هذا الموضوع. فقد أكد هذا المؤلف أن الحصاد من غير بذر ينتج عن بقاء جذور القمح بعد الحصاد في التربة، وهي التي تنمو مجددا بعد سقيها فتعطي إنتاجا في العام المقبل. غير أن ما ذكره صاحب هذه الـرواية يبقى قليل الحظوظ في الصحة مقارنة مع ما جاء عند البكري في هذا الباب.

---

21) الإدريسي، م. س. ص 37 – 38.

22) R. Faure; La Tafilalet; Op. Cit; p : 88.

ومهما كان في ذلك من أمر فإن توالي سنوات الإنتاج من الحبوب بسجلماسة في العصر الوسيط يعتبر مؤشرا على خصوبة أراضيها التي كانت قابلة لأن تتطعم بالمواد العضوية على الدوام، بفعل تراكم الطمي المحمول عبر الفيضانات، وتسمى هذه التوضعات عند المحليين باسم «الرَّجِيعْ».

وبما أن حمولة وادي زيز وغريس تضم أساسا الصلصال والرمل، فإن الفرشة التي تتشكل بفضل توضعات هذه الأنهار تتكون من المادتين المشار إليهما. ويصل مجمل سمكها خلال السنة الواحدة سنتمتر واحد غير أنه بعد تراجع مياه النهر نحو مجراها الطبيعي تظهر الشقوق بهذه الفرشة، وتبدو شبه معزولة عن المستوى العادي لسطح التربة أي لمستواها قبل الفيضانات. وهذا ما يعطي تفسيرا لكلام البكري حول تشقق التربة بمجالات تافيلالت، لأنه إذا سلمنا بذلك سهل علينا فهم توالي سنوات الإنتاج من غير حاجة إلى بذر، مادامت الحبوب التي تقع في الشقوق لا يتعدى توغلها فيها أكثر من سنتمتر واحد وهو السمك الذي تكون عليه فرشة الطمي في الغالب. وبعد قلب الأرض عند الحرث في الموسم الفلاحي الذي يلي الحصاد تعطي تلك البذور إنتاجا تقل جودته مع توالي السنوات، لأن حبات القمح تبقى في الشقوق معرضة لأشعة الشمس وهبوب الرياح الحارة فتفقد جودتها بفعل تلك المؤثرات.

لم يكن قمح سجلماسة الذي تحدثت عنه كتب الجغرافيا من النوع الجيد، فهو حسب ابن حوقل ما بين الحنطة والشعير.(23) وذكر البكري أن هذا القمح رقيق صيني يسع مد النبي خمس وسبعين ألف حبة، ومديهم اثنى عشر قنقلا والقنقل ثماني زلافات والزلافة ثمانية أمداد بمد النبي.(24)

وقد ذكر الإدريسي التسمية المحلية التي كانت تطلق في منطقة سجلماسة على هذا القمح وهي يَرْدَنْ تْزْوَاوْ.(25) ومعروف أن كلمة يَرْدَنْ تعني

23) ابن حوقل، م. س. ص 90.

24) البكري، م. س. ص 151.

25) الإدريسي، م. س. ص 38.

القمح بالبربريـة، أما كلمة تزواو فيبدو أن رسمهـا قد لحقه تحريف، ولعل الصواب فيهـا استبدال واو الآخر بنون لتصيرتُــزْوَانْ من أزْوُ وهي الريح. وبذلـك يكون معنى يَـرْدَنْ تُــزْوَانْ هو القمح الجاف أي الـذي جف بفعل هبوب الريـاح الحارة. ومازال الفلاحون في سجلماســة إلى اليوم يستعملون تعبير «القمح المشروب» في تصنيفهم لأنواع الحبـوب حسب الجودة. والقمح المشروب هـو القمح الذي هبت عليـه رياح الشركَــي ولم ينم نموا طبيعيـا فقلت بالنتيجة جودته.

ويستنتج من كل ذلك أن قمح سجلماســة لم يكن من النوع الجيـد كما أن فقدانه لجودته كان ناتجا عن الظروف المناخية بالدرجة الأولى. لأن هذه الأنواع من الحبوب لابد أنها كانت جيدة في بداية تاريخ زراعتها بالمنطقة، ثم فقدت جودتها بفعلِ تأقلمها مع المعطيات المحلية التي يغلب عليها الجفاف في أغلب فصول السنة وتتعرض لهبوب الرياح الحارة المعروفة باسم الشركَـي في غالب الأحيان.

لا يميز الفـلاحون بتـافيلالت اليـوم في إنتاجهم بين حبـوب الاستهلاك والزريعـة بالنسبة للشعير. لكن هـذه العملية الانتقائيـة يعمل بها وبحرص كبير فيما يخص زريعة القمح، حيث يتم اختزان البذور بعد موسم الحصاد في انتظـار موسم الحرث المقبل. وهـذا مـا يؤكـد أن المزارعين على علم بأن زراعتهم لا تقـوم إلا على هذا النوع المحلي الـذي تأقلم مع المعطيـات البيئية لهذا المجال.

وتجب الإشارة إلى أن حبـوب القمح الصلب فقط قابلـة لأن تنبث بتربة تافيلالت، وكل المحاولات التي قـام بها الفرنسيون لأقلمة بعض الأنواع من الحبوب مع خصائص التربة بهذه المناطق باءت بالفشل. لأنها كانت تحتاج إلى قدر كبير من الماء. أمـا فيما يخص القمح المحلي فقد تأقلـم مع المعطيات البيئية خصوصـا منه قمح «تافرطاست» الـذي يعطي إنتاجا مهما حتى في حالة سقيه مرة واحدة.(26) كما أن البذرة الـواحدة من هذا النـوع تنبت ما

---

26) Jouannet; Vie au Tafilalet; Op. Cit. p : 10.

بين 4 و20 ساقة Talle في الظروف الملائمة وهو ما يمكن من مردود جيد.(27) وإنتاج القمح اليوم بتافيلالت ما بين 90 و120 كلغ في الهكتار الواحد وما بين 70 و80 كلغ في الهكتار من الشعير.(28)

وصلتنا إشارة في كتاب القزويني تؤكد أن سكان سجلماسة كانوا يخضعون لتوجيه عرف متداول بينهم يفرض على الفلاحين عدم تجاوز مساحة معلومة في زراعتهم. قال هذا المؤلف «حدثني بعض الفقهاء من المغاربة وقد شاهدها - يعني سجلماسة - أن مزارعها إثنا عشر فرسخا من كل جانب، لكن لا يزرع في كل سنة إلا خمسها ومن أراد الزيادة على ذلك منعوه وذلك لأن الريع إذا كثر لا يبقى له قيمة فلا يشتري من الظناء شيء».(29)

يعطي ما ذكره هذا المؤلف فكرة عن المساحة الشاسعة التي كان بالإمكان زراعتها بضواحي سجلماسة وهي إثنى عشر فرسخا،(30) من كل جانب. أي ما يعادل ستة وثلاثين ميلا أو تسعة وثلاثين كلم. غير أن المساحة التي كان مسموحا بزراعتها هي الخمس فقط، ويستفاد من ذلك أن خصوبة الأراضي وارتفاع مردوديتها هي التي جعلت السكان يقننون المساحة المزروعة من الحبوب لتفادي كثرة الإنتاج، الذي من شأنه أن يجعل ثمن القمح غير ذي قيمة بالمقارنة مع المنتوجات الفلاحية الأخرى التي اشتهرت المنطقة بإنتاجها.

ووردت إشارة في كتاب ابن الزيات تؤكد ارتفاع مردود إنتاج القمح بسجلماسة في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. ففي أثناء حديثه عن أبي محمد عبد الله بن موسى الجزولي أحد رجال التصوف من أهل سجلماسة والمتوفى بمكة سنة 580هـ / 1185م قال «حدثني ابن أبي القاسم قال حدثني أبو بكر بن قرمان الباغاني قال كنت مقدورا علي في رزقي وكان حرثي لا يقوم بي، فاحتجت في وقت الحصاد فالتمست

27) R. Faure; Op. Cit. p : 80.

28) Ibid; p : 88.

29) القزويني، م. س. ص 42.

30) الفرسخ، يساوي ثلاثة أميال والميل يساوي 1100 م.

أجيرا على الحصاد، فوجدت عبد الله الجزولي فاستأجرته وأنا حينئذ لا أعرفه، فحصد عندي وظهرت لي بركته في زرعي، ولم يزل ينمو كل عام ويضاعف حتى أثريت وامتلأت مخازني بالزرع حتى لم أجد أين أجعله».(31)

ويهمنا من رواية ابن الزيات أن أبا بكر بن قرمان الباغاني الذي استأجر المتصوف عبد الله الجزولي للحصاد امتلأت مخازنه بالحبوب واستمرت على ذلك سنوات متتالية بعد تاريخ استئجاره له. وهذا ما يؤكد ارتفاع مردودية الإنتاج الزراعي بسجلماسة في الفترة التي عاش فيها ابن قرمان الباغاني. وقد يكون لذلك دوره في تفسير ما ذكره القزويني حول تحديد المساحة المزروعة التي تعارف سكان سجلماسة على استغلالها.

لم تستمر منطقة سجلماسة في إنتاج كميات وافرة من الحبوب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي كما كان عليه الأمر في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. ودليلنا في ذلك ما كتبه ابن عبد المنعم الحميري،(32) والقلقشندي.(33) وهذا ما يستفاد أيضا من رواية ياقوت الحموي الذي قال بأن منتوج التمور «وفير كثير بهذه المناطق لكن غلة أهلها من المزروعات قليلة».(34) كما أن ابن بطوطة الذي زار سجلماسة في السنوات الأولى من النصف الثاني من نفس القرن، لم يشر إلى وجود إنتاج وافر من الحبوب بها بل اكتفى بذكر أن تمرها يفوق تمر العراق جودة.(35) وهذا ما أكده أيضا ابن فضل الله العمري حين أشار إلى أن تمر سجلماسة يتجهز به التجار إلى كل الأصقاع.(36)

يؤكد ما ذكره الجغرافيون الذين عاشوا في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي حول النشاط الزراعي بسجلماسة نتيجة مفادها أن منتوج

---

31) ابن الزيات، م. س. ص 277 – 278.

32) ابن عبد المنعم الحميري، م. س. ص 305.

33) القلقشندي، م. س. جـ 5. ص 164.

34) ياقوت الحموي، م. س. ص 192.

35) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 772.

36) Ibn Fadl Allah Alomari, Op. Cit. p : 200 - 201.

التمر بها قد عوض في هذه الفترة منتوج الحبوب. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل يتعلق الأمر هنا بتخلي سكان سجلماسة عن زراعة الحبوب وعنايتهم أكثر من أي وقت مضى بغراسة أشجار النخيل قصد الاستفادة من منتوجها ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي الدوافع وراء هذا الاهتمام ؟ فهل يعزى إلى الدور الذي كانت تلعبه التمور في النشاط التجاري ؟ خاصة وأن تمور سجلماسة قد وصلت بلاد السودان الغربي منذ القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي كما وصلت أوربا منذ القرن الثالث عشر الميلادي. أم أن التخلي عن زراعة الحبوب كان وليد عوامل مناخية وعلى رأسها مشكل المياه، أم أن الأمر يتعلق بظروف انعدام الأمن والمشاكل الاجتماعية التي عمت تلك المناطق بسبب صراع بطون عرب المعقل فيما بينهم ؟.

مما لاشك فيه أن اهتمام سكان سجلماسة بإنتاج التمور قد عرف تطورا مهما في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي نتيجة الأهمية التي كانت لهذا المنتوج في التبادل التجاري على الصعيدين الداخلي والخارجي كما في كل فترات العصر الوسيط. لكن هذا الاهتمام لم يكن من شأنه أن يحد من ممارسة الأنشطة الزراعية الأخرى مادام العمل المرتبط بإنتاج التمور يبتدىء في شهر فبراير ويستمر طيلة شهر مارس في عملية تأبير الأشجار، ولا تحتاج النخلة بعدها إلى عمل إضافي حتى حلول موسم جني تمورها في شهر شتنبر. وهكذا فإنه إذا رجحنا عامل الاهتمام بشجرة النخيل وفسرنا به تراجع الاهتمام في زراعة الحبوب، فإن السنة الفلاحية لم تعد على ذلك مستغلة بأكملها.

وهكذا فإن عدم وجود إشارات حول زراعة الحبوب بسجلماسة في القرن الثامن الهجري واقتصار المصادر على ذكر أهمية منتوج التمور يستدعي البحث عن تفسير للأسباب الكامنة وراء ذلك. خاصة وأن إنتاج سجلماسة من الحبوب قد عرف طريقه إلى أودغست في القرن العاشر الميلادي وأن وفرة إنتاجها من هذه المادة كان السبب في التزام السكان

بزراعة مساحة معلومة متعارف عليها تفاديا لكثرة الإنتاج وانخفاض أسعار الحبوب في الأسواق.

يحتمل أن يكون لهذا التراجع علاقة بالاضطرابات التي عرفتها سجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. فصراع بطون ذوي منصور فيما بينها، كان له انعكاس سلبي على الأوضاع العامة بهذه المنطقة وأثر بدون شك على النشاط الزراعي بها نتيجة ما رافقه من أعمال تخريبية في مجالات عديدة. لأنه لابد أن تكون حروبهم قد استهدفت الحقول والمزارع، وربما أسفرت عن انتعاش فلاحة منطقة ما من مناطق الإقليم على حساب أخرى نتيجة التحكم في مصادر المياه.

لقد كانت سجلماسة كما مر معنا تعتمد على مياه وادي زيز في زراعتها في العصر الوسيط. وإذا تأملنا مناطق استقرار الأطراف المتنازعة في مجالاتها في الفترة التي نحن بصددها سهل علينا فهم الأضرار التي لحقت النشاط الزراعي بالمنطقة المجاورة لمدينة سجلماسة على وجه التحديد حيث وفرة الأراضي السهلية.

اختص عرب أولاد حسين بسكنى المناطق الواقعة إلى الشمال من مدينة سجلماسة، في حين كان الأحلاف يقطنون المدينة وضواحيها. وكان لاستقرار أولاد حسين في تيزيمي والجرف - حيث يوجد إلى اليوم قصر أولاد غانم نسبة للأسرة التي اختصت بزعامة أولاد حسين - أثره في السيطرة على القسم الأعلى لوادي زيز وغريس شمال موقع مدينة سجلماسة، فكانت النتيجة حرمان المناطق الجنوبية من مياه النهر وتضررها بفعل ما أصبحت تعانيه من جفاف.

ونعتقد أن سهل تافيلالت المجاور لموقع خراب مدينة سجلماسة الذي يقع على المجرى الأسفل لوادي زيز قد كان يستفيد استفادة كبيرة من مياه النهر نتيجة تواجد مركز القرار بالمدينة. لأن نفوذ مدينة سجلماسة كان يضمن وصول الماء إلى أقصى المناطق الجنوبية منها، رغم أن العادة تفرض استغلال المياه أولا بأول من عالية النهر إلى سافلته. وقد استمرت المناطق المجاورة للمدينة على استفادتها من مياه النهر طالما ظلت المدينة قوية

ومتحكمة في مجالاتها، ثم عرفت تضرزا فيما بعد نتيجة تحكم القوى المحلية في مناطق استقرارها وسيطرتها الفعلية عليها.

إن أهم نتيجة يمكن تسجيلها في المرحلة التي بدأت فيها سجلماسة تعرف تراجعا واضحا في مجالات متعددة – أي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي – هي استقرار أولاد حسين بمنطقة تيزيمي الواقعة إلى الأعلى من موقع مدينة سجلماسة. وقد أشرنا في الفصل الخاص بالتطورات السياسية لمنطقة سجلماسة إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا على خلاف دائم مع أبناء عمومتهم المنبات والعمارنة المتحكمون في سجلماسة وضواحيها. وقد انعكس ذلك الخلاف على محاولة أبناء أبي علي عمر الاستقلال بالمنطقة، حيث خضعت التطورات السياسية بسجلماسة في هذه الفترة إلى رغبة بطون عرب المعقل وزعمائهم. وتجلى ذلك بوضوح في عزل عبد الحليم وتولية أخيه عبد المؤمن.

وإذا تأملنا نتائج هذا الصراع الاجتماعي الذي عرفته سجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري سنجد أن عرب أولاد حسين كانوا الأقوى والأكثر سيطرة وفعالية في تلك الجهات. وبما أن تحويل اتجاه المياه عن سجلماسة كان من الخطط التي نهجها المرينيون من أجل السيطرة على هذه المدينة، إدراكا منهم لأهمية المياه في مجتمع الواحات، فمن غير المستبعد أن يكون أهم ما رافق نجاح أولاد حسين في السيطرة على الإقليم هو استفادتهم الفعلية من مصادر المياه به واستغلالها في إقامة نشاط زراعي بمنطقة تيزيمي. وحرمان تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة حيث تقع مدينة سجلماسة من الاستفادة منها. ولم يؤثر ذلك على مردودية إنتاج الحبوب فحسب – لأن المناطق المجاورة لمدينة سجلماسة هي أكثر الأراضي خصوبة بمجالها – بل يمكن أن يكون قد تعدى ذلك إلى التأثير على الحياة الحضرية بالمدينة نفسها، نظرا لما لمشكل المياه من انعكاسات سلبية على السير العادي للحياة اليومية بها.

وتحتفظ ذاكرة المحليين إلى اليوم بزجل يظهر من مضمونه ما كان لمنطقة تيزيمي من أهمية وأولوية في المجال الفلاحي على حساب المناطق

الواقعة إلى الشمال والجنوب منها. ويتعلق الأمر بما تردده الفتيات أثناء جلبهن الماء من السواقي إلى المنازل حيث يقلن «أَمَّادَارْنَا جْدِيدَة والوَادْ حْدَاهَا، أَمَّادَازُوا لعْرْبْ وَلاَ ذَاقُوا مَاهَا، أَمَّا هَزِّيتْ كُلْتِي وُتْبَعْت الوُدْيَانِ، أَمَّا طَاحْ النَّدَى عْلِيَّ وُتْبَلْ ايزَارِي، قُبَّةْ تِيزِيمِي نْبَانْ خَضْرَاء يَاوَادْ الرَّتَبْ يَا مَكْلُوعْ الوَالِي».

إن هذا الزجل هو كلام موجه من بنت إلى أمها تصف فيه موقع منزلهن إلى جانب الوادي أي وادي زيز، وتخبرها بأن العرب مروا من هناك وما استطاعوا التزود بالماء منه، ثم تحكي البنت أنها أخذت قلتها وتبعت مجرى الوادي طيلة اليوم حتى بدأ الندى في التساقط وتسبب في بلل الإيزار الذي كانت ترتديه، وأخيرا تنهي كلامها متأسفة بقولها أن قبة تيزيمي تظهر للناظر خضراء، وهي ترمز بذلك إلى أشجار النخيل التي تشبه القباب الخضراء الزاهية ووصفت واد الرتب بـ«مكلوع الوالي» أي الذي لا أهل له يحمونه ويدافعون عنه.

يتلخص مضمون هذا الزجل في قضيتين أساسيتين أولهما أن مياه الوادي الجارية التي مر بجوارها العرب لم يأخذوا الماء منها رغم حاجتهم إليه. وثانيهما وصف منطقة تيزيمي بالقبة الخضراء وواد الرتب الواقع إلى الأعلى منها بمكلوع الوالي. وإن الربط في هذا الزجل بين مشكل الماء في منطقتي تيزيمي والرتب والعرب هو الذي جعلنا نعتقد في إمكانية تطابق مضمونه مع المرحلة التي نحن بصددها. خاصة وأن ما جاء فيه يعكس بعضا من جوانب التطورات التي تحدثنا عنها، بما في ذلك سيطرة أولاد حسين على مجالات سجلماسة، وتسخيرهم لمياه النهر في إنعاش فلاحة منطقة تيزيمي التي استقروا بها وحرمان غيرهم من الاستفادة منها.

ثم إن موقع منطقة الرتب إلى الأعلى من منطقة تيزيمي يفرض أن تكون استفادة الأولى أكثر من استفادة الثانية، وأن حدوث خلاف ذلك لا يفسر سوى بالضغوط التي مارستها القبائل القاطنة في السافلة على أهل العالية. فقد كان أولاد حسين سكان تزيمي يمنعون على ما يظهر على المستقرين في العالية استغلال المياه لضمان ري مستمر لمنطقة استقرارهم. فكانت النتيجة

أن تضررت المناطق الواقعة إلى الأعلى من مجالاتهم وضعف إنتاجها الفلاحي. وهذا ما مارسوه أيضا مع سكان السافلة من عرب الأحلاف. فكانت النتيجة حرمان السهل الفسيح المجاور لمدينة سجلماسة من مياه النهر وتراجع مردودية إنتاجه الزراعي.

ويغلب على الظن أن منطقة تيزيمي قد عرفت في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ازدهارا كبيرا في النشاط الزراعي. ويرجع السبب في ذلك إلى قوة القبيلة المستقرة بها - أي أولاد حسين - والشهرة التي كانت لشيوخهم لدى السلاطين المرينيين فضلا عن علاقتهم الطيبة بهم. عكس عرب المنبات سكان مدينة سجلماسة الذين كانوا على خلاف مع بعض السلاطين المرينيين منذ أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. فمن المعروف أن يوسف بن علي بن غانم زعيم أولاد حسين كان في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري على علاقات طيبة بالسلاطين المرينيين، واضطره ذلك إلى خوض صراعات عديدة مع الوزراء المستبدين بفاس كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويهمنا هنا أن ابن خلدون أشار إلى أعمال التخريب التي قام بها الوزير محمد بن عثمان لممتلكات يوسف بن علي بن غانم بمناطق سجلماسة سنة 784هـ / 1383م.(37) وتفيدنا هذه الإشارة في معرفة الازدهار الذي عرفه النشاط الزراعي في تيزيمي والجرف في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، لأن ما قام به الوزير محمد بن عثمان من تخريب لحقول يوسف بن علي بن غانم إنما كان الهدف منه إضعافه من الناحية المادية بضرب مصادر غناه.

أضر احتكار أولاد حسين لمصادر الماء وسيطرتهم عليها استنادا إلى قوة عصبيتهم في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بالمناطق الواقعة إلى الجنوب والشمال من مجالاتهم. وربما كان لذلك أثره في تراجع زراعة الحبوب بسهل سجلماسة فضلا عن تراجع الحياة المدنية بالمنطقة ككل. غير أن أهم ما يثير الانتباه في هذا الباب هو التغيير الذي حدث على مجالات استقرار بطون المعقل في مناطق سجلماسة بعد القرن الثامن الهجري والذي

37) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 462.

كان له علاقة بمشكل الماء. فقد أشار الحسن الوزان إلى أن العمارنة كانت تسكن منطقة الرتب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، مع العلم بأنها كانت تسكن ضواحي سجلماسة فيما سبق. وكذلك الشأن بالنسبة للمنبات الذين أصبحوا يستقرون بمنطقة مدغرة في نفس الفترة بعدما كانوا بتافيلالت بالمعنى المحلي لكلمة.(38)

ويستفاد من إشارة الوزان أن الأحلاف الذين هم المنبات والعمارنة قد تخلوا عن سكنى المناطق الواقعة إلى الجنوب من مجالات أعدائهم أولاد حسين واستقروا إلى الأعلى منها تاريكن سجلماسة وضواحيها التي قطنوها ردحا من الزمن. ويرجع السبب في ذلك إلى أن العمارنة والمنبات كانوا أكثر قوة من أولاد حسين في الفترة التي عاش فيها هذا المؤلف.

نستنتج مما مضى أن زراعة الحبوب عرفت تراجعا واضحا بسجلماسة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، يشهد على ذلك سكوت مصادر المرحلة عن ذكر هذا المنتوج وإشارتها لإنتاج التمور وأهميته في الوفرة والجودة. وقد كانت أسباب هذا التوجه الجديد مرتبطة بالاضطرابات الاجتماعية التي عرفتها المنطقة، نتيجة صراع أولاد حسين والأحلاف وانقطاع وصول الماء إلى المناطق السهلية المجاورة لمدينة سجلماسة. فتراجعت زراعة الحبوب بها لأنه لم يكن بالإمكان أن تقوم الزراعة في ذلك الوسط الجاف دون وفرة المياه في حين عرف إنتاج التمور تطورا ملحوظا، لأن شجرة النخيل تستطيع أن تقاوم الجفاف وأن تستمر في الإنتاج أعواما كثيرة دون حاجة إلى السقي.

وقد تأثرت سجلماسة تأثرا كبيرا باضطراب أوضاعها الاجتماعية ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ومالحق ذلك من مراحل. ذكر الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي أن سكان قصورها بعضهم كان حرا وبعضهم الآخر خاضع للاعراب.(39) وهذه الوضعية التي ذكرها هذا المؤلف لم تكن وليدة الفترة التي عاش فيها

---

38) الوزان، م. س. جـ 2. ص 123 – 124.

39) نفسه، جـ 1. ص 45 وجـ 2. ص 124.

بقدرما هي استمرار لما شهدتـه المنطقة في فترات سابقة بسبب صراع بطون المعقل فيما بينهم.

كـانت هـذه المنـاطق معرضـة للنهب والفـوضى، كما كـان على سكـان القصور أن يدفعـوا حصة من محصولهم الزراعي لـلاعراب مقابل أن يكف هؤلاء عـاديتهم عنهم. فقـد وردت في كتاب «الـدر النثير» نازلة تـوضح أن سكان سجلماسة كانوا يخصصون حصة من إنتاجهم من الحبوب للاعراب كمغرم ألفـوه وتداولـوا التعامل به للعيش في دعـة وأمن. وقد كـان السؤال الـذي ورد على أبي الحسن الصغير حول مـا إذا كـانت الـزكاة واجبـة على المحصول بما فيـه ما يتم غـرمه للاعـراب ؟ وأجاب المفتي «أمـا ما يغـرمه الاعـراب أهل الزرع على زرعهم من الـزرع فأفتى بعضـهم بأنـه يسقط من الزكاة».(40)

كـان القمح يشكل في مجتمع الـواحـات سلعـة رائجـة تتم بها عمليـة المقايضــة مقابل سلع أخرى محلية. وممـا يؤكد ذلك ما جـاء في نوازل ابن هلال السجلماسي – الذي توفي في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي – حول من له مدان زرع بدرعة والآخر له مدان تمر في سجلماسة وأراد السجلماسي الذي له مدان زرع بدرعـة أن يأخذ كل واحد منهما الذي في بلده هل يجوز لهما ذلـك أم لا ؟ فأجاب بعدم جـواز ذلك،(41) ورغم أن جـواب هـذا المفتي لا يبيح هـذه العمليـة لأن الشرع لا يجيـز بيع الطعـام بالطعام فإن وجـود هذا النوع من التعامل غير مستبعد في منـاطق الواحات بالنظر إلى قلة منتوج القمح ووفرة منتوج التمر بها.

استمرت مناطق سجلماسة على ما عرفته من تراجع في إنتاج الحبوب في المراحل اللاحقة للقـرن الثامن. ودليل ذلك ما ذكره مارمول كـاربخال الذي أشار إلى ضعف إنتاج الحبوب في المناطق الجنوبية ووفرة التمور بها وقال «مهما كـان محصول القمح في السنـة كثيرا فإنـه لا يكفي لأكثر من ستة

---

40) أبو الحسن الصغير، من خلال ابن هلال السجلماسي، الدر النثير طبعة فاس 1303 ص 26.

41) ابن هلال السجلماسي، نوازل ابن هلال طبعة فاس 1310. ص 20

أشهر، بينما تمكن وفرة التمر من المبادلة مع بلاد البربر والحصول منها على الكمية المرغوب فيها من القمح والشعير.(42)

ومهما كان من أمر في هذا الموضوع فإن التراجع الذي عرفته سجلماسة في مجال إنتاج الحبوب يمكن أن يكون نتيجة لتغير المعطيات المناخية بها لكن اضطراب أوضاعها الاجتماعية وما رافقه من انعكاسات سلبية على ممارسة النشاط الزراعي يعطى تفسيرا معقولا لذلك، وهذا ما يدعو إلى التفكير في أن فلاحة سجلماسة ظلت مزدهرة ومنتجة في العصر الوسيط طالما ظلت المدينة متحكمة بقوة وحزم في مجالها القروي، وطالما ظلت تباشر مراقبتها الفعلية عليه. وهو ما مكنها من ضمان استفادة دائمة من مياه النهر رغم وقوعها في سافلة مجراه، لكنها لما ضعفت سلطتها فقدت هذه الامتيازات، وتخلت عنها لصالح المناطق الواقعة في العالية فتضرر إنتاجها الزراعي بفعل ذلك.

ب – التمور :

سبقت الإشارة إلى أن شجرة النخيل تمثل أكثر أنواع الأشجار انتشارا في المناطق شبه الجافة. وأن تاريخ ظهورها بهذا المجال يعود إلى فترة غابرة من التاريخ. وقد أوضحنا الأسباب التي ساعدتها على الانتشار بهذه المناطق كحاجتها لقدر قليل من الماء، وقدرتها على النمو في التربة المالحة، وتحملها لدرجة الحرارة المرتفعة، فضلا عن نموها بشكل سريع في التربة الغرينية الناتجة عن تراكم حمولة الفيضانات.

كانت غراسة النخيل من الأنشطة الفلاحية التي مارسها الفلاحون بسجلماسة على نطاق واسع في العصر الوسيط تبعا للأهمية التي كانت تلعبها هذه الشجرة في حياة السكان. وكان لما توفره من غذاء وحطب وخشب ونقود أثره في الدفع بالمزارعين إلى الاهتمام بها أكثر من اهتمامهم بغيرها من الأشجار. وتعود أول إشارة لغراسة أشجار النخيل بسجلماسة

---

42) مارمول كاربخال، م. س. ص 45.

إلى عهد أول أمير للخوارج الصفرية بها وهو عيسى بن يزيد الأسود، حسب ما جاء في مخطوطة محلية لمولاي أحمد البلغيثي المتوفى في بداية هذا القرن.(43) وهذا لا يعني أن هذه الشجرة لم تكن معروفة بهذه المنطقة قبل هذا التاريخ بقدرما يؤكد أن الاهتمام بغراستها نابع من معرفة السكان بأهميتها ورغبتهم في توسيع المساحة المغروسة منها.

وتفيدنا كتب الفلاحة العربية في معرفة الكيفية التي كانت تتم بها غراسة شجر النخيل والموسم الفلاحي الملائم لذلك. ذكر ابن حجاج الأندلسي أن غرس النوى يكون في شهر النير.(44) أما غراسة الفسيل فتكون في شهر مارس وهي أنجع من سابقتها لأنها تمكن من الحصول على إنتاج التمور في مدة زمنية وجيزة.(45)

---

43) Bassac; Sijilmassa traduction d'une mauscrit; Op. Cit. p : 224.

44) تتم غراسة النخيل على الشكل التالي «...تؤخذ التمرة بلحمتها وتشرح على ظهرها حد النقير، وهي النقطة التي على ظهر النواة، ويعمد إلى الأرض المالحة ويحفر فيها حفرة عمقها ذراعا، ويخرج تراب كل الحفرة ويخلط إليه من الزبل مقدار الربع، ويكون ذلك الزبل مطيبا. فإن كان التراب مقدار قفتين طرح له من الملح مقدار أربعة أرطال، فإن كان أقل من ذلك أو أكثر فبحساب ذلك، ويخلط الكل ويمزج حتى يصير شيئا واحدا، ويحرك الجميع تحريكا جيدا حتى لا يمتاز بعضه عن بعض، ثم يرد الجميع إلى الحفرة المذكورة... ثم تؤخذ ثلاثة تمرات مشرحة على ما وصفناه... ولا يكون أقل من ثلاثة ولا أكثر فيحفر في تلك الحفرة... مقدار الأصبع ويطرح فيها النوى، وتكون الظهور منها إلى القبلة على هذه الصورة». راجع ابن حجاج الأندلسي، م. س. ص 14.

وهذا ما أكده السجستاني أيضا حين وصف الكيفية التي تتم بها غراسة النوى بقوله «نوى التمر يزرع في آخر الشتاء مستقبلا الصيف فإذا وجد النوى حر الأرض نبت بإذن الله، ويقال له الزريعة والجميع الزرعات... ويكون أول أسمائها النقيرة، والنقيرة سرة العجمة، وقال أبو زيد النقير والنقرة التي في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة من حبة صغيرة موردة تكون في ذلك الموضع، فإذا نزعت منها ونجمت وهي نجمة وانجمة، ثم هي شوكة ثم تصير الشوكة خوصة... والجميع الخناص ثم تغير أياما تم تطلع مع الخوصة خوصة أخرى، فإذا صارت ثلاث خوصات فهي الفرش، ثم يتتابع الخوص حتى يكثر ثم يعرض فيدعى السفيف، وذلك قبل أن يعسب فإذا كثر خوصه قيل قد عسب وهو عسيب». راجع السجستاني، م. س. ص 7.

45) قال ابن حجاج في موضوع نقل شجيرات النخيل من مكان إلى آخر «فمن أراد تنقيلها فلا يكون ذلك إلا بعد عامين، وتقلع عند ذلك النخلة بحوزها وما حولها من التراب، فإذا حولت إلى المكان الآخر سقيت مرتين في الجمعة، وتنقى النخلة من جريدها في زمن الاعتدال وذلك عند مضي =

والنخلة لا تعطي المنتوج بمجرد غراستها وإنما يتطلب وصولها إلى سن العطاء مدة زمنية تتراوح بين ست سنوات وخمسة عشر سنة. غير أنها بالمقابل تستطيع أن تعمر طويلا وأن تواصل الإنتاج أزيد من قرن من الزمن دون أن يضعف إنتاجها أو تقل جودته.(46)

وتحتاج النخلة إلى التأبير، وتبتدىء هذه العملية في شهر فبراير وتستمر طيلة شهر مارس كما هو واضح في الجدول الخاص بالسنة الفلاحية لمنطقة تافيلالت. وصف الحسن الوزان هذه العملية بقوله «والنخل ذكر وأنثى، فالأنثى تنتج الثمر، والذكر لا ينتج غير عناقيد الزهر، فلابد إذن، قبل تفتح الأزهار من أخذ عريش من الأزهار المذكرة وربطه في الأزهار المؤنثة، والا فلا تنتج الشجرة غير ثمر هزيل نواته غليظة جدا».(47) ويعرف هذا النوع غير الملقح عند المحليين باسم «أَدَاوْ» ولا يصلح إلا لعلف البهائم لردائته.

خصصت كتب الجغرافيا القديمة فيما كتبته عن سجلماسة بعض المعلومات لشجرة النخيل لا تتناسب والأهمية الكبيرة التي كانت لهذه الشجرة في حياة السكان.

أشار ابن حوقل إلى أن سجلماسة «لها نخيل وبساتين حسنة».(48) وبعده بقرن من الزمن ذكر البكري في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أن سجلماسة كثيرة النخل،(49) وعنه نقل صاحب كتاب الاستبصار

= عشرين يوما من شهر مارس وهو وقت تحرك الماء داخلها». انظر الفلاحة، ص 14. وحول ذلك كتب السجستاني أيضا ما يلي «وتحول ابنة النخلة عن أمها فإذا قطعوا شوكها يعني عروقها... ثم تنصب في حفيرة... ثم يهال عليها التارب اليابس حتى توارى أصول الكرانيف وتقلع على كل حال صغارا وكبارا. ثم تقطع عسبها جمعاء ويعصب على أصلها بعصابة من لحاء العسب، وتغطى من أولها إلى آخرها بعسب يابسة وتبقى كذلك خمسة عشر ليلة، وتسقى بين الأيام حتى تنبت فإذا نبتت سقوها، فإن سقيت بعد ما تنبت كل يوم كان خيرا لها، ثم يحل عنها العصاب فتمرض شيئا ثم تعود فتراجع فذلك دأبها حتى تطلع، وربما قطعوا الذكور عن الإناث أو أكثر النخل في مكان مخافة أن تقبل عليها». انظر كتاب النخلة، ص 24.

46) R. Faure, Op. Cit. p : 97.

47) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 119.

48) ابن حوقل م. س. ص 90.

49) البكري، م. س. ص 149.

مادته حول نفس الموضوع،(50) وتكررت هذه المعلومات في كتابات كل من ابن عبد المنعم الحميري،(51) والقلقشندي،(52) في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

وتعود أول إشارة حول أنواع التمر وأهمية إنتاجه بمنطقة سجلماسة إلى القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، حين ذكر ابن حوقل أن سكان سجلماسة «لهم رطب أخضر في غاية الحلاوة»،(53) ورغم أن ذكر هذه الشجرة قد تكرر في كتابات البكري وصاحب الاستبصار، فإن الحديث عن منتوجها لم يأت الا مع كتابات القزويني والإدريسي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

ذكر الأول أن تمر سجلماسة «ستة عشر صنفا ما بين عجوة ودقل».(54) وتجب الإشارة إلى أن القزويني أخذ معلوماته عن أحد الفقهاء المغاربة من الذين زاروا سجلماسة في القرن السادس، وهذا ما يفرض الاطمئنان إلى معلوماته رغم أنها دونت عن طريق الرواية الشفوية. أما الثاني أعني الشريف الإدريسي فقال «وبها نخل كثير وأنواع من التمر لا يشبه بعضها بعض وفيها الرطب المسمسى بالبرني وهي خضراء جدا وحلاوتها تفوق كل حلاوة ونواها صغار في غاية الصغر».(55) وإن اقتصار الإدريسي على ذكر البرني يؤكد أنه النوع الأكثر جودة بسجلماسة في القرن السادس الهجري.

وأشار أبو حامد الأندلسي إلى نوع آخر من أنواع التمر اشتهر بجودته في مناطق سجلماسة وهو تمر البتوني.(56) وهذه التسمية قريبة من البرني الذي ذكره الإدريسي، غير أنه ليس هناك ما يستبعد إمكانية وجود تسميات

---

50) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 201.

51) ابن عبد المنعم الحميري، م. س. ص 305 – 306.

52) القلقشندي، م. س. جـ 5. ص 164.

53) ابن حوقل، م. س. ص 90.

54) القزويني، م. س. ص 42.

55) الإدريسي، م. س. ص 38.

56) أبو حامد الأندلسي، من خلال Fagnan, Op. Cit. p : 28.

متشابهة في أسماء أصناف التمور بسجلماسة في العصر الوسيط، كما هو عليه الحال اليوم حيث نجد تسميات المجهول والجيهل رغم الاختلاف البين في نوعيهما وجودتهما.

وجاء في كتاب «التشوف» اسم أحد أصناف التمور بسجلماسة، ويستفاد من رواية مؤلفه أن هذا الصنف كان مشهورا بجودته في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. ذكر ابن الزيات أن أبا بكر ابن جلداسن الصنهاجي - أحد رجال التصوف من أهل سجلماسة المتوفى بمراكش سنة 590هـ / 1195م - طلب من يحيى بن عمر بن المعتصم وكان خاصا به أن يبعث إليه تمرا من التمر اليراري فبعث به إليه.(57)

اتخذ هذا النوع من التمر تسميته من اسم مكان بمجالات سجلماسة وهو منطقة يرارة. ولا نعلم بالتحديد المقصود بيرارة في كلام صاحب التشوف لأن هذا الاسم يطلق على أحد القصور الواقعة إلى الجنوب من موقع خراب مدينة سجلماسة، كما يطلق على قرية ذكر البكري أنها كانت تقع على الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وفاس الذي يمر عبر مطماطة أمسكور أي عبر حوض ملوية. وقد اشتهرت هاته القرية بجودة أصوافها واعتمدت عليها مدينة سجلماسة في صناعة النسيج.(58) ويظهر من وصف البكري أنها كانت تقع في الحوض الأعلى لوادي كَير عند قدم جبال الأطلس الكبير الشرقي. وكل من المكانين معا يوجد به شجر النخيل ويستمر في إنتاج التمور إلى اليوم.

أجمعت مصادر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي على وفرة التمور بمنطقة سجلماسة وأهيمتها في المبادلات التجارية نتيجة الجودة التي عرفت بها بين سائر أنواع التمور في مختلف مناطق إنتاجه. قال القلقشندي «وفي سجلماسة الرطب والتمر... وتمرها يفضل تمر سائر بلاد المغرب حتى يقال أنه يضاهي التمر العراقي».(59) كما ذكر ابن الخطيب

57) ابن الزيات. م. س. ص 307.

58) البكري، م. س. ص 147.

59) القلقشندي، م. س. جـ : 5. ص 164.

أن سجلماسة «معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق والأمر، تتعدد أنواعه فتعيي الحساب وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب».(60) ويفهم من كلام هذا المؤلف أن التمور كانت سلعة رائجة في عملية التبادل التجاري، وأنها كانت أحد مصادر غنى سكان سجلماسة.

وهذا ما أكده ابن فضل الله العمري حين أشار إلى أن التجار يتجهزون بتمر سجلماسة إلى مختلف المناطق المغربية.(61) أما الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار سجلماسة في طريقه إلى بلاد السودان في فترة حكم السلطان أبي عنان فارس المريني فقال أن بها «التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيران منه لا نظير له في البلاد».(62)

ويستفاد من مختلف روايات القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أن سجلماسة استمرت في إنتاج كميات كبيرة من التمور إلى حدود هذا التاريخ وأن هذا الإنتاج شكل أساس تبادل تجاري تم توجيهه من عاصمة الإقليم إلى مختلف المناطق. لكن هذه الوضعية لم تستمر مدة طويلة بعد التاريخ المشار إليه أعلاه، ودليل ذلك ما ورد في كتب الجغرافيا والرحلات التي ألفت في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي حول التراجع الذي عرفته هذه المنطقة في مجال إنتاج التمور.

أشار مارمول كاربخال إلى أن منطقة نوميديا تسمى بلاد التمر «بسبب الكمية الهائلة التي تجنى منه هناك».(63) وهذا المؤلف يتحدث هنا عن مجال واسع تدخل ضمنه منطقة سجلماسة ويشمل كل بلاد القبلة، ولا يخص بحديثه المنطقة المعنية بالدراسة فحسب. لكن الحسن الوزان الذي أقام بقصر المامون في ضواحي سجلماسة سبعة أشهر لم يتحدث عن جودة التمور بتلك المناطق وإنما ذكر ذلك أثناء حديثه عن درعة حين قال

---

60) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م. س. ص 180.

61) Ibn Fadl Allah Alomari, Op. Cit. p. 201.

62) ابن بطوطة م. س. جـ 2. ص 773.

63) مارمول كاربخال، م. س. ص 45.

«ويوجد بجوار النهر... عدد لا يحصي من بساتين النخل التي تنتج تمرا غليظا من النوع الممتاز، يمكن أن يدخر سبع سنوات في مستودع دون أن يفسد، شريطة أن يكون المستودع في الطابق الأول».(64)

يعتبر وصف الحسن الوزان لجودة تمور درعة وإغفاله ذكر تمور سجلماسة دليلا على تراجع جودة هذا المنتوج بهذه الأخيرة. ومن ثم، جاز لنا أن نتساءل عن الأسباب الكامنة وراء ذلك ؟ فالوسط الطبيعي لسجلماسة كما هو الحال بالنسبة لدرعة يساعد شجرة النخيل على النمو في ظروف ملائمة، وعليه فإن تراجع مردودها يرجع لعوامل أخرى لابد من البحث عنها خارج ما له صلة بالمناخ.

فلو فسرنا ذلك بجفاف المنطقة أو قلة الماء بها، فإن ما ذكره الحسن الوزان في هذا الموضوع يناقض ذلك حين قال بأن وادي زيز كان يشكل بحيرة إلى الجنوب من سجلماسة وسط الرمال.(65) ومعنى ذلك أن المياه كانت متوفرة بكثرة مادام هناك فائض يضيع في الصحراء.

وعليه، فإنه لا يستبعد أن تكون أشجار النخيل قد عرفت تراجعا من حيث عددها. بسبب الفوضى التي عرفها الإقليم ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن الهجري وإلى حين المرحلة التي عاش فيها الوزان. كما يحتمل أن تكون هذه الأشجار قد تعرضت لمرض «الْبَيُوضْ» الذي يأتي على نهايتها بعد إصابتها به في ظرف ثلاثة أسابيع أو شهر على أقصى تقدير، وإن كانت بعض الأشجار تقاوم المرض ما بين ثمانية وعشرة أعوام.(66) والْبَيُوضْ كلمة عربية يعبر بها عن هذا النوع من المرض الذي من سماته ظهور اللون الأبيض على سعف جريد النخيل، ثم ينتشر بسرعة حتى يقضي على اخضرار الشجرة ويكون ذلك إيذانا بنهايتها.

شكلت تمور سجلماسة في العصر الوسيط كما في مطلع العصور الحديثة سلعة تبادل تجاري نقلها التجار إلى مختلف الحواضر المغربية

---

64) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. صفحة 119.

65) نفسه، صفحة : 255.

66) Pereau Leroy; Le palmier; Op. Cit; p : 48.

وبلاد السودان وأوربا. وأول إشارة وصلتنا حول تجارة التمور ببلاد السودان تعود إلى القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي. ذكر الإدريسي أن أهل لملم لا يصلهم شيء من الفواكه الرطبة، إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان.(67)

وأكد ابن فضل الله العمري على أهمية تمور سجلماسة في التبادل التجاري.(68) وأشار ابن بطوطة إلى أن سكان قرية تغازى كانوا يقتاتون من تمر سجلماسة وهذا نص كلامه «ولا يسكنها - يعني تغازي - إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة». (69)

كما وصل تمر سجلماسة إلى أوربا في القرن الثالث عشر الميلادي ذكر ماسلاتري Mas Latrie أن السلع المغربية التي كانت تباع في فلاندر Flandre في التاريخ المذكور كانت تتكون من سلع مملكة فاس وهي الشمع، الجلود، الكامون والسكر. وسلع سجلماسة وهي التمر والشب الأبيض.(70)

واستمرت تجارة التمور تعرف رواجا كبيرا في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. أشار الحسن الوزان إلى أن أثمان التمر تختلف باختلاف أصنافه وألوانه.(71) وذكر مارمول أن إقليم سجلماسة «يتوفر على خمسة أنواع من التمر تختلف بعضها عن بعض من حيث الطعم واللون حتى يظن أنها ليست نفس التمار، ولا تتشابه إلا في الشكل والنواة، يسمى أجودها بوسكري وأقل منه جودة بوزيار. وذلك ما يصدر عادة إلى اسبانيا، لأن الأخرى ربما فسدت على متن البحر من شدة رطوبتها. وتوضع الأنواع الثلاثة الأخرى في سلال لكونا في غاية الرخاوة فتصبر هكذا طويلا في مكانها إلى أن تنقل عبر بلاد البربر». (72)

---

67) الإدريسي، م. س. ص 5.

68) Ibn Fadl Allah Alomari; Op. Cit. p : 200.

69) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 373.

70) Mas Latrie; Traité; Op. Cit. p : 99.

71) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 119.

72) مارمول كاربخال، م. س. ص 45.

مـازال تمر بوسكـري الذي ذكـره مـارمول في القـرن العاشر الهجـري السـادس عشر الميلادي معـروفا إلى اليـوم بنفس الاسم في تافيـلالت. على الـرغم من تعـدد التسميـات واختلافهـا من فترة لأخـرى. وهـو مـا يمكن استخـلاصـه من خـلال الجدولين اللـذين أعـددتهما حـول أسماء التمـور وأنواعهـا، والتطـور الذي حدث في تسميـاتها من العصر الوسيط إلى الفترة الحالية

1) الجدول الخاص بأنواع التمور في العصر الوسيط

نوع التمر	المرحلة الزمنية	المصدر
رطب أخضر	4 هـ / 10 م	صورة الأرض ص 90
البرني	6 هـ / 12 م	وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ص 38
البراري	أواخر 6 هـ/12 م	التشوف، ص 307
إيران	8 هـ / 14 م	رحلة ابن بطوطة، ص 773
بوسكري	10 هـ / 16 م	افريقيا، ص 45

2) الجدول الخاص بأنواع التمور في الوقت الحالي

نوع التمر	طول التمرة في المتوسط	قطرها	وزنها	جودتها	معدل تعمير شجرتها	منطقة تواجدها
المجهول	45 إلى 50 ملم	25 – 30 ملم	5 – 25 غرام	جيدة	50 – 60 سنة	زيز – غريس – كَير
بوفكوس	35 ملم	23 ملم	10 – 20 غرام	جيدة	50 – 60 سنة	زيز – غريس – كَير
بوسردان	30 ملم	87 ملم	10 – 15 غرام	طيبة الجودة	80 سنة	زيز
الحفص	40 ملم	20 ملم	12 غرام	طيبة الجودة	انقرض هذا النوع ولم يعد موجودا اليوم	زيز – كَير
بوسكري	20 ملم	10 ملم	10 غرام	طيبة الجودة	50 سنة	زيز
كرنة	23 ملم	24 ملم	12 غرام	نوع عادي	أكثر من قرن	زيز
بوسليخن	30 بـ 35 ملم	20 – 23 ملم	8 غرام	نوع عادي	أكثر من قرن	زيز
بويجو	40 ملم	20 ملم	12 غرام	نوع عادي	تعمر طويلا	كَير

يستفاد من الجدولين الواردين أعلاه أن أسماء أنواع التمور قد تغيرت تغيرا كبيرا في المرحلة الفاصلة بين العصر الوسيط والحديث. كما أن معدل أعمار أشجار النخيل يؤكد أن النخلة ذات المنتوج الجيد لا تعمر طويلا. وهذا ما يبرر اختفاء الأنواع الجيدة التي تحدثت عنها المصادر وظهور أخرى بديلة، إن لم يكن الأمر يتعلق فقط بتغير أسمائها مع مرور الزمن. وهذا ما نعتقد أن يكون قد حدث فعلا، لأن نوع المجهول الذي يعرف اليوم بجودته هو نفس النوع الذي ربما قارن به بعض الجغرافيين بين تمر سجلماسة وتمر بلاد العراق.

مثلت التمور الغذاء الرئيسي للسكان في كل مناطق الجنوب المغربي. قال الوزان «ويتغـذى أهل البلاد من مثل هذا الثمـر، لا سيما في الأيام التي لا يأكلـون غيره، ويقتاتـون بحساء الشعير وغيره من الأشيـاء البسيطة. أمـا الخبز فلا يأكلونه إلا في الأعياد والولائم».(73) وينطبق كلام هذا المؤلف على المرحلة التي عرفت فيهـا المنطقة تراجعا في إنتاج الحبـوب كما أشرنا أعلاه. غير أنه ليس هناك ما ينفي الاعتماد على التمور كمصدر مهم في الغذاء حتى في حالة توفر الحبوب.

فالتمور غنية بالمواد المغذية لأنها تضم ما بين 70 و90 ٪ من السكريات وغنية بالأملاح المعدنية وتضم فيتايمن Vitamines من نوع P,C,B,A. وهكذا فإن 100 غرام من التمـر يعطي 200 إلى 300 سعرة حـرارية Calories وهذه الطاقة الحرارية تتجاوز بكثير الطاقة الحرارية لأغلب الفواكه التي لا تحتوي إلا على ما بين 50 و100 سعرة حرارية في كل 100 غرام.(74)

ولا تقتصر شجرة النخيل على إعـالة سكان المناطق شبـه الجافة فحسب بل تتعدى ذلك إلى توفير أغلب متطلبات حياتهم في مجالات متعددة. ويتعلق الأمـر باعتماد سكـان هـذه المناطق على خشبهـا في البنـاء وصناعـة بعض الأدوات الخاصة ببعض التقنيـات كأغرور مثـلا. كما يستعمل جريـدها في سقف المنازل، لأن النخلـة تنتج ما بين 20 و30 جريدة في العـام الواحد.(75) ويستعمل جريد النخيل كمصدر طاقة للطبخ والتدفئة في فصل الشتاء حيث يشتد البرد في المناطق القارية، كما تتم صناعة الأقتاب التي توضـع على ظهر الجمل من الجزء الأسفل للجريدة أي مما يسمى بالكرنفة.(76)

وإضـافـة إلى هذه الأغـراض فإن شجـرة النخيل تعطي الكثير لسكـان الـواحات. وحتى في حـالة قطعهـا تصبح كل أجزائهـا مستغلة إمـا كخشب للبناء أو كمصدر طاقة بل ويوجد بـداخل الشجرة ما يصلح أيضا للتغذية، وهو ما يعـرف بـ«الْجـمَّـارْ» قـال السجستاني «ربما قطعت النخلة فأكل

73) الحسن الوزان، م. س. جـ. 2. ص 119.

74) Mohamed Saaidi; Le bayoud, Op. Cit. p 13.

75) Ibid; p : 9.

76) Pereau Loroy; Le palmier; Op. Cit; p : 60.

جمارهـا... وأصل الجمارة إلى الجدع يدعى السـاجور وربما أخـذوا الجدع بعدما يجدوا الجمار فيشقق ثم يضرب جوفـه فيتدفق كهيأة الدقيق يصنع منه عصيـدة أو خبزا ويسمى النبق».(77) ويؤكل الجمار إلى اليـوم بمناطق تافيلالت لكن ليس بالكيفية التي ذكرهـا السجستاني بل يؤكد كما هو بعد استخراجه من قلب الشجرة.

ويستعمل نـوى التمر في علف البهـائم قال السجستاني «نـوى النخل عظيم البركـة جدا تعلف الابل النـوى حتى تسمن وتكثر شحـومها، وربما وجدوا في أمعـاء الإبل النوى بعد شهـر ونحو ذلك، وتقـوى الإبل بذلك على حمل المحـامل الثقـال، وتعلف الصفـايا من الغنم النـوى أيضـا فيكثر ألبانـها.(78)

ج – المنتوجات الفلاحية الأخرى

اختصت منطقـة سجلماسة بإنتـاج بعض المواد الفـلاحية التي لا تنمو أشجارها أو نباتاتها إلا في مثل وسطهـا الطبيعي. وكان لهذه المنتوجات أثر كبير في ازدهـار قطاع التجـارة بسجلماسة، لأنها كـانت تمثل سلعا رائجة نتيجة أهميتها في بعض الصناعات التقليـدية. ومن هناك فإن سجلماسة لم تكن مجرد محطـة على الطـريق التجـاري الـرابط بين المغـرب الأقصى والسودان الغربي بقدرما كانت مركزا فاعلا في عملية المبادلات التجارية بما وفرته من سلع محلية.

كانت هذه المنتوجات تتشكل في أغلبهـا من منتوج شجرة الأثل المعروف بـاسم «التَّـاكَّـوْتْ» الذي كـان يستعمل في الـدباغـة، والحناء التي كـانت تستعمل في صباغة المنتوجات كما هو الحال بالنسبة للنيلة. وإلى جانب هذه المنتوجات التي اهتـم بها الفلاحون بفعل ما تدره عليهم مـن أرباح، عرفت المنطقة إنتـاج القطن والكروم، وبعض النباتـات المساعدة على تـربية المواشي

77) السجستاني، النخلة م. س. ص 23.
78) السجستاني، م. س. ص 23.

كالفصفصة، فضلا عن إنتاج بعض التوابل كالكمون وبعض الأعشاب المستعملة في الأغراض العلاجية الطبية كالكروياء وغيرها.

أشرنا سابقا إلى أن شجرة الأثل تنتشر في كل المناطق شبه الجافة وتكثر أشجارها بحوضي وادي زيز وكَير. وهذه الشجرة تنمو بشكل عشوائي دون حاجة إلى مباشرتها بعمل ما، لأنها تستحمل التربة المالحة ولها قدرة على الغوص في أعماق الأرض بحثا عن المياه الجوفية.

وتنتج هذه الشجرة كميات كبيرة مما يسميه المحليون «العَدْبَا» أو التَّاكَّوْتْ. وقد كانت هذه المادة مستعملة في الدباغة منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي على الأقل، قال البكري «وبدرعة شجر التاكوت يشبه شجر الطرفاء وبهذه التاكوت يدبغ الجلد الغدامسي».(79) وهذا ما أكده أيضا صاحب الاستبصار.(80) وإذا كان الحديث عن شجرة التاكوت قد اقتصر على منطقة درعة فحسب فإنه ليس هناك ما ينفي وجودها بمنطقة سجلماسة، لا سيما وأننا نجد إلى اليوم أكبر عدد من أشجار الأثل في الجنوب المغربي بهذه المناطق.

مكنت وفرة التَّاكَوْتْ في منطقتي درعة وسجلماسة من ازدهار الرواج التجاري بينهما وبين مختلف المدن المغربية التي ازدهرت فيها حرفة الدباغة كما مكنت من ازدهار هذا القطاع على المستوى المحلي نظرا لتوفر بلاد القبلة أكثر من غيرها على المواد الأولية الضرورية لذلك.

واشتهرت منطقة سجلماسة أيضا بإنتاج الحناء، قال الإدريسي «ولأهل هذه المدينة غلاة القطن وغلاة الكمون والكروياء والحناء ويتجهز منها إلى سائر بلاد المغرب».(81) وأثناء حديثه عن هذا النبات في درعة قال «ونبات الحناء يكبر بها حتى تكون في قوام الشجر يصعدون إليه، ومنها يؤخذ بذره ويتجهز به إلى كل الجهات ونبات الحناء لا يؤخذ بذره إلا في هذا الإقليم فقط ولا يؤخذ بغيره البتة».(82) وحول نفس الموضوع كتب صاحب

79) البكري، م. س. ص 152.
80) مجهول، الاستبصار. م. س. ص 201.
81) الإدريسي، م. س. ص 38.
82) نفسه، نفس الصفحة.

الاستبصار «والحناء بدرعة كثيرة، ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطيبها، وله مزية في البيع على سواها، وشجر الحناء بها شجر كبير يحتمل أن يرقى فيه الراقي». (83)

إن ما ذكره كل من الإدريسي وصاحب الاستبصار أعلاه عن شجرة الحناء لمثير للدهشة حقا لكنه ليس أمرا مستحيلا لأن هذا النبات يمكن أن ينمو في الظروف الملائمة ليصل إلى قوام الشجر أما في وقتنا هذا فهو أشبه ما يكون بنبات الفصفصة، لدرجة يصعب معها التمييز بين كل منهما قبل نضجهما. ويتم جني محصوله ثلاث مرات في السنة كما هو الحال بالنسبة للفصفصة أيضا. ويستمر سنوات عديدة في الإنتاج دون حاجة لإعادة بذره وزراعته.

ذكر ابن حجاج الأندلسي الطريقة التي كانت تتم بها زراعة الحناء، وهي كما وصفها تتلائم والطريقة التي يمارس بها هذا النشاط الزراعي إلى اليوم بتافيلالت. وهذا نص كلامه «وجه العمل في زراعتها أن تقلب الأرض وتدمر بالتراب الذي يتولد في السواقي الجارية، وتدبر الأرض أحواضا وتهيء ثم تنسج الزريعة، وصفة تصنيفها أن تجعل الزريعة في الماء، وتدخل إليه اليد وتعرك عراكا جيدا حتى تقشر من الغلاف البالي وتصير نقية نظيفة». (84) وبعد أن تتم عمليات بذرها «تواضب بالسقي ثمانية أيام متوالية، ثم يرد السقي إلي ثلاث مرات في الجمعة، فإذا بلغت حدود الشبر، دخل إليها بالمنقاش فتنقش جيدا، وينقى ما نبت فيها من العشب، وتواضب كذلك إلى شهر شتنبر، ثم يؤخذ في فصلها في هذا الشهر». (85)

وتختلف طريقة جني محصول نبات الحناء كما وصفها ابن حجاج عن الطريقة الشائعة بكل مناطق الجنوب المغربي. قال هذا المؤلف «وما قلع منها علق في البيوت والأشجار بحيث لا تصيبها الشمس... حتى تيبس، وإذا يبست نفضت من عيدانها وهذا هو العمل في زراعتها بالأندلس». (86)

83) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 206 – 207.
84) ابن حجاج، الأندلسي، م. س. ص 55.
85) نفسه، نفس الصفحة.
86) ابن حجاج الأندلسي م. س. ص 55.

ولا يعمد الفلاحون بمناطق سجلماسة إلى تفادي تشمس منتوج الحناء بعد جنيه بل يتم وضعه في مكان يكون فيه عرضة لأشعة الشمس عكس ما كان عليه الأمر في الأندلس حتى تسهل عملية فصل ورقه وبذوره عن جذوعه.

وجد نبات الحناء في تربة ومياه تافيلالت ما يحتاجه لنموه الطبيعي، لأنه من الأنواع التي لا تنمو إلا في الأرض السبخة. وقد أجمعت كتب الجغرافيا القديمة على أن التربة بتافيلالت تنتمي لهذا النوع، كما أكدت على ملوحة المياه الجارية بها، وما ينبط فيها من الآبار.

وتتم زراعة نبات الحناء في شهر ماي ويتم جني الحصول الأول منه في شهر غشت والمنتوج الثاني في أكتوبر. وتتوقف الحناء عن الإنتاج في فصل البرودة في شهري دجنبر وفبراير ثم تنمو مجددا لتعطي المحصول الثالث في شهر مارس.

شكل منتوج الحناء أحد المواد الأساسية في صباغة المنسوجات الصوفية باللون الأحمر،(87) كما استعمل في أغراض أخرى كزينة اليدين وخضب الشعر للزيادة في لمعانه والتخفيف من شدة تأثير ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف وهو ما دفع بإبراهيم بن هلال السجلماسي إلى أن يفتي بغسل الرأس قبل الفجر إذا جعلت فيه الحناء في رمضان.(88)

أشار الإدريسي إلى وجود نبات النيلج في منطقة درعة وقال بأنها «ليست طيبة هناك ولكنه يتصرف به في كل بلاد الغرب لرخصه، وربما خلط مع غيره من النيلج الطيب ويباع معه».(89) وأكد الحسن الوزان أن النيلة كانت موجودة بكثرة في منطقة درعة وهذا ما يظهر من قوله «تنمو في هذه المنطقة كمية وافرة من أشجار النيلة وهو نبات للصباغة يشبه العِظْلَم، أو الوسمة، ويستبدلون به سلعا مستوردة من فاس وتلمسان».(90) ولا

---

87) عبد العزيز العلوي صناعة النسيج في العصر الوسيط الإنتاج والمبادلات مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس رقم 2. عدد خاص 1985. صفحة 50.

88) ابن هلال السجلماسي م. س. ص 20.

89) الإدريسي م. س. ص 38.

90) الحسن الوزان. م. س. ج 2، ص 120.

تشير المصادر الجغرافية إلى وجود هـذا النبات في سجلماسة، غير أن تشابه الظروف البيئية بكل من هذه المنطقـة ومنطقة درعة يدفع إلى الاعتقاد في أن الإنتـاج الفلاحي بهما كـان متشـابها في كل شيء، كما هو الحال في منـاطق أخرى من بلاد القبلة.

دخل نبات النيلة المغرب بعد الفتح الإسلامي، وهو من أصل هندي،(91) يحتاج - كما هـو الحال بالنسبة للحناء - إلى كميـة كبيرة من الماء ودرجة حرارة مرتفعة.(92) ونظرا لأهمية هـذا المنتوج في صناعة النسيج، فـإنه كان من المواد التي اختصت بإنتاجها المناطق شبـه الجافة، وشكلت سلعة تبادل تجاري بين مناطق الجنوب ومختلف المناطق المغربية الأخرى.

أشار الإدريسي إلى أن سجلماســة كانت تنتج القطن.(93) ومعنى ذلك أن مجالاتها كانت تعرف ظـروفا طبيعية ملائمة لإنتـاج هذا النبات بما في ذلك ارتفاع درجـة الحرارة ووفرة كميات كبيرة مـن المياه. وهذا مـا يعتبر دليلا على وفرة المياه بوادي زيز في العصر الوسيط اعتمادا على تساقط الأمطار أو ذوبان الثلوج في أماكن منابعه بالأطلس الكبير الشرقي.

ونبات القطن من أصل هندي دخل منـاطق الشمال الافريقي مع العرب الفاتحين، وانتشر بسرعـة في الجهات ذات التربة الطمييـة الغزيـرة المياه.(94) وقد ذكر R. Mauny أن أول الألبسة القطنية التي تم نقلها من المغرب إلى بلاد السـودان يعـود تـاريخهـا إلى القـرن الحادي عشر الميـلادي. ثم أصبحت صناعة القطن معروفة في بلاد السـاحل بالسودان الغربي ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي.(95)

لم تتحـدث المصـادر الجغـرافيـة عـن صنـاعـة المنسـوجـات القطنيـة بسجلماسة. لكن إشـارة الإدريسي إلى وجود هذا المنتوج بهذه المنطقـة تدعو

---

91) D. J. Meunié; Le Maroc saharien; Op. Cit. p : 379.

92) عبد العزيز العلوي صناعة النسيج، م. س. ص 50.

93) الإدريسي م. س. ص 38.

94) عبد العزيز العلوي. م. س. ص 50.

95) R. Mauny; Tableau géographique; Op. Cit. p : 343 - 344.

إلى التفكير في ذلك لأن نساء هذه المدينة اشتهرن بمهارتهن في غزل الصوف كما أكد القزويني ومن بعده ياقوت الحموي حين أشارا إلى أنهن كن يعملن منه «كل حسن عجيب بديع من الأزر التي تفوق القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر، كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر، ويعملن به عقارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ».(96) وهكذا فإنه لم يكن هناك ما يمنع من توظيف تلك المهارة في صناعة منسوجات قطنية رفيعة الجودة.

أكدت الدراسات الحديثة أن مجالات سجلماسة تتوفر على كل ما يساعد على إقامة زراعة القطن بها، فكل أنواع التربة بتافيلالت قابلة لزراعة هذا النبات شريطة توفر المياه خاصة القطن المصري المعروف باسم «عشموني Achmoni»، وكذلك القطن الأمريكي المعروفة باسم «بيما Pima 67»(97) وهذا ما يؤكد ما جاء عند الإدريسي حول إنتاج القطن بسجلماسة، ويعطي فكرة عن الكميات الكبيرة التي كان بالإمكان إنتاجها منه في العصر الوسيط اعتمادا على مياه واد زيز.

وإلى جانب هذه المنتوجات التي اشتهرت بإنتاجها منطقة سجلماسة وكانت موجهة للتبادل التجاري خامة أو مصنعة، عرفت المنطقة إنتاج بعض المواد الفلاحية التي كانت تستهلك محليا نظرا لعدم جودتها أو قلة الكميات المنتجة منها كما هو الحال بالنسبة للكروم، والخضر، أو التي كان الغرض منها توفير العلف للدواب.

أجمعت أغلب المصادر الجغرافية على أن سجلماسة كانت تعرف إنتاجا مهما من الكرروم. ويمكن القول أن إنتاجها من هذه المادة قد عرف ازدهارا ما بين القرنين الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. كتب البكري في ذلك ما يلي «وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب إلا في الظل ويعرفونه بالظلي وما

---

96) القزويني. م. س. ص 42 وياقوت الحموي م. س، ص 192.

97) R. faure; Le Tafilalet; Op. Cit. p : 73.

أصابتـه الشمس منه زبب في الشمس».(98) ويستفاد من روايـة هذا المؤلف أن غراسة الكـروم في سجلماسة كانت تتم بواسطة ما يسمى بـالدالية، وأن أشجار العنب بها كـانت تنتشر على مساحـة واسعة. الأمر الـذي كان يمنع تسرب أشعة الشمس إلى عناقيد العنب فتزبب في الظل.

نقل صاحب الاستبصار رواية البكري كما هي، لكنه أضاف شيئا جديدا بخصوص تسمية هـذا الزبيب وقال «وزبيب عنبها المعرش الـذي لا تناله الشمس لا يـزبب إلا في الظل يسمى الطلي».(99) والاختلاف في رواية هذين المؤلفين يكمن في أن البكري سمى هذا النوع بـالزبيب الظلي بالظاء المعجمة، وصـاحب الاستبصـــار سماه الطلي بـالطـاء. ولا يتعلق الأمـــر هنـا بخطأ الناسـخين ولا بسقـوط النقطة عن الظـاء بل يرتبط ذلك بنطـق هذا الحرف عنـد المحليين. لأننا نجـد إلى اليـوم سكان تـافيـلالت بالمعنى المحلي للكلمـة ينطقون كـل من حرف الضــاد والطاء في كلمات عـديدة، وهكذا فـإن كلمة الظلي في نطق العـــامـة تصير «الطلي»، ومـن ثم، فإن مـــا كتبـه صـــاحب الاستبصار له علاقة وطيدة بالتسمية المحلية لهذا المنتوج.

وأكـد القـزويني في القـرن الســادس الهجـري كثـرة العنب في منطقـة سجلماسة وقال أن بها أصناف من العنب.(100) كما أشار القلقشندي إلى أن بها العنب الكثير والفواكه الجمة.(101) وقد أوردنا أعلاه ما ذكره ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي عن عنب مدينة كَـرسلوين في أعالي وادي زيز.

وعرفـت منطقة سجلماســة إنتاج بعض النبـاتات المســاعدة على تـربية الماشية. ويتعلق الأمر بنبـات الفصفصة الذي كان معـروفا بهذه المناطق في القرن السابع الهجـري الثالث عشر الميلادي بدليل مـا أورده ابن الزيات في هـذا الموضوع في معـرض حـديثه عن أبي القـاسم بن أبي الفضل المتـوفى

---

98) البكري م. س. ص 148.

99) الاستبصار م. س. 201.

100) القزويني م. س. ص 42.

101) القلقشندي م. س. جـ 5. ص 164.

بسجلماسة عام 601هـ / 1205م قال «حدثني أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم قال أخبرني أبو زكرياء يحيى أن أبا القاسم بن منون، وكان رجلا فاضلا من أهل البيت قال خرج الي أبو القاسم فبات عندي بالرابطة، فأحيى ليله صلاة فاحتاج بالغداة إلى تجديد الوضوء. فدخل في كَمون فصفصة فرأى الفيران قد حفرته كله، فقلت له إن الفيران أضرتني في كَموني كما ترى. فقال سيكفيك الله مؤومنتها، فسقيت الفصفصة تلك الليلة، فأصبح كل فار فيها ميتا».(102)

يشير نص ابن الزيات إلى وجود نباتات مخصصة لتربية المواشي بمناطق سجلماسة ويحمل إشارة في غاية الأهمية حول الأضرار التي تلحقها الفئران بالمنتوجات الزراعية في سجلماسة. وهي فئران من آكلة النباتات غالبا ما تسبب في اتلاف المحاصيل بقطع أصلها قبل نموه.

يستحمل نبات الفصفصة ملوحة الماء والتربة، لذلك كانت زراعته بسجلماسة مطابقة لطبيعة التربة والتركيب الكيماوي للمياه بهذه المناطق. ويستمر هذا النبات في الإنتاج بمناطق تافيلالت عشرة شهور من السنة الفلاحية. ولا يعرف تراجعا في عطائه سوى في فصل الشتاء خصوصا في شهري دجنبر ويناير. وقد أشار Jouannet إلى أن هذا النبات تأقلم في هذه المناطق مع المعطيات المحلية وأصبحت له خصائصه ومميزاته، في حين أن الأنواع الأوربية منه لا تستمر في العطاء بهذا المجال مدة طويلة، وغالبا ما تموت بعد جني المحصول الأول منها.(103) وتحتاج الفصفصة إلى السقي طيلة فصول السنة وتختلف مدة إعادة سقيها باختلاف الفصول، غير أنها تحتاج في فصل الصيف على الخصوص إلى كميات مهمة من الماء حيث تحتاج إلى السقي في كل عشرة أيام.(104)

ومن المحتمل أن تكون زراعة الفصفصة قد عرفت ازدهارا كبيرا بمناطق سجلماسة في العصر الوسيط وهو ازدهار أملته ضرورة تعويض النقص

---

102) ابن الزيات م. س. ص 379.

103) G. P. Jouannet; Vie au Tafilalet; Op. Cit; p : 10.

104) Pereau Leroy; Le palmier; Op. Cit. p : 65.

الكبير الذي يعرفه الغطاء النباتي بهذه المناطق. وعلى ذلك كان هذا المنتوج يخصص أساسا لتربية المواشي التي كان يقوم سكان القصور بتربيتها داخل منازلهم لأن السكن القروي بمناطق سجلماسة كان يضم غرفا أرضية مخصصة للبهائم والأدوات الفلاحية كما هو عليه الحال اليوم.

يتضح مما مضى أن منطقة سجلماسة اختصت بإنتاج العديد من المواد الفلاحية التي لم تساعد الظروف البيئية على توفرها في غيرها من المناطق، وهي منتوجات التمور والتاكوت والحناء والنيلة. وقد مثلت هذه المواد سلع تجارة رائجة في العصر الوسيط تجهز بها التجار إلى مناطق بعيدة. وهذا ما يعطي الدليل على أن هذه المدينة لم تكن مجرد محطة على الطريق التجاري الرابط بين المغرب والسودان توفر للتجار سبل الراحة وتمدهم بالميرة والماء قبل مواصلة سيرهم بل كانت منطقة منتجة ساهمت بسلعها المحلية في الرواج التجاري الداخلي والخارجي على حد سواء.

2 – **الرعي :**

تعاني المناطق الجافة من نقص واضح في الغطاء النباتي نتيجة جفاف المناخ بها في أغلب فصول السنة. والنباتات التي تظهر بها بعد سقوط الأمطار تتوقف عند علو محدود، ولا تستطيع أن تستمر في الحياة فترة طويلة. ويعتبر فصل الشتاء والربيع أهم مرحلة تعرف فيها مناطق الصحراء غطاء نباتيا كثيفا نسبيا مقارنة مع الفصول الأخرى. ويرجع السبب في ذلك إلى رطوبة الطقس في الفصل الأول، وفيضانات الأودية الصحراوية في الثاني.

تمثل الحمادات المظهر الطبيعي الأكثر انتشارا في بلاد القبلة وإقليم سجلماسة على سبيل المثال محاط بثلاث حمادات هي حمادة مسكي في الشمال الشرقي وحمادة كَير في الشرق وحمادة كَم كَم في الجنوب. ونعرف أن هذه الوحدات التضاريسية تتسم بالانبساط لأنها عبارة عن سهول قاحلة، وأنها مثلت عبر التاريخ مجالا لتنقل قبائل الرحل التي احتكت بالمناطق الجنوبية.

ولا تتجمع المناطق الخضراء في كل بلاد القبلة سوى في الواحات الممتدة على طول الأودية التي تخترق هذه المجالات. ويمثل وادي زيز – الذي يمتد على طول مساحة إقليم سجلماسة من الشمال إلى الجنوب على مسافة 220 كلم – أهم الواحات التي تكثر بها المجالات الخضراء وسط كثبان الرمال والحمادات الجذباء، إضافة إلى واحات وادي غريس ورافديه تدغة وفركلة.

وإذا كانت الظروف المناخية قد جعلت من هذه المناطق أكثر مناطق بلاد المغرب الأقصى فقرا من حيث الغطاء النباتي، فإن هناك عوامل أخرى ساهمت في تزكية هذه الوضعية، ويأتي على رأسها شيوع نمط الترحال بها على نطاق واسع لفترة طويلة من الزمن وهو ما سبب في انعدام التوازن البيئي في هذه المناطق وجعلها أكثر تأثرا من غيرها بالتصحر.

كانت منطقة سجلماسة في منقلب رحلة القبائل الصحراوية من الجنوب إلى الشمال. وهذا ما جعلها محطة استراحة وأحيانا محطة استقرار لمدة معينة من السنة بالنسبة لعدد كبير من القبائل الصحراوية، كما هو الحال بالنسبة لصنهاجة وزناتة ما بين القرن الأول الهجري السابع الميلادي والسابع الهجري الثالث عشر الميلادي. يضاف إلى ذلك التنقلات الواسعة التي مارستها قبائل عرب المعقل على اختلاف بطونها بمناطق سجلماسة ابتداء من القرن السابع الهجري. وهذا ما كان له أثره بدون شك في تعرية الغطاء النباتي الذي يغلب على تكوينه الأعشاب الشوكية، والذي أتت عليه يد الإنسان وقطعان المعز والإبل وهو ما فسح المجال أمام زحف الرمال.

ولا يساعد ضعف الغطاء النباتي في المناطق الجافة على ممارسة النشاط الرعوي في رقعة ضيقة، وهذا ما يفسر تنقل قبائل الرحل عبر كل مناطق الجنوب المغربي. وعليه، فإن هؤلاء لم يختصوا بانتجاع منطقة بعينها بقدر ما تنقلوا ما بين مناطق كَير وسجلماسة ودرعة، كما هو الحال في وقتنا هذا.

كان لقلة الغطاء النباتي في مناطق سجلماسة أثره في ظهور نوعين من أشكال تربية الماشية، نوع يقوم على الترحال بقطعان كبيرة من الإبل والغنم

والمعـز. ونوع يقـوم على العلف يمارسه سكـان القصـور الذين لا تتعـدى ماشيتهم بعض الرؤوس من الغنم والبقر.

ومن ثم، كان لابد من التمييز بين قطعان المستقرين وقطعان الرحل، لأن في ذلك تمييز بين أشكـال الحياة السائدة بهذه المنـاطق. فما يسمى بقطعان المستقرين يمكن اعتباره عملا مكملا للمـزارعين المستقرين بالقصور، الذين إلى جانب اهتمامهم بغـراسة النخيل وزراعـة الحناء وغيرهـا من المزروعات الأخرى، كانوا يقومـون بتربية بعض رؤوس الأغنام داخل منازلهم. ويظهر أن ارتباط هذا النوع من النشاط الفـلاحي بالسكن في القصور قد حدد من فعـاليته وقلص من مـردوديتـه، مادام المكـان المخصص لتربية الماشيـة في المنازل لا يسمح بتواجد أعداد كبيرة منها. وعليه، فإن فعالية هذا النوع من النشاط الفلاحي ظلت محدودة وغير ذات أهمية كبيرة بالنسبة لأهمية قطاع الرعي في اقتصـاد المنطقة ككل.

أما قطعان الرحل فهي عماد ما عـرفته منطقة سجلماسة من ازدهار في نشاطهـا الرعوي. فنحن نعـرف أن موضـع سجلماســة كان سوقـا للبربر الذين كانوا ينتجعون تلك المناطق قبل بناء المدينة حسب رواية البكري.(105) وقـد اعتمدت سجلماســة على قطعان الـرحل في تـوفير حاجـاتها من المواد الغذائية كاللحوم أو المواد الأولية كالأصواف والجلود.

وتجب الإشـارة إلى أن كتب الجغـرافيا لا تعطينـا معلـومـات كثيرة عن تربيـة المواشي في مناطق سجلماسة في العصر الوسيط، ويقتصر مـا وصلنا منها على بعض المعلـومات التي تهم بعض الصناعات المرتبطـة بهذا القطاع كالمنسوجـات الصوفية والدباغـة وهو ما يعتبر في حد ذاته دليـلا قويا على أهمية هذا القطاع في تلك الفترة.

ذكـر البكري نقـلا عن محمد بن يـوسف الـوراق أن سجلماسة كـانت تعتمد في صناعـة النسيج على أصواف منطقة يرارة. وهـذه المنطقة تقع على الطريق التجـاري الرابط بين سجلماســة وفاس الـذي وصفه بقـوله «من

---

105) البكري، م. س. ص 148.

سجلماسة إلى موضع يقال له أرفود جبل موت لا عمارة حوله فيه حمة مرحلة ومنه إلى موضع يقال له الاحساء رمل يحفر فيه فينبعث الماء على دراع ونحوه في بلد زناتة مرحلة ومنه إلى يرارة عامر آهل به سوق وجامع وله جدول ماء وهو بلد يحسن فيه الغنم ويقال أن أصول أغنامهم من قيس من أرض فارس وصوفها من أجود الأصواف ويعمل منه بسجلماسة ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من عشرين مثقالا». (106)

يقع أرفود إلى الشمال من مدينة سجلماسة وهذا ما يؤكد أن الطريق الذي ذكره البكري يتبع مجرى وادي زيز في قسمه الأسفل، قبل أن ينحرف إلى الشمال الشرقي مارا بوادي كَير. ومنطقة يرارة التي تهمنا هنا تقع في قدم جبال الأطلس الكبير الشرقي في منطقة تماسين التي هي عبارة عن هضبة منبسطة فسيحة يتم المرور عبرها إلى تالسينت ومنها إلى مطماطة أمسكور في حوض ملوية ثم فاس. ولا يقصد بها هنا القصر الذي يوجد إلى الجنوب من سجلماسة والذي يحمل نفس الاسم أيضا كما سبقت الإشارة إلى ذلك أعلاه.

ونظرا للشهرة التي كانت لأصواف منطقة يرارة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فإنه من الجائز التأكيد على أهمية هذا القطاع بالنسبة لسكان تلك المنطقة، لأن الأرباح التي كانت تدرها منتوجات أغنامهم من الصوف كان من شأنها أن تشجعهم على الزيادة في العناية بها، مادام الطلب عليها في تصاعد مستمر نتيجة ارتفاع أثمان الأثواب المصنوعة منها بسجلماسة، والتي كان ثمنها يزيد عن عشرين مثقالا للثوب الواحد.

وأشار صاحب الاستبصار إلى وجود نوع من الغنم في بلاد القبلة يختلف عن أنواع الغنم المعروفة في شمال المغرب، وقال «وببلادهم... الكباش الدمانية وهي على خلقته - يعني الغنم - إلا أنها أعظم، وشعرها كشعر المعز لاصوف عليها، وهي أحسن الغنم خلقا وألوانا». (107)

---

106) نفسه، صفحة 147.

107) مجهول، الاستبصار م. س. ص 214.

والدمانية كلمة بربرية تم تعريبها، مفردها أدمان والجمع إدمانين، وهو خروف صحراوي قال عنه الوزان في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي «هذا الحيوان داجن، شكله شكل الخروف، إلا أن قامته قامة حمار قصير، وأذناه طويلتان متدليتان، يملك أهل ليبيا قطعان أغنام من هذا النوع، يستخرجون منها كمية من اللبن يصنعون منه الزبد والجبن، وصوفها جيد لكنه قصير، وللاناث وحدها قرون بخلاف الذكور والدمان هادىء جدا،... ولا يوجد الدمان بكثرة إلا في صحاري ليبيا، ويرى القليل منه مع ذلك في بلاد نوميديا لكنه يعتبر هناك كأشياء غير عادية». (108)

وما يزال الدمان معروفا إلى اليوم في مناطق تافيلالت ويعرف عند المحليين بنفس الاسم، غير أنهم يميزونه عن غيره من أنواع الغنم باسم «السَّلاَلَةْ»، ويغلب على الظن أن هذا الحيوان هو الذي كان يشكل ما يسمى بقعان المستقرين في العصر الوسيط، لأن تربيته تقوم وإلى اليوم على العلف لا على الرعي. ومن هناك فإن ما ذكره الوزان حول قلته بنوميديا مرتبط بعدم وجود قطعان كبيرة منه كما هو الحال في ليبيا على حد قوله.

وتجب الإشارة إلى أن علف الدمان يتم اليوم بنوى التمر والفصفصة، ومعروف أن نوى التمر كان يلعب دورا مهما في علف الماشية لأنه يساعد البهائم على حمل الأثقال كما هو الحال بالنسبة للإبل، كما يساعد على تقوية الغنم ويكثر من شحمها وألبانها، فضلا عن قدرته على البقاء في بطونها مدة طويلة كما أشار السجستاني. (109)

وذكر صاحب الاستبصار أن الدمان له شعر كشعر المعز، (110) في حين ذكر الوزان أن صوف هذا الحيوان ناعم لكنه قصير. (111) ويهمنا من ذلك

---

108) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 265.
109) السجستاني، م. س. ص 23.
110) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 114.
111) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 265.

أن صوفه لا يمكن في كلتا الحالتين من صناعة منسوجات في مستوى ما ذكرته المصادر حول جودة المصنوعات الصوفية السجلماسة.(112)

كما تشكلت قطعان المستقرين أيضا من بعض رؤوس البقر، لأن قلة وضعف الغطاء النباتي لم تساعد على وجود قطعان كبيرة من الأبقار في المنطقة. فكانت تربيتها تقوم بالدرجة الأولى على النباتات التي تتم زراعتها خصيصا لهذا الغرض، ونوى التمر.

وقد كان سكان سجلماسة يرعون أبقارهم بطريقة جماعية عبر ما يسمى بـ«الدولة»، وسير العمل في الدولة أن يكترى الراعي أو يقوم أهل القصر أنفسهم بذلك عن طريق التناوب بعد جمع كل ما يملكونه من أبقار في قطيع واحد، ويشترط في الراعي أن يكون بالغا عاقلا في مستوى تحمل مسؤولية الإشراف على ثروة أهل القصر من البهائم. فقد سئل ابن هلال السجلماسي عن أهل دشر اتفقوا على رعاية بقرهم بالدولة، وشرطوا ألا يرعى في الدولة صبي، فأرسل أحدهم في دولته صبيا فسرقت بقرة. فقال إن عاين أصحاب الموضع الصبي حتى رعى وحده ورضوا فلا شيء على الذي أرسله يرعى، وإن لم يروه ضمن لمن لم يراه ولا يغرم لمن رآه.(113)

والدولة نشاط جماعي يعبر عن تضامن أهل القصر في قضاء مصالحهم الخاصة وتذكرنا بأعمال جماعية أخرى كان السكان وما يزالون يمارسونها. ويغلب على الظن أن العمل الجماعي في هذه المناطق قد أملته الظروف الطبيعية بما تمتاز به من قسوة يستعصي على الفرد أمامها القيام ببعض الأعمال في غياب تضامنه مع الجماعة. كاستصلاح السواقي أو بناء سور القصر أو مسجده وما شاكلها من الأعمال التي تهم الجماعة ككل. ومن ثم، وجب القيام بها عبر تضامن سكان القصر الواحد وأحيانا سكان قصور عديدة إن تعلق الأمر بوجود مصلحة عامة في عمل ما.

وخير نموذج لهذا التضامن ما يسمى بـ«أَغْرَادْ» وهو اللفظ الذي يطلق على عملية إصلاح السواقي بمناطق سجلماسة. يحدد وجه العمل فيه

112) القزويني، م. س. ص 42.

113) ابن هلال السجلماسي، نوازل ابن هلال، م. س. ص 141.

بقاعدة عرفية هي «أغْـرَادْ عْـــلَ حَـدّ الصَّــايْـمْ» ومعنى ذلك أن هذا العمل واجب على كل من وصل سن الصوم، لـذلك تشارك الأسرة الواحــدة في هذه العملية بجميع أفرادها من الذكور. وقـد يكون أغْـرَادْ عملا إلزاميا لكل أفراد القصر في حالـة ما يتعلق الأمـر باستصــلاح الساقية الأم، أمـا في حالـة ما يقتصر الإصلاح على ساقيـة فرعية فإن أغْـرَادْ يلـزم أصحاب الأراضي التي تستفيد من مياهها دون غيرهم.

ومهما كان في أمـر قطعان المستقـرين بمنطقة سجلماســة فإنها لم تكن تكفي لتغطيـة حـاجات المدينـة من اللحـوم والمواد المتصلة بـإنتاج القطـاع الرعوي. ومن هنـاك فإن قطعان الرحل هي التي لعبت هـذا الدور ووفرت لمدينـة سجلماسة مـا احتـاجته من الإنتـاج الحيـواني. وقد ورد في كتـاب التشوف ما يؤكد عجز قطعـان المستقرين على تلبية كل حاجات المنطقة من رؤوس الأغنام، خاصــة في المناسبات التي يزداد فيهـا الطلب عليها كما هو الحال في عيد الأضحى.

قال ابن الزيات «وحدثني أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم قال كان يلجما الورتطغيرني إذا قـرب وقت الأضاحي سافـر من سجلماسة ويجلب الغنم إليها، فصلى أبي صلاة الغداة وقعد مستقبل القبلة يذكر الله تعالى إلى أن نـاداني فأجبته، فقـال لي خرج اللصـوص على يجلما الورتطغيرني إثـر سماء، فأخذ بضاعته وخبأها في ســدرة وسلم وقد سلمت بضاعته. فوصل بعد ذلك يلجما إلى سجلماسة وسلم على أبي وقال له وجدت بركة دعائك، فإنــه خرج علينـا اللصوص إثـر سماء فخبأت بضاعتي في ســدرة فسلمت البضاعة والحمد لله». (114)

وتتحـدث النصوص الجغـرافيـة على اختلاف المراحـل التي عاش فيهـا مؤلفوها عن أكل أهل سجلماسة للكلاب والذئاب. وأول إشارة وصلتنا حول هذا الموضوع تعود إلى القـرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. ذكر البكـري أن «أهل سجلماســة يسمنون الكـلاب ويأكلـونها كما يصنع أهل

114) ابن الزيات، م. س. ص 379.

مدينة قفصة وقسطيلية».(115) ويظهر من رواية هذا المؤلف أن سكان سجلماسة كانوا يربون الكلاب ويسمنونها ثم يأكلونها.

وبعد البكري بقرن من الزمن أكد الإدريسي بأن أهل سجلماسة كانوا «يأكلون الكلاب والحيوان المسمى الحرذون ويسمونه بلسان البربر أقزيم، ونساؤهم يستعملنه في السمن وخصب البدن ولذلك هن في نهاية السمن وكثرة اللحم».(116) وهذا ما أكده صاحب الاستبصار حين قال «ومن العجيب بمدينة سجلماسة أنها ليس بها ذئاب ولا كلاب لأنهم يسمنونها ويأكلونها كما يصنع أهل الجريد قصطيلية وغيرها»،(117) وعنه نقل ابن عبد المنعم الحميري مادته حول نفس الموضوع.(118)

لم يزر كل هؤلاء الجغرافين سجلماسة، لكن إجماعهم على القول بأكل أهلها للكلاب يؤكد أنهم أخذوا روايتهم عمن يعرف تلك المناطق، وأن هذه المعلومات كانت متداولة في زمانهم تداول الظاهرة نفسها. ومما يؤكد ما ذكروه أن ذاكرة المحليين تحتفظ إلى اليوم بروايات وأمثال شعبية عن أكل الكلاب. فسكان تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة يرددون كلاما قدحيا في أهل تابعصامت ويقولون «تَابُعْصَامْتْ الْمَعْصِيَّة ذَبَّاحَة الْمُشُوشْ والْكْلَابْ هَوْ... هَوْ».

ساد نمط الترحال في مناطق سجلماسة منذ فترة غابرة من التاريخ، وهذا ما يؤكد وجود قطعان الرحل بكميات كبيرة في هذا المجال. فقد كانت هذه المناطق مجالا لتنقل قبائل صنهاجة وزناتة. ويغلب على الظن أن سيادة نمط الترحال بها قد عرف تطورا كبيرا ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. فنحن نعرف أن هذا التاريخ شهد استقرار عرب ذوي منصور بمناطق سجلماسة، في وقت كانت فيه العناصر التي استقرت بها قديما قد تخلت بالتدريج عن الترحال واستقرت بالقصور واشتغلت

---

115) البكري، م. س. ص 148.

116) الإدريسي، م. س. ص 38.

117) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 201 – 202.

118) ابن عبد المنعم الحميري، م. س. ص 306.

بممارسة الزراعة. فقبائل مكناسة التي أسست مدينة سجلماسة – وكذلك الشأن بالنسبة للعناصر الأخرى – كانت في المرحلة التي نحن بصددها من المستقرين، لأن المدة الفاصلة بين تاريخ استقرارها في هذه المنطقة وتاريخ مجيء عرب المعقل كانت كافية لأن تتحول جماعاتها من رحل إلى مستقرين. وحتى في حالة تصورنا أن العملية شملت بعض العناصر دون غيرها، فإن أغلبية هؤلاء قد استقروا ولم يعد بإمكان من بقي منهم على الترحال أن يشكل قوة ذات شأن أمام جموع عرب المعقل الغفيرة.

ساهم احتكاك عرب المعقل بمناطق سجلماسة في سيادة الترحال بها على نطاق واسع في القرن السابع والثامن الهجريين وما بعدهما. ومثال ذلك أن أولاد حسين كانوا بدرعة في القرن السابع الهجري واستقروا بسجلماسة في القرن الثامن. كما أن عرب المنبات كانوا أسياد سجلماسة المدينة في نفس المرحلة ثم استقروا بعد ذلك في المناطق الواقعة إلى الشمال منها بالرتب ومدغرة، وهذا ما يعطي الدليل على التحرك الواسع لهذه الجماعات بهذه المناطق.

ويرتبط الحديث عن الترحال عموما في مناطق سجلماسة بالحديث عن قطعان الغنم الكبيرة التي كانت في ملكية الرحل ولعبت دورا مهما في توفير حاجات مدينة سجلماسة من المنتوجات الحيوانية، وبقطعان الإبل التي كانت تمثل أهم ثروات القبائل المتنقلة في النطاق الصحراوي، لما يوفره الجمل من منتوجات تسهل على الرعاة تحمل قسوة ظروف العيش في المناطق شبه الجافة والجافة.

أشار البكري إلى أن قبائل صنهاجة – التي احتكت بعض جموعها بمناطق سجلماسة – كانت تحارب على ظهور الجمال، وأشار إلى أن المرابطين قاموا بحملة على سجلماسة وأميرها مسعود بن واندين المغراوي في جيش قوامه ثلاثين ألف جمل.(119) كما ذكر ابن عذاري أنه في مفتتح عام خمسين وأربعمائة خرج الزناتيون المغراويون عن طاعة المرابطين «فخرج

---

119) البكري، م. س. ص 167.

إليهم أبو بكر بن عمر من سجلماسة إلى درعة ليأخذ منهم ما أوجب عليهم من الزكاة والفطرة، وكـان بدرعة قوم من زناتة فـامتنعوا له، فقاتلهم الأمير أبو بكر وهزمهم وغنم إبلهم ومواشيهم». (120)

وأشار ابـن أبي زرع أثناء حديثـه عن مـراسلة أهل سجلماسـة ودرعة لعبد الله بن ياسين قصد الاستنجاد به ضد الأمير مسعود بن واندين إلى أن هـذا الإمـام المرابطي خـرج في الموفي عشرين لصفـر سنـة سبع وأربعين وأربعمائة الأحد 21 ماي 1055م في جيش عظيم من المرابطين. فسـار حتى وصل بلاد درعـة فوجـد بها عامل سجلماسة. فأخـرجه عنهـا ووجد بها خمسين ألف نـاقة كـانت بها في مراعيهـا لصـاحب سجلماسة مسعـود بن واندين المغراوي. (121)

تؤكد هذه الأعداد الكبيرة من الجمال التـي ذكرت المصادر أنها تواجدت بسجلماسـة ودرعة أهميـة وكثرة هـذا الحيوان في بـلاد القبلة. وربما كـان للدور الذي لعبته هذه المنـاطق في ربط الاتصال بين بلاد المغرب والسودان الغربي أثره في تـواجد الجمال بأعداد كبيرة في هـذا المجال. غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن هذه الأعداد لم تعـرف تراجعا في القرن السابع والثامن الهجريين، رغم أننا لا نتوفر على إشارات حول أعدادها في هذه الفترة.

كانت سجلماسـة في القرن الثامن الهجـري الرابع عشر الميلادي سـوقا مهمـة للجمال بشهادة ابن بطـوطـة الذي اشترى منهـا الجمال لرحلتـه في اتجاه بلاد السودان. (122) ويظهـر أن سجلماسـة قد لعبت هـذا الـدور في المراحل السابقة لهذا التاريخ، لأنه كان عليها توفير لوازم السفر للقوافل بما فيها وسـائل النقل، مادام انطـلاق القافلـة في اتجاه الجنوب كـان يتم منها طيلة فترة زمنية غير قصيرة.

ذكر الحسن الـوزان أن الجمال «تصبر على العطش صبرها على الجوع، وفي استطـاعتهـا أن تبقى خمسة عشر يـومـا دون أن تشرب ولا أن تتأذى

---

120) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1983، جـ 4. ص 15.

121) ابن أبي زرع، م. س. ص 128.

122) ابن بطوطة م. س جـ: 2. ص 773.

بذلك. وإذا أورد أحد ابله كل ثلاثة أيام أضرها ذلك لاعتيادها الورود كل خمسة أيام فقط أو كل تسعة أيام بل وكل خمسة عشر يوما إن اقتضى الحال».(123)

والخصائص التي ذكرها هذا المؤلف عن الجمل هي التي جعلت من هذا الحيوان أكثر الحيوانات قابلية للعيش بمناطق الصحراء. فالإبل تساعد أصحابها على مقاومة صعوبة الظروف الطبيعية وقساوتها، وهذا ما دفع بمارمول كاربخال إلى القول بأن هذا الحيوان هو «الأقل كلفة لصاحبه والأكثر فائدة له».(124)

ويوفر الجمل موارد عديدة لسكان الصحراء كالوبر والألبان. قال مارمول أن العرب بإفريقيا يقتاتون «في معظم السنة بألبان الجمال والتمر ولحمها عديم الطعم، ولا سيما السنام الذي يشبه طعمه طعم ضرع بقرة سمينة، ويملأ الأفارقة الآنية بلحوم الجمال بعد أن يقلونها مع الشحم ويدخرونها هكذا السنة كلها لغذائهم العادي».(125)

ويمثل الجمل الثروة الرئيسية بالنسبة لسكان الصحراء قال الوزان «وتكون الإبل ثروة الاعراب وأرزاقهم، وعندما يراد ذكر ثروة أمير أو شريف من الاعراب يقال فلان له مقدار كذا من آلاف الإبل، ولا يقال له مقدار كذا من الدنانير أو الممتلكات».(126)

وتجب الإشارة إلى وجود نوعين من الجمال بمنطقة تافيلالت، والاختلاف بينهما مرتبط بتصنيف المحليين للإبل. فهناك الجمال الشبانية وجمال الركَيبات التي تسمى أيضا بالمهاري، وهي أضخم من الأولى، وتمتاز بسرعتها وعدم قدرتها على حمل الأثقال، في حين أن الجمال الشبانية أقل ضخامة من الأولى وتقدر على حمل ما بين 150 و200 كلغرام.(127)

---

123) الحسن الوزان م. س جـ 2. ص 261.

124) مارمول م. س صفحة 71.

125) نفسه نفس الصفحة.

126) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 259.

127) R. Faure; Op. Cit. p : 102.

ولا نعرف تـاريخ شيوع استعمال الجمل في مناطق الصحـراء بنوع من التدقيـق، ذكر R. Mauny أن افريقـيا عـرفت تواجد أحد أنـواع الجمال وهو Camelus Thomazi منذ البليـوليتي الأسفل والأوسط Paléolittiques.(128) وأضاف أن الجمال دخلت بلاد مصر بواسطة شعوب الهكسوس بعد سنة 1680ق.م. وقد تحدث هرودوت عن استعمال الجمل في الجيش من طرف المصريين بعد التاريخ المشار إليه أعلاه، ثم شـاع استعماله في غرب وادي النيل منذ بداية القرن الثـالث قبل الميـلاد، غير أن أعداد الجمال بغـرب شمال افريقيـا كان قليلا خلال هذه الفترة بالذات.(129)

وأشار Gautier إلى أن القرن الثالث والرابـع الميلاديين يمثلان المرحلة التي انتشر فيها استعمال الجمل ببـلاد المغرب،(130) وهذا مـا ذهب إليه Godinho أيضا.(131) ومهما كان من أمر في هذا الموضـوع فإن أغلب هذه الآراء تؤكد على وجـود هذا الحيـوان ببـلاد المغـرب قبل مجيء العـرب الفاتحين إليهـا وتحاول ربط ظهوره بها بتاريخ الهيمنة الرومانية. وقد ظلت المنطقة الواقعة بين جنوب المغـرب الأقصى وحوض وادي السنيغال من أهم مناطق تـربية الجمال في الصحراء الإفريقية عبر العصور.(132)

ويمكن القـول أن أهمية هـذا الحيوان بـدأت تعـرف نموا متـزايدا لـدى السكان لما تغيرت الظروف المنـاخية بمناطق الصحراء، وتطـورت العلاقات مع مناطق الجنوب أي بين بلاد المغرب والسودان الغربي. فمن المعروف أن الجمل ساعد إلى حد كبير على إنعـاش القطاع التجاري عبر الصحراء الكبرى إن لم يكن المسـؤول الأول عن ظهـوره، ولـذلك اعتبر Gautier الجمل بمثابة ثورة اقتصاديـة يمكن مقارنتها بدون مبـالغة بالسكك الحديـدية والسيارة والطائرة.(133)

---

128) R. Mauny; Op. Cit. p 287.

129) Ibid, p : 288.

130) Gautier; Le passé; Op. Cit. p 182.

131) Godinho; Op. Cit. p : 100.

132) R. Mauny; Op. Cit. p : 289.

133) Gautier; Le passé; Op. Cit. p 195.

كـان لاستقرار المسـالك التجاريـة ومرورهـا في مجالات الصحراء منـذ القـرن الخامس الهجري الحادي عشر الميـلادي أثره في ازديـاد دور الجمل وأهميته في النشاط التجـاري. فهذا الحيوان كان هـو المؤهل لتسهيل عملية اختراق هذا المجال القـاحل، نظرا للخصائص التي يمتاز بها والتي ذكـرناها أعلاه. فإضـافة إلى قدرتـه على حمل الأثقال، فإن القـوافل التي كانت تعبر المفـازات كانت تضطـر إلى السير أيامـا دون أن تحصل على ماء، وفي هـذه الحالة كان يتم اللجوء إلى الجمال لحل هذه المشكلة.

ذكر القزويني أن التجـار المتجهين إلى بلاد السودان لا يبقى الماء معهم الا أيامـا قلائل فيحتـالون بأن يصطحبـوا معهم جمالا فارغـة من الأحمال ويعطشـونها قبل ورودهم الماء... ثم يـوردوهـا على الماء نهلا وعلـلا حتى تمتلىء أجوافها ويشـدون أفواهها حتى لا تجتر فتبقى الرطوبـة في أجوائها، فإذا نشف مـا في أسقيتهم واحتاجـوا إلى الماء نحـروا جملا وترمقـوا بما في بطنه،(134) وهذا ما أكده الحسن الوزان أيضا.(135)

مثل الجمل وسيلة النقـل الأكثر أهمية بمنـاطق الصحراء، وكـان للدور الذي لعبه في ربط الاتصال بين المغرب والسودان الغربي وتزايد الطلب عليه أثره في ازدهـار قطاع تربيتـه في المناطق الجافـة، لأنه لا يستطيع العيش إلا بها وإذا تواجد في المناطق الشمالية للمغرب قضت عليه برودة الطقس.(136)

يستطيع الجمل حمل مـا بين 120 و150 كلغ، ويمكنـه أن يقطع حـوالي ثلاثين كلم في اليوم الـواحد في مجالات القفر،(137) أي بمعدل 3,5 و4 كلم في الساعة، واليوم من المشي يتراوح ما بين 10 ساعات وإحدى عشر ساعة.(138) وقد كـانت القوافل تسير الساعـات المتأخرة من الليل والسـاعات الأولى من الصباح وتحط الـرحال وقت ارتفاع درجـة الحرارة نظرا لاستحالة متـابعة المسير وقتئذ.

---

134) القزويني، م. س. ص 19.

135) الوزان، م. س. جـ 1. ص 62.

136) مارمول م. س. ص 71.

137) R. Mauny; Op. Cit. p : 395.

138) Godinho; Op. Cit. p : 113.

ويمكن القـــول أن الجمل كـان هـــو عمـدة نقل البضـــائع في التجـارة الصحراويـة، لأن الحيوانـات الأخرى التي تصلح للتنقـل وحمل الأثقال، لم يكن في مقدورها تحمل قساوة الظـروف الطبيعية في الصحراء الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي.

فـالخيول على سبيل المثـال لا تستطيع تحمل الأثقـال، وظل استعمالها مقتصرا على الـــركـــوب والحروب أو الصيـــد كما هـــو الحال في منطقـــة سجلماســة. قال الـوزان بأن الخيول التي تـوجد بها هي خيـول من أصل الخيول الوحشيــة. وأ سكان الصحراء كانوا يختبرون سرعتهـا .بالعدو وراء حيوان يـدعى اللمط أو خلف نعـامة، فإذا أدرك أحـد هذين الحيـوانين قدر ثمنه بألف مثقال أو مائة بعير.(139)

وذكر مارمول أن سكـان الصحراء لا يستعملون الخيول إلا للقنص ولا يستعملونها للسفر ولا للقتال ولا يطعمــونها إلا التمر ولبن النوق في المساء وفي الصبـاح، الشيء الـذي يقـويها ويجعلهـــا خفيفـة هـزيلـة... غير أنهم يرسلونها في المراعي عندما يوجد الكلأ.(140)

إن ثمن الخيل الذي ذكـر الوزان أنه كان يبلغ ألف مثقـال أو مائة بعير يعتبر دليلا على قلة هذا الحيوان بمنـاطق الصحراء مقارنة مع أعداد الجمال بها، ويؤكـد أيضا جودة هذه الفصيلـة من الخيول وما كان لها من مكـانة لدى سكان الصحراء. فهي أسرع من البـارب السائد في شمال المغرب. لذلك يتخذهـا ملوك بـلاد البربر لـركوبهم في الحروب لينجون بـأنفسهم إذا ما اضطروا إلى الفرار في وجه أعدائهم.(141)

ويظهر أن القوافل التجـارية قد استعملت حيوانـات أخرى في عملية نقل البضائع كما هـو الحال بالنسبـة للبغال التي تصل قـدرة حمولتها إلى 150 كلغ،(142) رغم أنها لا تتحمل العطش. وكذلك الثيران والحمير رغم أن هذين الحيوانين لا يستطيعان قطع مسافة طويلة في هذا الوسط القاحل.(143)

139) الوزان، م. س. جـ 2. ص 263.
140) مارمول. م. س. ص 71.
141) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 263.
142) M. Elmellouki; Op. Cit. p : 373.
143) Godinho; Op. Cit. p : 113.

المبحث الثاني

النشاط التجاري :

1 – المسالك التجارية الصحراوية

تم التبادل التجاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي منذ فترة مبكرة من التاريخ بواسطة التجارة الصامتة التي وصفها القزويني بقوله «عندما يصل التجار إلى بلاد السودان كانوا يضربون طبولا ليعلموا القوم... فإذا علم التجار أنهم سمعوا صوت الطبل أخرجوا ما معهم من البضائع فوضع كل تاجر بضاعته من التبر ويترك البضاعة وضربوا الطبول وانصرفوا، ولا يذكر أحد من هؤلاء التجار أنه رأى أحدا منهم».(144)

ويغلب على الظن أن مضمون هذا النص لا ينطبق على المرحلة التي عاش فيها مؤلفه أي القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، بقدرما يعبر عن الكيفية التي تم التعامل بها بين التجار المغاربة والسودانيين في العهود القديمة. بدليل أن بلاد السودان كانت خاضعة زمان القزويني إلى نفوذ دول إسلامية من سلالة الزنوج، وكانت تضم بين رعاياها التجار المغاربة والفقهاء والقضاة وغيرهم.

ولعبت منطقة سجلماسة دورا مهما في عملية التواصل بين المغرب والسودان المغربي بحكم موقعها على مشارف الصحراء الكبرى منذ تاريخ بداية عملية التواصل بين المنطقتين. بدليل اكتشاف صور لعربات تجرها الخيول بجبل أفيلال إلى الجنوب من موقع مدينة سجلماسة.(145) ويعتبر ذلك دليلا على أهمية هذه المنطقة في ربط شمال الصحراء الإفريقية بجنوبها.

ولم تختص منطقة سجلماسة بهذا الدور لوحدها بل كانت كل المناطق الواقعة جنوب جبال درن مؤهلة للقيام بنفس الدور، ومثال ذلك مناطق درعة الأوسط ووادي نون. غير أن تأسيس مدينة سجلماسة وازدهارها

144) القزويني، م. س. ص 19.

145) D. J. Meunier et CH. Allain, Quelques gravures; Op. Cit. p 51.

السياسي في عهد المدراريين ومن بعدهم مغراوة جعلها محطة رئيسية في هذه العملية، وأثر ذلك على أولويتها مقارنة مع هذه المناطق المذكورة لمدة طويلة من الزمن. لأن موقعها لعب دورا كبيرا في ذلك، قال عبد الواحد المراكشي وهذه المدينة - أعني سجلماسة - متوسطة في الصحراء، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء، فمن حيث قصدت إليها من أحد هذه البلاد، كان ذلك مسافة عشر مراحل.(146)

لم تكن الطرق التجارية الصحراوية تتبع دائما المسالك السهلة أو نقط الماء أو غيرها من العوامل الطبيعية المساعدة على اختراق الصحراء بل ارتبطت أيضا بالعامل الأمني والسياسي. ومثال ذلك أن المرابطين حولوا الطرق التجارية الصحراوية نحو الشمال الغربي من القارة الإفريقية بعد أن أقاموا دولتهم في الشمال، وفقدت الطرق التجارية الشرقية أهميتها بفعل ذلك.

ميزت D.J. Meunié بين فترتين في تطور المحاور التجارية الرابطة بين بلاد السودان الغربي والمغرب الأقصى أولى تبتدىء بالقرن الحادي عشر الميلادي وتنتهي في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وفيها ظلت سجلماسة تلعب دورها كاملا في التبادل التجاري بين الشمال والجنوب. وثانية تبتدىء بالقرن الخامس عشر الميلادي وتستمر إلى ما بعده، وفيها فقدت هذه المدينة أولويتها التجارية وتخلت عنها لصالح منطقة وادي نون ودرعة وسوس.(147)

وتجب الإشارة هنا إلى أن الطرق التجارية الرابطة بين بلاد السودان وبلاد المغرب قد بدأت تميل نحو الغرب منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، في وقت بدأت فيه المحاور الشرقية تعرف تضررا كبيرا أثر على المدن الفاعلة فيها كغدامس وورگلة وطرابلس.(148) غير أن القرن الخامس

146) عبد الواحد المراكشي، م. س. ص 357.

147) D. J. Meunié : Le Maroc Saharien; Op. Cit. p : 393.

148) J. Devisse; Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditarranée un essai sur le commerce Africain médivale du X au XVI siècle 1 er partie R.H.E.S N° 2 - 3, 1972 p : 55.

الهجري الحادي عشر الميلادي شهد استقرارا في اتجاه هذه المسالك، واستمرت الوضعية على ما أصبحت عليه منذ ذلك التاريخ في المراحل اللاحقة. ويظهر هذا بوضوح من خلال وصف البكري للمسالك التجارية الذي لا يختلف عنه وصف الذين أتوا بعده في أغلب تفاصيله إلى حدود أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، رغم التحول الذي يمكن أن نلمسه في انحراف الطرق نحو الشرق في أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي كما سيأتي.

أجمعت أغلب الدراسات الحديثة على أن الطرق التجارية الصحراوية التي ربطت بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي اتخذت سماتها منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ولم تعرف تراجعا إلا مع القرن الرابع عشر الميلادي وهي ثلاثة طريق سجلماسة - غانة عبر أودغست، طريق سجلماسة - تمبكتو عبر ممالح تغازى، والطريق الساحلي الذي كان يمر بنول لمطة وممالح أوليل، وهو الطريق الذي كانت له أهمية كبيرة في العهود القديمة والفترة المبكرة من التاريخ الوسيط، ثم تقلص دوره في عملية التبادل التجاري بعد مضي فترة غير قصيرة من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.(149)

تعزز تعامل بلاد المغرب مع بلاد السودان الغربي بفعل ما قامت به الإمارات والدول من جهود قصد التحكم في هذه المحاور التجارية، وقد كان لامارة الخوارج الصفرية دورا مهما في هذا الباب بالنسبة لسجلماسة. غير أنه إذا كانت المسالك التجارية الغربية قد عرفت انتعاشا في القرن العاشر الميلادي، فإنها لم تتخذ شكلها القار سوى في القرن الحادي عشر لتستمر على ذلك إلى ما بعد نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.(150) ومن ثم، تتأكد الأهمية القصوى للمدة الزمنية التي حددناها لهذه الدراسة والتي هي القرن الثامن الهجري لما شهده من تحول في اتجاه المسالك التجارية نحو الشرق بعد مرحلة من الثبات دامت أزيد من أربعة قرون.

149) بوفيل، م. س. ص 74.

150) R. Mauny; Op. Cit. p : 427.

أ - **الطريق الساحلي :**

هو أقدم هـذه الطرق التجارية استعمالا يمـر بعد مغادرته لـدرعة عبر نول لمطة وممالح أوليل. قال ابن حوقل «وآخر العمارة واوليل معدن الملح ببلاد المغرب بينها وبين أودغست شهر، ومن أوليل إلى سجلماسة راجعا إلى الإسلام شهر وكسر، ومن سجلماسة إلى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرون يوما. ومن أوليل إلى لمطة خمسة وعشرون يوما ودون لمطة من بلاد المغرب تامدلت وعلى جنوبها أودغست». (151)

يتضح من نص ابن حـوقل أن الطريق السـاحلي الرابط بين سجلماسـة وممالح أوليل عبر نول لمطة كان يتطلـب مسيرة ستين يوما، وكانت القوافل تتبع فيه طـريقا يتخـذ شكل مثلث ما بين سجلماسـة وأوليل على الساحل الأطلسي ثم أودغست إلى الشرق من هذه الممالح. (152)

ذكرت Meunié أن هذا الطريق كانت مسافته 6000 كلم، وكان بعد انطلاقه من سجلماسة يعبر مناطق درعة الأوسط بزاكورة ثم ينحرف نحو الجنوب بمحاداة السفوح الجنوبية الغربية للأطلس الصغير ليصل إلى وادي نون ثم يتبع ساحل المحيط الأطلسي إلى أن يصل إلى أوليل. (153)

وأهم محطـة تجارية على هـذا الطريق هي مـدينة نـول لمطة وقـد ذكر البكري أن صنـاعاتها من الأسلحـة جيدة للغايـة، كما قال بأنها آخـر مدن الإسلام في اتجاه الجنوب.

لم يكن الطريق السـاحلي يتوفر على الميـاه في المسافة الفاصلـة بين نول لمطـة وأوليل، لأن القوافل التجـارية كـانت تسير في أرض صلبة عبـارة عن صفى يصعب حفره بالمعاول. (154) إلى درجة أنه في حـالة وفاة شخص من التجار فإنه لا يدفن بسبب صعوبـة حفر القبر، وكان التجار في هذه الحالة يكتفون بستره بالحطام والحشيش أو يقذفون به في البحر. (155)

151) ابن حوقل، م. س. ص 91.

152) انظر الخريطة رقم 4.

153) D. J. Meunié : Le Maroc Saharien; Op. Cit. p : 215.

154) البكري، م. س. ص 172.

155) مجهول، الاستبصار م، س ص 213 - 214.

ويصل الطريق الساحلي إلى جزيرة أيونيا حيث يوجد العنبر،(156) وهي قريبة من ممالح أوليل. ثم يتجه شرقا نحو مدينة أودغست التي تبعد عن غانة بحوالي عشرين مرحلة.(157)

وأوليل التي ذكرها ابن حوقل والبكري هي وليلى عند صاحب الاستبصار، وهي ملاحة جلبت إليها التجار المغاربة منذ فترة مبكرة من العصر الوسيط. وأصبحت في القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين آخر نقطة تصل إليها القوافل التجارية في الجنوب قبل أن تنحرف شرقا نحو أودغست. وقد كان لهذه الممالح دور أساسي في تدعيم النشاط التجاري خلال قرون عديدة، يشهد على ذلك أن الجغرافيين أشاروا في القرن السادس والسابع الهجريين إلى أن هذه الممالح استمرت في الإنتاج، الأمر الذي يؤكد أن الطريق الساحلي لم يتم التخلي عنه قبل زمان ابن سعيد المغربي.

قال الإدريسي «فأما جزيرة أوليل فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان».(158) ومعنى ذلك أن هذا المؤلف لم يكن على علم بوجود ملاحة أخرى في بلاد الصحراء هي ملاحة تاتنتال.

وأشار في مقام آخر إلى أن الطريق الساحلي كان يربط بين مدينة سجلماسة ومدن سلى وتكرور، وأقرب البلاد إليهما من بلاد لمتونة أزقي وبينها وبين بلاد السودان 25 مرحلة.(159) وقد أسست مدينة أزقي حسب Delachapelle في أدرار الموريطاني في القرن الحادي عشر الميلادي.(160) وورد ذكرها لأول مرة في وصف الإدريسي الذي قال بأنها من بلاد مسوفة ولمطة وهي أول مراقي الصحراء ومنها إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة ومنها إلى نول سبع مراحل وتسمى بالبربرية أزقي وبالجناوية قوقدم ومن أراد

---

156) نفسه، صفحة 216.

157) نفسه، نفس الصفحة.

158) الإدريسي، م. س. ص 3.

159) نفسه، صفحة : 4.

160) Delachapelle : Esquise; Op. Cit. p : 46.

الدخول إلى بلاد سلي وتكرور وغانة من بلاد السودان لابد له من المرور بها.(161) فيفهم من ذلك أن مدينة أزقي اضطلعت بالدور الذي كان لأودغست في ما سبق بعد اندراس هذه الأخيرة سنة 1050م.

ب - طريق وادي درعة غانة عبر وادي تركَا

يقع هذا الطريق إلى الشرق من الطريق الساحلي ويمر بدرعة الأوسط بعد خروجه من منطقة سجلماسة، ثم يتبع مجرى هذا الوادي حتى يصل إلى المناطق الواقعة إلى الجنوب من مدينة نول لمطة، فيمر بوادي تركَا الذي هو احتمالا الساقية الحمراء، ثم يتجه جنوبا نحو أودغست ومنها إلى غانة.(162) وأهم ما يمكن ملاحظته بالنسبة لهذا الطريق أنه لا يمر بالمراكز الحضرية للجنوب بما فيها نول لمطة وتامدلت، كما أنه لا يتجه إلى ممالح أوليل. وهو على ذلك طريق مباشر تقل مسافته عن مسافة الطريق الساحلي الذي يقع إلى الغرب منه، وطريق سجلماسة غانة عبر تامدلت الذي يقع إلى الشرق منه.

ويمكن تتبع المراحل الرئيسية لهذا الطريق حسب ما جاء في وصف البكري على النحو التالي «فمن وادي درعة خمس مراحل إلى وادي ترجا وهو أول الصحراء ثم تمشي في الصحراء... وتصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت... وفي الشرق منها بئر تسمى بئر الجمالين وعلى مقربة منها أيضا بئر تسمى نالي... وبين هذه الآبار الثلاثة وبلاد الإسلام مسيرة أربعة أيام ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية أدرارن وزال تفسيره جبل الحديد مثل ذلك ومن هذا الجبل مجابة ماؤها على ثمانية أيام وهي المجابة الكبرى وذلك الماء في بني ينتسر من صنهاجة ومن بني ينتسر إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة أيضا ومنها إلى مدينة غانة أربعة أيام».(163)

161) الإدريسي، م. س. ص 37.
162) انظر الخريطة رقم 5.
163) البكري، م. س. ص 164.

لم تكن لهذا الطريق أهمية كبيرة بالنسبة للقوافل التجارية على ما يظهر، رغم توفره على بعض نقط الماء. ونميل إلى الاعتقاد في أنه كان مستعملا بكثرة في طريق العودة من أودغست أكثر من استعماله في طريق الذهاب. ودليل ما ذهبنا إليه أنه لا يمر بالملاحات، رغم ما كان للملح من دور في عملية التبادل التجاري بين الشمال والجنوب. إضافة إلى كونه لا يمر بحاضرتي بلاد الصحراء وقتئذ أزقي وولاتة، وإنما يمر بقرية مدوكن الصنهاجية على مقربة من غانة.

وتجب الإشارة إلى أن طريق درعة غانة عبر وادي تركًا لم يكن يمر بالمجابة الكبرى، وإنما كان يحاديها بمروره في القسم الغربي منها. وربما كان السبب في ظهوره ما عرفه الطريق الساحلي من تراجع بعد خراب مدينة أودغست في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، واكتشاف ممالح تاتنتال وسط المجابة الكبرى الذي كان من العوامل التي ساعدت على ظهور تحولات مهمة في اتجاه المسالك الصحراوية الغربية.

ج – سجلماسة غانة عبر تامدلت وأودغست

هذا الطريق الثالث هو المسلك الأكثر أهمية في عملية التبادل التجاري في العصر الوسيط. اتخذ خصائصه منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كما هو الحال بالنسبة للطريقين السابقين،(164) ويظهر أن استعماله أثر على حيوية الطريق الساحلي والطريق الوسط دون أن يبعد التجار عنهما، خاصة وأن كتب الجغرافيا لم تغفل ذكر ممالح أوليل إلى حدود القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وهذا ما يعطي الدليل على استمرار القوافل في استعمالها لهذين الطريقين حتى هذا التاريخ.

اتخذ الطريق الثالث أهميته التجارية بفعل استغلال ملاحة جديدة في الصحراء الكبرى هي ملاحة تاتنتال التي عرفت باسم تغازي فيما بعد. وهذه الملاحة كانت أهم من ملاحة أوليل كما يتضح من وصف الجغرافيين

---

164) انظر الخريطة رقم 6 و7.

العرب، ونظرا لأهمية الملح في التبادل التجاري في السودان الغربي فإن القوافل التجارية أصبحت تتجه نحو تاتنتال، رغم صعوبة الطريق إليها الذي كان يخترق مجالا قاحلا وسط المجابة الكبرى.

كان لظهور هذا الطريق الذي كان ينطلق من سجلماسة في اتجاه غانة عبر تامدلت دورا كبيرا في ازدهار بعض الحواضر القريبة من بلاد السودان، كما هو الحال بالنسبة لمدينة ولاتة. وبما أن هذا الطريق كان يسير في وسط صحراوي أقرب إلى المغرب الأوسط منه إلى المغرب الأقصى، فإن ما عرفته بلاد القبلة من فوضى بسبب صراع بطون عرب المعقل فيما بينهم من جهة وصراعهم مع المخزن المريني من جهة ثانية دفع بالقوافل إلى التوجه شيئا فشيئا نحو الشرق في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

وأول إشارة وصلتنا عن هذا الطريق جاءت في كتاب البكري الذي سماه بطريق الآبار التي أنبطها عبد الرحمن بن حبيب. وتفيد إشارة هذا المؤلف في معرفة أن القوافل المستعملة لهذا الطريق كانت تخترق مجالا جافا تكاد تستحيل الرحلة عبره. ويمكن رصد المراحل الأساسية فيه على الشكل التالي.

قال البكري «من تامدولت إلى بير الجمالين مرحلة... ومنها إلى شعب لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة تم تسير في جبل يسمى أزور ثلاثة أيام... إلى ماء يسمى تندفس آبار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن، ثم تسير منه ثلاثة أيام إلي بير كبير يقال له وين هيلون، ثم تمشي ثلاثة أيام في أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صفا تحت الرمل من بقية الأمطار، إلى ماء نزر يقال له تازقي وتفسيره البيت، ثم تسير منه إلى بئر أنبطها عبد الرحمان بن حبيب... مرحلة، ثم تسير منها إلى بير يقال لها ويطونان وهي كبيرة لا تنزف ماؤها زعاق... ثلاث مراحل، ثم تمشي منه إلى أربع مراحل إلى موضع يقال له أوكازنت... ثم تمشي في مجابة جبال ورمل معترضة لا ماء فيها وهو أصعب موضع بطريق أودغست أربعة أيام، إلى موضع يقال له وانزمين... وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق... ثم تمشي

منه في بلد واران خمسة أيام مجابة في كثبان رمل إلى بير عظيمة... ثم تسير منه يومين إلى ماء يقال له أغرف آبار ملحة... ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى موضع يقال له أقرتندي تفسيره مجتمع الماء... ثم تسير منه يوما في جبل يقال له أزجونان... ثم تمشي يوما في رمال... إلى ماء يقال له بير واران... ثم تمشي في أرض لصنهاجة كثيرة الماء من الآبار ثلاثة أيام، ثم تسير منه إلى شرف عال مشرف على أودغست... مرحلة ثم إلى أودغست مرحلة». (165)

إن أهمية هذا الطريق في التبادل التجاري هي التي جعلت البكري يذكر مراحله ومحطاته بهذا النوع من التفصيل. وقد ذكر هذا المؤلف في مقام آخر أن المراحل الفاصلة بين سجلماسة وأودغست عبر هذا الطريق هي إحدى وخمسون مرحلة. (166) غير أن تتبع هذه المراحل في النص الوارد أعلاه يعطي رقم تسعة وأربعين فقط. فالبكري ذكر ثمانية وثلاثين مرحلة في المسافة الفاصلة بين تامدلت وأودغست، وإذا أضفنا إليها إحدى عشر مرحلة التي كانت تفصل بين سجلماسة وتامدلت، (167) يصبح عدد المراحل هو غير الذي ذكره هذا المؤلف.

كان هذا الطريق يتبع نقط الماء التي توفرها الآبار المالحة وسط الصحراء. غير أن ما يثير الانتباه في محطاته هي أنها غير واضحة، ومرد ذلك إلى عدم معرفتنا لمواقعها. ويتضح من وصف البكري لهذا الطريق أنه كان يتجه بعد خروجه من تامدلت نحو الجنوب الشرقي بغرض الوصول إلى تندفس التي هي ربما تندوف، ثم يسير في صحراء وران التي هي ربما ودان في الادرار الموريطاني، ثم أودغست فغانة. (168)

ذكر ليسار J. M. Lessard أنه بقدرما لا نعرف مكان مدينة غانة وأودغست بقدرما تعوزنا المعلومات الواضحة عن الطرق التجارية الرابطة بين

---

165) البكري، م. س. ص 156 – 158.

166) نفسه، صفحة 149.

167) J. M. Lessard; Sijilmassa; Op. Cit. p 26.

168) انظر الخريطة رقم 6.

سجلماسة وبلاد السودان، خاصة منها طريق سجلماسة غانة عبر تامدلت وأودغست.(169) والمهم أن هـذا الطـريـق يمـر في قسمـه الشمالي بحـواضر أساسية كان لها دور كبير في عملية التبادل التجاري في العصر الوسيط.

كانت مدينة تامدلت أول محطـة رئيسية تصلها القوافل التجارية – بعد خروجهـا من سجلماسة في اتجاه بـلاد السودان عبر هـذا الطريق – وتقع على نحو «ستة مراحل من مدينة إيجلي قـاعة السوس، وبين تامدلت ودرعة مسيرة ستة أيام».(170) وتوجـد في المنطقة التي تسميهـا المصادر العـربية بالسوس الأقصى على حدود الصحراء. أسسهـا الأدارسة في مكان يوجد به معدن فضة، وقـد خربت هذه المدينة في أواخر القرن الثـامن الهجري الرابع عشر الميلادي كما هو الحال بالنسبة لمدينة سجلماسة.(171)

أما مـدينة أودغســت فمن المدن القديمـة التي تواجـدت بغرب افـريقيا، وخربت حوالي سنة 1050م. ويضم موقعها اليوم آثار ثلاث مدن، الأمر الذي يؤكد أنها عرفت تطورا عمرانيا كبيرا قبل اندراسها.(172)

وكانت مـدينة غانة عـاصمة امبراطورية إسـلامية أسسها الزنـوج بعد اعتناقهم للدين الإسلامي عن طريق احتكاكهم بالتجار المغاربة. ويفترض أن يكون مـوقع مدينة غانـة هو كومبي صالح في الجنـوب الموريطاني الحالي، لأن غانـة كانت تقـع على بعد 300 كلم شمال بـامبوك. وكـانت تشرف على منـاجم الذهب في بـلاد الساحل بما فيهـا منـاجم بامبـوك، بوري، مـالي ولوبي،(173) ثم فقدت أولويتها وخضعت لسيطرة امبراطورية مالي.

غير أن أهم ما أثر على ازدهار الطريق التجاري الثالث الذي كان يخترق المجابـة الكبرى هـو ظهور مـلاحة جـديدة في وســط الصحراء. قـال عنها البكـري «ومن غـرائب تلك الصحـراء معـدن ملح على يـومين من المجابة الكبرى، وبينه وبين سجلماســة مسيرة عشرين يوما... ويسمى هـذا المعدن

---

169) J. M. Lessard; Op. Cit. p : 26.

170) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 213.

171) B. Rosenberger; Tamdult cité miniere et caravanière présahariènne IX - XIV siècle; H. Vol. XI, 1970; p : 107.

172) R. Mauny; Op. Cit. p : 72.

173) J. M. Lessard; Op. Cit. p : 26.

تاتنتال، وعليه حصن مبني بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك ملح، ومن هـذا المعـدن يتجهـز بـالملح إلى سجلماسة وغـانـة وسـائر السودان».(174)

يطابق وصف البكري لمالح تاتنتال ما جاء عند ابن سعيد وابن بطوطة حول ممالح تغازى قـال الأول «وآخر هذا الجزء في الصحراء حصن الملح، وهـو مبنـي على ملح معـدني ومنـه يأخـذ المسـافـرون الملـح إلى بـلاد السودان».(175) وقال الثـاني «وهي – يعني تغازي – قريـة لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح».(176)

يتطابق ما ذكره البكري عن ممالح تاتنتال مع ما جاء به ابن سعيد عن ملاحة الصحراء التي تحدث عنهـا ولم يطلق عليها اسما معينا، كما يتطابق مع ما جـاء عند ابن بطوطة في القـرن الثامن الهجري الـرابع عشر الميلادي حول مـلاحة تغـازى، غير أن المسافة التي ذكـرها البكـري بين سجلماسة وتاتنتال وهي عشرين يوما تختلف عن المسافة التي ذكرها ابن بطوطة بين سجلماسة وتغازى وهي خمسة وعشرين يوما. ويرجع سبب الاختلاف في المسافة بينهما إلى أن طريق سجلماسة – مالي كـان يمر زمان ابن بطوطة عبر توات، عكس ما كان عليه الأمر في زمان البكري حين كان المرور يتم عبر تامدلت وتندفس.

أثر استغـلال ممالح تاتنتال التي أصبحت تحمل اسم تغـازي فيما بعد على اتجاه المسالك التجارية الصحراوية. ورغم استمرار التجار في استعمال الطريق الساحلي والطريق الواقـع إلى الشرق منه، فإن طريق المجابة الكبرى هو الـذي استقطب اهتمام القوافل التجارية أكثـر من غيره. يشهد على ذلك ماجاء في كتب الجغـرافيا حول صعوبـة الرحلة، واستحالـة وصول القوافل دون تنظيم محكم استوجب وجود قائد القافلة والدليل والتكشيف.

174) البكري، م. س. ص 171.
175) ابن سعيد المغربي، م. س. ص 113.
176) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 773.

والمجـابة الكبرى كما سماهـا البكـري هي صحراء نسير عنـد الإدريسي الذي قال «هي الصحـراء التي قدمنا ذكرها، وعليها يـدخل المسافرون إلى أودغست وغانة وغيرها من البلاد... وهـذه الصحراء قليلة الانس ولا عامر بها، وبها الماء القليل ويتزود بـه بين مجابات معلـومة ومنهـا مجابة نسـير التي ذكـرنا أنها أربعـة عشر يـوما لا مـاء بها ولا يـوجـد أثر فيهـا وهي مشهورة بـذلك، وفي هذه الصحـراء المعروفة بصحـراء نسير حياة كثيرة... يسلكها المسافرون في زمان الخريف».(177)

وتسمى هذه الصحراء عند ابن سعيد صحراء سير «التي يقطعها التجار ما بين سجلماسـة وغانة ويكـابدون فيهـا شدة العطش ووهج الحر».(178) واالصعوبات التي ذكرهـا كل من الإدريسي وابن سعيد في معرض حديثهما عن هـذا الطـريق، لم تكن تـذكـر بنفس الحدة أثنـاء حـديث غيرهما من الجغـرافيين عن الطـريق السـاحلي والطـريق الـوسط. ومعنى ذلك أن هـذا الطـريق أصبح يخترق وسط الصحـراء الكبرى، وأن التجـار أصبحـوا يسـافرون في ظـروف أكثـر قساوة ممـا كـان عليه سفـرهم عبر الطـريق الساحلي والطريق الوسط.

أصبحت سجلماسة في القرن السابع الهجـري الثالث عشر الميلادي أهم محطة تصل إليهـا الخطوط التجـارية الرابطـة بين بلاد السـودان والمغرب الأقصى، وأصبحت المبـادلات التجـاريـة في وادي نـون والسـوس الأقصى ضعيفة بسبب تراجـع دور الطريق الساحلي.(179) وقد أرجع J. Devisse ذلك إلى استغلال ممالح تغازى واعتماد التجـار عليها في التزود بالملح وإهمالهم لمالح أوليل التي اقتصر دورهـا على تمويل مناطق السينغـال.(180) وهكذا كان لتخلي التجار عن استعمال الطريق السـاحلي أثره في انتعاش سجلماسة على حساب حواضر السوس الأقصى بما فيها إيجلي وتامدلت.

---

177) الإدريسي، م. س. ص 18.

178) D. J. Meunié, Le Maroc; Op. Cit. p : 394.

179) J. Devisse; Routes de commerce, 1 er Partie; Op. Cit. p 56.

180) Ibid; p : 57.

هذا الطريق الشرقي من المسالك الغربية هو الذي سلكه ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي رفقة القافلة التي كان يرأسها محمد بن يندكان المسوفي. وقد خرج ابن بطوطة من سجلماسة في غرة شهر محرم سنة 753هـ / 18 فبراير 1352م، وبعد خمسة وعشرون يوما من المشي في صحراء لا ماء فيها إلا في النادر وصل هذا الرحالة إلى تغازى. وبعد مسيرة عشرة أيام منها وصلت القافلة إلى تاسرهلا وهو مكان يستريح فيه التجار ثلاثة أيام، ومنه يبعث التكشيف إلى ايولاتن. والمسافة الفاصلة بين تاسرهلا وايولاتن هي خمسة وعشرون يوما، بدليل أن ابن بطوطة أشار إلى أن قافلته وصلت ايولاتن بعد مسيرة شهرين كاملين من سجلماسة.(181)

وأما الاختلاف بين الطريق الذي ذكره البكري والإدريسي وابن سعيد، والطريق الذي سلكه ابن بطوطة،(182) فيكمن في كون طريق المجابة الكبرى أي صحراء نسير وصحراء سير كان يمر عبر تامدلت، في حين أن ابن بطوطة سار في طريق مباشر من سجلماسة إلى بلاد السودان دون المرور بالسوس الأقصى. وقد وصف ابن خلدون الطريق الذي سافر عبره ابن بطوطة أثناء حديثه عن مواطن بني يامدس من زناتة وقال بأنهم «كانوا بوطن التوات وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في العمران وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد ومن بلد مالي إليه، وبينه وبين ثغر بلاد مالي... المسافة المجهلة».(183)

ينطبق وصف ابن خلدون على طريق عودة ابن بطوطة الذي عاد من السودان إلى سجلماسة عبر توات، بعد أن استدعاه السلطان المريني أبو عنان فارس بواسطة رسول بعثه إليه والتقاه بتكَدا التي تقع على طريق

181) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 773 – 776.

182) انظر هذا الطريق في الخريطة رقم 7.

183) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 77.

تجار مصر. فغادرها يوم الخميس الحادي عشر شعبان سنة 754هـ / 1353م، فوصل إلى كاغو ومنها إلى برية لا عمارة فيها، ثم وصل طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات، ومن هناك إلى صحراء الهكَار، ومنها إلى سجلماسة التي وصل إليها في أواسط ذي القعدة من سنة 754هـ دجنبر 1353م.(184)

إن عودة ابن بطوطة عبر طريق توات، وإشارة ابن خلدون إلى أهمية هذا الطريق يعطي الدليل على التحولات التي بدأت تعرفها المسالك التجارية الرابطة بين المغرب الأقصى ومالي وبداية انحرافها نحو الشرق. فطريق الصحراء الذي تحدثنا عنه بدأ يفقد أهميته في هذه الفترة لصالح الطرق المؤدية إلى بلاد مصر، وما الحاح ابن بطوطة على ذكر المسالك المؤدية من تكَدا وغات إلى مصر إلا دليلا يؤكد هذا الاتجاه. وقد كان هذا التحول نتيجة المشاكل الأمنية التي عمت كل مناطق بلاد القبلة في المغرب الأقصى، وانعكاساتها السلبية على عملية التبادل التجاري بين مدن الواحات ومالي في تلك الفترة.

2 - الطرق التجارية الرابطة بين سجلماسة والمدن المغربية

اتضحت معالم الطرق التجارية الداخلية في المغرب الأقصى منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. ولم تعرف هذه الطرق تغيرات كبيرة خلال مدة زمنية طويلة. وانتظمت في ثلاثة محاور أساسية محور الشمال ومحور الشمال الشرقي ومحور الجنوب الغربي. فالأول ربط سجلماسة بالبحر الأبيض المتوسط عبر فاس وسبتة، والثاني ربطها بتاهرت والقيروان وتلمسان، والثالث ربطها بمدينة أغمات ومراكش وتامدلت ونول لمطة ومنها إلى بلاد السودان.

لعبت الممرات الطبيعية الموجودة في المناطق الواقعة إلى الشمال والغرب من مدينة سجلماسة دورا مهما في ربط الاتصال بينها وبين المناطق المغربية

---

184) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 791 – 802.

الأخـرى. فممر تيـزي ن تالغمت كـان الممر الأســاسي في ربط هذه المدينـة بمناطق الشمال كما أشرنــا إلى ذلك أثناء حديثنــا عن التضاريس وعــلاقتها بتنقلات القوافـل والجماعات من الرحل. كما أن ممر تيـزي ن مقورن كان يربط هذه المدينة بمراكش وفاس عبر تادلة. في حين كانت ممرات وادي ركَ وممر تيزي ن بجـو وتيزي ن تلكَـان وتيزي ن تـافيلالت تربطهــا بدرعة ومدن السوس.

وقد اعتبر البعض أن وجود هذه الممرات بجبال الأطلس الكبير والصغير هو الذي منح منطقة سجلماسة نـزعتها التجارية وأهميتها في المبادلات بين البحر الأبيض المتوسط وافريقيا السوداء.(185) غير أنه رغم أهمية دور هذه الممـرات في ربط الاتصــال بين الجنـــوب والشمال، فإن النشــاط التجـاري لسجلماسة بعيدا عن أن يكـون وليد هذه العوامل بمفردهــا. لأن موقع هذه المدينــة على بــاب الصحراء الكبرى والمؤهــلات التي تـوفـرت بإقليمهـا من منتوجـات فلاحيـة على اختلاف أنـواعها هي المســؤولة عن الازدهــار الذي عرفته في هذا القطاع.

استمرت هذه الممرات الطبيعية تلعب دورهــا كاملا في ربط الاتصال بين سجلماســة والمدن المغـربيــة الكبيرة. ولم تعـرف المبــادلات التجــاريــة بين سجلماسة وهذه المدن أيــة مشاكل طيلة قرون عـديدة من العصر الوسيط. لكن هذه الممرات أصبحت في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خــاضعة لمراقبة بعض القبــائل القوية من بطـون عرب المعقل فانقطعت السبل بها، وكان من نتائج ذلك ظهور مراكز جديدة استفادت من الحصار الذي ضرب على مدينة سجلماسة وما ترتب عنه من انحراف طرق التجارة.

أ – طريق سجلماسة – فاس

تتطلب الرحلـة من سجلماسة إلى فاس ثمانية أيام عبر الطـريق المباشر الذي يتبع وادي زيـز، وما بين إحــدى عشر وإثنى عشر يومــا عبر الطريق

185) ما جدة كريمي العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المرينين. 668هـ – 759هـ / 1269م – 1358م. الرباط / 1988. ص 134.

الثاني الـذي يمر عبر تـالسينت ومطماطـة أمسكور.(186) وصف البكـري الطريق الأول بقـوله «من مـدينة فـاس إلى مدينـة صفروي وهـي مـدينة مسورة ذات أنهار وأشجار، ومنهـا إلى الأصنام مرحلة، ومنهـا إلى موضـع يقال له ألمزي مرحلـة وهو بلد مكَـلاتة، ومنها إلى تاسغمـرت مرحلة وهـي قرية على نهر، ومنهـا إلى موضـع يقال له أمغاك مـرحلة كبيرة نحو الستين ميلا، ومنها تـدخل في عمل سجلماسة بين أنهار وثمار ثـلاثة مـراحل إلى مدينة سجلماسـة». (187)

ويبلغ عدد المراحل التي ذكـرها هذا المؤلف في هذا الطـريق الأول الرابط بين فاس وسجلماسـة تسع مراحل أي ما يناهز 300 كلم، وهـو نفس الرقم الـذي ذكـره صاحـب الاستبصار حين حصر المحطـات التي يمـر بها هـذا الطريق في صفروي وتاسغمرت ثم سجلماسـة.(188)

لعب هـذا الطريق دورا رئيسيـا في ربط سجلماسة بفـاس، لأنه طـريق مباشر يخترق منـاطق خضراء مليئـة بالميـاه والأشجار.(189) فبعد خـروج القوافل من مدينـة فاس كانت تمر بمدينة صفـرو، ومنها إلى الأصنام التي يمكن أن يكـون المقصود بها أحـد الأماكن الـواقعة بين صفـرو والميس، إذا سلمنا بأن هذا الأخير هو المزي عند البكري. وبعد ألمزي بمسـيرة يوم تصل القوافل إلى تاسغمرت التي يحتمل أن تكون هـي مناطق زايدة الحـالية، ومنها إلى أمغـاك التي يظهر من وصف البكـري أنها تمكن من الوصـول إلى عمل سجلماسـة، ومن هنـاك فإنها اسم مكان في قـدم السفوح الغربيـة للأطلس الكبير، إلى الشمال من ممـر تيـزي ن تـالغمت وربما هي مـا يسمى اليـوم زبزاط.

يتطلب وصول القافلة إلى عمل سجلماسة انطـلاقا من فاس خمسة أيام من المشي، وبعده ثلاثة إلى مدينة سجلماسـة. والمقصود بعمل سجلماسـة هنا

186) انظر الخريطة رقم 9.

187) البكري، م. س. ص 147.

188) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 193.

189) انظر الخريطة رقم 9.

هو الحدود الشمالية للإقليم التي تبتدىء بممر تيزي ن تالغمت. وقد كانت القافلة بعد تجاوزها للسفوح الغربية لجبال الأطلس تحترق مجرى وادي زيز وواحاته بما فيها كَرسلوين ومدغرة والرتب وتيزيمي ثم تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة حيث مدينة سجلماسة. وهذه المسافة تتطلب مسيرة ثمانية أيام، لذلك كانت القوافل تفضل السير في هذا الطريق على السير في غيره، رغم أن الإدريسي أشار إلى أن الطريق الرابط بين سجلماسة وفاس كان يمر بتادلة وأغمات كما سنرى.

وهذا الطريق السريع المباشر هو الذي اتبعه ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي في رحلته من فاس إلى بلاد السودان. وهو ما أسماه طريق جنيبة الذي يصعب التنقل عبره في فصل الشتاء بسبب كثرة الثلوج، حتى أن هذا المؤلف قارنه بالثلج الكثير الذي رآه في بخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك وقال بأنه لم ير أصعب منه.(190) وفي هذا الطريق عانى الوزان أيضا مصاعب كثيرة لأن تساقط الثلوج كان يفاجىء القوافل فتصبح مدفونة تحته.(191)

وكان الطريق الثاني الذي ربط سلجماسة بفاس شائع التداول في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بشهادة البكري الذي قال بأنه أخذ وصفه له عن محمد بن يوسف الوراق المتوفى سنة 363هـ / 973م. وهذا الطريق ينطلق من مدينة سجلماسة «إلى موضع يقال له أرفود جبل موت لا عمارة حوله فيه حمة مرحلة، ومنه إلى موضع يقال له الإحساء رمل يحفر فيه فينبعث الماء على ذراع ونحوه في بلد زناتة مرحلة، ومنه إلى يرارة... ومنه إلى جبل درن المعروف بسنجنفوا... وهو كثير الصنوبر والأرز والبلوط مرحلة، ومنه إلى مطماطة أمسكور بلد كبير على نهر ملوية... مرحلة، ومنه إلى موضع يقال له سوق لميس... مرحلة، ومنه إلى مغيلة ابن تجامان... مرحلة،

190) ابن بطوطة م. س. جـ 2. ص 802.

191) الحسن الوزان، م. س. جـ 1. ص 60.

192) البكري، م. س. صفحة : 147.

وتسير منها في جبال شامخة إلى مغيلة ألقاط... مـرحلتان، إلى لواتة مدين... على نهر سبو مرحلة، إلى فاس». (192)

ووصف صاحب الاستبصار هذا الطريق انطلاقا من فاس عكس ما فعل البكري وقال «ولها طريق آخر من فاس إلى لواتة مدين، وهو بلد خصيب على نهر سبـو... منها إلى فـاس مـرحلـة، ثم إلى مغيلـة القاط... ومنـه إلى مطماطـة أمسكـور وهـو بلـد كبير على نهر ملـويـة... وبعـده نظـر سجلماسة». (193)

كـان هذا الطـريق الثـاني يمر إلى الشمال الشرقي من الأول، والقـوافل كانت تمر بجبل أرفود، وبعد ثـلاثة أيام من المشي في حمادتي مسكي وكَـير تصل إلى جبال الأطلس الكبير الشرقي فتخترقها لتصل في اليوم الخامس إلى الضفة اليمنى لوادي ملـوية حيث مدينة مطماطة أمسكور «ميسـور حاليا» ومنها إلى سوق الميس.

وحول الميس قال J. M. Lessard بأن المقصود به الميس مرموشة وليس الميس كَـيكَـو. (194) وبعد هـذا الموضع تسير القوافـل ثلاثة أيـام لتصل إلى لواتـة مدين ومنهـا إلى مدينة فـاس. ويتضح من ذلك أن هذا الطـريق كان يخترق زيز الأوسط وأعلى وادي كَـير ثم مرتفعـات الأطلس الكبير الشرقي والحوض الأوسط لملـويـة ثم مـرتفعـات الأطلس المتـوسط الشمالي قبل الوصول إلى مدينة فاس. (195)

وانفـرد الإدريسي بوصف الطـريق الثالـث الذي كـان يربط سجلماسـة بفاس. وهو طـريق طويل المسافة لأنـه كان يمر عبر تادلـة وداي. قال هذا المؤلف «ومنها – أي فاس – إلى سجلماسة ثـلاث عشرة مرحلة، والطريق على صفـروي إلى قلعـة مهدي إلى تـادلـة إلى داي إلى شعب الصفـا ويشق الجبل الكبير إلى جنـوبه ومـن هناك إلى سجلماسـة». (196) ويظهر أن هـذا

---

193) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 193.

194) A- J.M. Lassard; Sijilmassa; Op. Cit.; p. 17.

195) انظر الخريطة رقم 8.

196) الإدريسي، م. س. ص 51.

الطريق كـان يستغل ممر تيزي مقـورن للوصول إلى تادلـة ومن هناك إلى أغمات فسجلماسة. فقـد ذكر نفس المؤلف في مقام آخر مـا يلي «وأما من أراد الطريق إلى تلمسـان من مدينة سجلماسة فيسير من تلمسـان إلى فاس ومن فـاس إلى صفـروي إلى تـادلـة إلى أغمات إلى بني درعـة إلى سجلماسة».(197) وهذا ما يـؤكد أن هذا الطريـق كان يسير في الاتجاه الذي ذكره الإدريسي في وصفه لطـريق سجلماسة تلمسان. وقد أشـار ماسنيون إلى أن طريق سجلماسة فاس عبر أغمات كان يمر بفزاز وكَـريكَـرة بالقرب من أزرو الحالي ومنه إلى أدخسان وتادلة.(198)

وهكذا فإن طول مسافة هذا الطريق واستعمال القوافل له على الرغم من وجـود طريق مبـاشر لا تتعـدى مسافتـه ثمانية أيـام يـؤكد بأن المسـالك التجـاريـة لم تتحكم فيهـا سهـولـة التضـاريس ونقط الماء فحسب، وإنما خضعت في تطـورها للعوامـل السياسية وعلى رأسهـا عامل الأمـن وازدهار المراكز الحضرية. ومثـال ذلك أن طريق سجلماسة تلمسان الـذي كان يمر بمدينة أغمات كان يترك طريقا قصيرا يربط بين المدينتين عبر وجدة ووادي كَـير ويتبع مطـافا طويلا يمـر بفاس وتادلـة كما جاء في وصف الإدريسي أعلاه.

ب - طريق سجلماسة - تلمسان :

ارتبطت مدينـة سجلماسة بباقي المدن المغاربيـة عبر طرق ولعبت دورا مهما في ربط هـذه المدن ببـلاد السـودان منـذ الفترات الأولى من الفتح الإسلامي لبـلاد المغرب. فعبر سجلماسـة كان يمر تجار تـاهرت والقيروان والبصرة والكوفة في اتجاه بـلاد السودان في القرن الثالث الهجـري التاسع الميلادي.(199) وإذا كانت سجلماسة قد استمرت على علاقتها مع هذه المدن الواقعة إلى الشرق من المغرب الأقصى إما في إطار علاقات تجارية أوفي إطار

197) نفسه : صفحة : 55.

198) L. Massignon; Op. Cit. p : 110.

199) Lewicki; Titre libico - berbère; Op. Cit. p : 47 - 48.

ركب الحجيج، فإن ما يهمنا هنا هو علاقاتها بتلمسان نظرا لما كان لذلك من أثر في تطـور الأحداث السيـاسية والاقتصـادية للمنطقتين في الفترة المعنيـة بالدراسة.

أشار البكري إلى الطريق التجاري الـذي كان يربط سجلماسة بتلمسان في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وقال «وعلى مدينة وجدة طريق المارة والصادرة من بلاد المغـرب، والطريق منها إلى سجلماسة تخرج من وجدة إلى صـاع وهي قريـة ذات نهر وثمار ومزارع ومنهـا إلى تامللت ومنها إلى جبل بني يرنيان ومنه إلى قير ومنه إلى الإحساء ومنها إلى لامسلي ومنه إلى دار الأمير ومن دار الأمير إلى سجلماسة».(200) ومعنى ذلك أن هذا الطريق كان يمر بأودية زا وكَـير وزيز.(201)

وارتبطت تلمســان بسجلماسة في القـرن السادس الهجـري الثاني عشر الميلادي عبر طريقين الطريق الأول قال الإدريسي أنه كان يمر بأغمات قبل تخريبهـا على يد الموحـدين. ويمكن تتبع مـراحله فيما يلي «وأمـا من أراد الطريـق إلى تلمسان من مـدينة سجلماسة فـالقوافل تسير مـن تلمسان إلى فاس إلى صفروي إلى تادلة إلى أغمات إلى بني درعة إلى سلجماسة».(202) أما الطريق الثـاني فتسلكه القوافل أيضـا لكن في النادر لأنه مفـازة «فمن شاء ذلك سار من تلمسان إلى قرية تارو مرحلـة ومنها إلى جبل تامديت مرحلة ومنها إلى غايات وهي قرية خراب مرحلة وبها بئر ماء... ومنها إلى صدرات مرحلة... ومنها إلى جبل تبوي مدينة خراب وبها عين ماء... ومنها إلى فتات بئر في وسط الصحراء مرحلة ومنهـا إلى شعب الصفا مرحلتان... ومنه إلى تندلي وهي قريـة عامرة مرحلـة ومنها إلى قرية تمسنان مـرحلة ومنها إلى تقـريت مـرحلـة ومنه إلى سجلماســة ثـلاث مـراحل وهـذا الطـريق قليل سالكوه».(203)

---

200) البكري، م. س. ص 38.
201) انظر الخريطة، رقم 10.
202) الإدريسي، م. س. ص 55.
203) نفسه. ص 56.

وإذا كان استعمال هذا الطـريق قد ظل محدودا في القرن 6 هــ / 12 م كما ذكر الإدريسي فإنه عرف نوعـا من الانتعاش في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميـلادي، بعد أن استـولى عرب المنبـات على مدينـة سجلماسة وأعلنـوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيـان. إذ لا يعقل أن يكـون الزيـانيون قـد نظمـوا علاقتهم التجـارية مع سجلماســة عبر طريق فـاس أغمات باعتبـار العداء الذي كان بينهم وبين المرينيين أسياد تلك الجهات.

وتجـب الإشـــارة هنا إلى أن الطرق التي ربطـت سجلماســـة بتلمسان هي التي ربطتهـــا بالبحـر الأبيض المتـوسط قبل استيلاء المرينيين عليهـا، وكـان لمينـاء هنين بالمغرب الأوسط أثـر كبير في هذه العملية. وهذا ما دفع بــ دوفورك CH. E. Dufourcq إلى القـول بأن سجلماسة تـوجهت في تعاملهـا التجاري نحو تلمسان في القرن الثالث عشر الميـلادي أكثر من توجهها نحو أي منطقة أخرى.(204)

ج - طريق سجلماسة - الجنوب الغربي المغربي :

ارتبطت سجلماسة بـالجنوب الغربي المغربي عبر ممـرات طبيعية أهمها وادي رِكَ مـا بين جبل أوكَـــنات وجبل صـــاغرو، وممـرات تيـزي ن بجـو وتيـزي ن تلكَـان وممـر تيزي ن تـافيـلالت بجبال بـاني. وهذه الممـرات الطبيعيـة هي التي استغلتها القـوافل التجاريـة في تنقلاتها بين سجلماســة ودرعة، ومن هناك إلى باقي المناطق الجنـوبية بما فيها الحواضر المغربية في السوس الأقصى وكل بلاد القبلة.(205)

كان لهذه الممرات أهمية خاصة بالنسبة لسجلماسة لأنها كانت تقع على الطريق المؤدي إلى بـلاد السودان. لذلك عملت على فرض مـراقبتها عليها في فترة قوتهـــا، وقد وصف البكـري الطـرق الرابطـة بين سجلماسة ودرعـة بقولـه «مدينة درعـة يقال لها تيومتين وهي قـاعدة درعة... فمن مـدينة تيومتين إلى تامجاثت مرحلة... ومـن هناك إلى أمان تيسن مرحلة وتفسيره

204) CH. E. Dufourcq; L'Espagne; Op. Cit. p 136.

205) انظر الخريطة، رقم 11.

الماء الملح ومنـه إلى تنـودادن مرحلـة وتفسيره بئـر الايـائل وهناك معـدن النحاس ومنهـا إلى أجرو مرحلـة... ومنه إلى تونين ان وجليـد تفسيره أبار الأمير مرحلـة ومنه إلى أمـان تيسدان تفسيره مـاء النعام ومنـه إلى أجران روشان أي فدان الذئب إلى أمرغاد مرحلـة وأمرغاد آخر بسـاتين سجلماسة ومنها إلى سجلماسة ستة أميال».(206)

كانت مناطق درعة مشهـورة بما كان على واديها من عمارة متصلة نحو سبعة أيـام، وما تحفـل به من أسـواق، فكانت الطـرق الرابطـة بينها وبين سجلماسـة تتبع مجـرى هذا الوادي أو مجـاري روافده.(207) أشار ليسار J. M. Lessard إلى أن الذهـاب من سجلماسة إلى المنـاطق الواقعـة إلى الجنوب الغربي منها كان يتم عبر طريقين الطريق التي ذكر البكري أنه يمر بدرعة الأوسط والطريق الـذي يتبع الحافات الشرقيـة للأطلس الكبير الشرقي عبر واحات تنغير وبومالن، وهو أطول مسافة من سابقه.(208)

3 - النشاط التجاري بمدينة سجلماسة في القرن 8هـ/14م. :

أ - دور سجلماسة في المبادلات التجارية

كان للازدهار الـذي عرفته مدينة سجلماسة في القـرن السابع الهجري الثـالث عشر الميلادي أثـره في أن أصبحت هذه المدينـة قبلة لعـدد كبير من التجار الذين قـدموا إليها من مختلف مناطق بلاد المغـرب. وقد احتفظت لنا مصادر القرن الثامن الهجري الرابـع عشر الميلادي بنصوص تؤكد الأهمية التي كـانت لقطاع التجـارة بسجلماسة، والتنظيـم المحكم الذي عـرفه هـذا القطاع سواء على مستـوى المؤسسـات التجارية كإقـامة الشركات أو تنظيم القوافل.

ويغلب على الظن أن القرن السـابع الهجري الثـالث عشر الميلادي يمثل فترة الازدهار الكبير الذي عـرفه النشاط التجاري بسجلماسـة. فقد سبقت

206) البكري، م. س. ص 156.

207) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 206.

208) J. M. Lessard; Sijilmassa; Op. Cit. p 20.

الإشارة إلى أن هـذه المدينة استطـاعت أن توفر للخليفـة الرشيـد الموحدي جميع اللوازم الماديـة التي مكنته من استرجاع ملكه الضـائع بمراكش، وإلى الاهتمام الذي أولته إليها كافة القـوى السياسية المتطلعة إلى الاستقلال عن الموحدين بمراكش. وإلى انتفاضـة عمالها، ومجاهرتهم بالعصيان. وفي ذلك كله ما يؤكد الأهمية الاقتصادية لهذه المدينة في الفترة التاريخية المذكورة.

وكـان لتدخل عـرب المعقل في الشـؤون السياسيـة بسجلماسة أثـره في خضوع هذه المدينة إلى يغمراسن بن زيان ما بين 660هـ / 1262م و674هـ / 1276م، فشهدت هذه الفترة عملية تنظيـم واسعة في التبادل التجاري بين المدينتين، لأن يغمراسن كان يرسل أحد أبنائه على رأس كل سنة إليها لجمع الخراج، ولا يستبعد أن يكـون هذا السلطان الزيـاني قد تاجر لحسـابه عن طريق وكلاء له بها.

ولدينا إشارات تؤكد أن يهود سجلماسة كانوا يلعبون دور الوساطة بين تجار أراغـون وبـلاد السودان. فقـد حصل هـؤلاء على تـرخيص من ملك أراغون J. Le conqueront يخول لهم المتـاجـرة بكل المدن الكطـلانيـة. أشـار دوفورك Dufourcq إلى طريق تجاري كـان يربط مايـوركا بافريقيـا السوداء عبر تلمســان وسجلماســة، وأكـد أنه ظل لقـرون عـديـدة من أهم الطـرق التجارية التي كانت تربط افريقيا بأوربا عبر البحر الأبيض المتوسط. وكان هذا الطريق معروفا لدى الأوربيين منذ القرن الثاني عشر، واستمر كذلك في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.(209) هذا بالإضافة إلى أن العلاقة بين تجار أراغـون ويهود سجلماســة كـانت مـن المواضيع التي تنـاولتهـا المراسلات بين الزيانيين والأراغونيين.(210)

وتعتبر شركـة المقـريين بسجلماســة وتلمســان وولاتـة التي أسست في القـرن السـابع الهجـري الثالث عشر الميـلادي واستمرت إلى مـا بعد نهايـة النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي نموذج التنظيم

209) Ch. E. Dufourcq Une route de l'or au moyen âge de l'Afrique noire, Majorque par Sijilmassa et Tlemcen, Bulletin d'information historique, Faculté des lettres d'Alger, N° 3 Janvier, 1966, p : 19.

210) CH. E. Dufourcq; Route de l'or, Op. Cit. p : 10.

الكبير الذي عـرفته التجارة الصحـراوية في المرحلة المعنيـة بالدراسـة. وقد سجل لنا لسـان الدين بن الخطيب كيفيـة العمل في هذه الشركة التجـارية، وعنه نقل المقـري مادتـه في هذا الموضوع مع إضـافات قليلـة لا تخلو من فائدة.

نـالت أسرة المقـري التلمسـانيـة شهـرة كبيرة بفعل ممـارستهـا للعمل التجاري والأرباح التي تراكمت لديها نتيجة ذلك. قال ابن الخطيب «فمهدوا طريق الصحراء بحفـر الآبـار وتأمين التجـار واتخذوا طبل الرحيل ورايـة التقدم عند المسير».(211) وقد كـانت هذه الأسرة على علاقة طيبـة بسلاطين تلمسان وفـاس. ولا يستبعد أن يكون أفـرادها قـد تاجروا لحسـاب هؤلاء وأولئك وتقربوا منهم بواسطة الهدايا.

والمقريون في نص الإحاطة كانـوا خمسة إخوة شركاء في العمل التجاري، انقسمـوا على المحطـات التجـارية الكبيرة على طـريق تلمسـان – مـالي عبر سجلماسة. ويظهـر أن الغرض من وجـود ممثلين لشركتهم في أهم محطات هذا الطريق التجـاري هو مسايرة ما يجري في عملية المتـاجرة من تطور في العـرض والطلب. ويتضح ذلك من قـول ابن الخطيب «وكـان ولـد يحيى الذي كان أحـدهم أبو بكر، خمسة رجال فعقـدوا الشركة بينهم فيما ملكوه وفيما يملكونـه على السواء بينهـم والاعتدال، وكـان أبو بكـر ومحمد وهما أورمتا نسبـي من جميع الجهات الأم والآب بتلمسـان وعبد الـرحمان وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة وعبـد الواحـد وعلي وهما شقيقاهما الصغيران بإيولاتن».(212)

كان الاتصال بين هؤلاء الشركاء يتم عبر المراسلة، لأن المقيم بسجلماسة كان يبعث إلى إخـوانه في تلمسان وإيـولاتن قائمـة بأسماء السلع المرغوب جلبها وقائمة السلع غير المرغـوب فيها، قصد تفادي الخسارة في تجارتهم. وقد لخص ابن الخطيب ذلك في قوله «والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما

---

211) ابن الخطيب الإحاطة م. س. جـ 2. ص 192.

212) نفسه، نفس الصفحة.

بقدر الرجحـان والخسران ويكاتبهما بأحوال التجـار وأخبار البلدان».(213) والأهمية التي اتخذهـا المقيم بسجلماسة من المقريين في شركتهم نـابعة من الأولوية التي كانت لهذه المدينة في هذا الباب، لأنها كانت بمثابة سوق دولية تجمع تجار بلاد المغرب وأوربا عبر وكالائهم من اليهود.

وظف المقـريـون أموالهم في شراء العقـار بمنـاطق استقـرارهم، واتخذوا الديار والحوائط وتزوجوا منها».(214) واستولدوا الاماء».(215) إن ذكر ابن الخطيب للحـوائط يؤكـد أنه كـان يخص بكلامـه هذا سجلماسـة على وجه التحديد. فالحوائط جمع حـائط وهو مزرعة النخيل، ومن الطبيعي أن يهتم المقريـون بهذا النشاط الفلاحي إلى جـانب اهتمامهم بالتجارة، خـاصة وأن إنتاج التمـور قد عـرف تطورا كبيرا بسجلماسـة في القرن الثـامن الهجري الـرابع عشر الميـلادي. كما كـان يشكل مـادة رئيسيـة في تموين القـوافل التجارية وسلعة تبادل رائجة ببلاد السودان.

تعرضت شركـة المقريين لنكسة ضعفت بعـدها ولم تظهر بمظهـر القوة الـذي تمتعت بـه قبلهـا، قـال ابن الخطيب «ولما افتتح التكـرور إيـولاتن وأعمالها أصيبت أمـوالهم فيما أصيب من أمـوالها».(216) ويتعلق الأمـر هنا بسيطرة سندياتا مؤسس امبراطورية مالي على ايولاتن سنة 1240م.

وقد اتصل عبد الـواحد المقري إثر ذلك بملك مالي «فأكـرم مثواه ومكنه من التجارة بجميع بلاده وخاطبه بالصديق الأحب والخلاصة الأقرب»،(217) فصارت للمقريين منذ ذلك التاريخ علاقة طيبة بأباطرة مالي.

استطاعت شركة المقريين أن تحافظ على حيوتيها في النشاط التجاري في النصف الأول من القـرن الثـامن الهجري الـرابع عشر الميـلادي وأصبحت أموال أصحابها في هذه الفترة «تفوق العدو الحصر»،(218) وبدأ الضعف يدب

---

213) نفسه، نفس الصفحة.

214) نفسه، نفس الصفحة.

215) المقري، نفح الطيب، م. س. جـ 5. ص 205.

216) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 2. ص 192.

217) نفسه، نفس الصفحة.

218) نفسه، صفحة، 193.

إلى جسم هذه المؤسسة التجارية في النصف الثاني من نفس القرن، لأن ابن الخطيب تحدث عن منافسة المصريين لتجار المغرب بمالي. وأشار إلى أن النجاح الذي حققته شركة المقريين ببلاد السودان كان «قبل أن يدخلها أهل مصر بمالابال له من السلع».(219) ومن ثم، فإن الضعف الذي عرفته هذه الشركة يعكس التراجع الذي عرفه نشاط الطريق التجاري الغربي بعد انفتاح مالي على الشرق.

يرجع سبب الضعف الذي لحق شركة المقريين حسب رأي ابن الخطيب إلى عاملين أولهما أن أبناء الإخوة الخمسة لم يواصلوا جهود آبائهم في ممارسة العمل التجاري، واقتصروا على إنفاق ماتركوه لهم «فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة».(220) وثانيهما توالي الفتن والاضطرابات قال ابن الخطيب «وصادفوا – يعني الأبناء – توالي الفتن ولم يسلموا من جور السلطان فلم تزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان»،(221) أي إلى الفترة التي ألف فيها المؤلف كتابه الإحاطة أثناء إقامته بالمغرب الأقصى رفقة سلطانه الغني بالله في عهد أبي سالم إبراهيم.

يبدو العامل الثاني الذي أشار إليه ابن الخطيب أكثر معقولية من العامل الأول. لأن توالي الفتن واضطراب حبل الأمن على طول الطريق التجاري الصحراوي الرابط بين بلاد السودان وسجلماسة انعكس سلبيا على تجارة المقريين ومعهم تجارة هذه المدينة ككل. وعليه، فإن ضعف شركة المقريين في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي لا يرتبط بتهاون أفرادها، بقدرما له صلة وطيدة بالتحولات التي طرأت على محاور التجارة، بما في ذلك انعدام الأمن على طول الطريق التجاري الغربي الرابط بين المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي، وظهور المنافسة المصرية التي حولت اهتمام الماليين نحو الشرق ودفعت بهم إلى التعامل أكثر من أي وقت مضى مع هؤلاء الزبناء الجدد.

---

219) نفسه، نفس الصفحة.

220) نفسه، صفحة 194.

221) نفسه، نفس الصفحة.

تنبه ابن الخطيب إلى الأرباح التي كانت تـدرها التجارة الصحراوية على التجار المغاربة، وأورد في ذلك ما قالـه شيخ المتصوفة أبو مدين الغوث عن تجار الصحراء «الذين يـذهبون بخبيث السلع ويأتون بـالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سـواهم يحمل منها الذهب ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب إلى ما يغير من العوائد ويجر السفهاء إلى المفاسد».(222)

وفسر ابن خلدون الأسباب الكامنة وراء أرباح التجار الذين يتجهون إلى بـلاد السودان في مقـدمـة كتابـه العبر وقـال «ولهذا نجـد التجار الـذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفاوز الصعبة المخطـرة بالخوف والعطش... فتجد سلع بـلاد السودان قليلـة لدينـا فتختص بالغـلاء وكذلك سلعنـا لديهم... وأمـا المترددون في أفق واحد مـا بين أمصاره وبلدانـه ففائدتهم قليلـة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقليها».(223)

مثلت الفترة التي تواجدت فيها شركة المقريين بسجلماسة العصر الذهبي للنشاط التجاري لهذه المدينة، فاستثناء لما سجلته كتابات ابن الخطيب حول النشاط التجاري بسجلماسة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي والنصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، لا نجد الكثير من المعلومات حول هذا القطاع بهذه المدينة في المصادر الجغرافية والتاريخية التي زامنت المرحلة المحـددة للدراسة. فابن عبد المنعـم الحميري نقل مادته عن البكـري وصاحب الاستبصـار،(224) وكـذلك الشأن بالنسبـة لياقـوت الحموي الذي نقل عن القزويني،(225) أما القلقشـنـدي فنقل عن ابن سعيد وابن فضل الله العمري.(226)

---

222) ابن الخطيب، الإحاطة، م. س. جـ 2. ص 193.

223) ابن خلدون، المقدمة، م. س. ص 497.

224) انظـر الـروض المعطار، ص 305 – 306. والبكـري، م. س. ص 148، والاستبصار م. س. ص 201.

225) ياقوت الحموي، م. س. ص 192. والقزويني، م. سن ص 42.

226) القلقشندي، م. س. جـ 5. ص 164.

كما أن ما ذكره ابن فضل الله العمري يؤكد أن تجارة سجلماسة عرفت ازدهارا كبيرا في القرن السابع الهجري والنصف الأول من القرن الثامن الهجري، بدليل ما أورده عن المداخيل الجبائية الخاصة بالدولة المرينية في عهد أبي سعيد عثمان وابنه أبي الحسن علي حين كانت منطقة سجلماسة تؤدي مائة وخمسين ألف مثقال في الجباية إلى المخزن المريني شأنها شأن فاس ومراكش.(227) وهكذا فالحصة التي كانت تجبى من سجلماسة كانت تعادل ما يتم استخلاصه من العواصم المغربية الكبيرة، وهذا ما يعطي الدليل على استمرار هذه المدينة في لعب أدوار طلائعية في القطاع التجاري للمغرب الأقصى، حتى السنوات الأخيرة من النصف الأول من القرن الثامن الهجري.

وقد استمرت سجلماسة في عهد أبي عنان فارس تلعب نفس الدور الاقتصادي الذي كان لها في عهد سابقيه، ومثلت منطقة جبائية مهمة للمخزن في مرحلة حكم هذا السلطان أيضا. وقد عدها علي بن يوسف الحكيم من بين المناطق الخمسة الرئيسية التي كانت تجمع بها الجباية ببلاد المغرب.(228)

يضاف إلى ذلك أن ابن بطوطة الذي زار سجلماسة في فترة حكم أبي عنان فارس لم يذكر شيئا عن تراجع دورها في قطاع التجارة واكتفى بالإشارة إلى أنها من أحسن المدن التي زارها في رحلاته الكثيرة.(229) وهذا ما يؤكد أن التراجع الذي عرفه قطاع التجارة بها كان وليد فترة لاحقة لزيارة هذا الرحالة لها.

أورد ابن الخطيب في كتابه نفاضة الجراب ما يفيد في معرفة أن سجلماسة شهدت بداية تراجعها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. ويتضح ذلك من مضمون رسالته إلى الفقيه أبي عبد الله محمد الكناني الذي عينه أبو سالم إبراهيم المريني موظفا

227) Ibn Fadl Allah Alomari; Op. Cit. p : 171.

228) علي بن يوسف الحكيم، م. س. ص 179 – 180.

229) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 773.

بسجلماسة وهذا نص كلامه «إذا كانت سجلماسة قبل اليوم... يجلب منها التبر إلى دار الملك فقد رد إليها الذهب الابريز من بعد السبك، ولابد أن يعود الحق على الشك، فتعود الأمور إلى معتادها، وتحلك العلياء محل فؤادها، فإنما هو تجميم، ووراءه إنعام عميم، ومن الله أسأل أن يصل لك أسباب العز آمنة من الانصرام، ولا يقطع عنك عوارف الإنعام». (230)

وما يهمنا من كلام ابن الخطيب هو أن التبر لم يعد موجودا بسجلماسة في عهد أبي سالم إبراهيم كما كان في السابق، وهو ما يجد تفسيره في فتور العلاقات التجارية بين سجلماسة وبلاد السودان، وتؤكده الأحداث السياسية التي شهدتها هذه المدينة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

ب – تنظيم القوافل :

كان لظهور ممالح تاتنتال – التي هي ممالح تغازى – في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أثره في تراجع الطريق الساحلي الذي كان يتجه نحو ممالح أوليل. وأصبح على القوافل بعد استغلال هذه الملاحة اختراق المجابة الكبرى للوصول إلى ايولاتن التي عوضت مدينة أودغست فأصبحت أكبر سوق للمبادلات في الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى. وقد أجمعت كتب الرحلة والجغرافيا على صعوبة السفر في هذا الطريق الذي يخترق الصحراء الكبرى، كما أجمعت على قلة الماء والأخطار التي كان يعاني منها التجار في رحلتهم عبره.

فرض المرور عبر هذا الطريق الصحراوي الذي يتخترق المجابة الكبرى كما أسماها البكري أو صحراء نسير كما عند الإدريسي أو صحراء سير كما عند ابن سعيد، (231) على التجار تنظيم أنفسهم حتى يضمنوا الوصول بسلام إلى بلاد السودان. أشار الإدريسي إلى أن معالم الطريق في هذه الصحراء غير واضحة وقال «هذه الصحاري بها مجابات بلامياه، وذلك أن

---

230) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، م. س. ص 148.

231) راجع الطرق الصحراوية أعلاه، ص 351ـ 358.

الماء لا يوجد بها إلا بعد يومين أو أربعة وخمسة وستة وإثنى عشر يوما... وأكثر أرضها أيضا رمال تسفيها الرياح وتنقلها من مكان إلى مكان».(232) وهذا ما أكده ابن بطوطة أيضا حين قال «إذ لا طريق بها ولا أثر، وإنما هي رمال تسفيها الرياح فترى جبالا من الرمال في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه».(233)

وكان أفراد القافلة يتعرضون للضياع في هذه الصحراء إذا ابتعدوا عن القافلة قال ابن بطوطة «وكنا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة، فإذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب فيه. ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت... وقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم، فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل، وعليه ثيابه وفي يديه سوط، وكان الماء على نحو ميل منه».(234) وهذا ما كان يفرض ضرورة التنقل الجماعي بهذه المفازات، لأن الفرد بما يملكه من إمكانيات كان معرضا للأخطار بالنظر للظروف القاسية لعملية التنقل، وهكذا استلزم نجاح الرحلة وجود تنظيم للقوافل يسهل مامورية التجار في الوصول إلى هدفهم.

ويصعب الحديث عن أي تنظيم للقوافل قبل القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، لأن الإشارات التي وصلتنا في هذا الشأن كانت عبر ما جاء في رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان. لكن ليس هناك ما ينفي القول بأن هذا التنظيم المحكم الذي خضعت إليه القوافل قد تم العمل به منذ انحراف الطريق التجاري الرابط بين المغرب الأقصى وبلاد السودان عن الساحل الأطلسي، وتوغله في الصحراء الكبرى في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي.

كان اختراق الصحراء الكبرى من أجل الوصول إلى ممالح تغازى يتطلب مجهودات كثيرة، لأن المجال الجديد الذي بدأت الطرق الصحراوية تخترقه

---

232) الإدريسي، م. س. ص 9.

233) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 774.

234) نفسه، نفس الصفحة.

كان مجالا جافا تنعدم فيه المياه على مسافات طويلة ولا وجود لمعالم أو أثر للطريق فيه. وقد فرضت هذه المستجدات على القوافل الخضوع لتوجيه معين استوجب وجود قائد القافلة وبعض مساعديه من الذين يستحيل نجاح الرحلة بدونهم كما هو الحال بالنسبة للتكشيف والدليل. كما أجبرت القوافل على اختيار الوقت الملائم من فصول السنة لقطع هذه الصحاري، فكان سفرها يتم في غالب الأحيان في فصل الخريف.(235) وقد سبقت الإشارة إلى أن موسم التساقطات يبتدىء بسجلماسة ومعها كل مناطق بلاد القبلة في شهر شتنبر، ويستمر طيلة شهر أكتوبر، فتتضح من خلال ذلك العلاقة التي كانت للظروف المناخية بالنشاط التجاري.

كان الهدف من خروج القوافل نحو بلاد السودان في فصل الخريف هو استغلال ما تعرفه المناطق الصحراوية من تساقطات مطرية قصد استغلالها لتعويض النقص الواضح في مصادر المياه بها. وقد أشار ابن بطوطة إلى أن قافلته صادفت في رحلتها بقايا المطر وقال «ومن تغازى يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة أيام لا ماء فيها إلا في النادر، ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر. ولقد وجدنا في بعض الأيام غديرا بين حجارة ماؤه عذب، فتروينا منه وغسلنا ثيابنا».(236)

كان قائد القافلة التي سار فيها ابن بطوطة إلى بلاد السودان من قبيلة مسوفة وهو محمد بن يندكان المسوفي.(237) ونعرف أن قائد القافلة هو الناطق باسم التجار والمفاوض باسمهم والمشرف على كل ما يتصل بتنظيمهم. ويظهر من انتماء هذا الشخص إلى قبيلة مسوفة الدور الذي لعبته هذه القبيلة في ربط الاتصال بين بلاد المغرب وبلاد السودان. ولا يعود هذا الدور إلى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بقدر ما يعود إلى فترات سابقة له. فقد كتب ابن حوقل في القرن الرابع الهجري العاشر

---

235) M. Lambard; L'or musulman; A.E.S.C. 1947; p : 50.

236) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 773.

237) نفسه، نفس الصفحة.

الميلادي عن مسوفة ما يلي «وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم... وفيهم البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة في الجري والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله والدلالة على مياهه».(238) كما ذكر ابن بطوطة أن أهل مسوفة كانوا يبيعون أحمال الماء للتجار.(239)

وهكذا كان لقبيلة مسوفة دورا مهما في إنجاح عملية التجارة الصحراوية، لأنها هيأت الوسائل الملائمة لتنقل القوافل عبر الصحراء رغم الصعوبات التي كانت تمليها الظروف المناخية بها. وقد كان التكشيف من مسوفة أيضا كما هو الحال بالنسبة للدليل وقائد القافلة.

قال ابن بطوطة «والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى ايولاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها، ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع، ومن لم يكن له صاحب بايولاتن كتب إلى من اشتهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك».(240)

كانت مهمة التكشيف صعبة للغاية بالنظر إلى الأخطار التي كانت تحيط بالرحلة في الصحراء، وتوقف نجاح القافلة في الوصول إلى إيولاتن على نجاحه في مهمته. قال ابن بطوطة «وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل ايولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم».(241) ويظهر أن التكشيف لم يكن شخصا واحدا بل كان يساعده مجموعة من الأشخاص الآخرين، وهو ما يظهر من قول ابن بطوطة «وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فإذا كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك».(242)

ويمكن القول بأن التكشيف كان من الذين يلازمون القافلة في رحلتها من بلاد المغرب إلى بلاد السودان. وهو على ذلك من خاصة قائد القافلة

---

238) ابن حوقل، م. س. ص 98.
239) ابن بطوطة، م. س. جـ 2 / ص 775.
240) نفسه، صفحة 774.
241) نفسه، نفس الصفحة.
242) نفسه، نفس الصفحة.

رغم أن مهمته لا تبتدىء إلا حين الاقتراب من مدينة إيـولاتن. فابن بطوطة لم يشر إلى مكان اكتراء التكشيف وإنما ذكر المكان الذي يتم إرساله منه إلى إيولاتن وهو قرية تاسرهلا. ومن هناك جاز لنا أن نقول بأن تنظيم القافلة كان يتم بواسطـة طاقم ضخم يرأسه قـائدها ومن معه من الرجـال الذين يقومون بمهمة التكشيف أو الـدليل. وقد كان التكشيف يكترى بمائة مثقال من الذهب في القـرن الثامن الهجري الرابع عشر الميـلادي، وهو الثمن الذي أدته قافلة ابن بطوطة لمن قام لها بهذه المهمة.(243)

وإلى جانب التكشيف كـانت القافلـة ترافق معها الـدليل الذي كـانت له دراية كبيرة بـالمسالك التجـارية، رغم عـدم ثباتها بسبب تنقل الـرمال من مكان إلى آخر. قال ابن خلدون أن بين بـلاد المغرب وبلاد السودان «المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبيل، ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخبير من الملثمين الظـواعن بـذلك القفـر، يستـأجـره التجـار على الـدربـة بهم فيهـا بأوفـر الشروط».(244) ويظهر من كلامه أن الدليل كان يكترى بأثمان باهضة.

كان الدليل على علم كبير باتجاه المسالك التجارية، لكثرة تردده على تلك المفازات. قال ابن بطوطة «ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية، وهو أعرف الناس بالطريق».(245).

ولا نعلم الطريقة التي كان قائد القافلة يعتمدها في إدارة شؤون التجار، ولا الكيفيـة التي كـــانت تتم بها عمليـة جمع الأمـوال من هــؤلاء لتغطيـة مصاريف الرحلة. خاصة وأن ممتلكـات التجار لم تكن متساوية في القافلة. فهل كانوا يـؤدون حصتهم من المصاريف تبعا لقيمـة سلعهم أم تبعا لعدد إبلهم ؟ أم أن المصاريف كانت تقتسم على الأشخاص دون عد متاعهم ؟

ذكر أبو سالم العيـاشي ما يفيد في معرفة أن هذه الأسئلـة الواردة أعلاه لم يتم الحسم في الحكم فيهـا من طـرف الفقهـاء. قـال «سمعت شيخنـا العلامـة أبا بكر السجستـاني المراكشي رضي الله عنه يقـول جرى البحث في

243) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 775.

244) ابن خلدون، م. س. جـ 7. ص 77.

245) ابن بطوطة، م. س. جـ : 2. ص 775.

الجامع الأزهر أيام اشتغاله بالاقراء هناك في هذه المسألة وهي أجرة دليل الركب هل تكون على الإبل أو على أحمال السلع أو على أصحابها أو تكون على التابع دون المتبوع ؟ قال ولم يوجد نص في ذلك. ثم أضاف ويمكن استخراج حكم المسألة وهو من أصل ما ورد في حديث الهجرة من استيجار النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه لدليل فهل كانت الأجرة على الإبل أو على الرؤوس ؟ وهل أعطى أبو بكر عن غلامه أم لا ؟ فلم يفصل الفقهاء في الأجرة على من تكون». (246)

ويظهر مما مضى أن ضخامة القافلة وكثرة عدد تجارها وما يترتب عن التنقل في الصحراء من صعوبات هو الذي فرض خضوع القافلة إلى تنظيم محكم لضمان سلامة الرحلة من بلاد المغرب إلى بلاد السودان. وإذا كانت قلة المعلومات المصدرية لا تسعفنا على الحديث بنوع من اليقين عن التجار الذين كانوا يقومون بهذا العمل الشاق والمربح، فإن السؤال الذي يفرض نفسه على الدوام هو من هم هؤلاء التجار ؟

ذكرنا أعلاه أن سجلماسة ومعها كل المحطات التجارية الرئيسية في بلاد المغرب قد عرفت وجود شركات تجارية حقيقية كما هو الحال بالنسبة لشركة المقريين، وقد كان من بين التجار أيضا من كان وكيلا لغيره في القيام بالمبادلات التجارية مع بلاد السودان.

ويغلب على الظن أن القوافل التجارية التي كانت تنطلق من سجلماسة كانت تتشكل في أغلبها من تجار هذه المدينة، لأن الأرباح التي كانت تدرها عملية المبادلات مع بلاد السودان كان من شأنها أن تشجع سكانها على ممارسة هذا النوع من الأنشطة الاقتصادية. ومن هناك جاز لنا أن نتصور بعض سكان سجلماسة وقد تحولوا مع الزمن من مزارعين إلى تجار بالنظر إلى الدور الذي لعبته بعض المنتوجات الفلاحية المحلية في الرواج التجاري على الصعيدين الداخلي والخارجي وما كانت تدره من أرباح.

---

246) أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، طبعة فاس، 1316هـ ص 372 – 373.

جـ - سلع بلاد المغرب المصدرة إلى بلاد السودان :

ليس من السهل تحديد القيمة الحقيقية للمبادلات التجارية بين المغرب وبلاد السودان وبينه وبين أوربا في المرحلة المعنية بالدراسة كما في باقي مراحل العصر الوسيط، لأننا لا نعرف كمية ولا ثمن السلع المصدرة والمستوردة، نتيجة اقتصار المصادر الجغرافية والتاريخية على ذكر الأرباح الكثيرة التي كانت تدرها هذه التجارة على المشتغلين بها.

ويظهر أن معادلة ملح - ذهب هي الغالبة على هذا التعامل التجاري في كل فترات التاريخ الوسيط المغربي حسب ما نجده شائعا في مختلف المصادر رغم أن تجار بلاد المغرب كانوا يحملون سلعا مصنعة إلى بلاد السودان مستغلين تفوقهم التقني في هذا الباب ويأتون بالتبر أو الذهب المسبوك من مملكة غانة ثم مالي فيما بعد.

وقد تطور حجم المبادلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي حسب الفترات التاريخية، وتشكلت أغلب هذه السلع من مواد مصنعة ومنتوجات فلاحية عرفت رواجا وطلبا كبيرين في السوق السودانية. وهذا ما ينفي صحة معادلة ملح - ذهب لأن بعض الممالح تواجدت ببلاد السودان، كما هو الحال في ملاحة Manga وKowar ويمكن أن يكون سكان بلاد الساحل قد استغلوها منذ القديم حسب رأي R. Mauny، رغم أن النصوص المكتوبة لم تشر إلى ذلك.(247)

ذكر البكري في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أن تجار بلاد المغرب كانوا يتجهزون إلى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبوغة بالأحمر والأزرق.(248) وأشار في مقام آخر إلى أنهم كانوا يحملون إلى كوغة التي بينها وبين غانة مسيرة خمسة عشر مرحلة الملح والودع والنحاس.(249)

247) R. Mauny; Op. Cit; p : 357.

248) البكري، م. س. ص 159.

249) نفسه، نفس الصفحة.

وذكر الإدريسي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي أن تجار بلاد المغرب يسافرون بالصوف والنحاس والخرز.(250) وأثناء حديثه عن مدينة أغمات قال أن تجار هذه المدينة كانوا «يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمازر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع».(251)

وكانت بلاد المغرب تصدر سلعا أخرى إلى بلاد السودان في القرن السادس الهجري، ويظهر ذلك من خلال ما ورد عند القزويني الذي حدد هذه السلع في «الملح وخشب الصنوبر وخشب الأرز وخرز الزجاج والأسورة والخواتيم منه والحلق النحاسية».(252) وأشار صاحب الاستبصار إلى أن التجار كانوا يتجهزون إلى بلاد السودان بالملح والودع والنحاس المسبوك والتاكوت وهو أنفق شيء عندهم للدبغ.(253) وهذا المؤلف هو أول من ذكر سلعة من المنتوجات الفلاحية ضمن صادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان، ويتعلق الأمر بمنتوج التاكوت الذي تحدثنا عنه سابقا وأشرنا إلى أنه من المنتوجات التي اختصت بها منطقتي درعة وسجلماسة، وتفيد إشارة صاحب الاستبصار في معرفة أن بلاد السودان كانت تعرف الدباغة في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي.

ولم ينفرد هذا المؤلف بالإشارة إلى تصدير المنتوجات الفلاحية الواحية إلى بلاد السودان في القرن السادس الهجري. بل ذكر الإدريسي أيضا أن

---

250) الإدريسي، م. س. ص 4.

251) نفسه، ص 42.

252) القزويني، م. س. ص 19.

253) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 222.

التمور كانت من السلع التي يتجهز بها من سجلماسة إلى بلاد الملم.(254) كما أن منتوج الحناء كان ينقل إلى جميع الآفاق حسب ما جاء عند نفس المؤلف.(255) ويحتمل أن يكون قد وصل إلى بلاد السودان أيضا.

وكانت سلع القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي تتكون من الملح والبخور والأصداف والاسورة النحاسية وكميات كبيرة من التمر.(256) وتجب الإشارة إلى أن ما وصلنا حول سلع بلاد المغرب في هذه المرحلة لا يتجاوز ما كان معروفا في السابق. وهذا ما يؤكده ثبات أنواع السلع في عملية التجارة بين الشمال والجنوب، ويعكس استمرار إقبال سكان بلاد السودان على هذا النوع من السلع دون غيرها.

وذكر أبو الفدا في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أن التجار المغاربة يحملون إلى بلاد السودان التين والملح والنحاس والودع.(257) وقال ابن بطوطة «والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغينت».(258) كما نجد أن الهدايا التي قدمها سلاطين بني مرين إلى غيرهم من ملوك عصرهم تضم المواد المصنعة من النحاس والأنسجة المطروزة.(259)

ويمكن تتبع التطور الذي عرفته السلع المغربية التي تم نقلها إلى بلاد السودان في العصر الوسيط من خلال الجدول الآتي.

254) الإدريسي، م. س. ص 5.

255) نفسه، ص 37 – 38.

256) Dj bril. T. Niane, Op. Cit. p 127.

257) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية، بدون تاريخ، جـ 1. ص 96.

258) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 779.

259) J. Brignon et autres; Op. Cit. p : 155.

سلع بلاد المغرب إلى بلاد السودان			المرحلة الزمنية	مصدر المعلومات
مواد مصنوعة	مواد خام	منتوج فلاحي		
- النحاس - ثياب مصبوغة بالأحمر ولأزرق - الودع	الملح		القرن 5هـ / 11م	البكري، ص 159
النحاس الأحمر النحاس الملون الخرز الأكسية ثياب الصوف العمائم المازر النظم الزجاجية الأصداف الأحجار الكريمة الأفاوية والعطر آلات الحديد	الصوف الملح	التمر الحناء	القرن 6هـ / 12م	الإدريسي، ص 4 وص 42
	خشب الصنوبر خشب الأرز الملح		القرن 6هـ / 12م	القزويني، ص 19

خرز الزجاج الأسورة الخواتيم الحلق النحاسية				
الودع النحاس المسبوك	الملح	التاكوت	القرن 6هـ / 12م	مجهول الاستبصار ص 222
الأصداف الأسورة النحاسية	الملح	التمر	القرن 7هـ / 13م	اعتمادا على الحفائر الاركيولوجيا Djibril. T.N. Op. cit. p. 155
النحاس الودع	الملح	التين	القرن 8هـ / 14م	أبو الفداء جـ 1 ص 96
حلي الزجاج السلع العطرية عطر القرنفل تاسرغينت	الملح	التمر	القرن 8هـ / 14م	ابن بطوطة جـ: 2/ص: 779

وتعتبر الملح أهم سلعة في التبادل التجاري بين المغاربة والسودانيين، لكن حاجة بلاد السودان إلى هذه المادة لا تفسر وحدها النجاح الذي عرفته التجارة الصحراوية بين بلاد المغرب وبلاد السودان في العصر الوسيط.

وعليـه، فإنــه لا يفهم نجاح المغـاربـة في احتكـار الأسواق السـودانيـة واختصـاصـهم بالتعـامل التجـاري معهم لمدة طـويلة إلا بنـاء على أدواتهم المصنعة التي كانـت تلقى إقبالا كبيرا في بلاد الساحل. فقـد كان لانخفاض أسعار العبيد والتبر أثره في إقدام تجار الشمال على تحمل مشاق الرحلة عبر الصحـراء الكبرى وتـوجيـه الإنتـاج الحرفي في المدن المغـربيـة تبعـا للطلب السوداني. ومـا تعدد المواد التـي تم نقلها إلى بـلاد السودان وتنـوعها بين المصنوعـات والمنتوجـات الفلاحيـة في العصر الوسيط إلا دليـلا يؤكـد هذا الاتجاه.

لكن هذا لا ينفي بطبيعة الحال الدور الـذي لعبته الملح في عملية التبادل التجاري باعتبارها أحد الركـائز الأساسية في التجارة الصحراوية. لأن بلاد السـودان كـانت تعـاني من نقـص كبير في مـادة الملح، وبعض الأسـاطير السودانيـة تؤكد أن السكـان كانوا يبيعـون أبنائهم بقطعـة ملح لا تساوي حجم أقدامهم.(260)

وممـا يؤكـد أهميـة الملح في المبادلات التجـاريـة بين المغرب والسـودان الغربي في العصر الوسيط هو تحكم المالح في الطرق التجارية وقد أوضحنا سابقـا العلاقـة التي كانت بين المالح والمسـالك التجاريـة والتحولات التي حدثت عليها بعد اكتشاف ملاحة تاتنتال التي عوضت ملاحة أوليل.

كتب ابن حوقل عن حاجة بلاد السودان إلى الملح وقال بأن حاجة ملوك السـودان كانت إلى ملـوك أودغست ماسـة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به، وربما بلغ الحمل من الملح في أواخر بلد السـودان وأقاصيـه ما بين مـائتين إلى ثلاثمائة دينـار».(261) وهو مـا يعادل كلغرام واحـد من الذهب.(262) وهذا مـا يؤكد مـا ذكره الإدريسي عن مالح أوليل حين قال بأنه لا يوجد ببلاد السودان ملاحة غيرها وأن حاجة تلك البلاد من هذه المادة يتم جلبه منها.(263)

---

260) Ould Bah Les villes de Mauritanie, collogue d'Erfoud; 1986 p 120.

261) ابن حوقل، م. س. ص 90.

262) Devisse; Routes de commerce; 1 ere Partie, Op. Cit. p 58.

263) الإدريسي، م. س. ص 2.

وبعد اكتشاف ممالح تاتنتال في وسط المجابة الكبرى تم التخلي عن السير في الطريق الساحلي المؤدي إلى ممالح أوليل. وربما كان لنوع الملح المستخرج من ممالح تغازى أثره في ذلك، لأن ابن بطوطة قال بأنه عبارة عن ألواح يحمل الجمل منها لوحين،(264) وهذا ما سهل عملية نقله، وشجع التجار على الابتعاد عن الطريق الساحلي والتخلي بالتالي عن التزود بالملح من أوليل.

ذكر البكري أن ممالح تاتنتال على يومين من المجابة الكبرى وبينها وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما، ويحفر على الملح في الأرض كما يحفر عن سائر المعادن والجواهر، وتوجد تحت قامتين أودونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تاتنتال وعليه حصن مبني بحجارة الملح وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك ملح ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر بلاد السودان»،(265) اعتبر البكري استخراج الملح على شكل ألواح بتاتنتال من غرائب تلك الصحراء. ومعنى ذلك أن الملح المستخرج من ممالح أوليل لم يكن من هذا النوع، بل من النوع الذي يترسب في الأحواض بعد تبخر المياه المستخرجة من الآبار الملحة.

وحول ألواح الملح بتغازى قال ابن بطوطة «وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منها لوحين».(266)

وقد اشتبهت على القزويني أمور في ممالح بلاد السودان ويظهر ذلك من خلال قوله «وأوليل بلدة في جنوب المغرب بقرب البحر المحيط حدثني الفقيه علي الجنحاني أنه دخلها فوجد سور المدينة من الملح. وكذلك جميع

264) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 773.
265) البكري، م. س. ص 171.
266) ابن بطوطة م. س. جـ 2. ص 773.

حيطانها وكذلك السواري والسقوف وكذلك الأبواب فإنها من صفاء ملحية مغطاة بشيء من جلد الحيوان كي لا يتسعب أطرافها، وذكر أن جميع ما حول هذه المدينة من الأراضي سبخة، وفيها معدن الملح والشب، وإذا مات بها شيء من الحيوان يلقى في الصحراء فيصير ملحا». (267)

جمع هذا المؤلف بين المعلومات التي تناقلتها كتب الجغرافيا عن ممالح أوليل وممالح تاتنتال التي هي تغازى، والوصف الذي ذكره ينطبق على الملاحتين معا. فهو يتحدث عن بلدة بالقرب من ساحل البحر المحيط، ومعنى ذلك أن المقصود بها ملاحة أوليل، ويذكر أن جدران بيوتها من حجارة الملح، وهو ما وصفت به المصادر الأخرى ملاحة تاتنتال التي تقع وسط المجابة الكبرى.

عوضت ملاحة تغازى ملاحة أوليل وجلبت إليها القوافل التي أصبحت تخترق الصحراء الكبرى في ظروف أكثر صعوبة مما كان عليه الأمر في السابق، وبعد تراجع هذه الملاحة الجديدة أصبح لمالح تاودني الواقعة إلى الجنوب منها نفس الأهمية التي كانت لسابقتها في هذا الباب. (268)

وقد أشار ابن بطوطة إلى أن تجار بلاد السودان كانوا يأتون إلى تغازى «فيحملون منها الملح، ويباع الحمل منه بايولاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا. (269) وهذا السعر الذي ذكره هذا المؤلف يعادل 47,20 غرام للحمل الواحد من الملح بولاتة و141,6 غرام بمالي. (270)

واعتبر دوفيس J. Devisse ما قاله ابن بطوطة عن ذهاب تجار بلاد السودان إلى ملاحة تغازى وتزودهم منها بالملح مؤشرا على وجود تجارة سودانية في مناطق الشمال. لأن القافلة السودانية التي شاهدها ابن بطوطة بتغازى لابد أنها حملت معها سلعا استبدلتها بالملح، وهو ما يمكن اعتباره

---

367) القزويني، م. س. ص 25 – 26.

268) R. Mauny; Op. Cit. p 359.

269) ابن بطوطة م. س. جـ 2. ص 773.

270) J. Devisse, Routes de commerce 1 ere partie; Op. Cit. p 58.

حسب رأيه دليلا على رغبة أباطرة مالي في الإفلات من قبضة محتكري تجارة الملح في القرن الرابع عشر الميلادي.(271)

د – سلع سجلماسة إلى بلاد السودان

ساهمت مدينة سجلماسة في سلع بلاد المغرب التي تم نقلها إلى بلاد السودان بحصة كبيرة. وهذا يؤكد أن هذه المدينة لم تكن خلال تاريخها مجرد خزان لسلع غيرها من المناطق، ويعزز فعاليتها في الوساطة بين مناطق الشمال والمناطق الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى. وإذا كانت مجالات سجلماسة قد ساهمت في النشاط التجاري بإنتاجها المحلي، فإن المدينة بدورها لعبت نفس الدور وساهمت بحصتها في هذا النشاط عبر مصنوعات اشتهرت بجودتها وأقبل عليها السودانيون قدر إقبالهم على سلع باقي المناطق المغربية الأخرى.

إن وجود سلع من المواد الفلاحية التي اختصت بإنتاجها منطقة سجلماسة ضمن قائمة السلع التي نقلها التجار المغاربة إلى بلاد السودان في العصر الوسيط، يدفع إلى القول بأن سجلماسة لم تقتصر على دور الوساطة فحسب، وإنما كانت منطقة فاعلة في عملية المتاجرة بما وفرته من سلع ولوازم للرحلة عبر الصحراء خاصة الجمال.

ذكر البكري أن سجلماسة كانت تعرف نشاطا كبيرا في صناعة الأنسجة الصوفية اعتمادا على أصواف منطقة يرارة.(272) وهو ما أكده القزويني في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي أيضا.(273) خصوصا وأنه توفر بسجلماسة في العصر الوسيط كل ما يساعد على ازدهار قطاع النسيج من المواد الأولية كالأصواف والنباتات المستعملة في الأصبغة. فقد أشرنا سابقا إلى أن الحمادات المحيطة بها كانت مجالا لتنقل قبائل الرحل عبر التاريخ، كما أشرنا إلى العناية التي كان يوليها المزارعون لإنتاج الحناء والنيلة بها.

---

271) Ibid, p 59.

272) البكري، م. س. ص 147.

273) القزويني، م. س. ص 42.

وذهب بعضهم إلى القول بأن المصنوعات المغربية من النسيج ظلت تستهلك في الأسواق الداخلية في مرحلة ما قبل العهد المرابطي، ثم عرفت بعد ذلك طريقها إلى الأسواق السودانية خصوصا منها المنسوجات الصوفية السجلماسية التي كانت تنقل إلى أودغست.(274) وهكذا كان لسجلماسة دورها في تزويد بلاد السودان بالمنسوجات قبل نجاح المنسوجات المصرية في السيطرة على أسواق مالي وقبل تصنيع السودانيين لمنسوجات قطنية اعتمادا على إنتاجهم المحلي من القطن.

عرفت الأصواف التي كانت تنتجها قطعان القبائل المرينية بجودتها في أوربا واشتهرت باسم Merinos. في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.(275) ويهمنا من ذلك أن سجلماسة كانت مجالا لتنقل القبائل المرينية قبل وصولها إلى إقامة دولتها في الشمال، ومعنى ذلك أنها عرفت تواجد هذا النوع من الأصواف اعتمادا على قطعان بعض العناصر المرينية التي استمرت على احتكاكها بهذه المناطق، وهذا ما من شأنه أن يدعم مهارة نساء المدينة في صناعة الأنسجة اعتمادا على هذه الأصواف الجيدة.

وإذا كانت مصادر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وكذلك مصادر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي لا تتضمن أية إشارة حول وجود صناعة المنسوجات الصوفية بسجلماسة،(276) فإن هذا لا يعتبر دليلا على عدم وجودها. خاصة وأن ارتفاع أثمان المنسوجات السجلماسية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي والقرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، كان من شأنه أن يشجع الصناع بسجلماسة على مواصلة إنتاجهم بما عرف به من اتقان وجودة.

يرجع السبب في إغفال المصادر لذكر المنسوجات الصوفية السجلماسية في هذه المرحلة إلى الجودة التي عرفها هذا الإنتاج في مناطق أخرى من الشمال الافريقي، وتراجع الإقبال على هذا المنتوج المغربي في السوق

---

274) C. Vanacker : Géographie économique; Op. Cit. p : 661.

275) Ahmed Khanboubi; Op. Cit. p 35.

276) ياقوت الحموي، م. س. ص 192.

السوداني. فقد كانت بلاد الساحل الافريقي «أكبر مستهلك للمنسوجات المغربية على اختلاف أنواعها... لأن بلاد السودان لم تكن لها تقاليد في النسيج... وهذا ما جعل للمنسوجات المستوردة من المغرب أهمية خاصة وفتح لها أسواقا ضخمة». (277)

استمرت المنسوجات المغربية تعرف إقبالا كبيرا في بلاد السودان إلى حين ظهور المنافسة المصرية في هذا الباب. ذكر أحد الباحثين أنه على الرغم من التراجع الذي عرفه قطاع النسيج بالعالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فإن بلاد مصر عرفت انطلاقة حقيقية في هذا القطاع خلال نفس الفترة، وكانت مدينة الاسكندرية في أواخر القرن الثامن الهجري تضم أربعة عشر ألف مصنع للنسيج،(278) ومهما انطوى عليه هذا الرقم من مبالغة فإنه يعكس الأهمية التي أولاها المصريون لهذا القطاع إستجابة للطلب المتزايد على منسوجاتهم ببلاد السودان الغربي بعد انفتاح امبراطورية مالي على الشرق.

وقد عرفت مالي في القرن الثامن الهجري تصنيع القطن. أشار ابن فضل العمري إلى الملابس القطنية الرقيقة والناصعة البياض التي كان يتم تصنيعها في مالي اعتمادا على القطن المحلي.(279) وأكد دوفيس J. Devisse أن المنسوجات القطنية شكلت أحد مصادر غنى سكان مالي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ولم يستبعد إمكانية وصول هذه المنسوجات إلى بلاد المغرب وموريطانيا.(280)

نجحت المنسوجات المصرية في إطار منافستها لمثيلاتها المغربية في السيطرة على الأسواق السودانية، وهذا ما جعل منسوجات سجلماسة ومعها منسوجات باقي المدن المغربية تفقد أهميتها ببلاد الساحل، وهو ما

---

277) عبد العزيز العلوي، النسيج، م. س. ص 61 – 62.

278) M. Ch. Ramadi; Réflection sur l'industrie texile dans le monde musulman au moyen âge à propos d'un livre recent, A.E.S.C, 1980 p 506.

279) Ibn Fadl Allah Alomari, Op. Cit. p 66.

280) J. Devisse, Routes de commerce, 2 eme Partie, Op. Cit. p 363.

عبر عنه أحد الباحثين بقوله أن المنسوجات المغربية دخلت في هذه الفترة في منافسة غير متكافئة مع المنسوجات المصرية في السوق السوداني.(281)

ولم تكن المنسوجات الصوفية هي السلعة الوحيدة التي وفرتها مدينة سجلماسة لتغطية حاجات السوق السوداني، بل ساهمت بمصنوعات معدنية اعتمادا على المواد الأولية المتوفرة بمجالاتها. فقد عرفت هذه المدينة تصنيع الحديد المستخرج من مناجم قرى بني صبري بوادي أيت عيسى.(282) فمن المعروف أن الصناعات التقليدية قد عرفت ازدهارا كبيرا في المدن التي شهدت استقرار العنصر اليهودي في العصر الوسيط.(283) وسجلماسة التي كانت باب المغرب على الصحراء الكبرى جلبت إليها عدد كبير من هذه العناصر منذ تاريخ تأسيسها.

وكانت المصنوعات النحاسية تلقى إقبالا كبيرا في الأسواق السودانية، يشهد على ذلك تردد ذكرها ضمن قائمة السلع التي نقلها التجار إلى بلاد السودان في الفترة الواقعة بين القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي كما هو واضح في الجدول الوارد أعلاه.

وكما هو الحال بالنسبة لصناعة الحديد في مدينة سجلماسة لم تذكر المصادر الجغرافية وجود صناعة للنحاس بهذه المدينة، رغم أن بعضها أشار إلى وجود مناجم لهذا المعدن في المناطق القريبة منها كتازرارت،(284) وتيحمامين الذي يحتمل أن يكون المقصود به منجم تازلفت بالقرب من ألنيف الحالي وتنودادن الذي ذهب روزانبرجي B. Rosenberger إلى القول بأن المقصود به منجم بومعدن(285) الموجود بالقرب من مجران في منطقة المعيدر.(286)

281) عبد العزيز العلوي، م. س. ص 64.

282) البكري، م. س. ص 148.

283) M. Fatha, Op. Cit. p 172 - 173.

284) المقدسي، م. س. ص 219.

285) البكري، م. س. ص 156.

286) B. Rosenberger, Exploitation minière, Op. Cit. p : 872.

ومازالت مناجم النحاس تعرف نشــاطا كبيرا إلى اليوم في منطقة المعيدر التي تقع إلى الجنــوب الغربي من مـدينــة سجلماسة ويحمل المنجم الأقــدم استغــلالا منهــا اليــوم اسم «بو النحــاس»، وهــو الــذي يحتمل أن تكــون سجلماسة قــد اعتمدت عليــه في توفير حاجتهــا من هذه المادة، أمــا المناجم الأخرى كمنجم مجران وبوكــرزية فلا أثر يــدل بها على استغلالها في قديم الزمان.

وإن وجود هــذه المناجم على مسافــة غير بعيدة من مدينــة سجلماسة، وقدم استغلال بعضهــا يؤكد أنها عرفت تصنيع النحــاس على نطاق واسع رغم أن المصادر لا تــذكر ذلك صراحة، وإنما تكتفي بــالإشارة إلى أن تجار المغرب بما فيهم تجار سجلماسة كانــوا يحملون النحاس المصنوع إلى بلاد السودان. وتجب الإشارة إلى أن صنــاعة النحاس كانــت تحتاج بسجلماسة كما في غيرها من المناطق إلى بعض المواد المكملة. ويتعلق الأمــر بالتوتيا التي كانت تستعمل لتحويل النحاس الأحمر إلى نحــاس أصفر. وكانت تجلب من مناجم السوس التي لا يعلم في بلاد المغرب الأقصى غيرها.(287)

كما عرفت سجلماسة صناعة الفخار على نطاق واسع أيضا. وقد أثبتت نتائج الحفائر الاركيولوجية التي أنجزت في بعض المواقع السودانية أن أكثر من 60 ٪ من الأواني الفخاريــة التي نقلت إلى مدينة أودغست مــا بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي كــانت مصنوعة بسجلماسة.(288) كما أكد R. Mauny أن فخار تــافيلالت وفــاس تم العثور عليه في ضــواحي مدينــة كَــاو Gao.(289) وهذا مــا يؤكــد دور المصنوعات الفخــارية السجلماســة في عملية التبادل التجاري بين المغرب والسودان الغربي.

هـ - سلع بلاد السودان المجلوبة إلى بلاد المغرب

كان التبادل التجاري مع بلاد السودان يدر أرباحا كثيرة على المشتغلين به وهو ما شجع التجار المغــاربة على تحمل مشاق السفر وشجع الحرفيين

---

287) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 510.

288) J. Devisse, Sijilmassa, Op. Cit. p 19.

289) R. Mauny; Découverte à Gao d'un fragment de poterie émaillée du moyen âge musulman, H.T. XXXIX; 3eme et 4 eme trim. 1959 p : 516.

في المدن المغربية على الزيادة في إنتاجهم تبعا لتزايد طلب السوق السوداني، فاستجابت الحرف المغربية لحاجات المستهلك السوداني ووفرت له الأدوات النحاسية والحديدية والخزفية ومصنوعات الزجاج والألبسة الصوفية والعطور. وظل المغاربة يسيطرون على تجارة الصحراء في المرحلة الواقعة بين القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي والقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وهي المرحلة التي استمر فيها الذوق السوداني خاضع لتوجيه الصانع المغربي قبل انفتاح بلاد السودان على مناطق أخرى وإقبال سكانها على استهلاك سلع جديدة لم يفلح المغاربة في منافستها بما ظلوا يوفرونه من سلع.

كانت بلاد السودان المصدر الرئيسي للتبر والعبيد في العصر الوسيط، وقد استفاد المغاربة في تعاملهم التجاري خير ما إستفادة من هذين العنصرين المهمين نتيجة انخفاض أسعار اقتنائهما مقارنة مع السلع المغربية التي تتم بها عملية التبادل. وقد كان للذهب أهمية خاصة في هذه العملية لأنه كان مصدر غنى تجار ودول بلاد المغرب، وكانت كميات الذهب التي تم جلبها إلى بلاد المغرب جد مهمة في كل فترات العصر الوسيط، نقل بعضها إلى البلاد الأوربية واستغل أغلبها محليا في صناعة الحلي وضرب النقود.(290)

تحدث البكري في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي عن الذهب المسبوك في بلاد السودان، وهذا ما يعطي الدليل على أن التجار كانوا لا يجلبون التبر في كل الأحوال وإنما يأتون في بعض الأحيان بالذهب المسبوك. ويفيد ذلك في معرفة أن العودة بالنسبة للقوافل التجارية قد أصبحت أكثر سرعة من الذهاب باعتبار خفة حمولة الجمال. قال البكري «والذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه». (291)

---

290) Brunschvig; La berbèrie, Op. Cit. Tom. 2 p : 267.

291) البكري، م. س. ص 159.

وأشـــار الإدريسي في القرن الســـادس الهجــري الثاني عشر الميـلادي إلى الكميات الكبيرة التي كـانت تتوفر عليها منطقـة ونقارة التابعة لملكـة غانة من الذهب وقال بأنــه كان لملكها بقصره «لبنة من ذهب وزنها 30 رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقهـا الله تعالى خلقـة تامـة من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلـة، وقد نقر فيها ثقب وهي مربطـة لفرس الملك، وهي من الأشياء الغريبة التي ليست عند غيره». (292)

كانت سلـع بلاد السودان التي كـانت تجلب إلى بلاد المغـرب تتشكل في أغلبها من الذهب والعبيد، غير أن هناك بعض السلـع الأخرى التي كانت لها أهميتهـا في المبـادلات وكان التجـار يقبلـون عليهـا لتزايـد الطلب عليهـا في الأسواق المغربية. فقد تحدث البكـري عن العنبر الجيد الذي يجلب من بلاد السودان إلى المغرب، (293) وذكـر الإدريسي أن التجار يجلبـون التبر والخدم من عبيـد للم». (294) وانفــرد صاحب الاستبصـــار بــذكر أن التجـار كانـوا يجلبون الأسواط التي تسمى بالسراقيـات والتي تحمل بالأندلس اسم ذنب الفأر. (295) وأشار ابن سعيـد الغرناطي إلى أنهم كانـوا يجلبون التبر وأنياب الفيل والمسك. (296)

وكانت سلـع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تتكون من الجلد والعاج والجوز والتبر، (297) إضـافة إلى الشب وريش النعام. (298)

ومثل العبيد العنصر الثـاني الأكثر أهمية في التجارة الصحـراوية، وأول من تحدث عن عبيد السودان بنوع من التفصيل هــو البكري الذي قال بأن سكان أودغست من البربـر والعرب يملكـون أعدادا كبيرة من الســودانيات

292) الإدريسي، م. س. ص 7.

293) البكري، م. س. ص 159.

294) الإدريسي، م. س. ص

295) مجهول، الاستبصار، م. س. ص 214.

296) ابن سعيد الغرناطي، من خلال Fagnan, Op. Cit p 19.

297) ابن الخطيب، الإحاطة م. س. جـ 2 / ص 192.

298) L'Abré Bargés, Relation de Tlemsen, Op. Cit. p : 339.

لطباخات المحسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر.(299) أي ما يعادل 425 غرام من الذهب الخالص.

وتحدث الإدريسي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي عن عبيد لملم وقال «وفي الجنوب من بربسى أرض لملم وبينهما نحو عشرة أيام وأهل بريسى وسلى وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلة إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار»،(300) وعبيد لملم حسب رأي نفس المؤلف هم سكان المناطق المجاورة لنهر النيجر «وهم يتناكحون بغير صدقات ولاحق وهم أكثر الناس نسلا... وأهل تلك البلاد المجاورة لهم يسبونهم في كل الأحايين بضروب من الحيل... ويخرج منهم في كل عام إلى المغرب الأقصى أعدادا كثيرة».(301)

إن عبيد لملم الذين تحدث عنهم الإدريسي هم جنس العبيد الذين تحدثت عنهم المصادر في القرنين السابع والثامن الهجريين. ذكر ابن سعيد أن عبيد لملم يعرف جنسهم بالرقيق ببلاد المغرب،(302) وقال ابن خلدون في نفس الموضوع «وفي جنوبي هذا النيل – يعني نهر النيجر – قوم من السود يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصدافهم، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران».(303)

ويظهر أن هذه القبائل من سكان بلاد السودان كانت مغلوبة على أمرها رغم وفرة أعدادها، ولذلك اختصت بالسبي والبيع من طرف الآخرين طيلة قرون عديدة، مادام اسم الرقيق ببلاد المغرب قد ارتبط باسمها ما بين القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي والثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

---

299) البكري، م. س. ص 158.

300) الإدريسي، م. س. ص 7.

301) نفسه، نفس الصفحة.

302) ابن سعيد المغربي، م. س. ص 92.

303) ابن خلدون، المقدمة م. س. ص 69 – 70.

كانت مصـادر العبيد متعددة ببـلاد السـودان، وشكلت المناطق الـواقعة جنوب النيجـر خزانـا مهما لها في العصر الوسيـط بما فيها غينيـا وموسي Mossi وكورونسي Courounsi ومناطق شمال الطوغو Togo والداهومي Dahomey ونجريا الوسطى ومندرا Mandara وسارة Sara.(304)

ويمكن تتبع تطور سلع بلاد السودان التي تم نقلهـا إلى بلاد المغرب ما بين القرن الخامس الهجـري الحادي عشر الميلادي والقرن الثـامن الهجري الرابع عشر الميلادي من خلال الجدول الآتي

سلع بلاد السودان	المرحلة الزمنية	مصدر المعلومات
العنبر الذهب الابريز الخالص	القرن 5هـ / 11م	البكري ص 159
التبر الخدم من لملم	القرن 6هـ / 12م	الإدريسي ص 5-7
الذهب الشب	القرن 6هـ / 12م	القزويني ص 25-26
الذهب الأسواط التي تسمى بالسراقيات	القرن 6هـ / 12م	مجهول الاستبصار ص 114
التبر عبيد لملم	القرن 7هـ / 13م	ابن سعيد المغربي ص 92
الجلد العاج الجوز التبر	القرن 8هـ / 14م	ابن الخطيب الإحاطة جـ 2 ص 192
التبر	القرن 8هـ / 14م	ابن بطوطـة جـ 2 ص 773
عبيد لملم	القرن 8هـ / 14م	ابن خلدون، المقدمة ص 69 - 70
الذهب العبيد	القرن 8هـ / 14م	Ibn Fadl Allah Alomari, Op. Cit. p 202

304) R. Mauny, Tableau géographique, Op. Cit. p : 339.

و - التبادل التجاري بين المغرب وأوربا

لم يؤثـر الصراع الذي دار بين المسلمين والمسيحيين في العصر الـوسيط على الرواج التجاري بالحوض الغـربي للبحر الأبيض المتوسط.(305) ولعبت دول بلاد المغـرب على اختلاف مراحلهـا التاريخيـة دورا مهما في ربط بلاد السودان بـالبلاد الأوربية مـا بين القرن التاسع الميـلادي والقرن الخامس عشر الميلادي.(306)

سبقت الإشـارة إلى أن الحفصيين ربطـوا علاقـات تجاريـة واسعـة مع بعض القوى التجارية الأوربية منـذ السنوات الأولى من استقلالهم بالمغرب الأدنى. وقد تـوطدت علاقات المدن الإيطـالية مع الموانىء المتوسطيـة لبلاد المغـرب منـذ القـرن السـادس الهجـري الثـاني عشر الميـلادي أي في فترة السيـادة الموحديـة على بلاد المغـرب. لكن العهـد الحفصي هو الـذي أعطى للتعامل التجاري الأوربي المغاربي انطلاقته الحقيقية على رأي بعضـهم.(307) ويتجلى ذلك في المعاهـدات التي أبرمهـا أبو زكريـاء الحفصي مع تجار جنوة والبنـدقية، والتي أصبحـت ملاحـة السفن الأوربيـة بموجبهـا محميـة من التعرض للنهب.

يعكس النشاط التجاري الذي مارسه الحفصيون مع تجار جنوة وبيزة والبندقية وفلورنسا القوة التي تمتع بها النفوذ الحفصي في مرحلة حكم أبي زكريـاء. فقد أشرنـا أعلاه إلى أن هـذا الأخير تلقى بيعة عـدد كبير من مدن الأنـدلس والمغـرب الأقصى في النصف الأول من القـرن السـابع الهجـري الثـالث عشر الميلادي. ولا يستبعـد أن يكون لهذا النجـاح السياسي أثـره في اندفـاع تجار المدن الإيطاليـة نحو السـواحل التونسية، بهدف التعـامل مع سلطانها الجديد الـذي ظهر بمظهر الوريث الحقيقي للسلطـة الموحدية قبل سيطرة المرينيين على المغرب الأقصى والزيانيين على المغرب الأوسط.

وكان لاستقـلال بني مرين بالمغـرب الأقصى واندفاعهم نحـو الأندلس لمساعدة النصريين بها أثره في ظهـورهم كقوة لها وزنها في الحوض الغربي

305) Ahmed Khneboubi, Op. Cit. p 62.
306) M. Lambard, Op. Cit. p 150.
307) Mas Latrie, Op. Cit. p. 83 - 84.

للبحر الأبيض المتـوسط. وقد تزامن نجاح المرينيين في السيطـرة على المغرب الأقصى مع الجهود الكطلانية الراميـة إلى خلق امبراطورية تجارية في غرب البحر الأبيض المتوسط، فكـانت النتيجة أن أبرمت مملكة أراغـون مجموعة من المعاهدات التجارية مع المرينيين كمعاهدتي سنة 1271 و1274م.(308)

كـان لذهب الســودان الغربي أهميــة خـاصة في تطـور النظام النقـدي الأوربي في العصر الــوسيط. ذهب M. Malowist إلى القـول بأنه لـولا ذهب السودان القـادم من بلاد المغرب لكـان من العسير حدوث التغيرات الكبيرة التي لحقت ميادين عديدة في أوربا القرن الثالث عشر الميلادي. ذلك أن كمية الذهب التي وصلت أوربا عن طريق التعويضــات التي كان يقدمها سلاطين بلدان شمال افـريقيا إلى المرتزقـة النصارى في القرنين الثـاني عشر والثالث عشر، كـانت ذات أهميـة كبيرة وســاهمت في تـراكم كميـة لا بأس بها من الـذهب في جنوب أوربـا، ثم أصبح لجنـوة بعد ذلك الفضل الكبير في هـذه العملية في القـرنين الرابع عشر والخامس عشر.(309) كما ساهـم في ذلـك ما كان التجـار الأوربيون يأخذونه من الـذهب مقابل ما يبيعـونه من سلع في موانيء الشمال الإفـريقي مع العلم بأنهم كـانوا يكتفون في بعـض الأحيان باستبـدال سلعهم بسلع بلاد المغرب التي كان المستهلك الأوربي في حـاجة إليها. وقد عـرفت بعض السلع الأوربية طريقها إلى بلاد الســودان بواسطة التجار المغـاربة خـاصة المنســوجات الصــوفية والقطنيـة والتوابل والأواني النحاسية والأصداف.(310)

كما أشـار Mas Latrie إلى مجمـوعة أخـرى من السلع التي تم نقلهـا من أوربا إلى المغرب بعضهـا كان مخصصا للاستهلاك بـالمغرب وبعضها نقل كبضاعة إلى بلاد السودان. وهذه السلع هـي النحاس الذي كان يصل على شكل قضبـان أو صفــائح، والحديـد، والأسلحـة، كــالخوادت والأقـواس والسيـوف، التي كانت تـأتي في أغلبها من لمبرديـا Lambardie وألمانيا والحلي

308) Mas Latrie, Op. Cit. p 76.

309) M. Malowist; Quelque observation sur le commerce de l'or dans le Soudan Occidental au moyen âge. A.E.S.C. 1970, p : 1639.

310) Jacques Heers; Le Sahara et le commerce, A.I.E.O., Alger, 1958 p 248.

والأحجار الكريمة التي كانت تأتي من البندقية، والكتان والأنسجة الصوفية والقطنية التي كانت تـأتي من منطقة لانكـ دوك Languedoc في جنوب فرنسا ثم الورق وعظام الحيوانات.(311)

وإلى جانب هذه السلع التي كان التجار الأوربيون يحملونها إلى الموانىء المغربية عرفت بعض هذه الموانىء بيع الخمور. فقد أشار Mas Latrie إلى أن الخمر المصنوع بفرنسا وإسبانيا واليونان كان يباع بالجملة والتقسيط في كل ممالك بلاد المغرب. وأغلب هذه الخمور كانت موجهة للمسيحيين، لكن يظهر أن قسما منها كان يباع للمسلمين، لأن القانون التجاري لمدينة مرسيليا المؤرخ في عام 1228م يتضمن إشارات تفيد في أن أماكن بيع الخمر كانت نوعان منها ما هو مخصص لبيعها للمسيحيين ومنها ما هو مخصص لبيعها للمسلمين.(312)

وتعددت السلع التي نقلها التجار الأوربيون من بلاد المغرب إلى أوربا، وكان الشمع على رأس قائمة هذه المواد، كما تشير الوثائق الأوربية إلى الزبيب الذي كان يجلب من المغرب الأقصى، وكذلك الشأن بالنسبة للتمر، فضلا عن المنسوجات الصوفية المغربية التي وصلت أوربا بكميات قليلة مقارنة مع المواد الأخرى المذكورة أعلاه.(313)

وشكل الشب الذي كان يجلب إلى المغرب من بلاد السودان أحد المواد الرئيسية في واردات أوربا من بلاد المغرب في العصر الوسيط. واشتهرت هذه المادة في بعض البلاد الأوربية في القرن الثالث عشر الميلادي باسم الشب الأبيض السجلماسي كما هو الحال في منطقة فلاندر Flandre.(314) رغم أن هذه المادة كانت تجلب من المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى خاصة منطقة كوار.

كما تم تصدير الخيول المغربية التي تعرف باسم البارب إلى البلاد الأوربية، رغم أن ذلك اقتصر على بعض الفترات التاريخية فقط، وصدر

311) J. Heers, Op. Cit. p 252.
312) Mas Latrie, Op. Cit. p 210 - 211.
313) Ibid, p 217.
314) CH. E. Dufourcq, L'Espagne, Op. Cit. p : 216.

كذلك الحوت المجفف المملح. كما كان للجلود المغـربية شهرة كبيرة في أوربا في القرن الثـاني عشر الميلادي، خاصــة جلود البقر والمعـز والغنم والخيول والجمال التي كانت تأتي من مملكة فاس وكذلك الأصواف.(315)

ويمكن تلخيص سلع المبادلات بين المغـرب وأوربا في العصر الوسيط في الجدول الآتي

سلع أوربا	سلع بلاد المغرب
المنسوجات الصوفية التوابل الأغطية الصوفية الانجليزية الأواني النحاسية الأصداف النحاس المسبوك قضبان أو صفائح الحديد الأسلحة الخودات، الأقواس، السيوف الورق عظام الحيوانات الخمر	الشمع الزبيب التمر المنسوجات الصوفية الشب الأبيض السجلماسي الحوت المملح جلود البقر، المعز، الغنم، الجمال الأصواف

315) Mas Latrie, Op. Cit. p : 216.

تراجع سجلماسة وإقليمها : محاولة في التفسير

أ - مراحل التطور الاقتصادي لمدينة سجلماسة

لم يكن الازدهار الذي عرفته مدينة سجلماسة قائما على ذهب السودان وحده، بل ارتبط بالمؤهلات الفلاحية المتوفرة بمجالاتها. فسجلماسة كانت تحتل موقعا متميزا وسط سهل خصب ومحاطة بحمادات شاسعة تنقلت فيها قبائل الرحل من زناتة وصنهاجة وعرب المعقل. واعتمدت على مياه نهر زيز في زراعتها، وانتعش اقتصادها بفعل المردودية العالية من المنتوجات الزراعية التي فاق حجمها الاستهلاك المحلي وصدر الفائض منها إلى أودغست كما هو الحال بالنسبة للحبوب.

وقد وجدت بعض المنتوجات الزراعية في الظروف الطبيعية والمناخية لإقليم سجلماسة وسطا ملائما لنموها. واختصت هذه المنطقة بإنتاج بعض النباتات المساعدة على قيام صناعات مختلفة، نذكر منها صناعة المنسوجات الصوفية التي كانت تستعمل نبات الحناء والنيلة في الصباغة، وصناعة الدباغة التي اعتمدت على إنتاج شجرة الأثل المعروف باسم التَّاكَّوْتْ.

كما عرفت غراسة النخيل ازدهارا كبيرا منذ تاريخ تأسيس مدينة سجلماسة على يد مكناسة، وأولى عيسى بن يزيد الأسود عناية كبيرة لهذه الشجرة إدراكا منه لأهميتها في حياة السكان. وعرفت تمور سجلماسة بجودتها في المرحلة الواقعة بين القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، والقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وشكلت أحد مصادر الغنى بالنسبة للمزارعين بما كانت تدره من أرباح عليهم.

شكلت هذه المنتوجات الفلاحيـة مادة رئيسية في عملية التبادل التجاري بـالأسواق الـداخلية والخارجيـة نتيجة مـا عرفت بـه من جودة من جهـة، واقتصار إنتـاجها على منطقتي سجلماســة ودرعة وبعض منـاطق الجنوب المغربي دون غيرها من منـاطق الشمال من جهة ثانية. وكـان لهذه العوامل أثرها في الـدفع بالفلاحين إلى الرفع من إنتاج هذه المواد، تبعـا لتزايد الطلب عليها.

وتؤكد العملات السجلماسية التي تم العثور عليها أن الاستفادة الكبيرة لمدينـة سجلماســة من ذهب السودان تعـود إلى النصف الثـاني من القـرن الثالث الهجري التاســع الميلادي وأغلبها كما هو واضح في الجدول الخاص بالعملة.(1) ويمكن القول أن سجلماسة قد توصلت خلال هذه الفترة بالذات إلى تنظيم علاقتهـا مع بلاد السودان بشكـل مكثف وتمكنت من جلب كمية كبيرة من الذهب بفعل ذلك بـدليل أن الحملة الفاطمية التي استـولت عليها سنة 297هـ / 910م مكنت عبد الله الشيعـي من الحصول على غنائم كثيرة لخصها صاحب الاستبصار في قوله «وقيل تحصل له من التبر ومن الحلي وقر 120 جملا أدخلها رقادة وبـايع بها لعبيد الله وأقـامه وأدخله القيروان وبنى المهدية».(2)

لكن كان لابد مـن انتظار القرن الرابع الهجري العـاشر الميلادي لتصبح معلوماتنـا حول النشاط التجاري لمدينة سجلماسة متـوفرة وواضحة بفعل ما كتبه ابن حوقل الذي زار هذه المدينة وخلف لنا وصفا حيا يؤكد الأهمية التي كـانت لها في التجـارة الصحـراويـة. إنـه خلال هـذه الفترة بـالـذات استطـاعت سجلماسة أن تجلب إليهـا الطرق التجـاريـة، فأثرت بـذلك على نشاط الطـريق التجاري الواقـع إلى الشرق منها والرابط بين بـلاد السودان والمغربين الأوسط والأدنى عبر واركَـلان. فكانت القوافل التجارية تجتاز كل بـلاد المغـرب في طريقهـا إلى سجلماســة، التي سكنهـا أهل العـراق وتجار البصرة والكـوفة والبغـداديون «فهم وأولادهـم وتجاراتهم دائرة ومفـردتهم

1) انظر الجدول ضمن الملاحق.

2) مجهول، الاستبصار. م. س. ص 204.

دائمة وقوافلهم غير منقطعة.... إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابقة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال».(3)

يعطي ما ذكره ابن حوقل فكرة واضحة عما عرفته ساكنة سجلماسة من تنوع. وقد كان لاحتكاك أهلها بالقادمين عليهم من مختلف الآفاق دور كبير في تحول اهتمام بعضهم من ممارسة النشاط الفلاحي إلى التجارة، كما شجع على الزيادة في الإنتاج الزراعي الموجه إلى الأسواق الخارجية كالتمور والحبوب والحناء والتَّاكَّوْتْ.

أشار ابن حوقل إلى صك تجارة كان بين أحد تجار سجلماسة وأحد تجار مدينة أودغست، والصك يعكس مستوى التطور الذي عرفه قطاع التجارة بهذه المدينة في القرن 4هـ / 10م قال «ولقد رأيت صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغست وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار».(4) وصاحب هذا الدين هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله المعروف بفرغ شغله الذي كان من أكبر تجار سجلماسة في تلك الفترة.

عرف الطريق الغربي انتعاشا تجاريا مهما في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وهذا ما يفسر ما ذكره ابن حوقل عن سجلماسة التي أصبحت ابتداء من هذا التاريخ أهم محطة تجارية على طريق المغرب الأقصى السودان الغربي. واستمرت هذه المدينة في لعب أدوار طلائعية في عملية التجارة الصحراوية خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، لكنها لم تعد المركز الوحيد في هذا المجال، بعد أن نجحت صنهاجة في إقامة دولتها بالمغرب الأقصى وأسست مدينة مراكش. فأثر ذلك على أولوية سجلماسة وقلل نسبيا حظوظها في احتكار المبادلات التجارية مع بلاد السودان لمدة وجيزة.

شجع المرابطون التجارة الصحراوية فأصبح أغلبها يميل نحو المغرب الأقصى الذي استفاد أكثر من أي وقت مضى من هذا النشاط. واستمرت مدينة سجلماسة تلعب دورا حيويا في التجارة خلال هذه الفترة إلى جانب

---

3) ابن حوقل، م. س. ص 65.

4) نفسه. نفس الصفحة.

مـدينة أغمات التي أصبحت هي الأخـرى قبلة التجـار ومنطلق رحلتهم إلى أودغست. أشار البكري إلى أن سجلماسة كـانت تعرف ازدهارا كبيرا نتيجة إنتـاجها الـوافـر من الحبوب والتمـور، وأكـد على أهمية ذهب السـودان في اقتصاد هذه المدينة حين قال «ومن الغـرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن».(5) إن حديث البكـري ينطبق على المرحلة التي شهد فيهـا الطريق الساحلي نوعا من التراجع لصالح الطريق الواقع إلى الشرق منه الذي يخترق المجابة الكبرى بهدف المرور بممالح تاتنتال.

ومعـــروف أن المرابطيـن الـذين بـذلـوا جهـودا كبيرة في تمهيد طـرق التجـارة وتوجيههـا نحو المغـرب الأقصـى قـاموا بمثل ذلك المجهود لتكون عـاصمتهم مراكش خير مستفيـد من أربـاح هـذه التجارة. فأصبحت هـذه المدينـة والمراكـز الحضريـــة القريبـــة منهـا قبلة القـوافل الصادرة والواردة على الطـرق الـرابطـة بين المغـرب وبـلاد السـودان. وإذا كـانت أوصـاف الجغرافيين العـرب لا تعطي أدنى إشارة عـن التراجع النسبي الذي عـرفته مدينـة سجلماسة على صعيـد النشاط التجـاري في هذه الفترة، فإن تحول مركز القرار السياسي بـالمغرب الأقصى إلى مراكش في العهد المرابطي يوحي بـذلك، مـا دامت سجلماســة لم تعـد المنفذ الضروري للـوصـول إلى بـلاد السودان، بل شاركتـها في ذلك واحـات درعـة والسوس خاصـة مـديـنـتي ايجلي وتامدلـت.

أصبحت مـدينـة أغمات في المرحلـة المرابطية أهم المدن المتـاجـرة ببـلاد المغـرب قال الإدريسي «مـدينـة أغمات وأهلهـا هوارة مـن قبائل البربـر المتبربرين بـالمجاورة وهم أملياء تجار ميـاسير يدخلون إلى بـلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثيـاب الصوف والعمائم والمازر وصنـوف النظم من الـزجاج والأصـداف والأحجار وضروب من الأفـاوية والعطـر وآلات الحديد المصنـوع وما منهم رجل يسفـر عبيـده ورجـالـــه إلا ولـه في قـوافلهم المائة جمل والسبعـون

5) البكري م. س. ص 151.

والثمانون جملا كلها موقرة، ولم يكن في دولة الملثمين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا». (6)

يعكس هذا النص التحول الذي طرأ على الخطوط التجارية في المرحلة المرابطية والأهمية التي أصبحت لمدينة أغمات في التجارة الصحراوية. وحتى تتضح لنا صورة ما عرفته سجلماسة من تراجع في هذه الفترة مقارنة مع مدينة أغمات نورد ما ذكره عنها نفس المؤلف قال «وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد الوارد والصادر». (7) ومعنى هذا أنها كانت مجرد منطقة عبور ولم تكن فاعلة في العملية التجارية مع بلاد السودان بنفس فاعلية مدينة أغمات، لكن هذا لا يعني أن سجلماسة تخلت عن دورها التجاري بصفة نهائية بقدرما يترجم وضعية الفتور المرحلي التي شهدتها بفعل تحول مركز القرار عنها وتبعيتها لمراكش عاصمة المرابطين.

استعادت مدينة سجلماسة مكانتها المتميزة في التجارة الصحراوية في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ويرجع السبب في ذلك إلى تراجع دور أغمات واختفائها على يد المصامدة. أورد الإدريسي إشارة في غاية الأهمية حول هذا الموضوع حين اختتم وصفه لمدينة أغمات بقوله «وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب فقد أتى على أكثر أموالهم – يعني تجار هوارة – المصامدة وغيرت ما كان بأيديهم من نعم الله». (8)

وإذا كان قضاء المصامدة على المرابطين قد أبقى على مركز القرار السياسي في مراكش، واستمرت القوافل التجارية نتيجة ذلك على توجهها نحو العاصمة كما هو الحال بالنسبة للمراحل السابقة، فإن الجديد الذي رافق فترة حكم الموحدين بالنسبة لأوضاع سجلماسة هو العناية التي خصها بها الخلفاء من بني عبد المومن في إطار عنايتهم بالتجارة الصحراوية.

---

6) الإدريسي، م. س. ص 42.

7) نفسه. ص 37.

8) نفسه. ص 43.

ويظهر أنه كان للتحول الذي طرأ على الطرق التجارية الصحراوية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي دوره في استرجاع سجلماسة لحيوتها التجارية بعد تراجع دور أغمات. فمن المعروف أن اكتشاف ممالح تاتنتال وجه الطرق التجارية الصحراوية نحو سجلماسة وفرض على القوافل المرور بها والتخلي عن المرور بمدن السوس التي تقع على الطريق الساحلي. وقد كان لقرب سجلماسة من هذه الممالح أثره في هذه العملية، لأن المسافة بينهما لا تتعدى عشرين يوما.

اقتصرت مراكش الموحدية على الاستفادة من أرباح وموارد التجارة الصحراوية، ولم يكن من مصلحة الموحدين - على ما يظهر - التدخل لتوجيه خطوط التجارة نحو مراكز قريبة من العاصمة مادامت مدينة سجلماسة مرتبطة بها عبر طريق درعة الأوسط، فاكتفوا بإسناد أمر تسيير سجلماسة لأمراء من البيت الحاكم حتى يضمنوا مراقبة مباشرة لها. وهكذا استفادت هذه المدينة من تراجع دور أغمات ونظمت علاقتها التجارية مع بلاد السودان عبر ممالح تاتنتال.

استمر طريق سجلماسة عانة عبر تاتنتال - التي هي تغازى - على حيويته في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ولم يعرف تراجعا في المراحل اللاحقة لهذا التاريخ حيث استمرت سجلماسة تلعب دورا نشيطا في التجارة الصحراوية. كما ترددت قوافلها على مملكة مالي في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي والنصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

وعرفت مدينة سجلماسة بداية تراجعها الاقتصادي مع منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وتظافرت عوامل كثيرة لتزكية هذا التراجع منها ما ارتبط بتحول المحاور التجارية الصحراوية وانحرافها نحو الشرق، ومنها ما ارتبط بعوامل محلية يأتي على رأسها ظروف انعدام الأمن وتحكم القوى المحلية في مجالاتها الذي نجد في التطورات السياسية التي عرفتها المنطقة صورة واضحة له، وهذا ما جعل القوافل التجارية تبحث عن مناطق آمنة تمكنها من ممارسة نشاطها التجاري بعيدا عن النهب. وكانت

النتيجة تراجع دور سجلماسة تدريجيا إلى حين اختفائها من الخريطة الحضرية للمغرب الأقصى في تاريخ غير معروف بنوع من الدقة.

تميز القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي عامة بظهور أزمات مختلفة في مجالات متعددة بالمغرب المريني. ولم يستطع سلاطين بني مرين الذين تعاقبوا على حكم البلاد تحقيق سيطرة فعلية تمكنهم من تجاوز المشاكل التي سببتها مستجدات المرحلة. فمنذ بداية هذا القرن فشل أبو سعيد عثمان في تحقيق نجاح سياسي كامل بالمغرب الأقصى، واستقل ابنه أبو علي عمر بالمناطق الجنوبية وجعل من سجلماسة عاصمة لمملكة مرينية بالجنوب سبقت الإشارة إليها أعلاه.

ويعتبر أبو الحسن المريني أعظم السلاطين المرينيين وأوسعهم شهرة ويرجع السبب في هذه الصورة التي تقدمها المصادر المرينية عن هذا السلطان إلى النجاح الذي استطاع تحقيقه على المستوى السياسي ببلاد المغرب، والعلاقات الواسعة التي ربطته بملوك عصره من المماليك بمصر وأباطرة مالي بالسودان الغربي. لكن إذا ألقينا نظرة على إنجازات المخزن المريني في عهده سنجد أن الجيوش المرينية منيت بهزيمة بحرية في معركة طريفة، وفشلت في تحقيق سيادة فعلية على بلاد المغرب رغم سيطرتها على تونس. وبذلك تكون بوادر انهيار النفوذ المريني قد ظهرت في مرحلة ما تسميه المصادر بمرحلة الازدهار التي يعتبر عهد أبي الحسن نموذجا لها.

ولم ينجح أبو عنان فارس في تحقيق ما فشل فيه سابقه بخصوص توحيد بلاد المغرب، لأن إمكانيات المخزن المريني لم تكن قادرة على الاستجابة لمتطلبات هذا العمل العسكري الضخم. وهذا ما يعكس بوضوح ضعف المخزن المريني وتراجع قوته في النصف الأول من القرن الثامن الهجري كما في النصف الثاني منه، بعد أن أصبحت أمور التسيير في يد الوزراء الذين استبدوا على السلاطين وموهوا بهم على منافسيهم حتى يضمنوا لأنفسهم مشروعية مباشرة النفوذ.

لم تكن الأزمة السياسية التي عرفها المخزن المريني سوى وجها معبرا عن أزمات مماثلة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. فقد تعرضت

البلاد للطاعون الأسود الذي أدى بدون شك إلى ضعف ساكنة المغرب رغم عدم معرفتنا لحجم الخسارة التي خلفها، في وقت كان فيه أبو الحسن المريني يوجه جموعه نحو إفريقية بهدف السيطرة على بلاد المغرب. وربما كان لتراجع موارد التجارة دوره في توجيه اهتمام هذا السلطان نحو المغرب الأدنى، مادامت الطرق التجارية قد بدأت في الانحراف نحو الشرق في هذه الفترة.

أجمعت الدراسات الحديثة على أن المغرب عرف أزمة اقتصادية في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وأن هذه الأزمة عرفت استفحالا في النصف الثاني منه على وجه الخصوص.(9) ويرجع السبب في ذلك بالدرجة الأولى إلى ضعف موارد التجارة وتعرض القوافل للنهب من قبل الأعراب.

سببت ثورات القبائل مشاكل عديدة للمرينيين في مرحلة حكمهم، وخير نموذج لذلك نجده في علاقتهم مع المعقل الذين كانوا يمثلون في هذه الفترة قوة عصبية لها وزنها بالمغرب الأقصى. وقد أشرنا سابقا إلى أن علاقة هذه القبائل بالمخزن المريني عرفت مرحلتين متميزتين مرحلة القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي حين كانت العلاقة بين الطرفين علاقة عدائية، تشهد على ذلك الحروب التي خاضها يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف ضد أولاده حسين بدرعة والمنبات بسجلماسة وذوي حسان بالسوس. ومرحلة القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وفيها تنبه المرينيون إلى خطورة هذه العناصر وعملوا على التقرب منها واستخدموها في الجيش والإدارة.

غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن عرب المعقل تسببوا في خلق مشاكل كثيرة للمخزن المريني في القرن الثامن الهجري رغم تقرب السلاطين منهم، وكان لتلك المشاكل أثر كبير في ضعف نفوذ السلطة المركزية بفاس. فمنذ بداية هذا القرن استغل أبو علي عمر علاقة الود التي كانت تجمع المرينيين

---

9) M. Fatha, Op. Cit. p : 157, et J. Brignon et autres, Op. Cit. p 169 et Z. D. Issifou, Les XIV eme et XV eme siècle dans les relations entre l'Afrique et la méditérranée collogue d'Erfoud 1986 p : 133.
وعبد القادر جعلول، مقدمات في تاريخ المغرب الوسيط، بيروت 1982 الصفحة : 82 – 83.

بهؤلاء الاعراب، وكـون منهم جيشا استطـاع بواسطتـه التوسع في المنـاطق الجنوبية، وحـارب به سلاطين فاس في معارك سبقت الإشـارة إليها. وكان لسياســة إلغاء الضرائب على أهل البـوادي التي نهجها أبـو الحسن المريني أثرها في تهدئة أوضاع بلاد المغـرب في فترة حكمه. غير أن مرحلة حكم ابنه أبي عنان فارس شهـدت على العكس من ذلك اضطرابات سياسيـة بمناطق الجنوب نتيجة خروج عرب المعقل عن طاعته في سجلماسة ودرعة.

استفحلت أزمة الحكم المريني بعد موت أبي عنـان فارس نتيجة عاملين أسـاسيين أولهما انقسام النفـوذ المريني بين ثلاث قـوى سياسيـة هي مملكة فاس بزعامة الوزير حسن بن عمر ومملكة مراكش بزعامة عامر بن محمد الهنتاتي ومملكة سجلماسة تحت زعامة أبناء أبي علي عمر. وثانيهما تحكم عـرب المعقل في مجالات استقـرارهم واعتراضـهم للقـوافل التجـاريـة ونهبهم لها وفرضـهم للإتاوات عليها.

ضغطت جموع المعقل على مناطق الواحات بكامل ثقلها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الـرابع عشر الميلادي. وأصبحت هذه المناطق التي لعبت دور الـوسيط التجاري بين شمال المغـرب وبلاد الســودان في العصر الـوسيط تحت رحمة هذه القبـائل القويـة. فكانت النتيجـة أن فقد المخــزن المريني مراقبته على هذا المجال الحيوي، وتراجعت عائداته من موارد التجارة حتى عجزت خزائنه عن الاستجابة لكل النفقات الضرورية لأمور التسيير.

وتضررت سجلماســة ومجالها تضررا كبيرا بسبب سيطرة عـرب المعقل على الطرق التجارية وتدخلهم المباشر في الشــؤون السياسية للمدينة. أشار القلقشندي إلى أنــه على جميع بساتينهـا حائط يمنع غـارة العرب مســاحته أربعون ميلا،(10) وهذا يعني أن هذه المناطق كـانت معرضـة لغارات الاعراب وهجوماتهم على الدوام.

وبعـد القلقشنـدي بحـوالي قـرنين من الـزمن قـال الـوزان أن قصـور سجلماسة كان بعضـها حرا والبعض الآخر كان خاضعا للاعراب.(11) وعليه،

10) القلقشندي، م. س. جـ 5. ص 164.

11) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 126.

فإن الأوضاع السياسية والاجتماعية لم تتغير بمناطق سجلماسة في الفترة الفاصلة بين المرحلة التي عاش فيها القلقشندي والمرحلة التي عاش فيها الوزان. لأن ما عرفته من استمرارية في ظروف انعدام الأمن انعكس سلبيا على مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية بها.

هذا ما دفع بعضهم إلى القول بأن استقرار عرب المعقل بهذه المناطق وتمتعهم بشبه استقلال عن السلطة المركزية المرينية استنادا إلى قوة عصبيتهم، هو المسؤول عن التراجع الذي لحق النشاط الاقتصادي بمدينة سجلماسة وهو المسؤول أيضا عما رافقه من هدم وتخريب لها.(12)

أصبح الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة ومالي مهددا بفعل اعتراض القبائل القوية للقوافل المارة عبر مجالاتها. أشار ابن بطوطة إلى أن سكان بلاد الهكَار كانوا يغيرون على القوافل التجارية. وأن قافلته سلمت من النهب لأنها مرت بتلك المناطق في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيه على القوافل.(13) كما أكد هذا الرحالة أن التجار كانوا يؤدون واجبات المرور لبعض القبائل الصحراوية في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حين قال «وبردامة قبيلة من البربر لا تسير القوافل إلا في خفارتهم»،(14) وقد كانت هذه القبيلة تتحكم في المناطق الجنوبية للصحراء الكبرى على مشارف بلاد السودان.

تنبه ابن خلدون إلى الأثر السلبي الذي خلفه تحكم قبائل المعقل في مناطق استقرارها والضرر الذي سببه للتبادل التجاري بين المغرب وبلاد السودان. ويظهر ذلك من خلال ما كتبه عن مناطق السوس التي كانت معبر المسافرين إلى بلاد السودان، ثم أهملت لما صارت الأعراب بادية السوس يغيرون على سافلتها ويعترضون رفاقها، فتخلى التجار عن المرور بتلك الجهات، ونهجوا الطريق إلى بلاد السودان من أعلى تمنطيت.(15)

---

12) J. M. Lessard, Op. Cit. p 13.

13) ابن بطوطة، م. س. جـ 2. ص 801.

14) نفسه، صفحة 798.

15) ابن خلدون، م. س. جـ : 7. ص 77.

يلخص ما ذكره ابن خلدون أهم نتيجـة خلفتها سيطرة عرب المعقل على مناطق الجنـوب وهي انحـراف الطـرق التجـاريـة نحـو الشرق. ولم تكن سجلماسة معـزولة عن هذه المستجدات بل تأثـرت بذلك وضعفت تجارتها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. لأن بطون عرب المعقل تمكنت في هـذه الفترة بالذات من السيطرة الفعليـة على الجنوب المغربي من سجلماسـة إلى السوس إلى الساقية الحمراء وفـرضت الاتاوات على القوافل التجارية بما يعادل عشر السلعة المتاجر فيها.(16)

وإضافة إلى اعتراضهم للقوافل التجارية ونهبهم لها لم يسلم المستقرون بالـواحات الجنوبية بـدورهم من غارات هؤلاء الاعراب، لأن تـوالي الجفاف والأزمات الاقتصـادية كانت تـدفع بهؤلاء الأخيرين إلى احتراف النهب بحثا عن موارد العيش. أورد الوزان نصا في غاية الأهمية يوضح ما مارسه عرب المعقل من ضغط على سكان القصـور بمنطقة سجلماسة وقـال «ولما كان الاتفـاق سائدا بين السكـان، بنـوا بأقل ثمن أسوارا لـرد غـارات الفرسـان الاعراب، وطالما بقـوا متحدين بالإرادة المشتركة عاشوا أحـرارا، لكنهم هدموا هذه الأسـوار عندمـا افترقوا شيعا وأحـزابا، واستعـان كل حزب بـالأعراب للدفاع عن نفسه فأصبحوا بذلك أتباعا أو كعبيد للأعراب».(17)

لا ينطبق وصف الوزان على الحالة التي كانت تعيشها منطقة سجلماسة في القـرن العـاشر الهجـري السـادس عشر الميـلادي فحسب بل يعبر عن وضعية سـابقة لهذا التـاريخ. ويمكن القـول أن بدايـة مرحلـة الاضطراب والفوضى التي عـرفتها هذه المنطقة تعـود إلى بداية منتصف القـرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. فقد أشرنا فيما سبق إلى أن مدينة سجلماسة استقلت تحت قيـادة أبناء وحفدة أبي علي عمـر وأن فشل جهـود هؤلاء في السيطرة على الحكم المريني كان نتيجـة صراع بطون ذوي منصور وتحالف الـوزراء مع بعض شيوخهم لضرب بعضهـم ببعض. فكانت النتيجـة فشل

---

16) Godinho, Op. Cit. p 117.

17) حسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 126.

أبناء أبي علي على الصعيد السياسي ومعه فشل سجلماسة في الاستقلال عن المرينيين بشكل نهائي مع سلطنة محمد بن عبد الحليم بها.

غير أن أخطر ما رافق هذا الفشل السياسي هو الحروب التي خاضها أولاد حسين والمنبات فيما بينهم وانعكاساتها السلبية على الأوضاع بمجالات سجلماسة. فقد اضطرب حبل الأمن بفعل ذلك وبدأت القوافل التجارية تبحث عن مناطق آمنة بعيدا عن مجالات سجلماسة في محاولة لتفادي الخسائر التي كانت تتعرض لها بسبب غارات عرب المعقل عليها.

كان خراب مدينة سجلماسة على ما يظهر نتيجة طبيعية للاضطرابات الاجتماعية التي عرفتها مجالاتها ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري. وقد أوردنا أعلاه ما جاء عند الحسن الوزان في هذا الموضوع، الذي يرجع حسب رأيه إلى ثورة أهاليها على السلطان أبي العباس أحمد سنة 796هـ / 1393م. واستنتجنا من ذلك أن المدينة تعرضت للحصار من قبل عرب الأحلاف بما فيهم المنبات والعمارنة بهدف إبعاد أولاد حسين عنها بعد تحالف شيخهم يوسف بن علي بن غانم مع السلطان أبي العباس أحمد المريني.

وعرفت سجلماسة بعد التاريخ المشار إليه أعلاه استمرارا للوضعية التي أثرت بعمق في أوضاعها الأمنية، وجعلت منها حلبة للصراع الاجتماعي القوي بين بطون عرب المعقل فيما بينها من جهة وصراعهم مع المستقرين من سكان الواحات من جهة ثانية. وعليه، فإن المرحلة الفاصلة بين السنوات الأخيرة من القرن الثامن الهجري والنصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، تظل مرحلة غامضة في تاريخ المدينة وإقليمها بدليل غياب أخبارها تماما في المصادر التاريخية. وهذا ما جعل تاريخ اندراس مدينة سجلماسة غير معروف بشكل دقيق في ضوء معلوماتنا الحالية.

ويظهر أن هناك احتمالين في موضوع تخريب هذه المدينة

– أولهما أن يكون ذلك قد حدث في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد ثورة أهاليها سنة 796هـ / 1393م وتهديمهم للسور

الخارجي لها ثم انتقالهم إلى السكن في القصور الكبرى المحصنة حسب رواية الوزان.(18)

– وثانيهما أن تكون ثورة الأهالي هاته بداية لأعمال تخريب متوالية أتت على اندراس المعالم المعمارية للمدينة بالتدريج طيلة النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

ورغم أن إشارة الوزان تدفع إلى الاعتقاد في أن تخريب مدينة سجلماسة كان نتيجة ثورة أهاليها وسيطرة عرب المعقل على مجالاتها، فإن هذا العامل لا يمكن أن يكون كافيا لتفسير التراجع العام الذي عرفه النشاط الاقتصادي بكل مجالاتها في أواخر القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع. لأن ازدهار سجلماسة كان نتيجة عوامل متعددة منها الموقع والمؤهلات الفلاحية والنشاط التجاري وتصنيع المعادن وغيرها من المواد. وعلى ذلك يكون تراجعها نتيجة عوامل مماثلة مادام هذا الحدث السياسي المشار إليه أعلاه لا يمكن أن يكون قد أحدث انقلابا فجائيا في عمران المدينة فأتى على نهايتها وعلى نهاية دورها في التجارة الصحراوية دفعة واحدة.

وإذا كان التنقيب الأثري وحده القادر على إعطاء إجابة علمية دقيقة حول القضايا المختلفة لتاريخ تعمير سجلماسة وعلى رأسها مسألة التأسيس والانهيار، فإن أوضاع المنطقة الاجتماعية واضطراب حبل الأمن بها الذي تعطي التطورات السياسية صورة واضحة عنه، وانحراف الطرق التجارية عنها وظهور مراكز جديدة بالمغرب الأقصى اختصت بلعب الأدوار التي كانت من اختصاصها فيما قبل القرن الثامن، يمكن أن يعطي تفسيرا تقريبيا للضعف والتراجع الذي عرفته هذه المدينة ومجالاتها في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وبداية التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

---

18) الحسن الوزان، م. س. جـ 2. ص 121.

ب - ازدهار مملكة مالي وأثره في تطور المحاور التجارية الصحراوية

بدأت الطرق التجارية تتجه نحو الشرق منذ بداية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، واتضحت معالم هذا التحول بشكل جلي في النصف الثاني من نفس القرن. وقد أخذ الأمير أبو علي عمر أثناء استقلاله بسجلماسة بعين الاعتبار هذه المستجدات وحاول السيطرة على مناطق توات التي كانت أول خطوة في توسعاته العسكرية بالمناطق الجنوبية بهدف الحفاظ على الأولوية التي كانت لمدينة سجلماسة في التعامل التجاري مع بلاد السودان.

تزامن ازدهار مدينة سجلماسة في العصر الوسيط مع الفترة التي حكمت فيها مملكة غانة بلاد السودان وجزء غير قصير من فترة حكم امبراطورية مالي. وقد ارتبطت هذه المدينة بممالك بلاد السودان عبر عدد من المسالك التجارية تحددت معالمها في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ولم تعرف تغيرا واضحا إلا مع حلول القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، رغم تراجع مملكة غانة وقيام امبراطورية مالي.

ولا نعلم الشيء الكثير عن أخبار مملكة غانة التي تحكمت في مناجم ذهب كَلام Galam وبامبوك Bambouk، وإن كانت الدراسات الحديثة قد أكدت على أن مرحلة القوة التي عرفتها هذه المملكة تقع ما بين تاريخ 950م و1050م،(19) وأن عاصمتها غانة - التي هي كومبى صالح في الجنوب الموريطاني الحالي - قد هجرت سنة 1224م، وانتقل سكانها إلى ولاتة في الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي.(20)

ظهرت مملكة الماندينغ Manding - التي أصبحت تعرف عند الجغرافيين العرب بمملكة مالي - على مسرح الأحداث السياسية في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. واتسع مجال نفوذها في عهد سنديياتا Sundjata ابن ملك الماندينغ Naré Fa Maghan الذي حكم في بداية القرن الثالث عشر الميلادي.(21)

---

19) R et M. Cornevain, Histoire de l'Afrique des origines à nos jours, payot, Paris 1964 p 135.
20) Godinho, Op. Cit. p 123.
21) R et M. Cornevin, Op. Cit. p 162.

ذكر كيزربو Ki Zerbo – المتخصص أكثـر من غيره في تـاريخ بـلاد الساحل وتاريخ افريقيا السوداء عـامة – أن تطور مملكة مالي غير معروف تماما قبل منتصف القـرن الثاني عشر الميـلادي، وأن ما وصلنا عنهـا بعد ذلك التاريخ يقتصر على أسماء بعض ملوكهـا كالملك حمانا Hamana وجكَـي بلالي Djigui Bilalé (1175م – 1200م) وموسـى كيتا Moussa Keita وابنه ناري فمغان Naré Famaghan (1218م – 1230م) الذي اشتـهر بتوسعاته في المناطق الجنـوبية والجنـوبيـة الغـربية والضفـة اليمنى من الحوض الأعلى لـوادي النيجر.(22)

تزوج الملك نـاري فمغان من زوجات عـديدات وخلفت له إحـداهن ابنا مريضا أصبح فيما بعد سيد بلاد السـاحل بأكملها. ويتعلق الأمر بسندياتا Sundjata أوماري دياتا Maré Djata – ومعنى الكلمتين في لغة الماندينغ أسد مالي – الذي استطاع التحكم في الحوض الأعلى لحوض النيجر وجعل من مملكته امبراطورية كبيرة سنة 1240 م.(23)

كانت حدود امبراطورية مـالي تشمل المناطق الواقعة بين الحوض الأعلى للنيجر وتمتد غربا حتى المحيط الأطلسي وتحد شمالا بالصحراء الكبرى وفي الجنوب بحوض كامبيا Gombie، فضمت بذلك كل المناطق المهمة في استخراج التبر. أما بـلاد الماندينغ التـي تنتسب إليها امبراطـورية مالي فتقـع في مالي الحالية، لأن الماندينغ يسمون بلادهم الأصلية بـ Mani Maneng أو Mandeng أو Mandé أو Mandi أو Mané ينسب إليها بمالنكي Malinké أو Mallinké. التي تعني سكان مـالي. ويظهر أن شعب المانـدينغ كان يسكن مـوريطانيـا الحالية في سالف الأزمان.(24)

سيطر سندياتا على مناطق شاسعة من بلاد السودان ولم يكن على دين الإسلام، وتـوفي حوالي سنـة 1255م كما تـؤكـد ذلك أسـاطير الملانكي،(25) وخلفه ابنه منسى ولي Mansa Oulé (1255 – 1270م) الذي أصبحت الأسرة

22) Ki - Zerbo, Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain, Hatier, Paris 1978, p 131.
23) Ibid, p 132 - 133.
24) Lewicki, Op. Cit. p 32.
25) R et M. Cornevain, Op. Cit. p 134.

الحاكمة في عهده تدين بالإسلام، بدليل أنه سافر إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج.(26)

وكلمة منسى معناها السلطان حسب ما جاء في رحلة ابن بطوطة.(27) وهذا ما أكده لويكي أيضا، وأضاف أنها دخلت لغة الماندينغ في القرن الأول الميلادي بفعل احتكاك هذه الشعوب مع قبائل البربر. مستدلا على ذلك بوجود كلمة مس Mess أومسى Messa في لغة سكان منطقة غات إلى اليوم وتعني السيد.(28)

وتولى أمر الماندينغ بعد السلطان ولي Oulé الملك أبو بكار الأول Aboubakar 1er الذي توفي سنة 1285م، وخلفه ابنه أبو بكار الثاني Aboubakar 2، ثم منسى موسى (1312 – 1335م) الذي اشتهر بحجته إلى الديار المقدسة سنة 1324م نتيجة ما خلفته رحلته من أثر في نفوس ملوك عصره وما اصطحبه معه إلى مكة من الخدم والذهب.(29)

اتسعت شهرة مالي في عهد منسى موسى ببلاد المغرب ومصر والبلاد الأوربية. وكان لحجته بالغ الأثر في توجيه اهتمام تجار مصر إلى بلاد السودان، لأن السلطان موسى دخل بلاد مصر رفقة خمسمائة عبد كان كل واحد منهم يحمل لبنة من ذهب قيمتها خمسمائة مثقال.(30) وكان لهذه الثروة التي رافقت حجته أثرها في انتعاش اقتصاد مصر وانفتاح بلاد مالي على الشرق أكثر من أي وقت مضى.

ومما يؤكد الشهرة التي أصبحت لمالي في عهد منسى موسى في البلاد الأوربية اهتمام الخرائط التي وضعت في هذه الفترة بهذا الملك. فقد قام الميورقي Angelino Dalcet في سنة 1339م – أي بعد أربع سنوات من وفاة منسى موسى – برسم خريطة للصحراء الافريقية ووضع في وسطها

---

26) Ki - Zerbo, Op. Cit. p 134.

27) ابن بطوطة، م. س. جـ 2 / ص 981.

28) Lewicki, Op. Cit. p 39.

29) Ki - Zerbo, Op. Cit. p 135.

30) بوفيل، م. س. ص 117.

عرشا عليه تمثال كساه بالثياب الملكية ووضع على رأسه تاج وأشار إلى أنه ملك مالي.(31)

كما شرع الأوربيون في الاهتمام بطريق عودة منسى موسى من حجته، ورسم Angelino Dalcet جبال الأطلس وقد قطعهـا وادي سبو الذي يؤدي إلى ملك الزنوج، كما رسم في إحدى طبعات خريطة العالم التي وضعها Pizzigani البندقي، والمؤرخة بسنة 1367م الطريـق إلى مالي عبر جبال الأطلـس وبلاد الصحراء. أما أطلس كطلان الذي يعود لتاريخ 1375م ففيه رجل ملثم وقد ركب على جمل متجه نحو ملك جالس على عـرش ويمسك بالصولجان وقد كتب تحت هذا الملك الـزنجي «منسى موسى ملك الـزنوج في غانـة والذهب كثير في مملكته إلى حد أنه أصبح أغنى وأنبل ملك في العالم».(32)

بعد مـوت منسى موسى انتقل الحكم إلى ابنـه السلطان مـاغان Maghan فحكم أربع سنوات، ثم ثار عليه عمه سليمان الـذي التقاه ابن بطوطة أثناء رحلته إلى مالي في فترة حكـم أبي عنان فارس.(33) وقد حج منسى سليمان على عادة أسلافه، وكانت له علاقات طيبة مع الملوك المرينيين بدليل ما ذكره ابن بطـوطة حـول الحفل الذي أقـامه لتأبين السلطـان أبي الحسن المريني بعاصمة ملكه،(34) كما وصلت هديته بعد ذلك إلى أبي سالم المريني.

غير الازدهار الذي عرفته امبراطورية مالي في القرن الرابع عشر الميلادي من طبيعة العلاقات بين الشمال والجنوب، وسمح بظهور تحولات جديدة في المحـاور التجـاريـة. لأن مـالي كـانت تتحكم في منـاطق تقع إلى الشرق من المناطق الجنوبية لبلاد المغـرب الأقصى. ومعنى ذلك أن الطرق الرابطة بين المنطقتين قد أصبحت تتجه نحو هذه الأخيرة أي نحو الواحات الشرقية بدل الاستمرار في الاتجاه نحو ولاتة فتغازى ثم سجلماسة.

وعموما فإنه لما أصبح أباطرة مالي هم الأسياد الجدد لمناطق إنتاج التبر، وانفتحوا على الشرق سبب ذلك في اختلال ميزان القوى التجاري في العلاقات

---

31) بوفيل م. س. ص 121.

32) نفسه نفس الصفحة.

33) ابن بطوطة م. س. جـ 2. ص 782 – 783.

34) نفسه : صفحة : 783.

بين شمال افريقيا والسودان الغـربي لصالح مصر. فاهتم سلاطين المماليك بعد حجة منسى مـوسى ومروره بالقاهرة بتوطيد عـلاقاتهم مع السودان الغربي.(35) فصـارت بـلاد مصر تستفيد من أكبر كميـة من ذهب مـالي في الوقت الذي تراجعت فيه استفادة المغرب الأقصى.

وكان سلاطين بني مرين يدركـون خطوة هذه المستجدات وما يمكن أن يترتب عنها من انعكـاسات سلبية على موارد خزينتهم، فحـاول أبو الحسن وأبو عنان الدفع بنفوذهم نحـو الشرق وتوحيد بلاد المغرب. كما أن السلع المصنعة بمختلف الحواضر المغربية لم تعد تستجيب في هذه الفترة لحاجيات المستهلك السوداني، ولم تقدر على منافسة سلع بلاد مصر. فتوطدت علاقة المماليك بمصر مع أباطرة مالي واتجهت الطـرق نحو بلادهم، رغم أن الذهب استمر في الـوصول إلى المغـرب الأقصى لكن بكميات قليلـة جدا. وهـذا ما يبرره كـلام ابن فضل الله العمـري حين أشـار إلى قلة الـذهب بالمغـرب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.(36)

ازدادت الطرق التجارية انحـرافا نحو الشرق في النصف الأول من القرن التـاسع الهجـري الخامس عشر الميـلادي، ويـرجع السبب في ذلك إلى تغير مركز القـرار السياسي بامبراطورية مالي من العـاصمة نياني Niani عاصمة سندياتا إلى كَـاو Gao، إضافة إلى اضطـراب أوضاع المغرب الداخليـة نتيجة ضعف السلطة المركزيـة وانعدام الأمن في الطرقات الذي لم يسـاعد القوافل التجارية على ممارسة نشاطها في ظروف لائقة.(37)

فانتعشت بسبب ذلـك بعض المحاور التجاريـة ببلاد السـودان الغربي التي لم تكن معـروفة في المراحل السـابقة. كما هـو الحال في محور النيجر المتجه نحو مصر والرابط بين جينـي وتمبكتو وكَـاو وأعالي النيل.(38) وهكذا كان لانفتـاح مالي على المشرق أثره في تـراجع دور الطرق الرابطـة بين بلاد

---

35) انظـر ما ذكـره ابن بطوطـة عن عـلاقة منسى سليمان بأحـد تجار مصر وهو سراج الـدين بن الكويك في رحلة ابن بطوطة، جـ 2 / ص 792.

36) Ibn Fadl Allah Alomari, Op. Cit. p 215.

37) Z. D. Issifou, Op. Cit. p : 134.

38) J. Devisse, Routes de commerce, 2 eme partie, Op. Cit. p : 366.

السودان والمغرب الأقصى في التجارة الصحراوية بعد مرحلة من الحيوية دامت أربعة أزيد قرون.(39)

تأثرت سجلماسة التي كانت تعاني من اضطراب عام في أوضاعها السياسية والاجتماعية إلى حد كبير بهذه العوامل الخارجية فضعفت حظوظها في الاستمرار على أولويتها المعروفة في النشاط التجاري، رغم أن القوافل استمرت في التوجه نحو القصور الكبرى بها بعد اندراسها، لكن بنسبة قليلة مقارنة مع ما كان عليه الأمر في السابق.

ج - انحراف الطرق التجارية نحو الشرق :

كان لازدهار امبراطورية مالي وانفتاحها على المشرق أثره في تراجع دور المغرب في النشاط التجاري بين الشمال الافريقي وبلاد السودان وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن أباطرة مالي الذين حجوا إلى الديار المقدسة تقلدوا عدة مهام من قبل حكام القاهرة الذين تقربوا منهم وعملوا على تنظيم مبادلاتهم التجارية معهم، فكانت النتيجة أن تراجع دور المغرب في الوساطة التجارية.(40) وانتعش دور مصر فيها بالمقابل.

فقد شرع أباطرة مالي في النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م يولون أهمية خاصة للمناطق الشمالية الغربية من مجالات نفوذهم واهتموا بممالح تغازى ومناجم النحاس بتكَدا.(41) وأصبحت طرق التجارة نتيجة نهجهم لهذه السياسة تبتعد تدريجيا عن المغرب الأقصى، وهذا ما يجد تفسيره في تراجع سجلماسة التي كانت من أهم موانىء الصحراء وأصبحت ابتداء من ذلك التاريخ تعرف إهمالا تدريجيا زادته تحركات عرب المعقل استفحالا مع الأيام.(42)

وعلى العموم فإن تراجع دور المغرب الأقصى ككل في التجارة الصحراوية الذي اتضحت معالمه في القرن الثامن الهجري الرابع عشر

---

39) Ibid, p 382.

40) إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، بيروت، 1982. ص 101.

41) Z. D. Issifo, Op. Cit. p 133.

42) إيف لاكوست، م. س. ص 102.

الميلادي. لم يحدث على شكل انقلاب مفاجيء في هـذه المرحلة بالذات وإنما تعـود جذوره إلى القـرن السـابق على حـد قـول الأستاذ محمـد القبلي.(43) فالتحولات السياسية التي عرفتهـا بلاد المغرب في مرحلة الضعف الموحدي جعلت موارد التجـارة الصحراوية تقتسم بين ثـلاث قوى سياسية مـوزعة على بلاد المغارب الثلاثة.

تساءل الأستـاذ محمد القبلي حـول مميزات العهـد المريني والمستجدات التي رافقته، ولخص خصائص هذه المرحلة التاريخية في المعطيات التالية

- على العكس ممـا حدث في منتصـف القرن الحادي عشر الميـلادي من استقرار الطـرق التجاريـة واتجاهها نحو المغـرب الأقصى نسجل تغييرا في اتجاه الطرق الصحراويـة نحو المحاور الشرقية. في القـرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وانتعاش موانىء المغرب الأوسط والأدنى كهنين ميناء تلمسان وبجاية وتونس وطرابلس.(44)

ويمكن تفسير هذه المستجـدات بعوامل مـركبة منهـا ما ارتبط بضعف النفوذ الموحدي في المغرب الأقصى ومنهـا ما ارتبط بتنامي النفوذ الحفصي في المغـرب الأدنى وبتحكم الـزيانيين في سجلماسـة دون أن ننسى تمركـز عرب المعقل بسوس. ولا يمكن أن نفهم التحول الذي عرفته الطرق التجارية بانحرافها نحو الشرق إلا من خلال المقـاومة التي أبداها المرينيون ضد بني عبد الـواد حول سجلماسة، لكـن الحروب بين القوتين لم تنته بعـد سيطرة يعقوب بن عبد الحق على هذه المدينة فما هو السبب في ذلك إذن ؟.(45)

احتدم الصراع المريني العبد البوادي بسبب التغيير الذي حدث على طرق التجارة، لكن اندفاع المرينيين نحو المغرب الأوسط وانتصاراتهم المتكررة على الـزيـانيين لم تحقق لهم تحكما فعليـا في محاور التجارة الصحـراويـة ولا استفادة حقيقيـة من مواردها، ونفس الشيء يمكن أن نقيسـه على توجههم نحو تونس. وهكذا لم يحقق المرينيون من محاولات توحيدهم لبلاد المغرب الأغراض التي توخوها من ذلك.(46)

43) M. Kably, Op. Cit. p 79.
44) M. Kably, Op. Cit. p 79.
45) Ibid, p : 98.
46) Ibid, p : 98.

وإذا كانت تجارة المغرب الأقصى قد عرفت تراجعا في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، فإن أوضاع سجلماسة لم تكن كذلك خلال هذه المرحلة. فقد سبقت الإشارة إلى أن هذا القرن يمثل العصر الذهبي في نشاط هذه المدينة التجاري، ويشهد على ذلك التنظيم المحكم الذي عرفته عملية المتاجرة مع بلاد السودان والازدهار الذي عرفته الشركات التجارية كما هو الحال في شركة المقريين، واستمرت هذه الوضعية إلى حدود النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، حسب ما وقفنا عليه من معلومات. لأن الصراع المريني العبد الوادي حول سجلماسة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي واستقلال أبي علي عمر بها في الربع الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي يعتبر خير دليل على انتعاش اقتصادها.

فقد انتعش محور مالي مصر ابتداء من سنة 1320م.(47) بسبب الجهود التي بذلها سلاطين مصر منذ منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، لما حاولت سلالة المماليك بسط نفوذها على أعالي وادي النيل وتمكنت جيوشهم من القضاء على مملكة النوبة المسيحية بها. وأصبح بإمكان المراكز الجنوبية لبلاد مصر إقامة علاقة مع امبراطورية مالي دون أن يكون لزاما عليها المرور عبر مجالات المغارب الثلاثة.(48)

وهكذا فلما اتجهت المحاور التجارية نحو مصر والمغرب الأدنى والأوسط في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي إنتعشت الطرق التي كانت تربط بين هذه المناطق وبلاد السودان قبل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، أي قبل التاريخ الذي عرفت فيه الطرق الصحراوية ميلا نحو الغرب. فتادمكة التي أسست في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي،(49) كانت مرتبطة بالقيروان عبر طريقين حسب ما جاء عند البكري واحد عبر واركَلان وإغرم إن يكامن أي حصن العهود وقسطيلية والآخر عبر غدامس.(50)

---

47) J. Devisse Routes de commerce, 2eme partie, Op. Cit. p 373.

48) إيف لاكوست م. س. ص 101.

49) R. Mauny : Tableau géographique, Op. Cit. p 114.

50) البكري م. س. ص 182.

وكان لواحـات أوجلة دورا مهما في ربط بلاد مصر ببـلاد السودان منذ القـرن العاشر أيضـا، لأنها كـانت عبارة عـن شريط من الواحـات الخضراء ومنطقة مرور رئيسية لتجار مصر المتجهين نحو بلاد السودان.(51) وقد أكد الإدريسي في القرن السادس الهجري الثـاني عشر الميلادي الاستمرارية التي عرفتهـا أوجلة في مجال التجارة وقـال «يتجهز منها المراكب والمسـافرون الـواصلـون إليهـا من الاسكنـدريـة وأرض مصر بـالصـوف والعسل والزيت».(52)

كانت أوجلة منطقـة التقاء طرق عديدة رابطـة بين بلاد السودان ومصر مـرورا بإقليم سرت الـذي يشمل كـل القسم الشرقي لطـرابلس. وصحـراء سرت في العصر الـوسيط تضم منطقتين هما سرت وودان وكـان طـريق ودان السودان يخترق مدينة زويلة في فزان.(53)

وصف الإدريسي مـدينة زويلـة وقال «والعـرب تجول في أرضـها وتضر بأهلها»،(54) ويظهر ممـا ذكره هـذا المؤلف أن هذه المنطقـة كانت معـرضة لغارات الاعراب، وهذا ما من شأنه أن يـؤثر على نشاطها التجاري في القرن السادس الهجـري الثاني عشر الميـلادي. وحسبنا دليـلا على ذلك أن تحكم العناصر العـربية المعقلية في المناطق الصحـراوية بالمغـرب الأقصى كان من الأسباب التي أدت بالطرق التجارية إلى الانحراف نحو الشرق.

ولعبت منطقـة فزان دورا رئيسيا في ربـط الاتصال بين بـلاد السودان والقسم الشمالي الشرقي من افريقيـا. ويعود تاريخ هذه المنـاطق إلى العهود القديمة لأن بها كان استقرار عناصر الكرمنطيين Garamantes الذين اتخذوا من جرمة Garama عاصمة لهم. وكانت لهم علاقات واسعـة مع بلاد الزنوج منذ تاريخ ضارب في القدم.(55)

---

51) نفسه. ص 14.

52) الإدريسي. م. س. ص 98.

53) Lewicki, Op. Cit. p : 54 - 55.

54) الإدريسي م. س. ص 100.

55) Ibid, p p 60.

ويظهر أن طريق غانة – كَاو – بلمة الذي كان يمر في القسم الجنوبي لصحراء طرابلس كان معروفا منذ القرن العاشر الميلادي، وهذا الطريق كان ينطلق من غانة ثم يمر بكَاو ومنها إلى زويلة ثم أجدبية ثم الاسكندرية، وهو الذي أعيد استعماله في القرن الرابع عشر الميلادي.(56)

لم يسمح نشاط الطريق الغربي المتجه نحو المغرب الأقصى، في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وكذلك في القرن السادس والسابع الهجريين، لهذه المراكز الواقعة على الطرق التجارية الشرقية بالظهور بنوع من الفعالية، فعرفت تراجعا ملحوظا في نشاطها التجاري لأنه من الصعب الاقرار بتخلي القوافل التجارية عن المرور بها بصفة نهائية. لكن المستجدات التي عرفتها عملية المبادلات بما في ذلك جهود المماليك في ربط علاقاتهم مع الماليين، وانفتاح هؤلاء الأخيرين على الشرق، وانعدام الأمن الذي عرفته مناطق الجنوب في المغرب الأقصى، أعادت الحيوية إلى هذه المراكز فأصبحت تلعب دورها كاملا في عملية التبادل التجاري.

حاول حكام مالي تنظيم مبادلات تجارية مع زبنائهم الجدد في مصر. فسيطر سندياتا على ولاتة بهدف مراقبة المبادلات بين مناطق نفوذه والمغرب الأقصى، كما استولى منسى موسى على تادمكة سنة 1324م.(57) وبما أن كَاو وتمبكتو كانتا تحت نفوذ مالي، فإن الاهتمام الذي أولاه حكامها على اختلاف مراحل حكمهم لهذه المواقع القريبة إلى مصر منها إلى المغرب، جعل التجار المشارقة يستفيدون من مستوى التطور الذي عرفته هذه المراكز نتيجة ما كانت تزخر به أسواقها من تبر وعبيد.

أشار ابن بطوطة إلى أن تجار مصر كانوا يتواجدون بكثرة في تمبكتو وقال «وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية. كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض سراج الدين هذا ببركة الحبس خارج مصر، وبها ينزل السلطان واحتاج إلى مال فتسلفه من سراج الدين».(58) وأثناء حديثه عن مدينة تكَدا قال «ولا شغل لأهل

56) Ibid, p : 60.
57) R. Mauny, Op. Cit. p : 114.
58) ابن بطوطة م. س. ج 2، ص 792.

تكَدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون كل ما فيها من حسان الثياب». (59)

كما أشار إلى المنسوجات المصرية والشهرة التي كانت لها بإيولاتن ويظهر ذلك من قوله «وثياب أهل هذه المدينة من الاثواب المصرية الحسنة».(60) ومعنى ذلك أن السلع المصرية غزت كل الحواضر الرئيسية في امبراطورية مالي.

يعكس هذا التواجد المكثف للمصريين في مالي الانفتاح الفعلي للماليين على شرق القارة الافريقية. ذكر ابن بطوطة - وهو شاهد عيان لما كان يجري في بلاد السودان في السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن الثامن الهجري - أن المصريين كانوا يقطنون بوادي بلاد السودان كما هو الحال في صنغرة.(61) ويفهم من ذلك أن تواجدهم لم يقتصر على الحواضر الكبرى بمالي بل تعداه إلى الاستقرار في البوادي، وهو ما يؤكد أهمية دورهم في المبادلات التجارية وعلاقتهم الواسعة مع الماليين.

وما ذكره ابن بطوطة عن المصريين بمالي يعطي صورة واضحة عن التحولات التي رافقت تغير الطرق التجارية وانحرافها نحو الشرق الذي أسفر عن تراجع دور المغاربة في التبادل التجاري مع بلاد السودان بالتدريج إلى أن اكتفوا بما يسمى بالقافلة السنوية التي تعكس ضعف فرص التبادل التجاري بين المغرب والمناطق الواقعة جنوب الصحراء.

اعتبر البعض رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان رحلة استكشافية كلفه بها السلطان أبو عنان فارس نتيجة المشاكل الاقتصادية التي بدأ المغرب الأقصى يعرفها بسبب انحراف طرق التجارة نحو الشرق في هذه الفترة.(62) ولهذا الرأي حصة كبيرة من الصحة لأن ابن بطوطة قال «ولما عدت إلى تكَدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السلجماسي بأمر مولانا أمير

59) نفسه. ص 799.

60) نفسه. ص 777.

61) ابن بطوطة. م. س. ج 2. ص 780.

62) M. Kably, Op. Cit. p 163 et J. Devisse, Routes de commerce, 2 eme partie p : 373. Godinho, Op. Cit. p : 108 - 109.

المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أمرا إلي الوصول إلى حضرته العلية فقبلته وامتثلت على الفور... وقصدت السفر إلى توات». (63)

كانت حاجة المغرب الأقصى إلى الذهب كبيرة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وقد أشرنا سابقا إلى أن ابن فضل الله العمري أقر بقلة الذهب بكل المغرب الأقصى، وهذا ما تعكسه رغبة أبي عنان في التوسع على حساب الزيانيين والحفصيين. ويظهر أن هذا السلطان كان يهدف من وراء ذلك إلى التحكم في المناطق الواقعة إلى الشمال من واركَلان وتوات التي استفادت هي الأخرى من انحراف الطرق نحو الشرق.

ففي الوقت الذي ابتعدت فيه القوافل التجارية عن المغرب الأقصى في منتصف القرن الثامن الهجري، كانت حظوظ المغرب الأوسط أحسن حالا من مثيلاتها في المغرب الأقصى. أشار Godinho إلى أن القوافل كانت في هذه المرحلة تمر بواحات تابلبالت ما بين حوض السورة وتافيلالت، ومن هناك تتجه إلى تلمسان. (64)

ويفيدنا ابن بطوطة في معرفة التحول الذي حدث على المحاور التجارية التي استمرت تربط بلاد المغرب مع بلاد السودان بعد نجاح المصريين في تنظيم علاقتهم التجارية مع مالي. ويظهر من خلال تتبع طريق عودته أن المغرب الأقصى لم يعد قبلة القوافل كما كان في المراحل السابقة للقرن الثامن الهجري، فقد عاد هذا الرحالة عبر غات التي أصبحت تمثل مفترق الطرق بين تجار مصر وتجار المغرب المتجهين نحو توات. (65) ومعنى ذلك أن مصر كانت مرتبطة ببلاد السودان عبر طرق عديدة منها ما كان يمر بالمجالات الجنوبية لبلاد المغرب الأوسط والأدنى.

تظهر الأهمية التي كانت لتوات في القرن الثامن الهجري من خلال ما كتبه ابن خلدون عن هذا البلد حين قال «وفيه قصور متعددة تناهز المائتين آخذة من الشرق إلى الغرب، وآخرها من جانب المشرق تمنطيت وهو

---

63) ابن بطوطة. م. س. ج 2. ص 800.

64) Godinho, Op. Cit. p : 108.

65) ابن بطوطة. م. س. ج 2. ص 801.

بلد مستبحـر في العمران، وهو محط ركاب التجـار المترددين من المغرب إلى بلـد مالي من السـوادان لهذا العهد، ومن بلـد مالي إليـه».(66) لا يشير ابـن خلدون هنا إلى انقطاع الصلة بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، فكلامه في تجار المغرب جملة بما فيهم تجار بلاد المغارب الثلاثة. ويهمنا من روايته أن تجار المغـرب الأقصى كـان لابـد لهم من المرور بمنـاطق تـوات أي الانحراف بعض الشيء نحو الشرق في طريق الذهاب إلى بلاد السودان. وهذا ما يـؤكد أن واحات سجلماسة ودرعـة وسوس لم تعد المحطات الـرئيسية للقوافل التجـارية، وأنها تخلت عن دورهـا لمراكز جـديدة كتـوات التي كان ظهورها على مسرح الأحـداث السياسية لأول مرة في القـرن الثامن الهجري نتيجة التحول الذي حدث على الطرق التجارية الصحراوية.

كما أكد ابن خلدون أيضا على الأهمية التي أصبحت لواحات تيكَـورارين في نفس الفترة، وعلى انتعـاش خط الـواحات الـواقعـة بين توات في الغـرب وتمنطيت في الشرق. وقال «وقبلـة تلمسان وعلى عشر مراحل منهـا قصور تيكَـورارين وهي كثيرة تقارب المائة في بسيـط واد منحدر من المغـرب إلى المشرق... وأكثـر معـاشهم من بلـح النخيل وفيهم التجـار إلى بـلاد السودان».(67) وهـذه الإشارات تـؤكد أن القـوافل التجاريـة أصبحت تحتك بـالواحـات الجنوبيـة للمغرب الأوسـط بدل التـوجه نحـو جنوب المغـرب الأقصى.

وأصبح لـواحات وركَـلة مكانـة متميزة في النشـاط التجاري في القـرن الثـامن الهجري. وهـذه الواحـات التي كانت تـربط المغرب الأوسط ببـلاد السودان عبر تادمكة ومنها إلى كَـاو،(68) لم تكن وليدة التحول الذي حدث على محاور التجارة في المرحلـة المشار إليهـا أعلاه، بقدر مـا يعود نشـاطها التجاري إلى المراحل السـابقة لها. لكن وركَـلة – وكما هو الحال بـالنسبة لأوجلة وزويلة – فقدت أهميتها بسبب انتعـاش الطرق التجارية الغربية في

66) ابن خلدون. م. س. ج 7. ص 77.

67) نفسه، نفس الصفحة.

68) Lewicki, Op. Cit. p : 90.

القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ثم استعادت مكانتها مع حلول القرن الثامن الهجري وأصبحت تستقطب المحاور التجارية حتى صارت أكبر محطة لها ببلاد المغرب.

إن أهم ما رافق هذا التحول الذي عرفته الطرق التجارية هو تراجع دور المغرب الأقصى في المبادلات التجارية بين الشمال والجنوب. ويهمنا هنا أن نسجل بأن سجلماسة لم تعد في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري قاعدة تجارية مهمة كسابق عهدها، رغم أن القوافل التجارية لم تنس مجالاتها بصفة نهائية. وأن نشاطها التجاري ضعف بصورة واضحة بعد زيارة ابن بطوطة لها سنة 753هـ / 1353م، بدليل أنها عجزت عن توفير الموارد المالية اللازمة لنجاح أبناء أبي علي بها على المستوى السياسي.

كان هذا التراجع الاقتصادي الذي عرفته سجلماسة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري وليد عدة عوامل أهمها ما ارتبط بأوضاعها المحلية. ويتعلق الأمر بتحكم عرب المعقل في مجالاتها والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها. فإضافة إلى صراع أولاد حسين والأحلاف الذي أشرنا إليه أعلاه، كانت المناطق الواقعة إلى الجنوب منها تحت رحمة عرب ذوي حسان الذين سيطروا على الساقية الحمراء، وعرب ذوي عبيد الله الذين سيطروا على الواحات الجنوبية الشرقية منها ذكر ابن خلدون أن ضواحي توات وتيكَورارين كانت «مشتاة العرب ومختصة بعبيد الله من المعقل، عينتها لهم قسمة الرحلة. وربما شاركهم بنوا عامر بن زغبة في تيكَورارين فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين».(69) وهو ما أضر بتجارة سجلماسة ومعها تجارة المغرب المريني.

فقد كان عرب ذوي عبيد الله شيعة للزيانيين ولم يتقربوا من المرينيين إلا في فترات قليلة من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ومن النصف الأول من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وكذلك الشأن بالنسبة لبني عامر بن زغبة من الهلاليين الذين استخدمهم سلاطين

69) ابن خلدون، م. س. ج 7. ص 77.

تلمسان في الجيش وتقربوا منهم بالاقطاعات والهدايا. وكان لروابط الحلف بين بني عبد الواد وهذه القبائل أثره في عدم تعرضهم للقوافل المتجهة إلى تلمسان.

وعليه، فإذا سلمنا بعلاقة الود التي كانت تجمع ذوي عبيد الله وزغبة بالزيانيين سهل علينا فهم تراجع تجارة سجلماسة وانتعاش تجارة المغرب الأوسط، لأن القوافل التجارية كانت تمر بتوات وتيكَورارين في طريق الذهاب إلى بلاد السودان والعودة منها في القرن الثامن الهجري. ولا يستبعد أن تكون قوافل المغرب الأقصى قد تعرضت في هذه الفترة لغارات هذه القبائل ونهبها، خلافا لقوافل المغرب الأوسط التي سلمت من هذه العملية بحكم ارتباط هذه القبائل بطاعة سلاطين تلمسان.

د - المراكز الجديدة التي عوضت سجلماسة في المبادلات التجارية

لما زار الحسن الوزان سجلماسة في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي قال عنها «سجلماسة الآن خربة تماما» وأقام بها في قصر المامون سبعة أشهر.(70) ويظهر من الوصف الذي خصصه هذا المؤلف لإقليم سجلماسة أنه لا وجود لأية حاضرة به على طول امتداد مساحته من الشمال إلى الجنوب استثناء لـكَرسلوين. وأن القصور أصبحت تقوم بنفس الأدوار التي كانت من اختصاص مدينة سجلماسة فيما قبل، وهذا يعني أن القوافل التجارية لم تنس هذه المناطق بصفة نهائية بل استمرت في الوصول إليها بأعداد قليلة، نتيجة المستجدات التي حدثت على طرق التجارة ابتداء من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي.

خربت مدينة سجلماسة - حسب ما جاء به الوزان - في أواخر حكم السلطان أبي العباس أحمد المريني سنة 796هـ / 1393م. وقد سبقت الإشارة إلى أن مالحقها من هدم كان نتيجة تعرضها لهجمات عرب الأحلاف الذين حاولوا إبعاد نفوذ أولاد حسين عنها، بعد أن استفاد هؤلاء

---

70) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 128.

الأخيرين من علاقة شيخهم بسلطان وقته أبي العباس أحمد. وهذا ما فسرنا به قول الوزان «فثار الإقليم وقتل أهل البلد الوالي وهدموا سور المدينة.(71)

وسواء كان التاريخ الذي أورده الوزان هو تاريخ انهيار مدينة سجلماسة بشكل نهائي أو كان فقط تاريخ بداية تخريبها بالتدريج خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، أي قبل زيارة الوزان لها سنة 916هـ / 1511م بما يزيد عن نصف قرن، فإن هذا المؤلف ذكر أن سكان هذه المناطق انتشروا بعد هذا الحدث في القصور الكبرى المحصنة التي كان بعضها حرا والبعض الآخر خاضع للاعراب.(72) وهذا يعني أن سكان الحاضرة انتقلوا إلى سكنى البادية. وقد أشرنا سابقا إلى أن هذا الشكل السكني لم يكن وليد هذه المرحلة التاريخية بل يرجع إلى المراحل الأولى لتأسيس سجلماسة إن لم يكن سابقا لها.

نقل سكان سجلماسة معهم إلى القصور أدوات عملهم ومهارتهم في الصناعة والحرف. ويتضح من خلال وصف الوزان أن هذه التجمعات السكنية كانت تقوم بأدوار مهمة على الصعيد الاقتصادي، وأن ما أصبحت تقوم به هو ما كان من اختصاص مدينة سجلماسة في السابق. ذكر هذا المؤلف أسماء ثلاثة قصور كان لها دورا حيويا في اقتصاد إقليم سجلماسة أثناء زيارته له أولهما يسمى تنجيوت وعدد سكانه نحو ألف كانون وبه بعض الصناع. والثاني يسمى تبعصامت وهو أكبر منه وأكثر حضارة، وفيه عدد كبير من التجار الأجانب، واليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من بقية الإقليم.(73) والقصر الثالث يسمى المامون وهو أيضا كبير حصين كثير السكان خصوصا منهم التجار اليهود والمسلمين.(74)

---

71) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 121.

72) نفسه، نفس الصفحة.

73) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 125.

74) نفس، صفحة : 126. انظر مواقع هذه القصور في الخريطة رقم 3.

يؤكـد اقتصـار الوزان على ذكـر هذه القصور دون غيرهـا الأهمية التي كانت لـها في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. لكن هذا لا يعني أنها كانت الـوحيدة بالإقليم، لأن هـذا الشكل السكني كان يمتـد على طول شريط واحات زيز. وقد عرفت تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة وجود قصور عديدة كـانت لها أهمية كبيرة زمان ازدهـار مدينة سجلماسة نفسهـا نذكر منها صوصـو وأحنوس بوادي إفلي والقصر الجديد بـالغرفة وقصر الجبيل وأنبدور وأولا عبد الحليم وغيرها.

كـانت قصـور تنجيوت وتبعصـامت والمامـون خـاضعة لتسيير أمـراء الأعراب في الفترة التي زار فيها الوزان منطقة سجلماسة، لأن كل قصر منها كان يديره أمير خاص «هو رئيس فـريقه وكثيرا ما تنشب بين هؤلاء الناس خصومات وشقاقـات، وهم في عراك دائم بينهم، يسيء بعضـهم إلى بعض ما استطـاع، فيتلفون قنـوات السقي المجلوبـة من النهر، ويقطعـون النخل من أسفله».(75) وهـذا مـا يعكس حجم الأضرار التي لحقت هـذه المنـاطق بفعل صراع السكان فيما بينهم من جهة وصراعهم ضد الاعراب من جهة ثانية.

استمرت هـذه القصور في ضرب العملة الفضيـة والذهبيـة رغم أن هذه الأخيرة كانت من الذهب الرديء على حد قول الوزان، «وتزن العملة الفضية الرفيعـة أربعة حبات وتسـاوي ثمانون منهـا مثقالا. يأخذ رؤسـاء الفرق قسطا من مداخيل البـلاد، كالجزية المفروضـة على اليهود والربح الحاصل من ضرب السكـة، أمـا القسط الآخـر فيأخـذه الاعـراب، كـرسـوم المكس. والسكان أنذال، كل من هاجر منهم زاول حرفا وضيعة، إلا أنه يوجد بعض النبلاء الأغنياء يـذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملـون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلونها بالذهب والعبيد».(76)

يعكس وصف الـوزان بـوضـوح صـورة التراجع التي أصبحت عليهـا الأوضـاع الاقتصاديـة في إقليم سجلماسـة بعد خـراب عـاصمته. وتظهـر العـوامل المحلية وكـأنها هي الفاعلـة في هـذا التراجع والمسـؤولة عنـه، لأن

75) الوزان، م. س. ج 2. ص 126.

76) نفسه، نفس الصفحة.

ظروف انعدام الأمن التي عاشتها المنطقة لم تمنع التجار من مزاولة نشاطهم في عملية التبادل التجاري فحسب بل تعدت ذلك إلى التأثير على المستقرين من المزارعين، الذين لحقت مغروساتهم من النخيل أضرارا بليغة بسبب إتلاف المحاصيل الزراعية الذي ينتج عن الحروب المحلية الدائمة.

فإذا ألقينا نظرة على المناطق التي شكلت ما يعرف بإقليم سجلماسة في العصر الوسيط سنجد أنها عانت من نفس ما عانت منه المناطق القريبة من موضع المدينة. فمنطقة تيزيمي لم يرد ذكرها في وصف الوزان، ونعلم أنها كانت مجالا لاستقرار عرب أولاد حسين إلى حدود أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، غير أنها لم تسلم بدورها من الاضطرابات التي عرفتها المنطقة ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري وإلى حدود القرن العاشر الهجري.

وصف الوزان منطقة الرتب الواقعة إلى الشمال من تيزيمي على ضفاف وادي زيز بقوله «وبها عدد لا يحصى من القصور والبساتين والسكان خاضعون للاعراب بخلاء جدا وجبناء. لا يقدر مائة من خيرة فرسانهم على مجابهة عشرة من فرسان الاعراب، يخدمون أراضيهم لهؤلاء الاعراب كما لو كانوا عبيدا لهم. وتتاخم هذه الدائرة من الشرق جبلا غير مأهول، ومن الغرب سهلا خاليا رمليا.(77) وهؤلاء الاعراب الذين تحدث عنهم الوزان هم المنابهة أي المنبات الذين كانوا زمان ابن خلدون يسكنون مدينة سجلماسة.

وكانت منطقة مدغرة أيضا تعيش نفس الأوضاع التي عمت إقليم سجلماسة في أواخر العصر الوسيط. وتحد مدغرة بمنطقة الرتب من جهة الجنوب وبمنطقة الخنك من جهة الشمال. وأهم قصورها قصر هلال الذي يقيم فيه أمير الدائرة من المنابهة. «ولا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح، فإذا لقي هؤلاء الجنود - يعني جنود الأمير - قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فورا».(78)

---

77) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 123 - 124.

78) نفسه، ص 123.

وإلى الشمال من مدغرة كان شيوخ العمارنة يقومون بنفس ما كان يقوم به أمير هلال، لأنهم كانوا يتحكمون في ممرات الخنك التي هي عبارة عن شريط من الأراضي الضيقة على وادي زيز لا يبلغ عرضها أحيانا مرمى الحجر على حد تعبير الوزان.(79) وكان سكان الخنك يخضعون بدورهم للاعراب الذين أصبحوا أغنياء بحكم سيطرتهم على الطريق المؤدي إلى فاس، ويرغمون التجار على أداء مبلغ مالي مقابل السماح لهم بالمرور كما هو الحال في قصر زعبل حيث كان على التجار تأدية ربع مثقال على كل جمل.(80) وقد كانت قصور هذه المنطقة بأكملها تفرض الاتاوات على التجار خاصة قصور زعبل وكستريـر وتمراكشت، لأنها تحتل موقعا ممتازا ومدخلها في غاية الضيق، لا يصعد إليها إلا من ممرات صنعتها يد الإنسان بحيث يستطيع شخصان أن يصمدا أمام هجوم الإقليم بأجمعه»،(81) وإذا كان وصف الوزان لمناطق تافيلالت والرتب ومذغرة والخنك يعكس طابع الفوضى الذي ميز تاريخ هذه المنطقة في الفترة التي عاش فيها، ويعطي صورة واضحة عن الظروف الصعبة التي أصبحت تتم فيها عملية تنقل القوافل، بما يفرضه رؤساء الاعراب من إتاوات على المارة عبر طريق سجلماسة – فاس، فإن المناطق الواقعة إلى الجنوب الغربي من سجلماسة لم تكن أحسن حالا من مثيلاتها السالفة الذكر.

كان طريق سجلماسة مراكش يعرف مشاكل أمنية كثيرة في الفترة التي مر منه الوزان سنة 1513م. ويتضح ذلك من الوصف الذي خصصه هذا المؤلف لمنطقة دادس حين قال «الرجال غادرون متلصصون سفاكون يقتلون الرجل من أجل بصلة، فتنشب بينهم خصومات عنيفة لأدنى سبب... والتجار لا يقصدون هذا البلد، لأن أهله يعيشون في بطالة، ولا يمارسون أية صناعة، وينهبون المسافرين، وإذا ما جاء بعض التجار

79) نفسه، ص 122.

80) نفسه، نفس الصفحة.

81) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 123.

معززين بجواز مرور من بعض الرؤساء المحليين يحملون بضاعة تافهة لهؤلاء الجبليين، ألزموهم بأداء ربع ثمن البضاعة حق المرور».(82)

كانت مناطق دادس في المراحل السابقة للفترة التي عاش فيها الوزان تلعب دورا مهما في ربط منطقة سجلماسة بالمناطق الجنوبية الغربية لها، لأن القوافل التجارية كانت تعبر القسم الأسفل لوادي غريس ثم تتبع مجرى فركلة وتدغة ومنها إلى دادس فدرعة. ثم أصبحت كل هذه المناطق خاضعة للاعراب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي.(83) فاستحال مرور القوافل التجارية بها بأمان كما هو الحال في أغلب مناطق سجلماسة.

ويتضح من الجرد السابق أن منطقة سجلماسة أصبحت محاصرة من كل الجهات، وأن القوافل التجارية الصادرة والواردة بمجالاتها كانت تتعرض للنهب وإن سلمت منه تؤدي إتاوات باهضة لرؤساء القبائل تراوحت بين ربع مثقال على كل جمل وربع البضاعة، فلم يعد النشاط التجاري مربحا عبر هذه المسالك وهو ما دفع بالتجار إلى البحث عن مناطق آمنة.

ويظهر أن ما ذكره الحسن الوزان عن أوضاع مناطق سجلماسة في القرن العاشر الهجري كان استمرارا لما عرفته هذه المنطقة ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري. فغياب المعلومات المتعلقة بتاريخ سجلماسة ابتداء من أواخر القرن الثامن الهجري لا يؤكد إلا نتيجة مفادها أن المنطقة لم تعد لها أهمية كبيرة في اقتصاد المغرب، وأنها عرفت تراجعا كبيرا على مستويات متعددة، بسبب الفوضى التي عمتها. وكان من أهم نتائج ذلك تخريب مدينة سجلماسة وتراجع الحياة الحضرية بكل إقليمها.

فسيطرة عرب المعقل على سجلماسة ومجالاتها لم تكن وليدة الفترة التي عاش فيها الوزان، وما التطورات السياسية التي عرفتها هذه المدينة وإقليمها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي،

82) نفسه، ج 1. ص 149.

83) نفسه، ج 2. ص 130.

والمتمثلة في صراع أولاد حسين مع أبنـاء عمومتهم الأحلاف، إلا دليلا يـؤكد هذا الاتجاه، لأن حروب الطرفين كانت مؤشرا لبداية مسلسل تراجع المنطقة.

ورغم أن المتتبع لتطور الأحداث بمناطق سجلماسة في هذه الفترة لا يجد تفاصيـل ما حدث بنـوع من التدقيـق في المصادر المتـداولة، فإن مـا ذكره الـوزان في القـرن العـاشر الهجـري لا يختلف عما يمكن استخـلاصـه من كتابات ابن خلـدون حول أوضاع هذه المنطقـة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجـري، حيث تظهر سجلماسة خاضعـة في كل شيء لسيطرة ذوي منصـور، وصراع بطـونهم فيما بينهـا كما يتضح ذلك من خـلال الفصل الخاص بالتطورات السياسية من هذا البحث.

فمن المعروف أن التحـركات المعقلية قـد ازدادت نشاطا بعـد موت أبي عنان فارس.(84) ومعنى ذلك أن هذه القبائل استغلت ضعف المخزن المريني لتعلن نفسها سيدة بمنـاطق استقرارها. وقد ساعدهـا استبداد الوزراء على السلاطين على التمادي في فرض قوتها، سعيا وراء تحقيق مصالح زعمائها. ونستدل على ذلك بما عـرفته منطقة سجلماسـة التي تأرجحت بطون ذوي منصور بها بين التبعية لوزيـر دون آخر من وزراء فاس، كما هو الحال في تحالف الحسن بن عمر مع الأحـلاف الذي زكى بـواعث الخلاف بين هؤلاء وأعدائهم أولاد حسين.

وإذا اعتبرنا أن اضطراب أوضاع سجلماسة قد عرف استمرارية ما بين منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي والقرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي سهل علينا فهم الأسباب الكامنة وراء ظهور مراكز بديلة في الجنوب المغربي، واختصاصها بـالنشاط التجاري، بعدما اضطرت القوافل التجـارية إلى الابتعاد عن مناطق سجلماسـة، بسبب اضطراب حبل الأمن وانعدام الظروف الملائمة لممارسة النشاط التجاري بها.

دفع اضطـراب الأوضاع السيـاسية والاجتماعيـة بمنطقة سجلماسـة في المرحلة الفـاصلة بين منتصف القرن الثـامن الهجري الـرابع عشر الميلادي والقرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، بأحد الدارسين إلى التساؤل

---

84) Brignon et autres, Op. Cit. p 155.

عن الكيفية التي كانت تتم بها المبادلات في هذه الظروف الصعبة بين سجلماسة والمناطق الداخلية للمغرب ؟ والإجابة عن هذا السؤال حسب نفس الرأي يستوجب تسجيل ثلاث ملاحظات أولها ضعف السلطة المركزية، وثانيها الصراع الاجتماعي بمجالات سجلماسة، وأخيرا تراجع استقلال هذه المدينة وضعف سلطتها الذي سمح للقوى المحلية بالهيمنة على مجالاتها.(85)

وبعد أن اندرست سجلماسة ولم تعد مركزا تجاريا مهما على طريق المغرب الأقصى – مالي ضعف نشاط الطريق الشرقي المتجه نحو مصر بدوره في نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بسبب انعدام الأمن. أشار R. Mauny إلى أن صحراء سرت التي كان يمر عبرها الطريق المتجهة نحو بلاد مصر أصبحت في هذه الفترة خاضعة لمراقبة الاعراب، فاستعاد الطريق الساحلي الأطلسي المغربي مكانته في المبادلات التجارية إثر ذلك.(86) وأشار Delachapelle إلى أن السبب في انحراف الطرق التجارية نحو الغرب من جديد يرجع إلى احتكاك تجار أوربا بسواحل المغرب الأطلسية في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وأن القوافل التجارية بدأت تتجه نحو مراكز جديدة بالسوس كما هو الحال بالنسبة لتكَاوست.(87)

لم تنقطع رحلات القوافل التجارية بين الشمال والجنوب طيلة العصر الوسيط، لأن ظروف انعدام الأمن التي سببتها العناصر العربية المعقلية لم تقض على التجارة الصحراوية بصفة نهائية، ودليل ذلك أن سكان قصور سجلماسة كان منهم من يتاجر مع بلاد السودان بعد تخريب عاصمة الإقليم، لكن هذه الظروف حولت اتجاه القوافل وسمحت بظهور مراكز جديدة. وقد أشار R. Mauny إلى أن طريق فاس – تمبكتو أصبحت تمر بوادي درعة بدل المرور بسجلماسة.(88) وصارت واحات درعة الشرقي وتكَاوست

85) D. J. Meunié Le Maroc Saharien, Op. Cit. p 404.
86) R. Mauny Op. Cit. p 305.
87) Delachapelle L'Esquise, Op. Cit. p 70.
88) R. Mauny : Op. Cit. p 436.

من أهم المحطات التجارية الفاعلة في العلاقات بين المغرب والسودان الغربي.(89)

أشار الوزان في معرض حديثه عن درعة إلى أنه كان بها بعض القصور الكبيرة أهمها قصر بني صبيح الذي كان يحكمه «رئيسان مختلفان يعيشان في نزاع وقتال دائمين، وبالأخص عندما يجب سقي المزروعات بسبب قلة الماء».(90) وإذا كان الوزان قد أشار هنا إلى اقتتال سكان بني صبيح حول الاستفادة من المياه فإن هذا الأمر يعتبر عاديا في مناطق الواحات بالنظر إلى النقص الواضح في مصادر المياه بها.

ويستفاد من وصفه لدرعة أيضا أن الاعراب كان لهم حضور قوي في هذه المناطق كما هو الحال في كل مناطق بلاد القبلة قال «ولأهل درعة عدة رؤساء يتحاربون باستمرار، ويستعين كل فريق بالاعراب المجاورين الذين يتقاضون مقابل ذلك أجرة كبيرة قدرها نصف مثقال لليوم لكل فارس يقاتل لحسابه. لكن هؤلاء الاعراب تؤدى لهم الأجرة يوما ليوم، وعن الأيام التي استعملوا فيها أسلحتهم فقط».(91)

لم يكن وضع الاعراب بدرعة في القرن العاشر الهجري مماثلا لوضعهم في سجلماسة لأنهم في الأولى كانوا أداة يستعين بها السكان في حروبهم ضد أعدائهم مقابل أجر معلوم، وهذا ما يؤكد أن المبادرة في الهجوم لم تكن لهم، وإنما كانت لسكان بلاد درعة من المستقرين. خلافا لمناطق سجلماسة التي كان عرب المنابهة والعمارنة يفرضون على سكان الرتب ومدغرة وتافيلالت الاتاوات والمغارم، كما يفرضونها على التجار المارين بمناطق استقرارهم.

وعليه، فإن ما ذكره الوزان عن سكان قرية بني صبيح يؤكد فعلا أن درعة في القرن العاشر الهجري كانت أكثر ملائمة لممارسة النشاط التجاري من سجلماسة. ويظهر ذلك من قوله «وسكان هذه القرية أشداء كرماء،

---

89) D. J. Meunié : Le Maroc Saharien, p : 396.

90) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 119.

91) نفسه، ص 120.

يضيفون التاجر على حسابهم لمدة سنة كاملة أو أكثر. ولا يأخذون منه إلا ما يتركه لهم عن طيب خاطر».(92) وربما كان لهذا العامل دوره في أن أصبحت منطقة درعة الشرقي مركزا مهما في التبادل التجاري على طريق فاس تمبكتو. وقد ذكر الوزان أنها كانت تضم أربع قرى كبيرة، يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد والتجار الدرعيون.(93)

ولم يقتصر دور مناطق درعة في إنعاش القطاع التجاري زمان الوزان على مد التجار بالميرة بل تعداه إلى تجهيزهم بالسلع المحلية كما كان عليه الأمر في سجلماسة قبل اندراسها فساهمت بذلك في نشاط الطريق التجاري الرابط بين فاس وتمبكتو،(94) وذكر الوزان في معرض حديثه عن الفلاحة بدرعة أن بها بساتين نخيل تنتج ثمرا غليظا من النوع الممتاز يمكن أن يدخر سبع سنوات في مستودع دون أن يفسد.(95) في حين لم يذكر شيئا عن جودة التمور بسجلماسة الأمر الذي يؤكد أن تمور درعة عوضت مثيلاتها السجلماسية في الأسواق الداخلية والخارجية.

كما سجل الوزان الأهمية التي كانت لمدن السوس في التعامل التجاري في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، واعتبر تكَاوست أهم مدن السوس على الاطلاق، كما سجل أهمية وجودة منسوجاتها الصوفية التي يحملها تجار هذه المدينة مرة في السنة إلى تمبكتو وولاتة ببلاد السودان.(96)

أقام الوزان بمدينة تكَاوست ثلاثة عشر يوما من سنة 919هـ / 1502م، وسمحت له هذه الزيارة بمعرفة التحول الذي عرفته منطقة سوس في مجال التجارة، بعد أن أصبحت صلة وصل بين بلاد السودان والتجار الأوربيين. غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن القافلة السنوية التي كانت تسير من تكَاوست إلى تمبكتو تعتبر مؤشرا عن ضعف التبادل التجاري بين المغرب

92) نفسه، ص 119 - 120.

93) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 119.

94) نفسه، نفس الصفحة.

95) نفسه، نفس الصفحة.

96) نفسه، ج 1. ص 96.

وبلاد السودان، مادام التجـار كانوا ينتظرون موسم الـرحلة مرة واحدة في السنة.

وعلى بعد ستين كيلومتر شرق شمال شرق مدينـة تكَـاوست كانت قرى إفران في الأطلـس الصغير تلعب دورا كبيرا في توفير سلع التبـادل التجاري مع بلاد السودان.(97) وعددها أربعـة قال الوزان أن سكانها أغنيـاء نسبيا لأنهم يتجرون بسلعهم مع البرتغاليين في ميناء غاركسينة(*) فيأخذون منهم الثياب الخشنـة والقماش وغير ذلك، ويحملونها إلى بـلاد السودان كـولاتة وتمبكتو – ويقطن في هذه القصور صناع عديدون ولاسيما صانعو الأواني النحاسيـة التي تروج كثيرا في بلاد الزنـوج، وذلك لوجود عـدد من مناجم النحاس في نواحي إفران عند قدم الأطلس.(98)

لم يكن هـذا الازدهار الـذي عرفتـه المواقع الجنـوبية الغـربية للمغـرب الأقصى وليد المرحلـة التي زار الوزان فيها هـذه المناطق على مـا يظهر. بل يعـود إلى المراحل الســابقة لها. ويغلب على الظن أن ازدهـارهـا واكب فترة تراجع مـدينة سجلماسـة، لأن ظروف انعـدام الأمن في هذه الأخيرة أرغمت القوافل التجارية على البحث عن مناطق آمنـة لمزاولة نشاطها التجاري، وهو ما توفر لها في مناطق درعة الشرقي والسوس.

هـ – انهيار مدينة سجلماسة :

عرفت منطقة سجلماسة تراجعا اقتصـاديا وسياسيا في منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي نتيجة ضعف السلطة المركزية بالمغرب الأقصى وتحكم القـوى المحليـة في مجالاتها. وقـد سبقت الإشـارة إلى الاضطـراب العام الـذي أصبحت تعيشـه المنـاطق الجنوبيـة بسبب تـدخل العناصر العربيـة المعقلية في الشؤون السياسية وما كـان لذلك من انعكاس سلبي على الأوضاع الاقتصادية بها.

---

97) D. J. Meunié Maroc Saharien, Op. Cit. p 399.

*) المقصود بها ماسة على رأي محقق كتاب الوزان انظر هامش رقم 5 ص 117. من الجزء الثاني.

98) الوزان، م. س. ج 2. ص 117.

وكان لصـارع أولاد حسين مع الأحـلاف بالغ الأثـر في تزكيـة وضعية الفوضى التي عمت سجلماسـة بعد موت السلطان أبي عنـان فارس. فمنذ سنة 762هـ / 1363م تدخلت بطـون ذوي منصور في الشؤون السيـاسية للمغرب الأقصى بشكل لم يسبق لـه مثيل، وانعكست خلافـاتها على جهود أبناء أبي علي عمر في الاستقلال بمناطق سجلماسة.

قال Godinho بأن سجلماسـة خربت سنـة 1362م من طـرف الأحلاف وأولاد حسين.(99) وعليـه، فإن صراع هـؤلاء فيما بينهم هـو المسـؤول عما عرفته المنطقة من تراجع، لأنـه حتى إذا اعتبرنا أنه لم يأت على هدم المدينة واندراسهـا منذ جولاته الأولى في ستينـات القرن الثامن الهجري، فإنـه هو الذي تسبـب في ذلـك في المراحل التي تلتها. وقد استمرت سجلماسـة قائمة بعد التاريخ الذي أشار إليه Godinho بدليل توفرنا على عملات ذهبية ضربت بها في عهد السلطـان المريني أبي فـارس عبد العـزيز (796هـ - 811هـ / 1393 - 1408م).

مثلت مرحلة حكم أبي العباس أحمد بعد بيعته الثانية بفاس فترة انفراج في حجم صراع بطون ذوي منصور بسجلماسـة. ويرجع السبب في ذلك إلى كـون زعيم أولاد حسين يوسف بن علي ابن غـانم كان منشغـلا بالـوضع السياسي في العـاصمة المرينية فاس. وكـان يدعو إلى السلطـان أبي العباس أحمد، ويراسل سلاطين غـرناطة في أمر إعادته إلى المغـرب. وكان من نتائج ذلك ذهـاب أغلب جموع أولاد حسين من القـادرين على حمل السـلاح من مناطق تيزيمي وسجلماسة إلى المناطق المجاورة لفاس، للمشاركة في حصار السلطان أبي العباس أحمد لها.

وكان لانسحـاب يوسف بن علي بن غانم عن مناطق سجلماسـة أثره في استقرار أوضاع المنطقة، وهو ما سمح لعرب الأحلاف بالسيطرة عليها دون منـازع. لكن عودة زعيم أولاد حسين إلى تيـزيمي بعـد نجاح أبي العبـاس أحمد في دخول العـاصمة فـاس كان إيـذابا بعـودة أوضاع سجلماسـة إلى سابق عهدها.

99) Godinho, Op. Cit. p : 106.

كان من شأن مساعدة يوسف بن علي بن غانم للسلطان أبي العباس أحمد أن يمكن أولاد حسين من الحظوة بامتيازات كبيرة في منطقة سجلماسة، لكن هذه المدينة لم تكن خالية من نفوذ منافسيهم من عرب المنبات والعمارنة الذين استغلوا فترة غيابهم بفاس لفرض سيادتهم عليها. ومن ثم، فإن عودة أولاد حسين إلى مناطق سجلماسة معناه اشتعال نار الفتنة من جديد بينهم وبين الأحلاف.

وبناء عليه يسهل علينا تفسير ما كتبه الحسن الوزان حول تخريب مدينة سجلماسة، حين قال بأن أهلها ثاروا في عهد أبي العباس وخربوا السور الخارجي للمدينة وقتلوا الوالي وتفرقوا في القصور الكبرى المحصنة.(100) سنة 796هـ / 1393م ويستفاد من ذلك ثلاث قضايا أولهما ثورة الأهالي، وثانيهما قتل الوالي، وأخيرا التخلي عن سكن الحاضرة واللجوء إلى سكنى القصور، أي العودة إلى البداوة.

فإذا حاولنا البحث عن الأسباب التي أدت بالسكان إلى الثورة على المرينيين وقتل واليهم على سجلماسة فإن المصادر لا تعطينا أدنى إشارة عن ذلك، خصوصا وأن الحسن الوزان انفرد بذكر هذا الخبر دون غيره من المؤلفين. لكن تأمل تطور الأوضاع بسجلماسة في عهد أبي العباس أحمد يساعد على فهم ما جرى بسجلماسة في تلك الفترة. فقد كان تاريخ هذه المنطقة محكوما بالصراع بين بطون ذوي منصور، في النصف الثاني من القرن 8هـ / 14م وكان أولاد حسين منهم على علاقة طيبة بالسلطان أبي العباس أحمد، وهو ما لم يكن لأعدائهم عرب الأحلاف أن يقبلوه. وهكذا فإن قتل الوالي قد تم على يد الأحلاف انتقاما لأنفسهم من المرينيين وأولاد حسين على حد سواء.

أشار الوزان إلى أن هذا الحدث أتى أيضا على تخريب السور الخارجي لمدينة سجلماسة، ومعنى ذلك أن هذه المدينة عاشت مدة تحت وطأة الحصار قبل أن يخرب سورها من طرف الأحلاف الذين أبعدوا عن المدينة بعد عودة أولاد حسين من فاس.

100) الحسن الوزان، م. س. ج 2. ص 126.

أما ما أورده الوزان عن مغادرة سكان سجلماسة لها وسكناهم بالقصور الكبرى فلا يعني أن الأمر يتعلق بظهور نمط سكني جديد في هذه المناطق. لأن القصور قديمة بها قدم المدينة نفسها، بدليل الدور الحيوي الذي لعبته في مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والفكرية في الفترة التي كانت المدينة فيها ما تزال قائمة وتعرف ازدهارا حضريا كبيرا.

يمثل نص الوزان الوارد أعلاه المصدر الرئيسي لمعلوماتنا حول الكيفية التي انتهت بها مدينة سجلماسة في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ولا وجود لأية إشارات أخرى حول هذا الموضوع في مختلف المصادر. وهذا ما يجعل نهاية هذه المدينة غامضة وغير معروفة.

فهل تكفي إشارة الوزان هاته لتفسير اندراس مدينة عرفت مرحلة من الازدهار دامت ما يقرب من ستة قرون ؟

إن ما ذكره هذا المؤلف حول تخريب مدينة سجلماسة يعكس وضعية الاضطراب التي عاشها إقليمها بسبب صراع بطون ذوي منصور غير أن ثورة أهاليها على عامل السلطان أبي العباس أحمد التي كانت تتويجا لنصف قرن من الصراع القبلي لا يمكن أن تكون العامل الوحيد الذي أتى على اندراس المدينة وهو ما يستدعي البحث عن عوامل أخرى. منها ما سبقت الإشارة إليه كعامل انحراف الطرق التجارية نحو الشرق، الذي ارتبط بظروف انعدام الأمن أي بالصراع بين بطون عرب المعقل فيما بينها واعتراضهم للقوافل التجارية. خاصة وأن ابتعاد الطرق عن سجلماسة قد سبب في ضعف مواردها وأثر على حيويتها في المجال الاقتصادي.

يضاف إلى ذلك أن سجلماسة لم تكن معزولة عما كان المغرب الأقصى يعانيه من ضعف في المجال السياسي ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وإن كان لها في ذلك مزيد قوة اختصاص. فقد شجع ضعف السلطة المركزية بفاس القبائل على السيادة بمجالاتها، وكان لذلك أثر كبير في ضعف النشاط الاقتصادي، بأن انعدم الأمن في الطرقات، وقل الإنتاج الفلاحي وتضرر قطاع التجارة والحرف في مدن عديدة لأنها أصبحت معزولة عن باديتها.

فقد مثل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي فترة تراجع لبعض المدن في المغرب الأقصى كما شهد اندراس البعض الآخر كما هو الحال بالنسبة لسجلماسة وتامدلت. وقد أشار Gaston deverdun إلى أن مراكش عرفت ضعفا اقتصاديا كبيرا في هذه الفترة، وأن دار سكتها توقفت عن ضرب العملة في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.(101)

وذكر أحد الدارسين أن أزمة المدينة المغربية التي استفحلت في القرن الخامس عشر الميلادي تعود بأصولها إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، لأنه بعد موت أبي عنان فارس عمت الفوضى المغرب الأقصى، وانعكس ذلك بشكل سلبي على تطور المدن. وهذا ما يؤكد وجود علاقة متينة بين الاستقرار السياسي وازدهار المدن في المغرب الأقصى. يضاف إلى ذلك أن التجارة البعيدة المدى كانت تشكل المصدر الأساسي لازدهار المدن ومداخيل المخزن فكان لضعفها أثره في ضعف المدينة والمخزن على حد سواء ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، وطيلة القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.(102)

وإذا كانت المدينة المغربية قد عرفت ضعفا بينا في هذه الفترة بصفة عامة، فإن بعض هذه المدن لم تستطع مقاومة ما أملته هذه المرحلة من مستجدات واختفى نهائيا من الخريطة الحضرية للمغرب الأقصى. فمدينة تامدلت التي أسست سنة 212هـ / 828م من طرف الأدارسة، خربت في أواخر القرن الثامن الهجري، بعد أن أثر تحرك قبائل ذوي حسان على استغلال مناجم الفضة بها، وأثر على نشاطها التجاري بسبب ظروف انعدام الأمن، كما هو الحال بالنسبة لسجلماسة.(103) كما عرفت مدينة عوام،(104) نفس مصير تامدلت وسجلماسة في المرحلة المرينية.(105)

---

101) Gaston Deverdun; Marrakech, T. 2 Op. Cit. p : 343.

102) M. Fatha, Op. Cit. p : 299 - 300.

103) B. Rosemberger, Tamdut, Op. Cit. p 136 - 137.

104) يسكن عمال مناجم جبل عوام اليوم قرية تيغزى الواقعة إلى الجنوب الغربي من مريرت.

105) B. Rosenberger, Exploitation minière, 2 eme partie, Op. Cit. p : 92.

أكد تيراس H. Terrasse على عملية التراجع التي عـرفتها الحيـاة الحضرية بالمغرب المريني، واستدل على ذلك بـاختفاء عدد كبير من المدن تحت ضغط الفوضى التي عمت أغلب مناطق البلاد بعـد ضعف السلطة المركزية بفاس. وقـال بأن المدن المغـربيـة كـانت شبـه معـزولـة عما كـان يحيط بها من مناطق.(106) وأصبح المغـرب الأقصى يعيش في فـوضى عارمـة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الـرابع عشر الميلادي نتيجة ظروف انعدام الأمن وكـان من نتـائج ذلك تراجـــع الحـــياة الحضرية وطغـــيان الحيـاة البدوية به.(107)

وهكـذا تراجع ازدهـار المدن المغـربية لما عجـز القرار السيـاسي بها على الاستمرار في السيطرة على ما يحيط بها من مجال. ففشلت في مراقبة المناطق الأساسيـة الفاعلة في نشـاطها التجاري ســواء بما توفـره من سلع أو مواد أولية أو بما تلعبه من دور في ربطها بباقي المناطق المغربية الأخرى.

ذهب أحد الدارسين إلى القول بأن اندراس مدن المغرب الأقصى بما فيها مدينـة سجلماسة ارتبط بالغزو البرتغـالي للمغرب،(108) ويصعب التسليم بهذا الرأي لأن انهيار سجلماسة في المرحلـة الواقعة بين النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي والنصف الأول من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي. كان بسبب ما عرفته من فوضى ناتجة عن صراع بطون عرب المعقل بها ولا وجود لما يدل على تأثـرها بالغزو البرتغالي لسواحل المغرب.

واعتبرت D. J. Meunié مشكل الماء من أهم الأسبـــاب التي أدت بمـدينـة سجلماســة إلى الانهيار، بسبب غـور العيـون في مجالاتها في القرن الثـامن الهجـري الـرابع عشر الميـــلادي، وارتفـاع مستـوى سطح الأرض بها عن مستوى جريان الماء في وادي زيز.(109)

---

106) H. Terrasse, Histoire du Maroc, Op. Cit. p : 24.
107) Ibid, p : 72.
108) ماجدة كريمي، م. س. ص 187 – 188.
109) D. J. Meunié, Le Maroc Saharien, Op. Cit. p : 296.

لكن الحديث عن قلة المياه بسجلماسة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي لا يجد ما يبرره في النصوص الجغرافية المتداولة، لأن أغلب الجغرافيين لم يذكروا أدنى إشارة عن قلة الماء في وادي سجلماسة طيلة العصر الوسيط وإلى حدود القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي حين ذكر الوزان أن وادي زيز يكون بحيرة وسط الرمال إلى الجنوب من مدينة سجلماسة.(110)

صحيح أن مستوى سطح الأرض يعرف ارتفاعا في سجلماسة بسبب تراكم الطمي المنقول عبر فيضانات وادي زيز وغريس بنسبة تتراوح ما بين 0,5 و1 سنتم في العام الواحد أي ما يعادل حوالي متر في كل قرن من الزمن.(111) ويفهم من ذلك أن مناطق سجلماسة ارتفعت بمستوى ستة أمتار في المرحلة الزمنية الواقعة بين تاريخ تأسيسها وأواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. لكن مدينة سجلماسة تحتل كما هو معلوم موقعا متميزا في سهل تافيلالت لأنها بنيت على وسط طبيعي مرتفع عن المناطق المجاورة لها. وخرابها اليوم يمتد على هضبة مرتفعة نسبيا عن مستوى غمر مياه الفيضانات، وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد في أن ارتفاع سطح التربة بسبب تراكم الطمي كان مضرا بعالمها القروي وليس بموضع المدينة الذي كانت المياه تحيط به من كل جانب.

ويبقى كل ما قيل في موضوع انهيار مدينة سجلماسة بسبب مشكل الماء مجرد افتراضات تحتاج إلى المزيد من البحث والتقصي وهو ما يستدعي إقامة تنقيبات أثرية بها لفك غموض جوانب كثيرة في موضوع تعميرها بما في ذلك تاريخ تأسيسها وسبب وتاريخ اندارسها.

---

110) الحسن الوزان، م. س. ج 2 ص 255.

111) J. Margat, Note sur la morphologie, Op. Cit. p : 257.

خاتمة

اتفقت كتب الجغرافيا التي تم تأليفها ما بين القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي والقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي على القول بأن سجلماسة شديدة الحر كثيرة القيظ قليلة المطر غالبا ما تهب عليها الرياح الغبارية فتعدو عليها الرمال وتغير ما بها من الأحوال.

وتنتمي التربة في مناطق سجلماسة لما يسمى في كتب الفلاحة العربية بالأرض السبخة وهي بذلك تربة مالحة وكذلك جميع ما ينبط بها من المياه. ونعرف أن الملوحة تقضي على النباتات في أصلها وأنها من العوائق التي تحول دون تحقيق إنتاج زراعي وافر.

لكن إنتاج سجلماسة من الحبوب في الفترة التي اهتم بها هذا البحث فاق الاستهلاك المحلي وعرف طريقه إلى الأسواق السودانية. وقد ناقشنا في الفصل الأول من هذا البحث هذا التناقض الواضح بين ما ذكرته كتب الجغرافيا عن قساوة المناخ وملوحة التربة بسجلماسة ووفرة إنتاجها من الحبوب وخلصنا إلى أن ازدهار النشاط الزراعي بمناطق سجلماسة وارتفاع مردوديته كان وليد العوامل التالية

- وفرة المياه في وادي زيز.
- دور توضعات الأنهار في تخصيب التربة والتقليل من عقمها الناتج عن ملوحتها.
- ازدهار تقنيات الري.
- وجود سهل فسيح في المناطق الجنوبية للإقليم إلى الشمال والشرق من موضع مدينة سجلماسة.

وانتهينا في الفصل الثاني الخاص بالسكن والسكان في المنطقة المعنية بالدراسة، إلى القول بأن موقع الإقليم في المناطق الجنوبية أهله لأن يكون مأهولا منذ عصور غابرة من التاريخ. لأن واحاته تغري العنصر البشري وتشجعه على الاستقرار، فضلا عن أن هذه المناطق كانت في مجالات القبائل الصحراوية وفي منقلب رحلتها من الجنوب إلى الشمال في العصر الوسيط.

وتبين لنا من خلال دراسة أشكال السكن القروي في مجالات سجلماسة أن ما يعرف بالقصر هو تجمع سكني عرف منذ القدم بهذه المناطق، وهو سابق لبناء المدن بها على ما يظهر خاصة مدينة سجلماسة التي كانت تتخذ شكلا مستطيلا، لأن الصور الجوية أكدت أن خرابها يمتد على مسافة 3 كلم طولا وما بين 500 و1000م عرضا، فيستنتج من ذلك أنها استلهمت هذا الشكل من معمار القصور التي تتخذ في أغلب الأحيان بتافيلالت شكلا مستطيلا.

وقد لعبت القصور دورا مهما في مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بإقليم سجلماسة. واضطلعت بالمهام التي كانت من اختصاص مدينة سجلماسة بعد تخريبها، كما هو الحال بالنسبة لتنجيوت وتابعصامت والمامون.

وتم التمييز في هذا البحث بين طورين من أطوار تعمير إقليم سجلماسة أولهما يبتدئ بمرحلة ما قبل تأسيس مدينة سجلماسة في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي وينتهي مع بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وشهدت فيه هذه المنطقة استقرار عناصر السود والقبائل الصنهاجية والزناتية واليهود.

وثانيهما يبتدئ بتاريخ انتهاء الطور الأول وينتهي بالعصور الحديثة، وعرفت فيه المنطقة استقرار العنصر العربي المعقلي والشرفاء ولم تعرف قدوم عناصر جديدة بعد ذلك إلى حين مجيء قبائل أيت عطا. وفي هذا الطور بالذات تحكم عرب ذوي منصور بما فيهم المنبات والعمارنة أي الأحلاف وأولاد حسين في مجريات الأحداث بالإقليم فأثر ذلك بشكل سلبي على تطور الأوضاع بهذه المناطق، وساهم إلى أبعد الحدود في تراجع دورها الاقتصادي والحياة الحضرية بها.

وتم الاهتمام في الفصل الثالث من هذا البحث بالتطورات السياسية لسجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. في علاقتها بما سبقها من أحداث في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي واستنجبنا من ذلك أن سجلماسة

- وفـرت الدعم لبعض الخلفـاء ومكنتهم من استرجاع ملكهم في إطـار صراعهم مع منافسيهم، كما هو الحال في التجاء الخليفة الرشيد إليها.

- ولعبت دورا كبيرا في الصراع القـائم بين القوى السيـاسيـة الناشئـة ببلاد المغـرب فأعلن ولاتها تبعيتهم للحفصيين في إطار صراعهـم مع خلفاء مراكش.

- وأصحبت في هــذه الفترة محط أطماع كل من المرينيين والـزيــانيين والموحدين على حد سواء.

- كما أصبحت تحت سيطرة عرب المعقل وشهـدت تدخلهم في الشؤون السياسية لأول مرة، لما تحكم عرب المنبـات فيها وأعلنوا تبعيتهم ليغمراسن بن زيان سلطان تلمسان ما بين 660 - 673هـ / 1262 - 1274م.

كما أنها استقلت في مرحلة القوة المرينية أي في النصف الأول من القرن الثامن الهجـري الرابع عشر الميلادي عن العاصمـة فاس تحت قيادة الأمير أبي علي عمر. ولم تعد مجرد ولاية عادية بل قاعدة إمارة مرينية ضمت كل مناطـق الجنوب المغـربي. وهذا ما تبرره الحمـلات التي وجههـا هذا الأمير اعتمادا على جيـوشــه من عـرب ذوي منصور إلى منـاطق تـوات وســوس ومراكش.

كما حاولت الحفـاظ على استقلالها في النصف الثاني من القـرن الثامن الهجري تحت زعـامة أبناء أبي علي عمـر، وشهدت حكم ثلاثـة أمراء منهم وهم على التـوالي عبـد الحليم وعبد المؤمـن ومحمد بن عبـد الحليم. لكنهـا فشلت في الظهور بمظهر قوي نتيجة صراع بطون ذوي منصور فيما بينهم، وضعف مواردها من التجارة، بسبب انعـدام الأمن بها وابتعاد القوافل عنها للبحث عن مناطق آمنة.

وتبين لنا من خلال دراسة النشاط الاقتصادي بسجلماسة وإقليمها أن هذه المدينة لم تكن مجرد محطة تجارية لاستراحـة القوافل أو التقاء التجار قبل انطلاق الـرحلة في طـريق الذهاب إلى بـلاد السودان أو طـريق العودة منها، بـل كانت أحـد المراكز الـرئيسية في توفير سلـع المبادلات والـوسائل الضرورية للعمل التجاري وقتئذ.

فقد اشتهرت سجلماسة بإنتاج مواد زراعية لم تكن الظروف الطبيعية تسمح بإنتاجها في غيرها من مناطق شمال المغرب. كالتاكوت والتمور والحناء والنيلة وأمدت التجار بحاجتهم منها لتزويد الأسواق الداخلية والخارجية. كما وفرت وسائل التنقل للتجار ويتعلق الأمر بالجمال التي ما كان للتجارة الصحراوية أن تعرف نجاحا بدونها.

واتضح لنا من خلال تتبع دور سجلماسة في المبادلات التجارية أن هذه المدينة ساهمت بحصتها في السلع التي تم نقلها إلى بلاد السودان كما هو الحال في المصنوعات النحاسية والحديدية وأواني الفخار والمنسوجات الصوفية. وهذا ما يؤكد أنها لم تكن مجرد وسيط في عملية المتاجرة، وإنما كانت أحد المراكز الأساسية الفاعلة في هذا القطاع.

وفي الفصل الأخير حاولنا تفسير أسباب التراجع الذي عرفته منطقة سجلماسة على الصعيد الاقتصادي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري والأسباب الكامنة وراء اندراس مدينة سجلماسة، وخلصنا إلى أن ذلك كان وليد عوامل متعددة أهمها

- اضطراب أوضاعها الداخلية وانعدام الأمن بها، وتحكم القوى المحلية في مناطق استقرارها، وما رافق ذلك من فقدان مدينة سجلماسة لمراقبتها المباشرة على ما يحيط بها من مناطق.

- تغير الطرق التجارية وانحرافها نحو الشرق، وما كان لذلك من أثر في ضعف نشاط المدينة التجاري.

- انفتاح امبراطورية مالي على مصر.

- ظهور مراكز جديدة بالمغرب الأقصى وابتعاد القوافل التجارية عن المرور بمناطق سجلماسة.

الفهارس العامة

1 - فهرس الملاحق

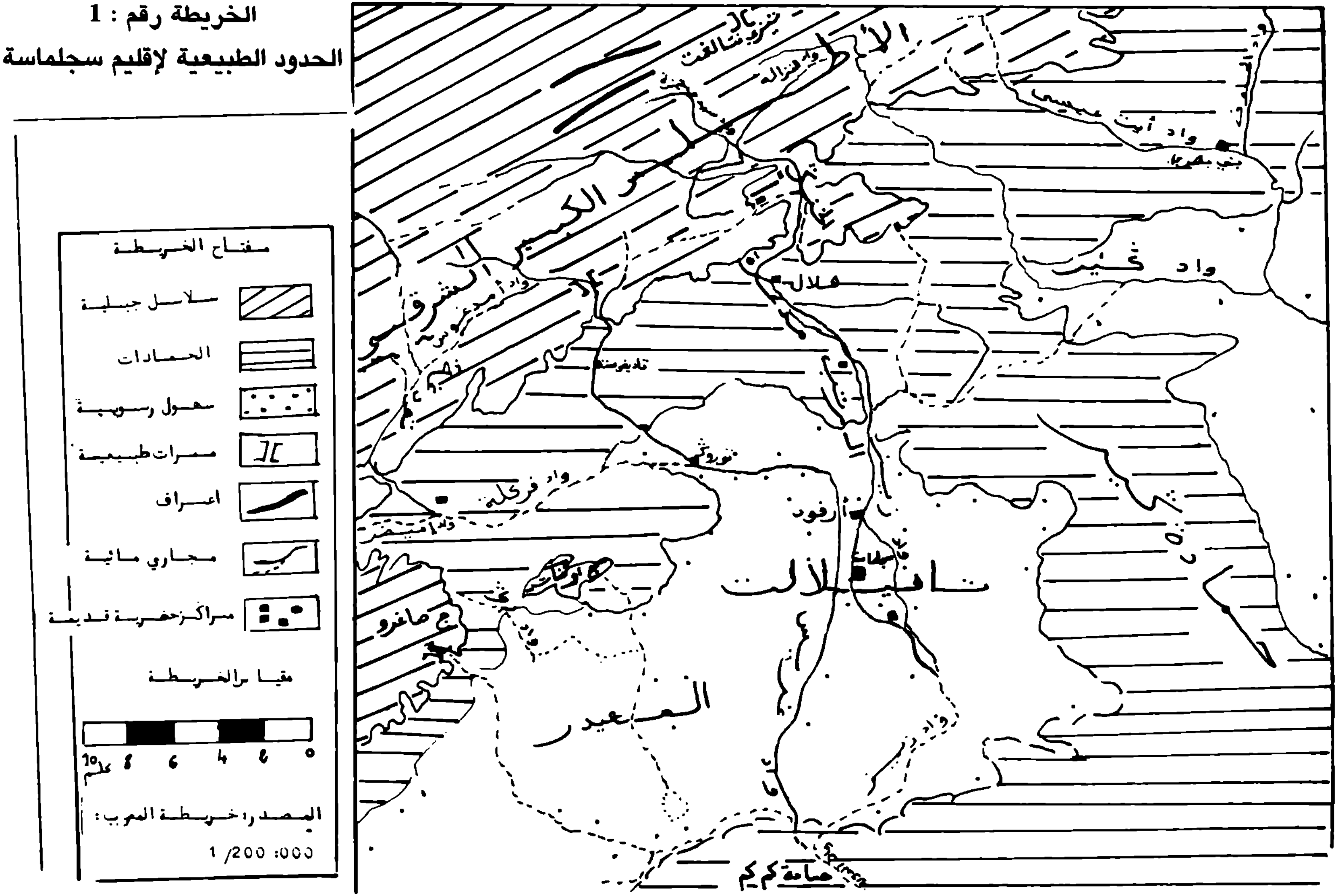
جدول خاص بالعملات التي ضربت بسجلماسة

الدولة	اسم الأمير	مكان ضرب العملة	تاريخ ضربها	نوعها	وزنها	قطرها
الأدارسة	إدريس بن عبد الله	تدغة	174هـ/790م	فضية	2,70 غرام	23 ملم
			183هـ/799م		2,30 غرام	26 ملم
بنو مدرار			334هـ/945م		4,5 غرام	19 ملم
	؟ الشاكر لله	سجلماسة	336هـ/947م	ذهبية	3,90 غرام	19 ملم
					1,4 غرام	30 ملم
			336هـ/947م		1,4 غرام	20,5 ملم
			"		3,90 غرام	19 ملم
					1,4 غرام	20 ملم
					4,5 غرام	19,5 ملم
					4,6 غرام	21 ملم
			365هـ/948م		4,5 غرام	19,5 ملم
			بدون تاريخ		2,9 غرام	21 ملم
مغراوة	مسعود بن واندين		بدون تاريخ		2,9 غرام	21 ملم
					2,3 غرام	10 ملم
					2,2 غرام	11 ملم
					2,5 غرام	15 ملم
					3,25 غرام	16 ملم
	بدون اسم				3,53 غرام	16 ملم
المرابطون	عبد الله بن ياسين		454هـ/1063م		؟	
	أبو بكر بن عمر		455هـ/1064م			؟

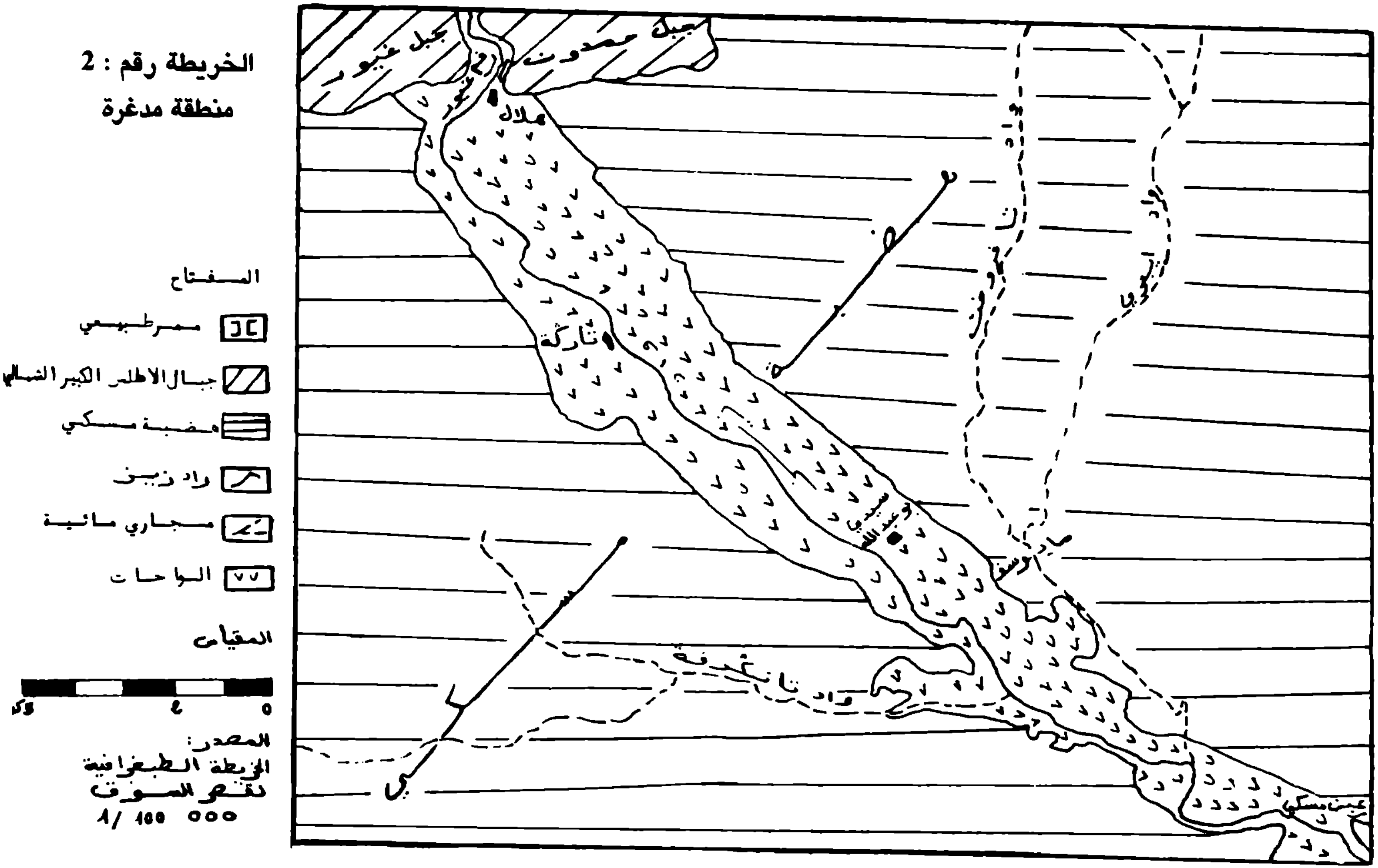
الدولة	اسم الأمير	مكان ضرب العملة	تاريخ ضربها	نوعها	وزنها	قطرها
المرابطون	أبو بكر بن عمر	سجلماسة	455هـ/1064م	ذهبية	؟	
			"	"		
			457هـ/1065م		؟	
			458هـ/1066م		؟	
	إبراهيم بن أبي بكر		467هـ/1069م		4,1 غرام	25 ملم
	بدون اسم		469هـ/1071م		؟	
			474هـ/1076م		؟	
			475هـ/1077م		؟	
			476هـ/1078م			
			477هـ/1079م		؟	
			478هـ/1080م		؟	
			479هـ/1081م			
	يوسف بن تاشفين		480هـ/1082م		9,33 غرام	24,5 ملم
			481هـ/1083م		4 غرام	25 ملم
			484هـ/1086م		4,19 غرام	
			485هـ/1087م		4,19 غرام	
			495هـ/1101م		4 غرام	
			497هـ/1103م		4 غرام	
الموحدون	المرتضي		بدون تاريخ		4,5 غرام	29 ملم
المرينيون	بدون اسم		بدون تاريخ		4,63 غرام	30 ملم
	أبو سعيد عثمان		710هـ/731هـ 1311م/1331م		4,58 غرام	30 ملم
	أبو فارس عبد العزيز		796هـ/811هـ 1393م/1408م		4,60 غرام	28 ملم
			"		4,63 غرام	30 ملم
					4,64 غرام	28 ملم

الخريطة رقم : 1

الحدود الطبيعية لإقليم سجلماسة

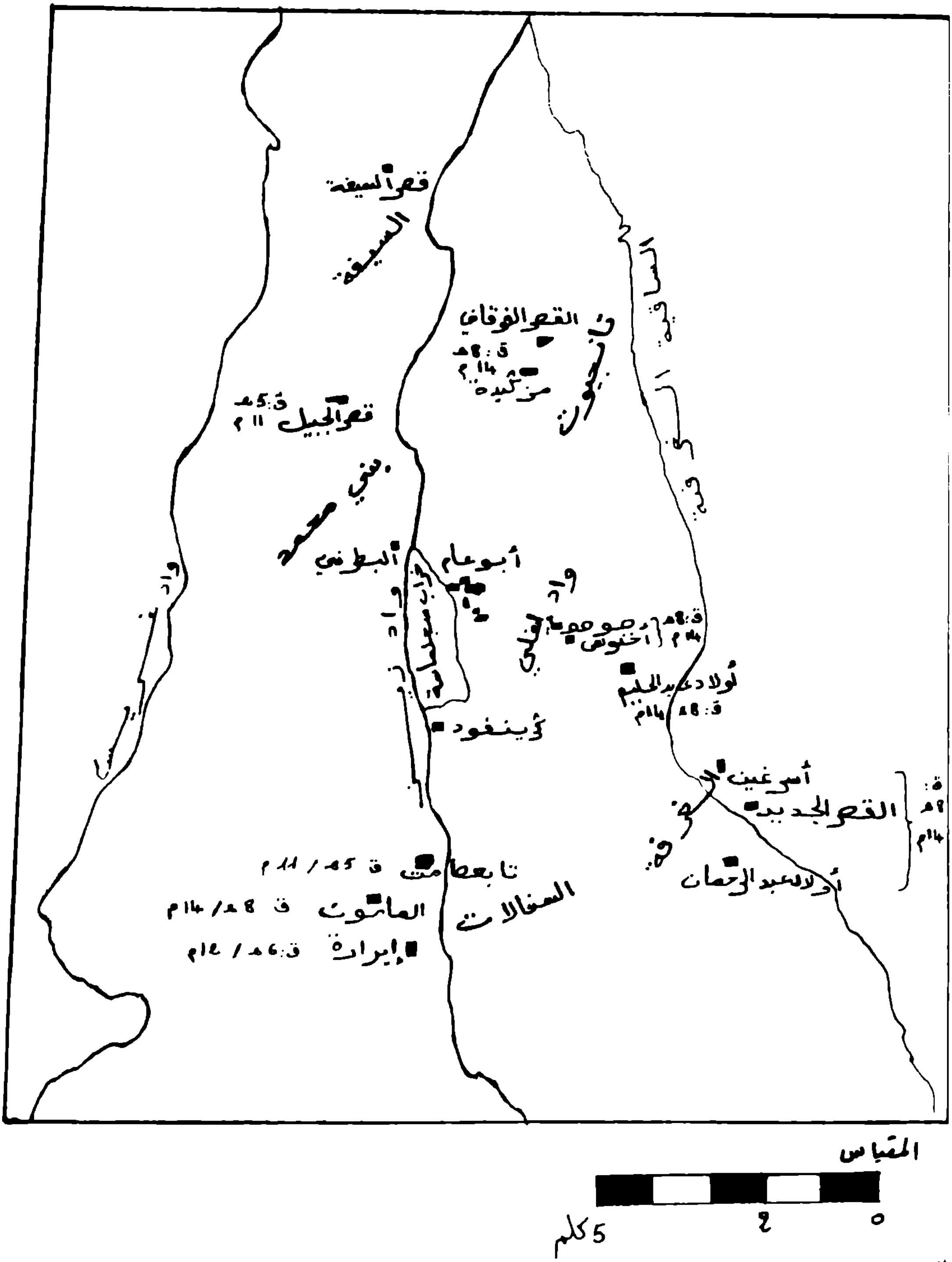


الخريطة رقم : 2
منطقة مدغرة



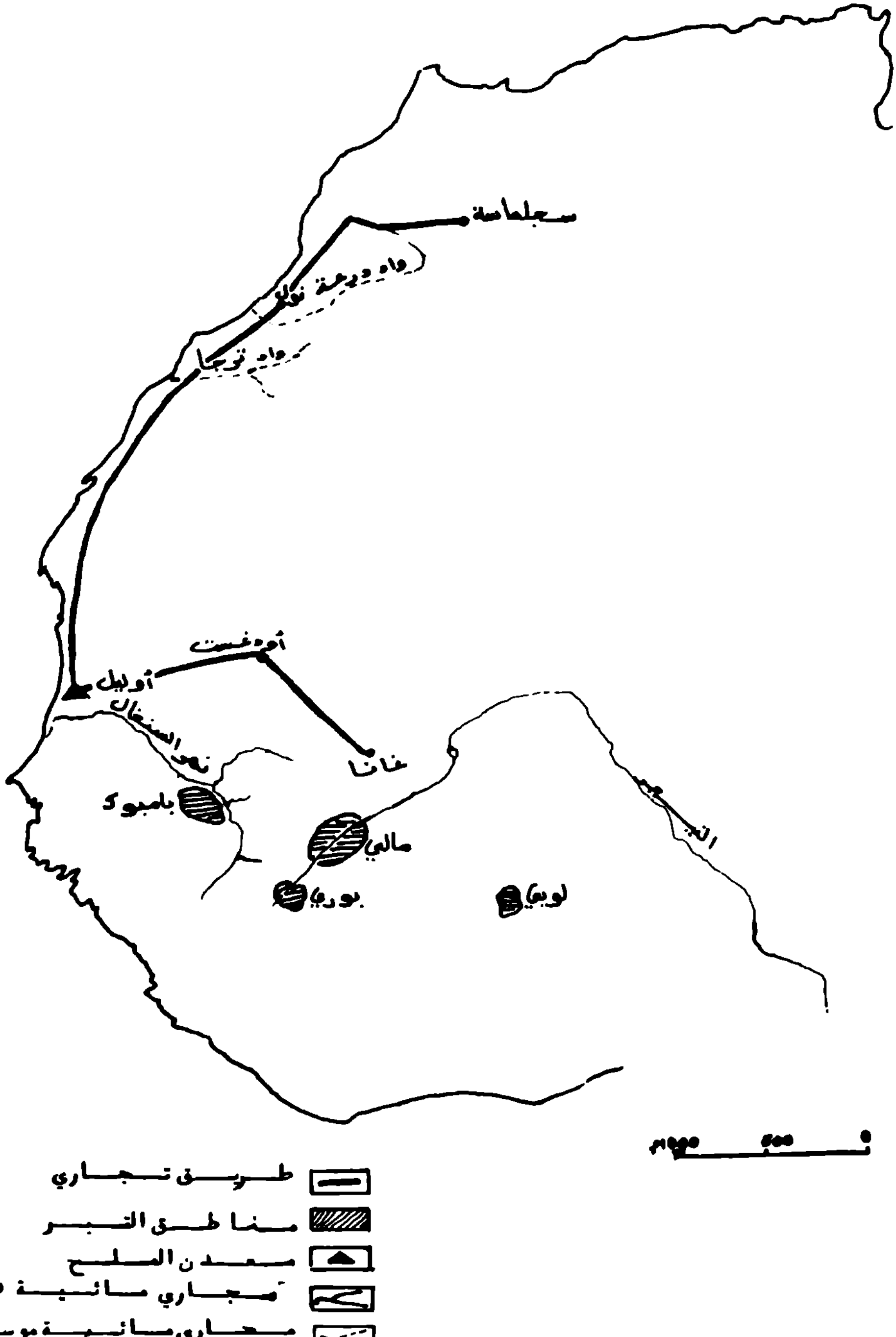
الخريطة رقم : 3

القصور القديمة بضواحي سجلماسة



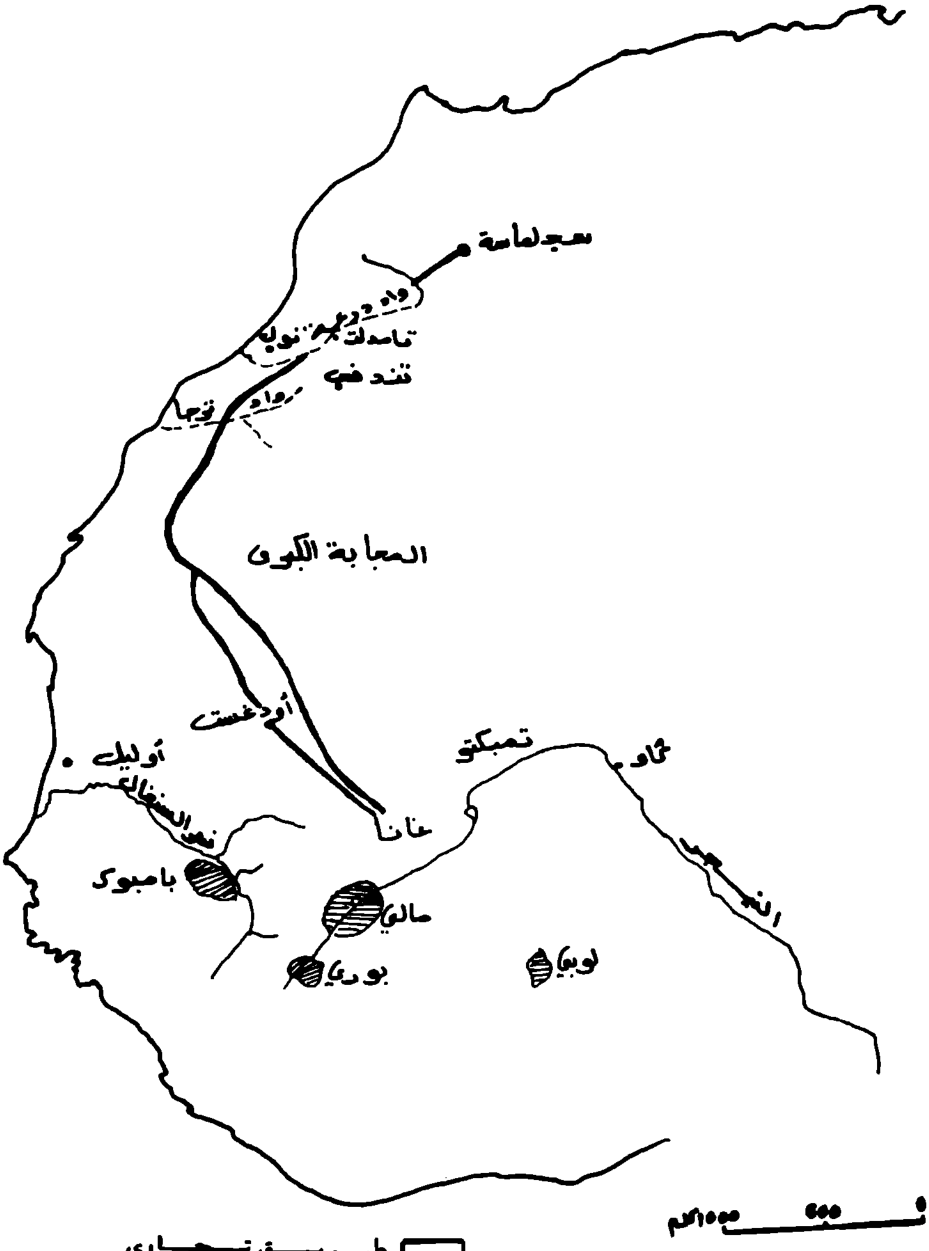
المصدر:
الخريطة الطبغرافية لارفود : 1/100.000

الخريطة رقم : 4
طريق سجلماسة - غانا عبر نول وممالح أوليل



الخريطة رقم : 5

طريق سجلماسة - غانا عبر وادي درعة ووادي ترجا



طريق تجاري

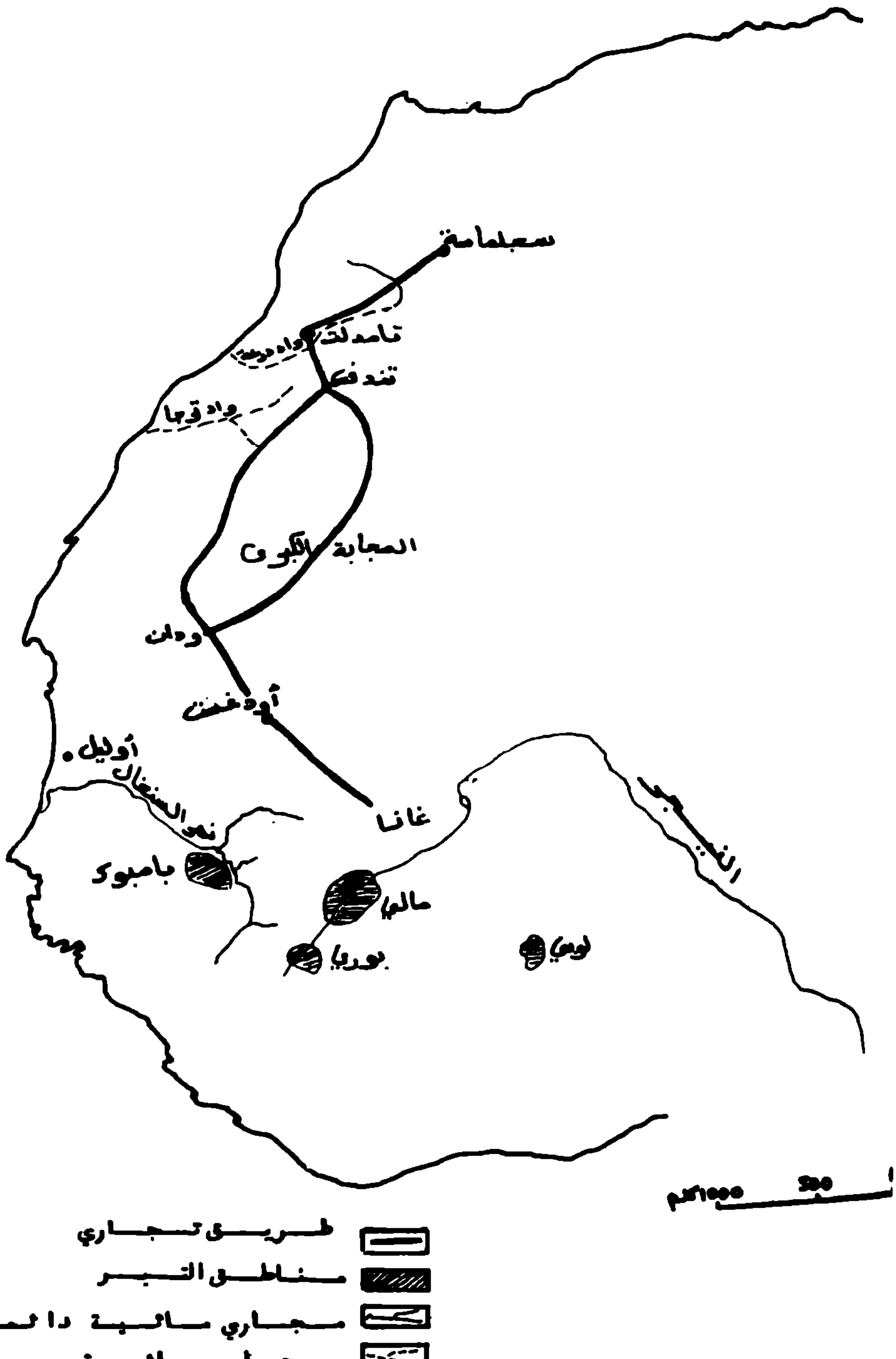
مناطق التبر

مجاري مائية دائمة

مجاري مائية موسمية

الخريطة رقم : 6

طريق سجلماسة – غانا عبر تامدلت وتندفس



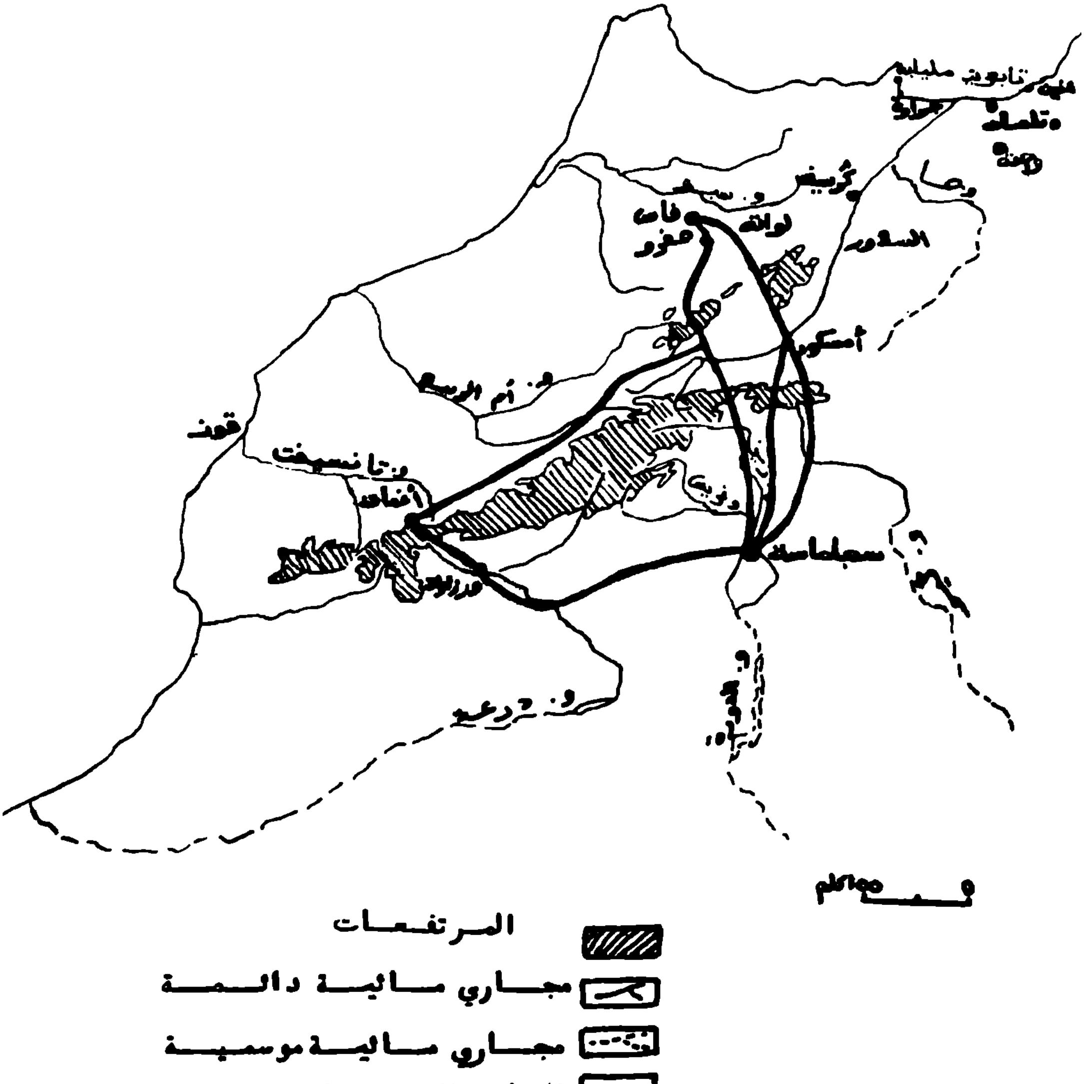
الخريطة رقم 7

طرق سجلماسة - غانا عبر ممالح تانتنال (تغازى)



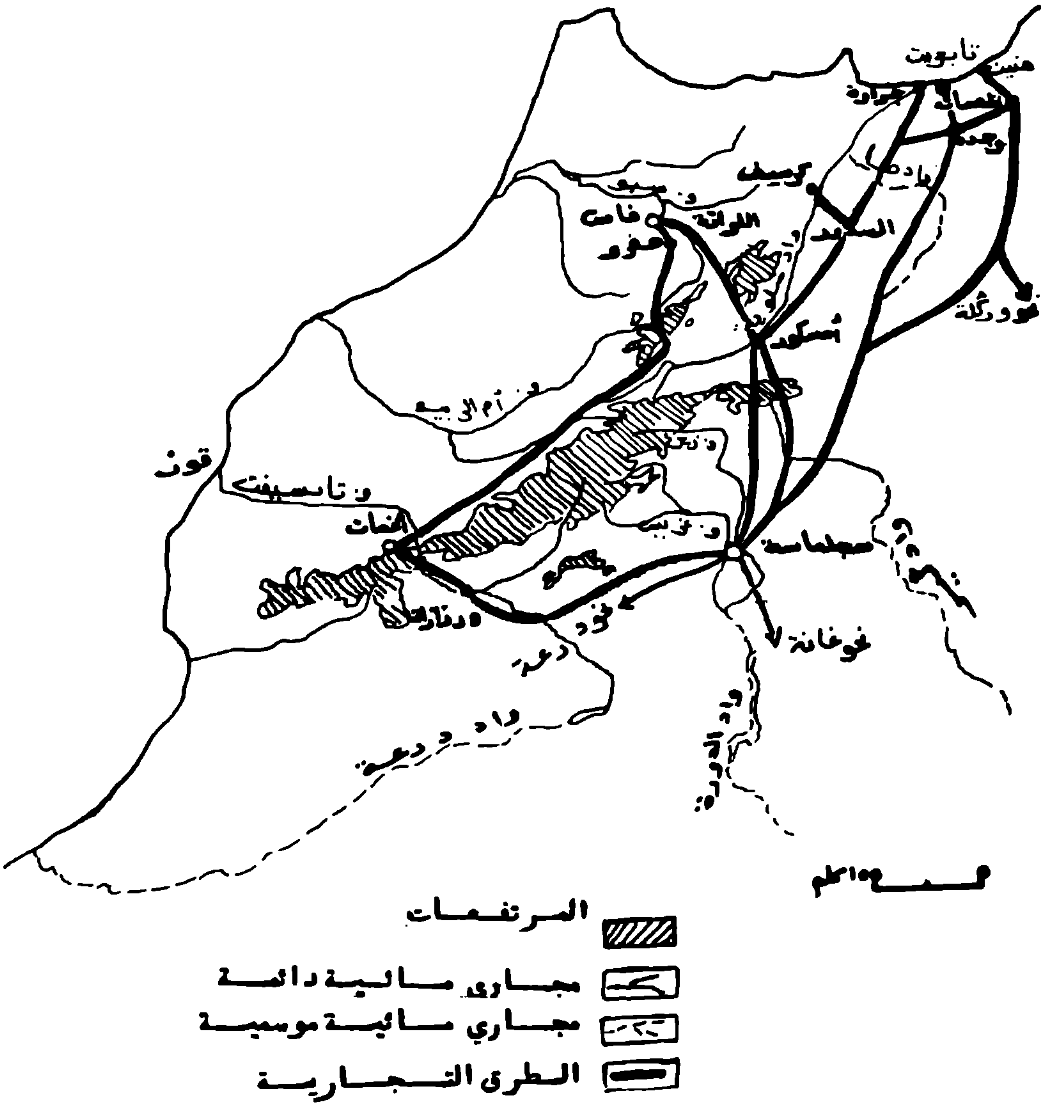
الخريطة رقم 9

الطرق التجارية الرابطة بين سجلماسة وفاس



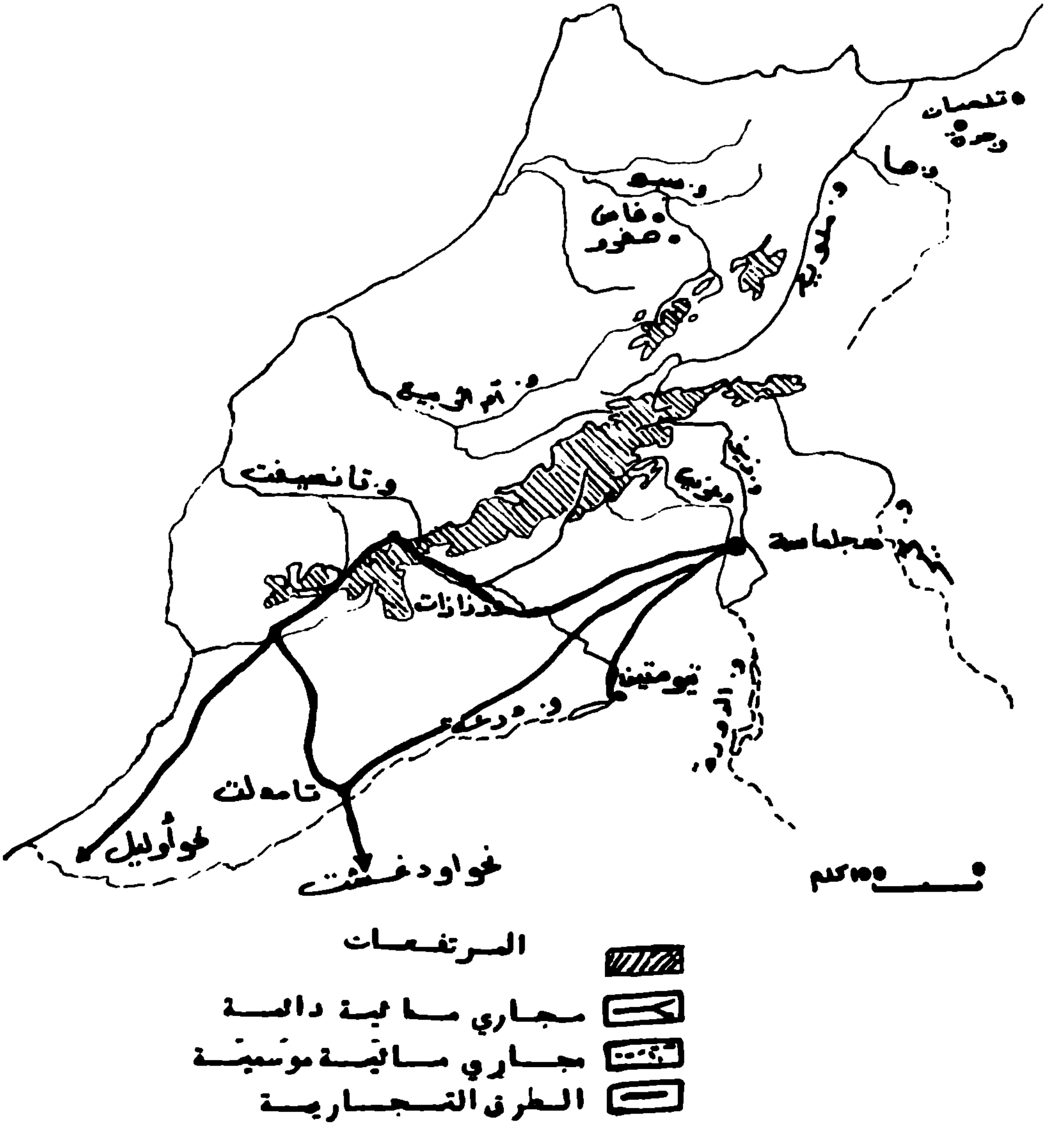
الخريطة رقم 10

الطرق التجارية الرابطة بين سجلماسة وتلمسان



الخريطة رقم 11

الطرق التجارية الرابطة بين سجلماسة وجنوب المغرب



2 - فهرس المصادر والمراجع

أ - المصادر العربية :

- ابن أبي زرع أبـو الحسن علي الأنيس المطـرب بروض القـرطـاس في أخبار ملـوك المغرب وتـاريخ مـدينة فـاس، دار المنصور، الرباط 1970.
- ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت 1975.
- ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف روضـة النسرين في تاريخ دولة بني مرين، باريس 1917.
- ابن حجاج الأندلسي الفلاحة، مخطوط خ. ع رقم د 1410.
- ابن أبي حجلة المغربي التلمساني الحنفي سكردان السلطان، القاهرة، 1306هـ.
- ابن حـزم أبو علي بن أحمد الأنـدلسي جمهرة أنسـاب العرب، بيروت، 1983.
- ابن حـوقل أبو القـاسم النصيبي صـورة الأرض، دار مكتبة الحيـاة، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن خلـدون عبـد الرحمان بن محمـد العبر، أجـزاء 6 و7، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1981.
- ابن خردادبة المسالك والممالك، المطبعة الحيدرية القاهرة، 1889.
- ابن الخطيب لسان الدين محمـد السلماني الإحاطة في أخبار غـرناطة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1975.
- " معيار الاختيـار في ذكر المعـاهد والـديار، مطبعـة فضالـة، المحمدية، 1976.

- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985.
- ابن الخطيب لسان الدين اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978.
- ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، الرباط، 1984.
- ابن السكاك نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، مخطوط خ. ع رقم ك 383.
- ابن سعيد أبو الحسن علي المغربي كتاب الجغرافيا، بيروت، 1970.
- ابن عبد العظيم محمد الأزموري بهجة الناظرين وأنس الحاضرين، ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين. مخطوط خ. ع رقم د. 1343.
- ابن عذاري المراكشي البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، البيضاء، 1985.
- ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي درة الحجال في غرة أسماء الرجال، الرباط 1970.
- ابن مرزوق محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان مولانا أبي الحسن، الجزائر 1981.
- ابن هلال إبراهيم السجلماسي الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، ط / فاس 1303هـ.
- نوازل ابن هلال السجلماسي، طبعة فاس، 1310 هـ.
- أبو الفدا المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسنية المصرية، بدون تاريخ.
- أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك في سياسة الملوك، تونس، 1279هـ.
- أبو سالم العياشي الرحلة العياشية، طبعة فاس، 1316هـ.

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأوسي تقييد من كتاب الفلاحة النبطية، مخطوط خ. ع. رقم د 1681، ضمن مجموع.
- أبو القاسم الزياني الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، مطبعة فضالة، المحمدية 1967.
- الإدريسي الشريف وصف افريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر، 1957.
- الاصطخري المسالك والممالك، القاهرة، 1961.
- البكري أبو عبد الله المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر، 1857.
- التنسي محمد نظم الدر والعصيان في بيان شرف بني زيان، الجزائر، 1985.
- الحكيم علي بن يوسف الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد السادس، العدد الأول والثاني، مدريد، 1950.
- الحميري ابن عبد المنعم الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، 1984.
- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت معجم البلدان، المجلد الثالث، بيروت 1957.
- الحسن الوزان الفاسي وصف افريقيا، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الرباط 1982.
- الحسن اليوسي المحاضرات، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.
- الكفيف الزرهوني ملعبة، تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، 1987.
- الزركلي خير الدين الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1979.
- الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس، 1966.

- الفضيلي الدرر البهية والجواهر النبويـة في الفروع الحسنية والحسينية، طبعة فاس 1314هـ.
- المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1909.
- المقري أحمد بن محمد القرشي نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مطبعة الحلبي وشركاؤه.
- المراكشي عبـد الواحـد المعجب في تلخيص أخبـار المغرب، دار الكتـاب، البيضاء 1978.
- السجستاني النخلة، مخطوط خ. ع. رقم د 1410.
- العباس بن إبراهيم الإعـلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، دار المنصور، الرباط 1974 – 1977.
- علي بن منون الحسني مجموع مؤلف من ظهـائر شريفة وعقود أنكحة متعلقة بـالشرفاء السجلماسيين وغيرهـم، مخطوط خ. ع. رقم د 723.
- القزويني زكـرياء بن محمـد آثار البـلاد وأخبار العبـاد، دار صادر، بيروت، 1969.
- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي صبح الأعشى في صناعة الانشا، المؤسسة المصرية، القاهرة، ج 5. 1915.
- اليعقوبي البلدان، المطبعة الحيدرية، 1957.
- مارمول كاربخال افريقيا، مكتبة المعارف، الرباط، 1984.
- مجهـول الاستبصـار في عجـائب الأمصار، دار النشر المغـربيـة، الـدار البيضاء 1985.
- مجهول الحلل الموشيـة في ذكر الأخبار المراكشية دار الـرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1979.
- مجهول الدخيرة السنية في تاريخ الـدولة المرينية، دار المنصور، الرباط 1972.
- الناصري أبو العباس أحمد طلعـة المشتري في النسب الجعفري، طبعة فاس، 1303 هـ.

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ 3 و4، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954 و1955.
- يحيى بن خلدون أبو زكرياء بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر 1903.

ب – المراجع :

- إيف لاكوست العلامة ابن خلدون، بيروت، 1974.
- بوفيل الممالك الإسلامية في غرب افريقيا عبر الصحراء الكبرى، القاهرة 1968.
- رضا كحالة عمر معجم قبائل العرب القديمة والحديثة جـ 1 و2 و3، بيروت 1968.
- ماجدة كريمي العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني 668هـ – 759هـ / 1269 – 1358م. مرقون، الرباط. 1988.
- ماك كوك الرواية التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، البيضاء، 1395.
- محمد حجي الحركة الفكرية في عهد السعديين، جـ 2، فضالة، 1978.
- محمد المنوني ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، 1987.
- محمد القبلي مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولجة السعديين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد 3 – 4 1978.
- مصطفى أحمد أبو ضيف أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، البيضاء، 1982.
- عبد القادر جغلول مقدمات في تاريخ المغرب الوسيط بيروت، 1982.
- عبد الله العروي تاريخ المغرب محاولة في التركيب، بيروت، 1977.
- ش. أ. جوليان تاريخ افريقيا الشمالية، جـ 2 تونس 1983.

ج - المراجع الفرنسية

— Bergés Labrés Relations commerciales de Tlemsen avec le Soudan, R.O, Paris, 1853, pp. 237-248.

— Bassac : Sijilmassa traduction d'une manuscrit arabe, B.S.G. Alger 1930, pp. 223-244.

— Sijilmassa d'après les auteurs arabes, B.S.G Alger 1927, pp. 451-467.

— Note sur le Tafilalet et sur le Ziz, B.S.G Alger, 34ème année, 3ème trim. 1929.

— Bennani Abdelhaq Rapports et influences entre le royaume de Grenade et le Maghrib merinides XIIIème-XVème siècle, Bordeaux 1985.

— Braudel Fernand : Civilisation matérielle et capitalisme, Armand colin, Paris 1967.

— Brethes J.D. Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques, Casablanca.

— Brignon. J. et autres : Histoire du Maroc, Casablanca, 1967.

— Brunschvig : La berberie Orientale sous les Hafsides, Paris 1940.

— Glariand Louis : Les problèmes de l'eau au Tizimi et au Tafilalet, B.E.M, vol. V, N° 17, 1937, pp. 237-240.

— Claudette Vanacker : Géographie économique de l'Afrique du Nord, A.E.S.C, Mai-Juin, 1973, pp : 659-680.

— Colin S.G. La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, H., tome XIV, 1ère trim., 1932.

— : Origine arabe des grandes mouvements de population berbères dans le moyen Atlas, H., 1939.

— Collogue d'Erfoud : L'histoire du Sahara et des relations transahariennes entre le Maghreb et l'Ouest Africain du moyen âge à la fin de l'époque coloniale, Italia, 1986.

— Corvin Gisèle Aperçu sur les relations de la France avec le Maroc à la fin du moyen âge, H. 3ème et 4ème trim. 1957. pp. : 103-139.

— Defoucauld. Vicante. CH. : Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Paris, 1888.

— Delachapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental, H.T. XI, 1930, pp : 35-95.

— L'éxpédition de suetonius paulinus dans le Sud-Est du Maroc, H., Tome XIX, 1939.

— Deverdun Gaston Marrakech des origines à 1912, T.1, Rabat, 1959.

— Devisse Jean Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la méditerranée un essai sur la commerce Africain médievalee du X au XVI siècle, 1ère partie, R.H.S, N° 2-3 1972, pp : 42-73.

— 2ème partie, Paris, 1972, pp : 357-387.

— Dufourcq CH. E L'Espagne Catalane et le Maghrib aux 13ème et 14ème siècle, P.U.F, Paris, 1966.

— Une route de l'or au moyen âge de l'Afrique noire à Majorque par Sijilmassa et Tlemcen, bulletin d'information historique, N° 3, Janvier, Alger, 1966 pp : 9-19.

— Elfaiz Mohamed : Le problème de la salinité de terres dans les traites arabe d'agriculture, H.T., 1958, pp : 5-23.
— El Mellouki Mohamed Contribution à l'étude de l'histoire des villes médiévales au Maroc Sigilmassa des origines à 668 h 1269 J.C, Aix en provence 1985.
— Fagnan. E. : Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire Alger, 1924.
— Fatha Mohamed : Contribution à l'histoire de la ville marocaine des mérinides aux Wattassides XIV-XVème siècle, étude socio-urbaine, Bordeaux, 1989.
— Faure Roger : Le tafilalet étude d'un secteur traditionel d'irrigation, Paris, 1969.
— Fortin J.C. : La nappe phréatique salée du Tafilalet, R.H.T.E., N° 7, Rabat 1973.
— Gautier E.F. : Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1964
— : Le Sahara, Paris, 1913.
— Gendre P.F : Tafilalet, R.G.M, 3-4ème trim., Mai-Août, 1942, pp : 45-57.
— Heers Jacques : Le Sahara et le commerce, A.I.E.O, Alger, 1958, pp : 247-255.
— Ibn Alawam : Kitab Al filaha, Tome 1, Tunis, 1977.
— Ibn Fadl Allah Alomari Masalik al absar, traduction Gaudefroy Demombynes Paris, 1927.
— Joly F. : Etude sur le relief du Sud-Est, Rabat, 1962.
— Jouannet : Note sur les conditions actuelles de la vie au Tafilalet B.E.M, Vol. IVI, N° 23, 1959 : pp. 3-13.
— Kably Mohamed Société pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge, Paris, 1986.
— Khanboubi Ahmed : Les premiers Sultans merinides 1269-1331, Histoire politique et sociale, Paris, 1987.
— Ki-Zerbo. J. : Histoire de l'Afrique noire, Paris, 1978.
— Lavoix H. Catalogue des monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale Paris, 1891.
— Lessard J.M Sijilmassa la ville et ses relations commerciales au XI siècle d'après El Bekri, H.T, Vol. X, Fax. 1-2, 1969, pp. 5-34.
— Lewicki T. Sur le titre libyco-berbère, Etude Maghrébines et Soudanaise, Varsovie 1983, pp. : 32-97.
— Lambard Maurice : L'or musulman, A.E.S.C, 1947, pp. : 143-160.
— Malowist. M. : Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan, A.E.S.C, 1970, pp. 1630-1636.
— Marçais G. : Les arabes en bèrberie du XI au XIVème siècle, Paris 1913.
— Margat J. : Notes sur les cours d'eau pérennes dans les bassins du Ziz et Ghris, N.M., N° 6, 1955, pp. 22-25.
— : L'alimentation en eau potable des populations de la plaine de Tafilalet, N.M., N° 13, 1960.
— Note sur la morphologie de site de Sigilmassa, H., 1959, pp. 254-261.
— Mas Latrie Traité et document diverses concernant les relations des chrétiens et des arabes au moyen âge, Paris 1868.
— Massignon L. Le Maroc dans les premières années du XVI siècle, Alger 1906.
— Mauny R. Tableau géographique de l'Ouest Africain d'après les sources écrites la tradition et l'archéologie, Dakar, 1961.

— Découverte à Gao d'un fragment de potrie émaillée du moyen âge musulman., H., tome XXXIX, 3ème et 4ème trim. 1952.
— Meunié. J. et Ch. Alain : Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême Sud-Est Marocain, H., tome X I III, 1ère-2ème trim. 1956, pp. : 51-85.
— Meunié D.J. : Le Maroc saharien des origines à 1670, Paris, 1982.
— Abbar, cité royale du Tafilalet, H. 1959, pp. : 9-67.
— Hierarchie sociale au Maroc presaharien, H., 1er-2ème trim., 1958, pp : 239-266.
— Mezzine Larbi L Tafilalet contribution à l'histoire du Maroc au XVII et XVIIIème siècle, Rabat, 1987.
— Sur l'étymologie du toponyme Sijilmassa, H.T., Vol. XXII, 1984, pp. : 19-25.
— Monteil Ch. Problème du Soudan occidental, Juifs et Judaisés, H. 3ème 4ème trim. 1951, pp. : 265-295.
— Monira Chapoutot Ramadi : Réflexion sur l'industrie textile, A.E.S.C., Mai-Août, 1980, pp : 504-509.
— Munié P. Le problème de l'origine du palmier dattier, R.F., Vol. 29 N° 3 1974, pp 235-240.
— Nahum Slousch : Etude sur l'histoire des juifs au Maroc, A.M., Vol. VI Paris, 1906, pp. 1-167.
— Perès H. : Relations entre le Tafilalet et le Soudan à travers le Sahara du XII au XIV siècle, mélanges des orientalistes, 1937 pp : 410-414.
— Pero Leroy : Le palmier dattier au Maroc, Rabat 1959.
— Rosenberger. B. Les veilles exploitations minières et des centres métalurgiques du Maroc, essai de carte historique, 1ère partie, R.G.M., N° 17, 1970, pp.: 71-108.
— 2ème partie, R.G.M, N° 18, 1970, pp. : 59-102.
— Tamdult cité minière et caravanière présaharienne, IX-XIVème siècle, H., Vol. XI, 1970, pp. : 103-139.
— Saaidi M. : Contribution à la lutte contre le bayoud de palmier dattier, Dijon, 1979.
— Shatzmiller Maya : Islam de compagne et Islam de ville, Stusia Islamica Tome LI, 1980, pp. : 123-136.
— Terrasse H. Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat Frnaçais, Casablanca, 1950.
— Note sur les ruines de Sijilmassa, R.A, 3-4ème Trim. Alger, 1936.

3 - فهرس الموضوعات

رقم الإيداع القانوني 1997/1506

ر.د.م.ك 9981-826-35-9

مطبعة فضالة

زنقة ابن زيدون ـ المحمدية (المغرب)

الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)